

# النظرية في علم الاجتماع

النظرية الكلاسيكية

الأستاذ الدكتور

عبدالله محمد عبدالرحمن

أستاذ علم الاجتماع

كلية الآداب . جامعة الإسكندرية



دار المعرفة الجامعية

٤٠ من سورين - الكندرية - ت ٢٨٧٠١٦٣

٣٨٧ من قنال السويس - السكينة - ت ٥٩٧٣١٤٦

هام :

هذه النسخة من الكتاب مخصصة فقط  
للأشخاص الذين لا يستطيعون الحصول على  
النسخة الأصلية



[dz-sociologie.blogspot.com](http://dz-sociologie.blogspot.com)



<http://www.facebook.com/dz.sociologie>

# النظرية في علم الاجتماع

الأستاذ الدكتور  
عبد الله محمد عبد الرحمن  
أستاذ علم الاجتماع  
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٢٠٠٦

دار المعرفة الجامعية  
٢٠ شارع سويفت - القاهرة ١١٦٢ ٢٨٧  
٢٨٧ شارع السويس - السويس ٠١٢٣١٤٦





إهداء

إلى ابنتي العزيزة الدكتورة  
"وسام"

آملاً من الله سبحانه وتعالى  
أن يرعاها ويوفقها بمزيد  
من العلم والتوفيق والنجاح



## بسم الله الرحمن الرحيم

### مقدمة الكتاب

تعد دراسة النظرية السوسيولوجية من الدراسات والمجالات التي أعطى لها علماء الاجتماع والمتخصصين فيها المزيد من الوقت والجهد العلمي، إيماناً منهم بأهمية قضية التنظير لعلم الاجتماع، وما يثار حولها من نقاط للإلتقاء والتباين والاختلاف العلمي والفكري والأيدولوجي بصورة مستمرة، بالرغم من ظهور علم الاجتماع خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. كما تظهر قيمة النظرية السوسيولوجية، بإعتبارها الموجه العلمي للباحثين عند إجراء تحليلاتهم ودراساتهم النظرية المجردة أو الميدانية في نفس الوقت. ومن ثم، يمكن القول، بأن عملية الاهتمام بالنظرية السوسيولوجية في علم الاجتماع، يعد مطلباً أساسياً وجوهرياً، لكل من الباحث المبتدئ أو المتخصص في مجالات هذا العلم وفروعه المختلفة، إلا أن تحقيق هذا المطلب يحتاج لقدرات علمية وأكاديمية من جانب هؤلاء المتخصصين والباحثين، ولاسيما للتعرف على خصائص وطبيعة النظرية السوسيولوجية - كنظرية علمية - تستلزم دراستها رؤية تصورية ومنهجية بحثية بالغة الدقة.

ويعكس تحليل التراث العلمي للنظرية السوسيولوجية طبيعة الصعوبات المتعددة، التي تواجه القارئ العربي المبتدئ أو الباحث المتخصص، عندما يتناول دراسة النظرية أو مشكلة التنظير في علم الاجتماع. ويرجع ذلك حسب وجهة نظري، لوجود سببين رئيسيين وهما: أولاً، طبيعة التراث العلمي الذي كتب حول النظرية السوسيولوجية ومجالها كفرع متخصص في علم الاجتماع، وصعوبة فهم هذا التراث غالباً من قبل الباحثين والمتخصصين، لما يشمله من قضايا منهجية وعلمية معقدة، مما جعل دراسة النظرية السوسيولوجية تتسم عموماً بدرجات عالية من العمومية والتجريد. وثانياً، لما تتطلب عليه تحليلات المتخصصين العرب في مجال النظرية السوسيولوجية، وتعتمد على نقل التراث النظري لعلم الاجتماع بلغته المجردة والمترجمة في نفس الوقت، دون تبسيطه وتحليله بصورة تساعد الباحثين والمبتدئين على فهم علم الاجتماع ونظرياته. بالإضافة إلى ذلك، عدم إدراك وفهم بعض المتخصصين في مجال النظرية السوسيولوجية للقدرات المتواضعة للباحثين المبتدئين، عند دراستهم وتفسيرهم

لأسباب مجال من مجالات علم الاجتماع، ألا وهي النظرية السوسيولوجية مما أدى إلى الغموض واللبس وعدم وضوح مفاهيمها وقضاياها الأساسية بصورة عامة.

وإنطلاقاً من هذه القضية السابقة، جاء إهتمامى الأول، بوضع هذا الكتاب عن النظرية السوسيولوجية، بعد دراسة هذا المجال لأكثر من ثلاثين عاماً تقريباً، قضيت معظمها فى دراسة العديد من التخصصات العلمية والفروع الأكاديمية للصعبة فى مجال علم الاجتماع المختلفة. وبالطبع تطرقت فى كل منها لقضية النظرية أو التنظير السوسيولوجى، مما جعلنى أتناول هذا العمل، حول النظرية، بشئ يتلافى العديد من الصعوبات التى تكتنف عملية دراسة وفهم النظرية السوسيولوجية، سواء من جانب الطلاب المبتدئين فى مرحلة الليسانس، أو طلاب الدراسات العليا فى العالم العربى. خاصة، بعد أن قمت خلال هذه الفترة بعمليات استطلاع رأى مستمر لهؤلاء الطلاب أو الباحثين والمتخصصين والمنظرين أيضاً، فى مجال النظرية السوسيولوجية، حول أسباب صعوبة هذا المجال، وإعتبار دراسة للنظرية فى علم الاجتماع من القضايا المبهمة، التى تجعل من علم الاجتماع علماً مغترباً وصعباً على الفهم والاستيعاب والإدراك الذهنى، عند الباحثين فى مجالات وفروع علم الاجتماع كلية.

حقيقة، إن مشكلة التفكير النظرى والمجرد فى حد ذاته، تعتبر من المشكلات التى تواجه الطلاب والدارسين خلال دراساتهم لقضايا العلم السوسيولوجى النظرى أو تطبيقاته الإمبريقية الواقعية. ولذا، فإن الخطوة الأولى، التى يجب أن يهتم بها المتخصصون فى دراسة النظرية السوسيولوجية، أن يقوم بتبسيط هذه النظرية، ويجعلها موضوعاً قابلاً للفهم والاستيعاب. ولأسمى، أن النظرية فى حد ذاتها ماهى إلا مجرد وسيلة تساعدنا على الفهم وإعادة النظر فى سبل وطرائق التفكير ووسائله عند دراسة وتحليل الموضوعات والقضايا والمشكلات والظواهر السوسيولوجية التى تزداد تعقيداً بصورة مضطردة. ومن هذا المنطلق، نرى أن دراسة النظرية السوسيولوجية، تعتبر أمراً مفيداً وضرورياً، بشرط أن تكون لدينا القدرة على فهمها والتعلم منها. ومن ثم، يمكن القول، بأننا لا نستطيع بأى حال من الأحوال، الاستفادة من النظرية السوسيولوجية والتعلم منه بصورة جيدة، إلا إذا تم معرفتنا بها،

كنظرية علمية، وكيفية إستخدامها فى دراستنا النظرية لعلم الاجتماع، ومعرفة النتائج التى نتوصل إليها، من خلال بحوثنا ودراستنا الميدانية، التى توجه بأكملها لدراسة الواقع الفعلى لحياتنا الاجتماعية.

حقيقة، إن عملية تبسيط دراسة النظرية السوسيولوجية تعتبر من العمليات الشاقة، التى تحتاج إلى دراية كافية بطبيعة علم الاجتماع وموضوعاته وقضاياها أولاً، ثم الاطلاع على مضمون النظرية السوسيولوجية وأهدافها وتطورها وعمليات تحديثها بصورة مستمرة ثانياً. وهذا بالإضافة إلى ضرورة أن يلم الباحث المتخصص بنوعية التباين الفكرى والأيدىولوجى الذى تنطلق منه النظريات السوسيولوجية، ويعتبر ذلك الأساس الأول المحدد لقضايا النظرية والتتظير من جانب علمائها ومنظريها وهذا فى حد ذاته، يعد شيئاً جوهرياً عند تقييمنا للنظرية السوسيولوجية، المراد دراستها وتحليلها بصورة علمية وموضوعية. وعموماً، إن دراسة النظرية السوسيولوجية، لايمكن فهمها بمعزل عن مجموعة العوامل والظروف الفكرية والأيدىولوجية التى نشأت فيها حيث جاءت لتعبر عن واقع هذه العوامل، وتعكس عمليات تطور الفكر الإنسانى وتفسيره لقضاياها ومشكلاته المعقدة، وتساعد على فهم وتحليل الواقع الاجتماعى، ومحاولة تطويره وتحديثه، فى إطار المهام الوظيفية التى ينطلق منها علم الاجتماع ككل والنظرية السوسيولوجية بصورة خاصة.

على أية حال، لقد جاء إهتمامنا الأول لوضع هذا الكتاب عن النظرية السوسيولوجية. وخاصة النظريات الكلاسيكية (الجزء الأول) لأطمع بعد ذلك لوضع الجزء الثانى، مستقبلاً حول النظريات السوسيولوجية المعاصرة، بهدف تبسيط دراسة النظرية السوسيولوجية للقارئ العربى والباحث المتخصص فى علم الاجتماع، حتى يمكن التعرف على طبيعة أهم مجال من مجالات علم الاجتماع، الا وهو مجال النظرية السوسيولوجية، وحتى أسهم بالفعل فى إزالة مجموعة من الصعوبات بقدر الإمكان لدى هؤلاء الباحثين عند دراستهم السوسيولوجية، ولتوضيح قضايا النظرية والتتظير السوسيولوجى والمشكلات المرتبطة بها، وطبيعة العلاقة المتداخلة بين النظرية والموضوع والمنهج الذى يقوم عليهم علم الاجتماع بصورة عامة، وخاصة، بعد أن حقق مكانة علمية وأكاديمية مرموقة بين العلوم الاجتماعية والطبيعية فى نفس الوقت. وأصبحت تشيد بدراساته كافة الأوساط العلمية والسياسية، والذين يهتمون بدراسة قضايا



ومشكلات المجتمع الحديث، ويعتمدون بشك كبير على نتائج ودراسات وبحوث علماء الاجتماع، من الناحية النظرية والامبيريقية، وللتصدي للأثار السلبية التي تواجه المجتمع البشرى وتهدد أمنه واستقراره بصورة ملحوظة.

وجاء تقسيمنا لهذا الكتاب عن النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، ليشمل أربعة أبواب، تعكس كل منها عدد من النظريات التي تطورت بصورة تدريجية خلال القرنين الماضيين (التاسع عشر والعشرين). وتمثل حقبة تاريخية هامة في مجال دراسة علم الاجتماع وقضية التطوير السوسيولوجي عامة. وجاء الباب الأول عن "نشأة النظرية السوسيولوجية" وخصائصها، وليتضمن الفصول الثلاث الأول من الكتاب، حيث يشير الفصل الأول منهم "طبيعة العوامل المعهدة لظهور النظرية الكلاسيكية"، بغية أن نتعرف أولاً، على طبيعة مجموعة من العوامل الاجتماعية التي تمثلت في الثورات السياسية والصناعية والعلمية، والتي صاحبها مجموعة كبيرة من التغيرات الثقافية والاجتماعية. بالإضافة إلى، العوامل الفكرية التي عززت من عمليات ظهور وتطور نظرية علم الاجتماع، وتأسيسها عموماً للأفكار والمقولات الأساسية التي قامت عليها بالفعل هذه النظريات. أما الفصل الثاني، يركز على دراسة "طبيعة النظرية السوسيولوجية وحدودها"، وموضحاً أهم تعريفات النظرية وخصائصها، ومحاولة التمييز بينها وبين النظرية العلمية ككل، هذا بالإضافة إلى تحليل أهم الحدود والصعوبات التي لا تزال تواجه النظرية السوسيولوجية. ويشير الفصل الثالث لعملية تقييم النظرية السوسيولوجية وتصنيفها، ومحاولاً أن يحدد المحاولات المبكرة والمعاصرة التي سعت لتصنيف النظرية السوسيولوجية، وطرح عدد من المحكات والأرباع التي قامت عليها عملية التصنيف للنظريات السوسيولوجية.

أما الباب الثاني عن "النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية (الوضعية والعضوية)" فيشمل الفصول من الرابع حتى السادس، حيث تضمن الفصل الرابع إسهامات "لوجست كونت والنظرية الوضعية" موضحاً الاتجاه الفكري والأيدولوجي الذي إنطلقت منه هذه النظرية ونوعية المنهج الذي تبنته بالفعل، ونوعية الأهداف العامة لعلم الاجتماع كما حدده كونت خلال نظريته وأهم النظم الاجتماعية والسياسية التي ظهرت في المجتمع الصناعي الحديث. أما الفصل الخامس، فركز على تناول إحدى النظريات السوسيولوجية الوظيفية

الكلاسيكية، حيث يعرفون الأفكار "هربرت سبنسر" (النظرية العضوية) التي عكس فيها "سبنسر"، بوجه إهتماماته عن فكرة التطور العضوي والمماثلة البيولوجية، التي تعد من أهم الإسهامات في مجال النظرية السوسيولوجية ومنهجية البحث العلمي. هذا بالإضافة إلى الإشارة لأهم كتابات سبنسر النظرية حول المجتمع الصناعي الحديث، وأفكاره المميزة عن السياسة الاجتماعية والحريات العامة، التي لا تزال تثرى تطور النظرية السوسيولوجية في الوقت الحاضر. أما الفصل السادس فيعالج رؤية "إميل دوركايم" ونظرية التضامن الاجتماعي" تلك النظرية التي إصطبغت بأفكار وإسهامات دوركايم السوسيولوجية، والتي جاءت في إطار رؤيته الفكرية والأيدولوجية الواقعية للمجتمع الذي عاش فيه، ونوعية القضايا الأساسية لعلم الاجتماع الأكاديمي، وقواعد المنهج وكيفية إستخدامها في دراسة الظواهر الاجتماعية. علاوة على ذلك، نتناول فكرة التضامن الاجتماعي كنظرية سوسيولوجية بنائية وظيفية، في دراسة النظم والبناءات الاجتماعية والسياسية الواقعية.

وجاء الباب الثالث ليناقدس "النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية" الوظيفية المبكرة، ويشمل الفصول من السابع حتى التاسع. حيث ركز الفصل السابع على إسهامات "مكس فيبر" ونظرية الفعل الاجتماعي"، وخاصة الأسس الفكرية والأيدولوجية التي بلورت هذه النظرية، بإعتبارها إحدى النظريات السوسيولوجية الكلاسيكية المميزة، ولأسيما أن فيبر حرص على أن يربط بين نظريته (الفعل الاجتماعي) ومنهجيته السوسيولوجية (مقولة الفهم والمنهج العلمي). وهذا ما عالجه في دراسة قضايا الليبرالية والعقلانية، والأخلاق البروتستانتية ونشأة الرأسمالية، والتغير الاجتماعي والاقتصادي والتنظيمي عامة. أما الفصل الثامن عن "جورج سيمل" ونظرية التفاعل الاجتماعي"، التي طرحها سيمل ليربط بين علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي بإعتباره من الفروع المتخصصة، والتي سعى فيها لإبراز الأفكار النظرية السوسيولوجية للمدرسة الشكلية، ورؤيتها لعمليات التفاعل الاجتماعي والتفاني والاقتصاد في المجتمع الحديث. وركز الفصل التاسع للتعرف على إسهامات ريتشارد هابز في الاجتماع الإيطالي الكلاسيكي "ألفريد باريتو" ونظرية للتوازن الاجتماعي" ولأسيما، أن هذه النظرية جاءت من منطلق فكري وإيدولوجي يعكس الطابع المحافظ في أوروبا خلال النصف الأول من القرن العشرين، مع إضفاء الطابع النقدي، كما يظهر في مناقشات "باريتو" للنظرية لقضايا اللاتجانس والتميز

الاجتماعى، ومشكلتى القيمة والمنفعة الاقتصادية، وقضايا الصفوة والتغير الاجتماعى، وكيفية تحديد منهجية علمية مميزة لدراسة الظواهر الاجتماعية.

وأخيراً، ركز الباب الرابع والأخير من الكتاب، على معالجة "النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية" الماركسية والراديكالية النقدية" وليعكس وجهة نظر سوسيولوجية أخرى متغايرة على مجموعة النظريات السوسيولوجية البنائية الوظيفية المحافظة. وهو ما جاء فى الفصلين العاشر والحادى عشر، حيث تناول الفصل العاشر "إسهامات كارل ماركس ونظرية الصراع"، ومحاولاً أن يتناول المنطلقات الفكرية والأيدىولوجية التى قامت عليها نظرية الصراع، كنظرية سوسيولوجية وعلمية، لا يمكن إنكار تأثيرها على العقل البشرى والمجتمعات الإنسانية والعلوم الاجتماعية خلال القرن العشرين. وكيف وظفت النظرية الماركسية فى دراسة علم الاجتماع والظواهر الاجتماعية، وإلى أى حد طرحت أفكار المادية التاريخية أو نظرية الصراع الطبقي، مقولات جديدة حول قضايا المجتمع الحديث. مثل علاقة الدولة بالأفراد والبيروقراطية ونوعية الأيدىولوجية، ونظرية للقيمة والتطور الاقتصادى للرأسمالية الغربية، وإبراز الصراع الفكرى والسياسى الأيدىولوجى، فى إطار معالجات النظرية السوسيولوجية للماركسية. أما الفصل الأخير (الحادى عشر) فركز على دراسة إحدى المدارس السوسيولوجية المتميزة وهى "مدرسة فرانكفورت ونشأة النظرية النقدية التقليدية"، موضحاً الإطار الفكرى والأيدىولوجى الذى قامت عليه هذه النظرية ونوعية للنشأة التطورية لها، ورؤيتها عموماً لطبيعة المجتمع الحديث من زاوية نقدية مختلفة عن النظريات السوسيولوجية البنائية الوظيفية المحافظة، أو الماركسية ذات الطابع البروليتارى الدموى. وهذا بالفعل ما حاولنا معالجته فى رؤية رواد مدرسة فرانكفورت، لكل من علم الاجتماع والقضايا المتعددة، التى طرحتها أفكارهم حول تطوير نظرية سوسيولوجية جديدة، تتبنى مدخل النقد والتحليل لكافة النشاط الإنسانى من أجل تطوير حياة جديدة أفضل للإنسانية ككل.

عموماً، أرجو من الله سبحانه وتعالى، أن أكون قد وفقت فى تحقيق حلم ظل يراودنى منذ بداية إهتمامى الأولى فى علم الاجتماع، وأن أسعى لتبسيط مجال النظرية السوسيولوجية للقارئ والباحث والمتخصص العربى، حتى يتمكن بالفعل من فهم ودراسة وتحليل أحد وأهم مجالات علم الاجتماع

وتخصصاته المتميزة، ألا وهو مجال النظرية السوسيولوجية، الذي يعتبر جوهر ولب هذا العلم، وموضوع إهتمامات جميع المتخصصين فيه بصورة عامة. كما أرجو أن أكون وفقت في طرح الأفكار والقضايا التي ترتبط بالنظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، ولى أمل ورجاء من العلى القدير، أن يوفقنى فى الإنتهاء من معالجة النظرية السوسيولوجية المعاصرة فى الجزء الثانى بإذن الله تعالى. وأخيراً، وقبل الإنتهاء من هذه المقدمة، أتوجه بالشكر إلى الأخ الدكتور/ محمد البدوى لمناقشتائى المطولة والمثمرة معه أثناء إعدادى لهذا الكتاب، كما أشكر الأخ الأستاذ/ هانى خميس المعيد بقسم الاجتماع لمراجعته عملية الطباعة، كما أشكر الأخ العزيز الأستاذ/ أحمد هلالى الباحث بقسم الاجتماع على طباعة هذا العمل، والله الموفق للجميع ولعباده الصالحين.

دكتور/ عبدالله محمد عبدالرحمن

بيروت

عام ٢٠٠٠



## الباب الأول

نشأة النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية وخصائصها

الفصل الأول: العوامل الممهدة لظهور النظرية الكلاسيكية.

الفصل الثاني: طبيعة النظرية السوسيولوجية وحدودها.

الفصل الثالث: تقييم النظرية السوسيولوجية وتصنيفاتها.





## الفصل الأول

### العوامل الممهدة لظهور النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية

تمهيد:

(١) العوامل الاجتماعية وتطور النظرية السوسيولوجية.

١- الثورات السياسية.

٢- الثورة للصناعية (الرأسمالية).

٣- الثورة العلمية.

٤- التغيير الاجتماعي والثقافي.

(٢) العوامل الفكرية وتطور النظرية السوسيولوجية:

١- حركة الإصلاح وظهور علم الاجتماع للفرنسي.

٢- المثالية ونشأة على الاجتماع الألماني.

٣- النزعة التطورية وقيام علم الاجتماع البريطاني.

٤- الإتجاه العلمي وتأسيس علم الاجتماع الإيطالي.

مناقشة وتعقيب.

## تمهيد:

يكشف تحليل التراث السوسيولوجي لعلم الاجتماع والعلوم الاجتماعية عامة، عن مدى أهمية دراسة النظرية كموجه أساسي لجميع الجهود النظرية والميدانية للعاملين في هذه العلوم وفروعها المختلفة. وهذا ما ظهر بالفعل خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي (العشرين)، حيث اهتم بدراسة النظرية الاجتماعية (السوسيولوجية) الكثير من المتخصصين في علم الاجتماع، وما يطلق عليهم بالمنظرين لهذا العلم، خاصة وأنهم سعوا للكشف عن مضمون هذه النظرية وكيفية تطورها ونشأتها الأولى، إلى أن وصلت على ما هو عليه خلال السنوات الأخيرة. في نفس الوقت، يسعى علم الاجتماع وعلماءه والمتخصصون في فروع المتعددة لتحديث النظرية العلمية (السوسيولوجية)، ولا سيما أن من أهم متطلبات عملية التحديث والتطور لهذه النظرية، البحث عن ما هو جديد، حتى يمكن أن تلائم النظرية مجموعة الظواهر والمشكلات والقضايا التي تطرحها طبيعة الحياة الاجتماعية المضطردة التي توجد في المجتمع الحديث.

وقبل أن نعالج في الفصول القادمة، طبيعة النظرية السوسيولوجية وأهم خصائصها وسماتها وتعريفاتها وشروطها العامة، نهتم حالياً بمعالجة مجموعة من العوامل التي مهدت بالفعل لظهور النظرية السوسيولوجية التقليدية (الكلاسيكية)، حتى نعرض للقارئ المبتدئ أو الباحث المهتم بقضايا عملية التنظير السوسيولوجي، إلى أي حد أسهمت مجموعة من العوامل الاجتماعية والثقافية والفكرية في تطور النظريات السوسيولوجية التقليدية، والتي ظهرت على وجه الخصوص خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن الماضي (العشرين). حقيقة، إن معالجة هذه العوامل تعطي خلفية علمية سواء بوضوح عملية تشكيل وتكوين النظريات التقليدية السوسيولوجية، ونوعية المناخ العلمي والثقافي والفكري الذي أسهم في بلورة الملامح والسمات العامة والتي تقوم عليها الموجهات النظرية أو نظريات علم الاجتماع.

من ناحية أخرى، إن معالجة مثل هذه العوامل تسهم من الناحية الواقعية في بلورة المفاهيم والتصورات والأفكار العامة التي تتكون لدى المهتمين في

علم الاجتماع عامة، والمتخصصين فيه أيضاً، حول ماهية العلم، ونوعية تحليله للقضايا والمشكلات والظواهر المجتمعية التى تعتبر موضع إهتمامه الأولى. بالإضافة إلى ذلك، ان دراسة النظرية السوسيولوجية أو نظرية علم الاجتماع لاتزال تعتبر الموجه الأساسى لكثير من المنظرين فى العلوم الاجتماعية الأخرى، وهذا ما ينطبق على سبيل المثال، على علوم الاتصال والإعلام، التى لم تتبلور معالمها أو أشكالها وخصائصها العلمية، لأنها لم تتوصل إلى نظريات علمية محددة، كما توصل إليه علم الاجتماع وعلماءه فى الوقت الحاضر. حقيقة، لقد تبلورت معالم الكثير من النظريات العلمية للعديد من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية مثل علوم الاقتصاد والسياسة وعلم النفس والأنثروبولوجيا، إلا أن هذه العلوم مجتمعة لاتزال تعتمد على نظريات علم الاجتماع فى بلورة أفكارها ومعالجتها للقضايا والمشكلات العلمية التى تطرحها فى الواقع لدراستها وتحليلها. وهذا ما يعكس لنا بوضوح المرحلة العلمية المتطورة التى وصل إليها علم الاجتماع كعلم متخصص يهتم بدراسة المجتمع أو الحياة الاجتماعية ككل من الناحية الواقعية ويعالج قضاياها ومشكلاتها ويدركها بصورة مميزة، أو كما حدد ذلك عالم الاجتماع الفرنسى "إميل دوركايم" ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية على أنها حقائق As Facts.

على أية حال، سنعالج فى هذا الفصل عدد من العوامل الاجتماعية والثقافية والفكرية التى أدت إلى ظهور النظريات السوسيولوجية والتقليدية، وشكلت بالفعل ما يعرف بالموجهات النظرية لأحد وأهم العلوم الاجتماعية ككل. وخاصة، أن علم الاجتماع كعلم إنسانى لم يظهر من فراغ، بقدر ما ظهر نتيجة لتوافر مجموعة من المؤثرات الفكرية والاجتماعية التى أسهمت فى بلورة ملامح النظريات العلمية الاجتماعية. ومن أهم هذه العوامل الاجتماعية، نوعية الثورات السياسية التى اجتاحت أوروبا الغربية خلال القرون الثلاث الماضية، ومن أهمها الثورة الفرنسية التى تعتبر واحدة من أهم أحداث العصر أو المجتمع الحديث. وأيضاً، طبيعة الثورة الصناعية (الرأسمالية) التى نشأت فى بريطانيا، وما لبثت أن إنتشرت إلى جميع دول أوروبا الغربية والعالم ككل، هذا بالإضافة إلى طبيعة مجموعة من التغيرات

الاجتماعية والدينية وعمليات تطور وظهور الثورة العلمية التي عززت كثيراً من ملامح الحياة الأوروبية الغربية. من ناحية أخرى، جاءت العوامل الفكرية للإسهام في بلورة النظرية السوسيولوجية التقليدية وخاصة مجموعة العوامل التي أدت إلى ظهور علم الاجتماع كعلم متخصص في العديد من دول أوروبا الغربية مثل فرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، وألمانيا، وأيضاً روسيا أو الاتحاد السوفيتي (سابقاً).

### (١) العوامل الاجتماعية وتطور النظرية السوسيولوجية.

منذ أن وضع العالم الفرنسي "لويس كونت" القواعد الأساسية التي يقوم عليها علم الاجتماع، بإعتباره علماً وضعياً يهتم بدراسة وتحليل الواقع المتغير للحياة الاجتماعية والظواهر والمشكلات التي لازمت ظهور المجتمع الصناعي الحديث، نجد أن مهمة هذا العلم تتركز في عدة نقاط أو مهام أساسية تجعل من علم الاجتماع، علماً له مكانته المميزة بين العلوم الاجتماعية. وهذا بالفعل ما يتعرف عليه طلاب علم الاجتماع والدارسين والباحثين المتخصصين في هذا العلم على حد سواء. وبالطبع، إن ظهور النظرية السوسيولوجية، أو بالتحديد النظرية الموجه لعلم الاجتماع ككل، والتي تبلورت بصورة مميزة بعد تعدد فروع هذا العلم وتنوعت قضاياها ومشكلاته الأساسية والتي تزداد يوماً بعد يوم، لا يمكن أن تنفصل عن نشأة علم الاجتماع ذاته. خاصة، وإن أي علم متميز، لا بد وأن تتوفر فيه الخصائص والسمات والشروط للأزمة لقيام هذا العلم. وهذا ما يتبلور في أهمية وجود نظرية علمية مميزة ومتكاملة للخصائص والسمات التي يطلق عليها مصطلح النظرية العلمية.

وقبل الإشارة إلى طبيعة وخصائص وسمات وتعريفات ومفاهيم هذه النظرية السوسيولوجية التقليدية، التي سنعالجها خلال الفصل القادم، يجب أن نشير في هذا الفصل إلى عدد من العوامل الاجتماعية والثقافية التي لا يمكن أن نفصلها عن بعضها إلا لأجل الدراسة والتحليل والبحث العلمي، ولإعطاء خلفية مميزة للطلاب أو الباحث المهتم بالبدايات الأولى لظهور النظرية السوسيولوجية، والعوامل التي مهدت بالفعل لتكوين هذه النظرية وخاصة الفترات الأولى لظهور علم الاجتماع ذاته. على أية حال، يجب أن نؤكد حقيقة

هامة مؤداها: أن عملية عرض العوامل الاجتماعية والثقافية والفكرية التي سنعالجها حالياً من الصعب وضع حدود فاصلة بينها نظراً لتداخل هذه العوامل، أو ما يعرف بالعوامل السلبية، التي تتداخل مع بعضها في تشكيل الظواهر أو المشكلات أو القضايا، التي تقوم عليها أسس ومقومات علم الاجتماع ونظرياته ومناهجه وطرق وأساليب جمع بياناته المتعددة. وهذا بالفعل، ما أردنا التأكيد عليه حالياً، حتى لا يحدث لدى القارئ أى نوع من الغموض أو الخلط، عند دراسة هذه العوامل ومحاولة تبسيطها بصورة يسهل فهمها عند تناول النظرية السوسيولوجية ككل.

### ١- الثورات السياسية. Political Revolutions

يؤكد مؤرخو علم الاجتماع بأن البدايات الأولى لهذا العلم ظهرت نتيجة للتطورات والتغيرات المصاحبة لنشأة المجتمع الصناعى الحديث، وهذا ما أكد عليه بالفعل عالم الاجتماع الفرنسى "أوجست كونت" مؤسس علم الاجتماع، عندما حدد مهام علمه الجديد الفيزياء الاجتماعية، والذي أطلق عليه مصطلح علم الاجتماع. ولكن بالطبع إن ظهور علم الاجتماع والبدايات الأولى لبلورة ماهية نظرياته السوسيولوجية التقليدية ترجع إلى مجموعة من الأحداث الاجتماعية والسياسية والتاريخية التي مهدت بدورها لظهور المجتمع الصناعى ذاته. ومن أهم هذه الأحداث المجتمعية، ظهور الثورات السياسية التي اجتاحت أوروبا الغربية، وجاءت على رأسها الثورة الفرنسية التي بدأت عام ١٧٨٩، والتي تعتبر كما وصفها كثير من المؤرخين لتاريخ أوروبا الحديث والعصر الحديث، بأنها أكبر حدث سياسى وإجتماعى فى العصر الحديث بصورة عامة.

وتكمن أهمية الثورة الفرنسية نتيجة لما أحدثته هذه الثورة، كحدث إجتماعى وسياسى وإقتصادى وثقافى عامة على طبيعة العلاقات الاجتماعية والسياسية بين الجماعات والنظم الاجتماعية ككل، فلقد عملت هذه الثورة للتنهيد لإعلان حقوق الإنسان ومن أهمها حق العمل، والتعليم، والانتخاب (التصويت) أو تغيير مفهوم الحرية بصورة عامة وشاملة. كما عملت هذه الثورة على تغيير الأيديولوجيات القومية والمجتمعية والأوروبية والعالمية بعد ذلك. ولاسيما، عند

تحديد العلاقة بين الحكام والمحكومين أو بين أنصار السلطة السياسية والدينية في نفس الوقت وبالطبع، لم تأت هذه الثورة من فراغ بقدر ما جاءت نتيجة لمجموعة من الإرهاصات الفكرية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي مهدت لها كثيراً من الآراء والأفكار العامة التي طرحت خلال عصر النهضة أو التنوير أو الإصلاح ولاسيما في فرنسا وأوروبا الغربية.

على أية حال، نجد في السنوات الأخيرة ظهور العديد من المنظرين لعلم الاجتماع ونظرياته المتعددة، أو من يمكن وصفهم بمؤرخي النظرية السوسيولوجية، الذين يؤكدون من الناحية التاريخية بأن الثورة الفرنسية وغيرها من الثورات السياسية التي اجتاحت أوروبا الفرنسية وغيرها من الدول المتقدمة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أحدثت أثراً متعدد على نشأة علم الاجتماع وتطوره، ويشمل ذلك نظرياته العامة الموجة لدراساته النظرية والميدانية في نفس الوقت. وجاءت معظم تحليلات علماء النظرية السوسيولوجية لتؤكد بوجود مجموعتين من النتائج والآثار التي أثرت بهما الثورة الفرنسية وغيرها من الثورات السياسية على الحياة الأوروبية بصورة عامة. وتتضمن هاتين المجموعتين نوعين متميزين من النتائج وهما، للنتائج الإيجابية والنتائج السلبية في نفس الوقت.

ويمكن الإشارة لمجموعة النتائج الإيجابية أولاً، التي تركتها الثورة الفرنسية وغيرها من الثورات السياسية على الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية الأوروبية، ويشمل ذلك إعلان حقوق الإنسان سواء كان ذلك ممثلاً في حق الملكية، والعمل، وممارسة الحياة السياسية، والقانونية وغيرها. كما أثرت الثورة الفرنسية على إلغاء فكرة الطبقة الدينية ومحت كثيراً من الآثار السلبية لما يعرف بعصر الظلام أو العصور الوسطى الأوروبية والسيطرة الكنسية وبطشها على الأفراد والجماعات والمجتمعات وحريتهم بمفهومها العام. كما أسهمت الثورة الفرنسية بتحديث العديد من العادات والتقاليد والأعراف والقوانين والثقافات والسلوكيات العامة والجمعية، ولحدثت ثورة اجتماعية شاملة في نوعية البناءات والنظم الاجتماعية الموجودة. الأمر، الذي أدى إلى تغيير نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتغيير أساليب المعيشة

وفرص الحياة وأحدثت الكثير من عمليات التطور والتغير الاجتماعي.

من ناحية أخرى، لقد أحدثت الثورة الفرنسية والثورات السياسية الغربية خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر مجموعة من الآثار والنتائج السلبية، التي مهدت لنشأة علم الاجتماع ونظرياته السوسيولوجية العامة، وكانت هذه الآثار موضع حرص واهتمام علماء الاجتماع الغربيين الذين أسسوا علم الاجتماع المحافظ Conservative Sociology بعد ذلك، وأكدوا على ضرورة السعي للمحافظة على البناءات والنظم والعلاقات والسلوكيات الاجتماعية التي أصابها الكثير من مظاهر التصدع والتفكك والإنهيار، نتيجة لمجموعة الحريات الفردية والجمعية التي أعطيت للأفراد والجماعات وأهدرت كثيراً من مقومات الحياة الاجتماعية التقليدية والتي تهدد بإنهيار المجتمع الإنساني، خاصة لأن هناك العديد من المشكلات والقضايا السلبية التي لازمت لتطور الحياة الاجتماعية في العصر الحديث. بايجاز، لقد ظهرت هذه المشكلات كأحد القضايا الموجه لكثير من علماء الاجتماع والمنظرين السوسيولوجيين لهذا العلم، ولا سيما عند تناولهم لهذه المشكلات على المستوى النظري والميداني (الامبيريقى) في نفس الوقت.

## ٢- الثورة الصناعية (الرأسمالية) Industrial Revolution (Capitalism)

مع أواخر القرن الثامن عشر وبدايات الأولى للقرن التاسع عشر ظهرت في أوروبا الغربية ولا سيما في بريطانيا المظاهر الأولية لثورة اقتصادية وصناعية شاملة، أحدثت تغيرات هيكلية في النشاط الاقتصادي (الانتاجي) وبنية النظام الاقتصادي ومؤسساته، وأحدثت العديد من التغيرات التي تعتبر العوامل المؤسسة لظهور الرأسمالية الغربية وانتشارها في العالم بأسره في الوقت الراهن. حقيقة، لقد جاءت تحليلات الكثير من رواد علم الاجتماع الأوائل أو من يعتبرون من مؤسسي هذا العلم وأفكاره وقضايا ومشكلاته وظواهره المختلفة، لتعكس لنا بوضوح بالدراسة والتحليل والتفسير الآثار الناتجة عن حدوث الثورة الصناعية ونشأة الرأسمالية الغربية بصورة عامة. ربما كانت تصورات وأفكار "آدم سميث" A.Smith وكتابه المميز ثروة



الأمم The Wealth of Nations، الإطار الفكرى والأيدىولوجى الاقتصادى لظهور الثورة الصناعىة ككل بعد ذلك، إلا أن إهتمامات علماء الاجتماع الأوائل كانت بمثابة المفسر الأساسى للأثار والنتائج العامة التى تركتها الثورة الصناعىة وما ترتب عليها من نشأة للرأسمالىة ككل.

فلقد جاءت تحليلات عدد من رواد علم الاجتماع من أمثال "كارل ماركس" K.Marx، و"ماكس فيبر" M.Weber، و"إميل دور كايم" E.Durkheim، و"جورج سيمل" G.Simmel، لتركز بصورة أساسىة على التغيرات المصاحبة للثورة الصناعىة، ومن أهم هذه التغيرات، دراسة الآثار الناتجة عن تحول الطبقات العاملة الزراعىة، وتركها العمل فى القطاع الزراعى إلى العمل فى المؤسسات والشركات الصناعىة الجديدة التى ظهرت فى المدن أو فى أطراف المجتمعات الريفىة أو شبه الحضرية. كما ركزت تحليلات هؤلاء العلماء على دراسة الطبقة العاملة الصناعىة التى ظهرت لأول مرة فى أوروبا الغربىة والنتائج المترتبة على ظهورها مثل مشكلة الأجور، وظروف العمل، وطبيعة الإنتاج والأرباح، والعلاقات الإنسانىة، ومشكلات هذه الطبقة مع الإدارة أو أصحاب رأس المال، وغير ذلك من مشكلات متعددة، كانت موضع إهتمام العديد من الرواد الأوائل لعلم الاجتماع، بل كانت بمثابة الشغل الشاغل للموجهات النظرىة والأيدىولوجىة عامة، كما جاءت فى تحليلات "كارل ماركس" حول الطبقة العمالىة أو البروليتارىا.

كما كانت عملية ظهور المصانع أو الشركات الصناعىة كمؤسسات للعمل والإنتاج موضع إهتمام للعديد من رواد علم الاجتماع أو من المهتمين بفروعه المتخصصة مثل علم الاجتماع الصناعى، أو علم الاجتماع الاقتصادى على سبيل المثال. فلقد ركزت الكثير من تحليلات علماء الاجتماع ونظرياتهم حول قضايا الإنتاج، والتنمية التكنولوجىة، وتطور الظروف الفيزيقية وتحسينها، وعلاقات العمل، والإنتاج والتوزيع والاستهلاك. كما جاءت أيضاً عملية ظهور الأسواق Markets كعملية مصاحبة للإنتاج الوفير، وما ترتب عليها من ظهور فئة للتجار الرأسماليه الصناعىة، لتلعب دوراً أساسياً فى النشاط التجارى وحركة التوزيع للإنتاج، الذى تم إنتاجه عموماً ويحتاج إلى



العديد من الشركات ومؤسسات الحكومات مثل شركات التوزيع، والإعلان، والتسويق وغيرها.

من ناحية أخرى، لقد اهتمت النظرية السوسيولوجية بدراسة العديد من القضايا والمشكلات المصاحبة لعملية ظهور المصنع ونشأة للرأسمالية الصناعية، والتي تمثلت في ظهور الطبقات العمالية وما صاحبها من تطورات وعلاقات العمل والانتاج، أو ما يعرف في أوروبا بالحركات العمالية Labor Movements، التي غيرت كثيراً من وضع الطبقات العمالية وعلاقتها بالطبقات الاجتماعية الأخرى ولاسيما الطبقات الرأسمالية. وهذا بالإضافة إلى ظهور الحركات الراديكالية التي تزعمتها النزعات الاشتراكية أو النقدية سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي. كما سعت هذه الحركات النقدية أو ظهور الطبقات العمالية إلى تكوين أحزابها السياسية، والتي غيرت كثيراً من أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وكونت لها أيديولوجيات مميزة. فبعض من هذه الأيديولوجيات جاءت في صورة متطرفة جداً أو لصالح الطبقات العمالية كما جاء ذلك في تصورات الماركسية تأييدها لطبقة البروليتاريا، أو التحليلات الاشتراكية التي ظهرت في فرنسا وغيرها من دول أوروبا الغربية والتي تناصر الاتحادات العمالية الاشتراكية ذات الطابع الغربي المميز، بإيجاز، لقد أثرت الثورة الصناعية على نشأة وظهور الرأسمالية الغربية وأصبحت كل منهما من أهم الموجهات الأساسية للنظريات السوسيولوجية التقليدية، والتي جاءت في أفكار رواد هذه النظريات الأوائل، وكانت كل من الثورة الصناعية والرأسمالية، هي موضع الاهتمام الأول للاطار الأيديولوجي العام لعلم الاجتماع الكلاسيكي وعلماءه بصفة عامة.

### ٣- الثورة العلمية The Scientific Revolution

جاءت نشأة علم الاجتماع في أوروبا الغربية خلال البدايات الأولى من القرن الثامن عشر، لتعكس مرحلة تاريخية هامة، ظهرت في هذه المنطقة من العالم، نتيجة لمجموعة من التطورات والأحداث العلمية، التي أدت في مجملها إلى حدوث الثورة الصناعية ونشأة الرأسمالية كنظام اجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافي بصورة عامة. كما جاءت تحليلات العديد من رواد علم

الاجتماع، ولاسيما من قاموا بتأسيس هذا العلم بتوجيه قضايا ومشكلاته وظواهره، ودراستها وتحليلها بصورة علمية وواقعية. أو بمعنى آخر، لقد تبناوا النموذج العلمى، فى تفسير الظواهر والمشكلات الاجتماعية، وخاصة بعد ان قطعت العلوم الطبيعية مثل الكيمياء، والبيولوجيا، والفلك، والطبيعة والرياضيات، والهندسة، والطب شوطاً كبيراً من حيث النظريات والمناهج وطرق الدراسة والتحليل التى تتبناها هذه العلوم فى تفسير البيئة أو العالم الخارجى.

ومن ثم، يمكن القول أن نشأة علم الاجتماع ونظرياته السوسيولوجية، كما جاءت فى تحليلات "أوجست كونت" للتطورية أو تصورات "هربرت سبنسر" العضوية (البيولوجية)، أو تفسيرات "نور كايم" الواقعية أو غيرهم من العلماء لتركز على ضرورة تبنى الأسلوب والمنهج العلمى فى دراسة وتحليل المشكلات والظواهر الاجتماعية التى توجد فى الواقع، والعمل على استخدام التفسيرات العلمية التى تقوم على الملاحظة والتجربة، واستخدام العقل فى نقل الحقائق والأشياء التى توجد فى الواقع. كما نجد أيضاً، إن تصورات "أوجست كونت" (لوضعية الكلاسيكية)، قد تبنت التحليلات العلمية وذلك عندما أكد هذا العالم على ضرورة اعتبار علم الاجتماع وتسميته أولاً بالفيزياء الاجتماعية، حتى يمكن استخدام الأساليب والطرق العلمية فى دراسة أصعب المشكلات والعلاقات المتداخلة بين الإنسان والأفراد والجماعات البشرية. علاوة على ذلك، لقد اهتم عدد من العلماء الكلاسيكيين والمنظرين عموماً لعلم الاجتماع من أمثال "ماكس فيبر"، عندما عقد الكثير من المقارنات والمماثلة بين مناهج علم الاجتماع، التى يجب أن يتبناها العلماء والعديد من العلوم الطبيعية الأخرى ولاسيما علوم الأحياء والكيمياء، وهناك الكثير من المناظرات العلمية التى ظهرت حديثاً فى الأوساط الأكاديمية السوسيولوجية، لتعكس لنا هذه الحقائق التى ظهرت فى السنوات الأخيرة.

#### ٤- التغيير الاجتماعى والثقافى Culture & Social Change

تعتبر قضية التغيير الاجتماعى والثقافى من القضايا الهامة التى يركز عليها علماء الاجتماع عند تناولهم مشكلات المجتمع الصناعى الحديث،

ولاسيما أن جوهر علم الاجتماع والعوامل المشكلة لظهوره وتطوره ترتبط بالدرجة الأولى بمجموعة التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ككل، التي حدثت خلال العصر الحديث. ومن ثم يمكن القول، بأن الأحداث الاجتماعية والثقافية كانت بمثابة العامل الأساسي في توجيه الأفكار النظرية السوسيولوجية لعلماء الاجتماع والمنظرين عموماً لهذا العلم، وتحديد أيديولوجياته وأفكاره الأساسية. كما جاءت هذه الأحداث بمثابة العوامل الأولى التي توجه النظرية السوسيولوجية بصورة مستمرة ودراستها وتحليلها وتفسيرها عموماً، مجموعة للتغيرات والآثار والنتائج المترتبة أو الناتجة من التغيرات الاجتماعية والثقافية الذي بدأ يأخذ معدلات سريعة في التطور خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين.

ومن أهم الأحداث الاجتماعية والثقافية التي أسهمت في تطور النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية بل في تأسيسها وتطورها، وظهور الطبقات الاجتماعية العمالية والرأسمالية، التي لم تكن موجودة خلال العصور الوسطى، والتي أخذت أشكالاً وأبعاداً وأنماطاً من العلاقات فيما بينها، ولدت بصورة عامة إلى تغير البناءات والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأصبحت جميعها تتشكل حسب طبيعة التغيرات الأيديولوجية التي توجه في المجتمع الصناعي الحديث. كما ظهرت أيضاً العديد من التغيرات على البناءات والنظم التقليدية مثل للنظام الأسري أو العائلي على سبيل المثال. وجاء ذلك التغير نتيجة لوجود نظام المصنع، كمؤسسة اقتصادية وإنتاجية جديدة، عملت على تغير نمط العلاقات الاجتماعية الأسرية، مثل تغير العلاقات بين الزوج والزوجة أو بينهما وبين الأبناء. وجاء ذلك أيضاً نتيجة خروج المرأة للعمل وما يترتب عليها من تغيرات اجتماعية وثقافية متعددة لاتزال موضع للجدل والنقاش حتى الوقت الحاضر.

كما جاءت التغيرات الاجتماعية والثقافية الأخرى، التي لاتزال توجه النظرية السوسيولوجية بالعديد من الأفكار الجديدة مثل ظهور الاشتراكية، Socialism كنظام اجتماعي واقتصادي وسياسي، وكحل للعديد من المشكلات التي ظهرت في المجتمع الصناعي الحديث. وأصبحت الاشتراكية موضع

اهتمام لكثير من المنظرين فى علم الاجتماع، ولاسيما المدرسة الفرنسية من أمثال "أوجست كونت"، "دوركايم"، ذلك من خلال تأثيرهم بإستادهم الأول وهو "سان سيمون" S.Simon، مؤسس النزعة الاشتراكية الأوروبية بصورة عامة والفرنسية على وجه الخصوص. كما جاءت الاشتراكية، كرد فعل لفشل الاتجاهات الماركسية كأيدىولوجية سياسية واجتماعية تناصر الطبقات العمالية على حساب الطبقات الحاكمة الرأسمالية. وربما اتخذ "ماكس فيبر" عالم الاجتماع الألماني وجهات نظر مغايرة لكل من الاشتراكية، والماركسية (الشيوعية)، وذلك نظراً لفشل مثل هذه السياسات فى حل المشكلات والقضايا والظواهر الاجتماعية السلبية المصاحبة للتغير أو التحول نحو المجتمعات الصناعية. هذا بالإضافة، إلى أن كثيراً من تحليلات رواد النظرية السوسيولوجية التقليدية عكست عموماً الكثير من التناقضات التى كانت توجد فى النظم والمجتمعات الرأسمالية ذاتها وهذا ما جاء فى تحليلات "ماكس فيبر" أو "إميل دوركايم" أو غيره من علماء الكلاسيكيين، والذين أشاروا إلى أهمية تحديث الرأسمالية كنظام اجتماعى أيدىولوجى للحياة الغربية الرأسمالية بصورة عامة.

فى نفس الوقت، جاءت عملية التحضر Urbanization، من أهم التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى لاتزال تحدث تغيرات متميزة فى مكونات النظرية السوسيولوجية المعاصرة، ولاسيما أن عملية التحضر لايمكن تفسيرها بصورة مجردة أو بعيدة عن الواقع، بقدر ما لها من موجهات نظرية وأيدىولوجية متطورة، والتى حدثت كثير من أيدىولوجياتها الاشتراكية نحو الرأسمالية والعمل على تبنى سياسات للتحضر والتحديث سواء فى إنشاء المدن أو المؤسسات أو التخطيط العمرانى أو البيئى (الأيدىولوجى) بصورة عامة. فمنذ أن ظهر علم الاجتماع حتى الوقت الحاضر، هو يدرس طبيعة تحول المجتمعات الريفية إلى مجتمعات حضرية تعيش فى المدن وتعمل فى المصانع الجديدة أو المؤسسات والشركات التى تخدم قطاعات كبيرة من السكان. كما اهتم العديد من العلماء بدراسة التغيرات التى تصاحب عمليات التحضر مثل ارتفاع الأجور والدخول الجديدة، والأسعار، والإنتاج، ووجود فرص للعمل والتوظيف، وعمليات التكيف عموماً مع الحياة الحضرية الجديدة.

فى نفس الوقت، لاتزال مشكلات التحضر وما يصاحبها من عمليات  
ببنية (أيكولوجية) جديدة مثل التلوث والضوضاء، وزيادة السكان، وإزدحام  
الشوارع، وإنتشار الجريمة والاحتراف بمختلف أنواعه وأشكاله، بمثابة  
مجموعة من القضايا والمشكلات التى لاتزال موضع اهتمام مضطرد  
لاهتمامات علماء الاجتماع والمتخصصين فى فروعته المختلفة، والتى يطلق  
عليها عموماً بمشكلات التحضر Urbanization Problems. ولقد جاءت هذه  
المشكلات، بمثابة الاطار للنظرى السوسيولوجى أو للعديد من النظريات  
الاجتماعية التقليدية، التى ظهرت خلال القرن التاسع عشر أو بداية القرن  
الماضى (العشرين). وهذا ما تمثل على سبيل المثال، فى تحليلات علماء  
مدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع الحضرى، وأفكار نظرية "تايلور" والاداره  
العلمية كما ظهر ذلك فى علم الاجتماع الصناعى على سبيل المثال.

حقيقة، إن دراسة مجموعة العوامل والتغيرات الاجتماعية والثقافية التى  
صاحبت عملية تطور النظرية السوسيولوجية، أو التى لاتزال تشكلها وتطورها  
بصورة مستمرة، لايمكن أن تتجاهل حقيقة التغيرات التى حدثت على الحياة الدينية  
Religions Life، والتى لاتقل أهمية عن التغيرات التى صاحبت عمليات التصنيع  
أو الثورة الصناعية والسياسية بصورة عامة. فلقد ركز الكثير من رواد النظرية  
السوسيولوجية أو علم الاجتماع ككل، على مجموعة التغيرات الدينية أو الحياة  
الدينية للأفراد والجماعات والمجتمعات فى العصر الحديث. ولاسيما، أن نمط  
السيطرة الدينية على هذا العصر قد اختلف كثيراً عن ما كانت عليه الحياة  
والمؤثرات الدينية فى العصور الوسطى للمسيحية، والتى تركت أثراً سلبية على  
حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات الأوروبية على وجه الخصوص. فى نفس  
الوقت، لقد اهتم العديد من علماء الاجتماع من أمثال "دوركهايم"، و"سبنسر"،  
و"فير"، بدراسة النواحي الأخلاقية والدينية والتغيرات الاجتماعية، التى حدثت  
نتيجة لعمليات التحديث والتحول نحو المجتمعات الصناعية الحديثة. وربما نجى  
تحليلات "ماكس فيبر" عالم الاجتماع الألماني، عن الأديان السماوية والارضية،  
نموذجاً مميزاً وفريداً فى نفس الوقت، عن الدور الذى تلعبه الأديان فى حياة  
الأفراد والشعوب والمجتمعات، وتشكل أساليب الحياة الاجتماعية والاقتصادية  
والسياسية بصورة عامة. وبإيجاز، كانت دراسة عملية التغير فى الدين والأخلاق

جزءاً أساسياً من مكونات النظرية السوسيولوجية التقليدية فى علم الاجتماع الكلاسيكى.

## (٢) العوامل الفكرية وتطور النظرية السوسيولوجية.

لا يزال هناك جدل علمى واسع النطاق بين المنظرين للعلوم الاجتماعية، والداعية لتوجيه هذه العلوم نحو الدراسات التطبيقية (الميدانية)، وحول طبيعة الموجهات النظرية التى توجه هذه العلوم، أو مجموعة الأفكار والأطر العامة، التى يجب أن تتبناها عند مناقشتها وتحليلها وتفسيرها للقضايا والمشكلات والظواهر التى يتم معالجتها فى المجتمع الحديث. ويتبلور مضمون هذا الجدل أو النقاش العلمى بصورة مميزة فى علم الاجتماع، بين المهتمين بدراسة النظرية السوسيولوجية - كإطار موجه لهذا العلم - وبين المتخصصين فى الدراسات الميدانية أو أنصار الاتجاه التطبيقى لعلم الاجتماع، حول أحقية وأولويات الاهتمام من جانب علماء الاجتماع، عندما يسعون لكل من التنظير أو التطبيق الميدانى وعند دراسة المشكلات الواقعية التى تتقادم بصورة مضطردة فى الوقت الحالى.

وإن كان من الصعب علينا أن نحدد للقارئ حالياً، طبيعة حسم الخلاف والجدل العلمى بين المهتمين بالنظرية السوسيولوجية من ناحية، وأنصار الجانب التطبيقى الخالص لعلم الاجتماع من ناحية أخرى. إلا أننا نلاحظ من خلال تحليلنا للتراث العلمى (النظري والتطبيقاتى) لعلم الاجتماع كعلم متخصص ومتميز بين العلوم الاجتماعية، أن طبيعة تقدم هذا العلم تكمن فى تركيزه على ضرورة الاهتمام بالأطر النظرية والأفكار العامة التى توجه أبحاث العلماء ودراساتهم النظرية والتطبيقية معاً بصورة متلازمة. ولأسباب، أن الاهتمام بالجانب التنظيرى (استخدام النظريات السوسيولوجية) عند مناقشة القضايا والأفكار أو الدراسات النظرية، تصقل عموماً، من نمط التغير والتعقل والتفسير، والتحليل، والنقد والتعديل، لمجموعة هذه الأفكار أو الفروض أو التصورات التى يطرحها المتخصصون عامة فى علم الاجتماع وفروعه المختلفة.

من ناحية أخرى، أن من طبيعة النظرية السوسيولوجية وشروطها العامة، ضرورة خضوعها للنقد والتعديل والتطور بصورة مستمرة، وهذا ما يحدث نتيجة التحقق من الفروض النظرية واختبارها من الناحية الواقعية، أو عند معالجة الظواهر والشواهد التي توجد بالفعل في الواقع. وهذا ما يكمل عموماً في مجموعة النتائج العامة والتوصيات الميدانية التي يخلص إليها الباحثين عند إجراء بحوثهم ودراساتهم الميدانية التي تعزز بدورها عملية تطور النظرية السوسيولوجية.

بإيجاز، أن عملية تطوير النظرية السوسيولوجية. كما أشرنا سابقاً لابد أن تعتمد على كل من جهود المهتمين أو المنظرين لعلم الاجتماع ونظرياته السوسيولوجية وأيضاً جهود أنصار النزعة للتطبيقية لعلم الاجتماع لأنه من الصعب الفصل بين العلاقة بين النظرية السوسيولوجية، وكيفية تطبيقها عند دراسة الواقع الاجتماعي. وهذا ما يجعل عموماً في السنوات الأخيرة وجود اتجاهات قوية نحو الاستفادة عموماً من نظريات علم الاجتماع ونتائج تطبيقاته، وذلك من قبل الكثير من المهتمين سواء بالعلوم الاجتماعية الأخرى أو العلوم الطبيعية في نفس الوقت.

على أية حال، توجد مجموعة من العوامل الفكرية التي مهدت لتطور النظرية السوسيولوجية، وأسهمت عموماً في تحديث وبلورة قضايا ومشكلات علم الاجتماع ذاته. وخاصة أن هذا العلم لم يأت من فراغ بقدر ما جاء نتيجة للعديد من التغيرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي بدأت منذ المراحل الأولى لعصر النهضة أو الإصلاح أو التنوير الذي ظهر في أوروبا وأدى إلى إنتهاء مرحلة عصور الظلام أو ما يعرف بعصور السيطرة الكنسية والعصور الوسطى الأوروبية، كما جاءت هذه العوامل لتعكس طبيعة العلاقة المتبادلة بين البيئة (الخارجية)، وتطور العلوم سواء أكانت علمية تطبيقية أم اجتماعية إنسانية في نفس الوقت.



## ١- حركة الإصلاح وظهور علم الاجتماع الفرنسي:

### أولاً - حركة الإصلاح والتنوير:

يعكس تحليل التراث العلمى لتطور النظرية السوسيولوجية، ان نشأة علم الاجتماع التى بدأت فى أوربا الغربية عامة وخاصة فى فرنسا كأحد الدول الرأسمالية، التى ظهرت فى أكبر حدث عالمى خلال العصر الحديث وهو الثورة الفرنسية السياسية، كما أشرنا إلى ذلك. ولكن هذه الثورة لم تظهر من فراغ بقدر ما مهدت لها العديد من أفكار الفلاسفة أو من يسمون برواد عصر الإصلاح أو التنوير Enlightenment or Reform Age، من أمثال "تشارلز مونتسكيو" C.Montesquieu (١٦٨٩-١٧٥٥)، و"جان جاك روسو" G.Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨)، وغيرهم آخرون من أثروا بأفكارهم فى تطوير الفكر الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والثقافى الأوروبى والعالمى عامة. ومن ثم، يمكن القول بأن عصر التنوير وعلماءه ومفكره وفلاسفته، وأسهموا بصورة مباشرة وغير مباشرة فى تطور علم الاجتماع عامة ونظرياته وأفكاره وأطره الأيديولوجية ككل.

فى نفس الوقت، لقد أسهمت حركة الإصلاح أو التنوير الفرنسية، أو أيضاً من ينتمون إلى حركة التنوير الأوربية عامة مثل الفلاسفة البريطانيين من أمثال "توماس هوبز" T.Hobbes، أو "جون لوك" J.Lock أو من يسمون بمفكرى عصر النهضة والإصلاح خلال القرن السابع عشر الميلادى، والذين أحيوا الحركة الفكرية والثقافية والعلمية، وركزوا على ضرورة استخدام العقل والخبرة والملاحظة والتفسير العلمى، عند دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية أو القضايا الفكرية التى تشغل الفكر والعقل الإنسانى بصورة عامة. فى نفس الوقت، لقد عززت أفكار عصر التنوير أو الإصلاح الأوروبى من عملية نقل النموذج العلمى، الذى تبنته بالفعل العديد من العلوم الطبيعية الأخرى ولاسيما البيولوجيا، والكيمياء، والفلك، والطب، والرياضيات، والتى قد قطعت شوطاً كبيراً فى مجال نظرياتها العامة أو تطبيقاتها ومناهجها وطرق دراستها وتحليلها للظواهر التى تهتم بها.



وكما يرى بعض المحللين لتطور النظرية السوسيولوجية التقليدية بأنها تأثرت بمفكرى عصر التنوير، ولاسيما من نادوا بضرورة تبني النموذج العلمى العقلانى Rational والذي يركز على أن العالم الخارجى تحكمه مجموعة من القوانين الطبيعية Natural Laws، كما لايمكن فهم هذا العالم أو تفسيره، إلا عن طريق استخدام التفسيرات العلمية التى تقوم على البرهان والدليل والتجربة. وهذا بالفعل ما أسهم بعد ذلك فى تطوير الأفكار والأطر التصورية العامة لأنماط التفكير الفلسفى والاجتماعى، التى تؤكد فى مجملها على أن القضايا والمشكلات الاجتماعية تحكمها أيضاً مجموعة من القوانين الاجتماعية Social Laws، التى من الممكن دراستها وتحليلها وتفسيرها ورفض التصورات الغيبية المرتبطة بها. خاصة، وأن طبيعة دراسة العالم الاجتماعى لايمكن أن تختلف عن عملية دراسة العالم الطبيعى، ولاسيما من ناحية استخدام الأساليب العلمية والشواهد الواقعية التى تستخدم أو تعتمد فى نفس الوقت على كل من البراهين والتجربة والعقل فى نفس الوقت.

ومن ثم، يمكن القول بأن عصر التنوير والاصلاح كان موجهاً لتطوير الأساليب العلمية واستخدامها فى دراسة وتعقل الأشياء سواء أكانت طبيعية أم لاجتماعية وثقافية وفكرية فى الوقت ذاته. كما لا يوجد اختلاف ملحوظ من ناحية دراسة كل من القوانين الطبيعية والاجتماعية التى تفسر عملية سير وتطور البيئة الخارجية للإنسان الذى يعيش فيها سواء أكانت البيئة الطبيعية أو الاجتماعية أيضاً. وهذا ما تمثل على سبيل المثال، فى تطوير الأفكار والتصورات العامة التى ظهرت خلال عصر التنوير، والتى سعت لرفض المعتقدات والقيم والأفكار، التى كانت سائدة خلال العصور الوسطى، التى اتسمت بالطابع التقليدى، والتى كانت تحد من قدرة الإنسان فى التفكير فيها سواء عن طريق استخدام السلطة السياسية والدينية فى نفس الوقت. وهذا ما أدى عموماً إلى تطوير النظريات السوسيولوجية وإيراز دور علم الاجتماع وعلمائه نحو دراسة كيفية تطوير وتحديث القيم والمعتقدات والأفكار، وأيضاً المؤسسات والنظم الاجتماعية التقليدية، التى لم تحد عموماً من قدرة الجنس البشرى، ونمو إمكاناته نحو التحديث والتغير أو البعد عن الانساق والنظم والأفكار الغير عقلانية.

## ثانياً - ظهور علم الاجتماع الفرنسي.

يرى كثير من المحللين لتطور النظرية السوسيولوجية، أن ظهور علم الاجتماع الفرنسي الكلاسيكي، قد أسهم كثيراً في وضع أسس هذه النظرية والقضايا والأفكار، التي تنطلق منها وتعتمد عليها بصورة أساسية. ولا سيما، أن رواد علم الاجتماع الفرنسيين كانوا بمثابة المؤسسين الأوائل لعلم الاجتماع ذاته، كما كان لجهود وأفكار وتصورات الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين، أيضاً إسهامات مباشرة وغير مباشرة، ولا سيما من يعرفون بمفكرى عصر النهضة أو التنوير في تطوير النظرية السوسيولوجية ذاتها. هذا بالإضافة، إلى أن أفكار المدرسة الفرنسية الكلاسيكية لم تأت من فراغ بقدر ما جاءت تنوعاً لأفكار التيار الفكري الأيديولوجي الفرنسي، الذي لا تزال تتسم به هذه المدرسة مع نهاية القرن العشرين، والتي تحدث كثيراً من أنماط الفكر الاجتماعي والثقافي والسياسي والأيديولوجي العالمي، بفضل جهود روادها ورؤيتهم المميزة للقضايا والمشكلات والأفكار الأيديولوجية العامة التي ظهرت خلال العصر الحديث. على أية حال، سنشير بإيجاز شديد لأفكار رواد علم الاجتماع الفرنسي الذين يعتبرون من أهم مؤسسي هذا العلم (الاجتماع) ونظرياته وهم "سان سيمون" S.Simon، و"أوجست كونت" A.Comte، و"إميل دوركايم" E.Durkheim.

### ١- سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥) S.Simon

يعتبر "سان سيمون" من رواد المدرسة الفرنسية التي تبنت اتجاهات نظرية مميزة، وأثر كثيراً في أفكار وتصورات تلميذه "كونت" المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع الفرنسي التقليدي. وتتركز تصورات وأفكار "سيمون" النظرية في رؤيته للاشتراكية، كنظام اجتماعي متميز يختلف كلية عن النظام أو النظرية الشيوعية الماركسية من ناحية، كما يتميز نسبياً عن النظرية الرأسمالية الغربية. من ناحية أخرى، وكما يرى عدد من مفسري النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، أن آراء "سيمون" ارتبطت بصورة كبيرة بالطابع العلمي الذي إنتهجه سابقاً، مفكرى وفلاسفة التنوير الفرنسيين، إلا أن "سيمون" سعى لطرح نظريته عن الاشتراكية، التي أُنشئت بالطابع المحافظ، من حيث الأفكار والأسس والتيم

والمبادئ التي تقوم عليها كنظام اجتماعي وسياسي و اقتصادي يمكن تطبيقه كبدل للرأسمالية.

وعلى أية حال، يمكن القول بأن أفكار "سيمون" كانت من العوامل التي خططت بصورة مباشرة لما يعرف بالنظريات السوسيولوجية المحافظة Conservative Sociological Theories، وأيضاً النظرية الماركسية Marxism Theory في نفس الوقت والتي اتخذت خطأً أيديولوجياً مغايراً للنظريات الأولى. فلقد حرص "سيمون" من خلال أفكاره النظرية بأن يسعى للمحافظة على طبيعة النظام والحياة الاجتماعية التي عاصرها بالفعل في فرنسا أو في أوروبا الغربية، ولكن لم تكن لديه الرغبة في العودة إلى نمط الحياة التقليدية، التي كانت موجودة خلال عصور السلطة المسيحية التقليدية. وهذا ما تبلور في نظريته عن الاشتراكية التي تعتبر إحدى النظريات الراديكالية التقليدية التي أكدت على أهمية الإصلاح الاجتماعي Social Reform، وتبني أنماط معينة من التخطيط المركزي في النظام الاقتصادي والاجتماعي، ولكن بالطبع لقد أخذ "سيمون" نمطاً مغايراً للنمط الفكري الماركسي عند تصوره لكل من عملية التخطيط والإصلاح وأهداف كل منهما في نفس الوقت.

## ٢- "أوجست كومت" (١٧٩٨ - ١٨٥٧) A.Comte

ما من شك أن مؤسس علم الاجتماع الفرنسي كانت تصورات وأرائه وقضاياه جميعاً ذات أثر بالغ الأهمية في تطور النظرية السوسيولوجية بل وضع خطوطها العريضة والتي تبلورت في وجهات نظره حول أهمية علم الاجتماع ومبررات نشأته من الدرجة الأولى. ويؤكد كثير من المنظرين لعلم الاجتماع، على أن تحليلات وتصورات "كومت" كانت ذات تأثير مباشر خاصة على رواد هذا العلم، من الذين يصنفون بالجيل الأول أو حتى بالجيل الثاني أيضاً. وهذا ما ظهر على سبيل المثال، في تصورات "هربرت سبنسر" H.Spencer عالم الاجتماع البريطاني، أو أيضاً "إميل دوركايم" E.Durkheim. ولاسيما، أن كومت قد أكد على ضرورة أن يدرس علم الاجتماع ويفسر ويفهم على أساس موضوعي وعلمي في نفس الوقت. وهذا ما جاء في نزعه الوضعية Positivism، أو الفلسفة الوضعية التي تعتمد كلية

على التفسير العلمى بصورة أساسية.

كما جاءت تصورات "كونت" العامة حول طبيعة الآثار والنتائج التى تركتها كل من الثورة الفرنسية، بمثابة تحليل واقعى لطبيعة التطورات والتغيرات المتلاحقة، التى ظهرت بعد ذلك خلال المجتمع الصناعى الحديث الذى عاصر نشأته وتغيره وتطوره. ومن ثم، فلقد جاءت تصورات نوع من التوجيه النظرى والفكرى الذى يعتمد على التحليل والتفسير والذى يتبنى الحظ أو النموذج العلمى فى صورة مستمرة. وهذا ما ظهر على سبيل المثال، فى تطويره للفيزياء الاجتماعية Social Physics والذى أطلق عليها بعد ذلك علم الاجتماع Sociology، وجعل من هذا العلم ومناهجه وطرق فهمه وتفسيره كنوع من العلوم الجديدة، التى يجب الاقتداء بها من جانب علماء العلوم الاجتماعية والطبيعية فى نفس الوقت، نظراً لأن العلم الجديد قد إستفاد من الخبرات العلمية والأكاديمية النظرية والمنهجية البحثية من العلوم التى سبقته بالفعل. وبإيجاز، ان علم الاجتماع جعل من ذاته -كعلم متميز- لأنه ركز على دراسة البناءات والنظم الاجتماعية، ونوعية التغيرات أو (الدباليكتيكية) التى تحدث بصورة مستمرة فى المجتمع الحديث

كما تتبلور أفكار "كونت" النظرية ولاسيما وضعه أسس النظرية التطورية Evolutionary Theory والتى جسدها فى قانون المراحل الثلاث Law of The Three Stages، والذى يعتبر بعد ذلك احدى الموجهات النظرية العامة لعلماء الاجتماع ونظرياتهم وخاصة ذلك النوع من النظريات التى تسمى بنظريات التغير الاجتماعى. فلقد حاول "كونت" أن يجسد عملية التطور والتغير التى تحدث فى كل من العقل أو نمط التغير البشرى والمجتمعات الانسانية فى نفس الوقت. وكيفية تطور كل منهما عبر العصور التاريخية، إلى أن وصلت على ما هو عليه فى المجتمع الحديث، الذى يمثل المرحلة الثالثة والأخيرة، من قانون المراحل الثلاث والذى يتسم بالنزعة العلمية، بعد مروره بالمرحلة الميتافيزيقية وأيضاً المرحلة اللاهوتية.

كما تكمن أهمية تصورات "كونت" النظرية والوضعية فى نفس الوقت أنها تتبنى التركيز على أهمية العوامل الفكرية ومدى تأثيرها فى عمليات

التغير والتطور والإصلاح والتحديث المستمر في المجتمع الحديث. وهذا ما يوصف عموماً كتابات "كونت" بأنها من أهم الكتابات المؤسسة للنزعة البنائية التطبيقية التقليدية والمحدث في نفس الوقت. ولأسيما، أن "كونت" رائد فكري البناء Structure، والوظيفة Function، التي تعتبر بمثابة جوهر النظرية الوظيفية عامة. كما تكمن أهمية تصورات "كونت" من خلال تطويره وبالتحديد تأسيسه لعلم الاجتماع الوضعي Positivistic Sociology والذي أثار في توجيه الكثير من الدراسات التطبيقية العلمية للبحوث لعلم الاجتماع وضرورة تركيزها على التفسيرات الواقعية (الوصفية)، دون التركيز على القوانين المجردة أو السعي بصورة مستمرة، لتبني المناهج بطرق وأدوات جمع البيانات، التي توجد لدى العلوم الطبيعية والتي قد أحرزت شوطاً كبيراً في مجال البحوث النظرية والميدانية عامة.

### ٣- إميل دور كايم (١٨٥٨-١٩١٧) E.Durkheim

ترتبط النشأة الأكاديمية لعلم الاجتماع ونظريته بإسهامات "دور كايم" الموسيولوجية، وخاصة أن هذه الإسهامات تتميز عن بقية إسهامات علماء المدرسة الفرنسية للتقليدية مثل "سان سيمون"، و"كونت"، لأنها أعطت الطابع الأكاديمي والعلمي المميز لعلم الاجتماع. ولذا، يرى عدد من المنظرين للنظريات الموسيولوجية التقليدية المعاصرة بأن "دور كايم" يعتبر من الرواد المميزين الذين أسهموا في تطوير ووضع أسس النظريات الموسيولوجية المبكرة، خاصة وأن "دور كايم" أضفى الطابع الأكاديمي الشرعي على علم الاجتماع ككل. فلقد عمل "دور كايم" استاذاً جامعياً وأكاديمياً بخلاف كل من "سيمون" و"كونت" وإن كان ذلك لا يقلل أبداً من إسهاماتهم النظرية الفكرية والعلمية مجال النظرية الموسيولوجية وتأسيس علم الاجتماع التقليدي ذاته.

كما تجسئ أهمية كتابات "دور كايم" في وضع أسس النظرية الموسيولوجية وتطويرها، بل لاتزال هذه الكتابات بمثابة الموجه الفكري والنظري لكثير من رواد البنائية الوظيفية وأصحاب المدخل النظرية الحديثة لها، أو لغيرهم من رواد الاتجاهات النقدية والرائدكالية التي تشعبت كثيراً في السنوات الأخيرة، واتخذت من الخط الفكري للنظري "دور كايم"، موجهاً

عاماً ونمطاً مثالياً فى التفكير العلمى للمميز . كما تتبثق أهمية كتابات "دوركايم" فى تطوير النظرية السوسيولوجية، من خلال نظريته المعروفة عن التضامن الاجتماعى Social Solidarity، التى أكدت على ضرورة حفظ النظام العام فى المجتمع، والاهتمام بالطابع المحافظ والسعى لمقاومة عناصر ومظاهر وأسباب التفكك والانحيار الاجتماعى، الذى يحدث فى كل من البناءات والنظم والأنساق الاجتماعية. فلقد ركز "دوركايم" فى كتاباته على ضرورة إعادة النظام الاجتماعى بصورة ثلاثية المحافظة على هذا النظام واحترام قواعده وأخلاقياته وأساسه ومبادئه العامة، وهذا ماظهر كثير من خلال مناقشات "دوركايم" للعديد من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية فى نفس الوقت.

من ناحية أخرى، جاءت كتابات "دوركايم" التى تمثلت البعض منها فى مناقشة قواعد المنهج العلمى (السوسيولوجى)، أو دراسته عن تقسيم العمل، أو تحليله للمشكلات الاجتماعية العصرية مثل الانتحار، أو أفكاره النظرية التطورية مثل الاشكال الأولى للحياة الدينية، أو غيرها من الدراسات الدوركايمية المميزة التى اهتمت بخطتين فكريين متميزين هما: أولاً: ضرورة تبني التصورات النظرية العامة لتكون موجهة للتحليلات الباحثين والعلماء عند مناقشتهم للقضايا والظواهر والمشكلات الاجتماعية، وتعتبر بمثابة فروض تصورية يسعى هؤلاء لدراستها وتحليلها بصورة واقعية. وثانياً: من خلال طرحه لعدد من قواعد المنهج التفسيري، الذى يركز بصورة عامة على فكرة الموضوعية والبعد عن الذاتية، أو كما حددها "دوركايم" فى مقولاته المنهجية المعروفة دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها حقائق As facts. بإيجاز، أن إسهامات "دوركايم" النظرية المنهجية هى التى أضفت الطابع الشرعى الأكاديمى سواء لعلم الاجتماع أو نظرياته ومناهجه وطرق وأدوات جمع بياناته، وتفسيرها وتحليلها بصورة علمية متميز، وهذا يكشف عموماً مدى إسهام "دوركايم" فى تطوير النظرية السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة عامة.

## ٢- المثالية ونشأة علم الاجتماع الألماني.

يوضح عدد من علماء النظرية في علم الاجتماع، أن الفكر الألماني لعب دوراً أساسياً، ليس فقط في تشكيل النظريات السوسيولوجية التقليدية، ولكن أيضاً لا يزال يثرى النظريات السوسيولوجية المعاصرة، بالكثير من الأفكار والتصورات التي تتبنى العديد من النظريات السوسيولوجية التقليدية التي تم طرحها سواء بواسطة "كارل ماركس" K.Marx أو "ماكس فيبر" M.Weber، كما ظهر ذلك واضحاً في الماركسية المحدثه، أو نظرية الفعل الاجتماعي Theory of Social Action، التي تم بلورتها في عدد من الاتجاهات والمداخل الحديثة، والتي تنطلق من أفكار مؤسس هذه النظرية التقليديه (ماكس فيبر). وهذا ما سنشير إليه لاحقاً، خلال الصفحات أو الفصول القادمة عند تناولنا لإسهامات "فيبر" سواء من خلال معرفة تحليلاته وكتاباتهِ عن النشأة التطورية لعلم الاجتماع الألماني، أو عندما نعالج بالتفصيل الاطار الفكري العام لنظريات "ماكس فيبر" في إطار دراستنا للنظريات الوظيفية التقليدية.

### (١) هيغل (١٧٧١-١٨٣١م) G.Hegal.

كما يرى الكثير من المحللين للتطور التاريخي لنظرية علم الاجتماع التقليدي، إن الفكر الألماني أثرى كثيراً طبيعة النظريات السوسيولوجية قبل ظهور الماركسية - كنظرية سوسيولوجية - وهذا ما تمثل بالفعل في ظهور أفكار "هيغل" Hegal وتطورها بعد ذلك بواسطة "فيروباخ" Feuerbach، وتعتبر أفكار كل منهما الاطار العام الذي أمد "ماركس" بأفكاره الأيديولوجية بصورة أساسية. وهذا ما تمثل على سبيل المثال في فكرة الديالكتيكية Dialectic Idea، والتي تتلخص تعريفها ببساطة على أنها نموذج مزدوج وأسلوب للتفكير، وفهم وتصور العالم ككل. فمن الناحية الأولى (الديالكتيكية) باعتبارها أسلوب للتفكير، وذلك عن طريق تأكيدهم على أهمية العمليات، والعلاقات، والديناميكية، والصراع، والتناقضات. وباختصار، فهي أسلوب للتفكير الذي يعتمد على التغير والديناميكية وبعيداً عن الحالة الاستاتيكية عند فهم العالم الخارجي. ومن الناحية الثانية، إن الديالكتيكية تساعد في فهم



وتصور العالم الخارجى - بصورته الديناميكية - وليس الحالة الجامدة أو الثابتة للبناءات ولكن للعمليات، والعلاقات والصراع، والتناقضات. وبإيجاز، لقد ارتبطت فكرة الديالكتيكية من ناحية النشأة الأولى بالأفكار الهيجيلية ولكنها تحولت بعد ذلك إلى "ماركس" أو الماركسية.

كما ارتبطت أفكار "هيجل" بالنزعة أو الفلسفة المثالية فى العصر الحديث التى تؤكد على أهمية استخدام العقل أو الأفكار العقلية أكثر من الاعتماد على العالم المادى. وهذا ما يجعل هذه الفلسفة تؤمن بضرورة استخدام العقل باعتباره شيئاً جوهرياً وموجوداً وأيضاً البناءات السيكولوجية. وهذا ما جعل بعض الفلاسفة أو علماء النفس المثاليين أصحاب النزعة المثالية يؤمنون بأن قدراتهم العقلية والسيكولوجية سوف تظل كما هى، حتى عندما تضعف اجسامهم وبناءاتهم الفيزيائية، أو عندما لا يكون هناك وجوداً للعالم الاجتماعى الذى يحيط بهم فى حياتهم الأولى. وهذا، ما جعل "هيجل" وأنصار المثالية، يؤكدون على أهمية ليس فقط العمليات العقلية، ولكن أيضاً على مجموعة الأفكار المنتجة بواسطة هذه العمليات. وعموماً، لقد أعطى "هيجل" أبعاداً كبرى واهتماماً واسعاً لتطور هذه الأفكار، ولا سيما عندما كان يحل فكرة روح المجتمع The Spirit of Society.

بالطبع، إن تصورات "هيجل" كانت لها أثاراً وموجهات متعددة للنظريات السوسولوجية التقليدية، وهذا ما ظهر واضحاً بعد ذلك، وتبنى نفس التفكير المثالى الالمانى كما ظهر عند "ماكس فيبر" على سبيل المثال، ومناقشته لتأثير الرأسمالية (كفكرة) أولاً: كيفية حدوثها ونشأتها وتطورها بالمجتمع الفرنسى، نتيجة لوجود الأخلاق البروتستانتية (المسيحية). هذا بالإضافة إلى أن أفكار "هيجل" تعتبر بمثابة الموجة الأولى أو المرجع المثالى للنظرية التطورية Evolutionary Theory، التى بدأت أولاً من منطلق الاعتقاد والأفكار الديالكتيكية، والتى تعتبر موجهاً آخر للعديد من الأفكار المثالية مثل فكرة الوعي وأو الضمير Consciousnes Idea، وأعتبره عاملاً أيضاً من عوامل التغير أو التطور والتحديث. كما جاءت أفكار مجدد المثالية الهيجيلية والتى تمثلت فى تصورات (فيروباخ)، لتكون بمثابة نقطة إتصال بين



هذه المثالية وأفكار "ماركس" بعد ذلك. ولأسيما، بعد أن أكد فيروباخ على أهمية الفكرة المتبادلة بين الوعي وروح المجتمع كأساس لعملية التغيير والتطور. كما كانت تصورات هذا المفكر تقوم على تبني الفلسفة المادية Materialistic Philosophy، والتي تميزت كثيراً عن الفلسفة المثالية الذاتية عند هيجل، ولاتركز فقط على الأفكار المثالية، بقدر ما تركز على الواقع المادي للجنس البشري.

## (٢) كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣ م) K. Marx.

لم ينشأ الفكر الماركسي أو النظرية الماركسية السوسيولوجية من فراغ، بقدر ما تنتمي إلى الفكر الألماني، الذي وضع أسس الكثير من أفكار والفلاسفة، الذين ظهوروا في ألمانيا بصورة خاصة أو في أوروبا الغربية بصورة عامة، وهذا ما ظهر بوضوح في تأثير الأفكار المثالية الهيجلية على أفكار "ماركس" بعد ذلك. فلم تحي أفكار "ماركس" حول مشكلة الوعي، والاعتراب، والطبقة، والعملية المادية الديالكتية، وروح المجتمع، والبناءات التحديثية أو الضوئية، إلا من خلال تطوير هذه الأفكار وتحديث "ماركس" لها والتي تمتد جذورها إلى الفلسفة المثالية الألمانية الهيجلية على وجه الخصوص. وإن كانت أفكار "ماركس" المثالية الجدلية، لم تلق قبولاً ملموساً سواء في ألمانيا وأوروبا خلال الفترات الأولى لظهورها، ولكنها فرضت ذاتها بعد ذلك في الأوساط العلمية والأكاديمية وهذا ما أدى إلى اعتناق هذه الأفكار وبلورتها من الناحية الواقعية، وقيام العديد من النظم والأيديولوجيات حول فلسفتها وتصوراتها ككل.

كما جاءت أفكار "ماركس" مؤسسة لأحد الدعائم النظرية السوسيولوجية التقليدية، وأيضاً تم تطويرها في صور عدة من النظريات السوسيولوجية المعاصرة مثل الماركسية المحدث، أو المواقف والاتجاهات، التي تبنت فكرة الصراع والتغير الراديكالي، كمنهج وأسلوب للتحديث أو التطور. وهذا ما تبلور في أفكار "ماركس" حول فكرة الشيوعية، أو قيام الدولة، والنزعة المادية، أو غيرها من الأفكار الأخرى التي من الصعب عرضها حالياً، كما جاءت في إطار النظرية السوسيولوجية الماركسية، كما سنحلل ذلك بصورة

أكثر تفصيلاً في الفصول القادمة. وبايجاز، لقد جاءت الأيديولوجية الماركسية، كموجهاً أساسياً وعماماً للكثير من المنظرين للنظريات السوسيولوجية، أو أيضاً لرواد علماء الاقتصاد، والسياسة، وغيرهم من رواد العلوم الاجتماعية أو الإنسانية، كما تبنت مدخلاً متميزاً عند دراسة نوعية البناءات والنظم الرأسمالية التي توجد في المجتمعات الغربية. على أية حال، لقد جاءت أفكار "ماركس" لتؤسس نظرية سوسيولوجية واضحة المعالم، وساهمت كثيراً في فهم دراسة المجتمع الرأسمالي ذاته، وحققت أسس المجتمع الشيوعي، وقيام أحد القوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية خلال القرن العشرين (الاتحاد السوفيتي سابقاً).

### (٣) ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠م) M.Weber

امتد تأثير المثالية الألمانية إلى عدد كبير من علماء الاجتماع ونظرياتهم السوسيولوجية، وهذا ما ظهر بوضوح عند تحليلنا وإشارتنا الموجزة إلى تأثير الفلسفة الهيجيلية على أفكار "ماركس" والنزعة الماركسية، كنظرية سوسيولوجية هامة تركت بصماتها واضحة المعالم على العديد من المنظرين حتى الوقت الراهن في علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى. وهذا بالفعل أيضاً، ما جاء في تحليلات "ماكس فيبر" وكتابات المميزة التي تتصف بالعمق النظري والمنهجي والتحليلي في نفس الوقت. فلقد تأثر "فيبر" كثيراً بالكثير من الفلاسفة والمؤرخين الاقتصاديين، وعلماء السياسة الألمان الذين ينتمون إلى نفس مدرسته الأكاديمية أو من شكلوا الفكر الألماني خلال العصر الحديث بصورة عامة.

ف نجد على سبيل المثال، لقد تأثر "فيبر" كثيراً بأفكار "هيجل" المثالية كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، بالإضافة إلى تبنيه العديد من الأفكار التي تركها الفيلسوف الألماني "إيمانول كانت" E.Kant بصورة أكثر وإيضاً بكتابات "فريدريك نيتشه" F.Nietsche، سواء عن طريق تحليلاتهما عن التنظيمات والمؤسسات البيروقراطية الحديثة، أو مدى تأثير هذه المؤسسات على البناءات والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتعددة. كما جاءت كتابات "فيبر" عن العقلانية Rationality أو التحول نحو العقلانية، جزء لا يتجزأ عن

النظريات التطورية أو التغير الاجتماعي ذلك الطابع الشمولي، الذي تركته الكثير من تحليلات رواد الفكر الألماني الذين أسسوا بصورة عامة القواعد والمبادئ الأولى لعلم الاجتماع الألماني. وإن كنا بالفعل نجد أن "فيبر" قد سعى لاستخدام المدخل التحليلي التاريخي المقارن، لتطوير الفكر الألماني، كما حدث على سبيل المثال في دراسته عن الأديان السماوية والأرضية وعلاقة الدين بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتشكيله لنمط العلاقات بين الأفراد والجماعات، وهذا ما جعله متميزاً عن الفكر الماركسي أو النظرية الماركسية.

وسعى "فيبر" لأن يوطد أهمية علم الاجتماع الألماني، من خلال الكثير من دراساته النظرية السوسيولوجية المميزة، مثل تحليلاته عن النظرية السياسية أو نماذج السلطة التقليدية، والكاريزمية، والعقلانية، وكيف حاول أن يربط بين التطور التاريخي للمجتمعات البشرية، وأنماط السلطة وعلاقاتها بعملية التغير الاجتماعي الشامل، الذي يشمل البناءات والنظم الاجتماعية ككل. في نفس الوقت، لقد عزز "فيبر" تصورات النظرية، في طرح عدد من النماذج المثالية *Ideal Types*، التي اعتبرها بمثابة موجهات نظرية، وافترضات تصويرية يختارها الباحث عند معالجته للكثير من القضايا والمشكلات أو الفروض النظرية، أو محاولته لاختبار ما هو موجود أو معائن في الواقع للتأكد من مدى صحة هذه النماذج بصورة عامة. على أية حال، لقد حاول "فيبر" باستخدامه للمنهج التاريخي المقارن من ناحيته، وتبني النماذج المثالية من ناحية أخرى، أن يعزز النظرية السوسيولوجية لعلم الاجتماع، وهذا ما وجد قبولاً كبيراً في الوقت الراهن لدى العاملين بعلم الاجتماع عامة والمنظرين لنظرياته على وجه الخصوص.

علوة على ذلك، تجنى كتابات "فيبر" لتتوج علم الاجتماع الألماني. بالكثير من الخصائص والسمات التي تميز هذا العلم مقارنه بغيره في الأخير. سنجد لدول الأوروبية الغربية أو تأثيره المباشر إلى ظهور وتأسيس علم الاجتماع الأمريكي بواسطة "تالكوت بارسونز" T.Parsons، الذي يعد من أهم شراح نظرية "فيبر" السوسيولوجية، تلك النظرية التي وضعت الخطوط الأولى لأفكار "بارسونز" والنظرية السوسيولوجية البنائية الوظيفية المعاصرة بصورة عامة.

فلقد جاءت آراء "قيبر" على سبيل المثال لا الحصر، عن الدين، والعقلانية، والبيروقراطية، والرأسمالية، والسلطة السياسية، والقانون، والتربية، والأخلاق، والمدنية (التحضر)، والفن، والموسيقى، والانتاج، والطبقة، ورأس المال، والإصلاح الاجتماعى والسياسى، وغير ذلك من نظريات وأفكار لتضع الأسس النظرية السوسيولوجية التقليدية المعاصرة فى نفس الوقت. ولاسيما، أن كتابات "قيبر" قد توجت بمنهجه وأساليبه للتحليل المقارن، التى عززت تصوراتها النظرية السوسيولوجية، وعمقت كثيراً من النظريات اللاحقة فى علم الاجتماع، وخاصة الاتجاهات والمداخل للنظرية الحديثة، ويكشف لنا "قيبر" بوضوح عن مدى إسهامات علم الاجتماع الألمانى فى تطوير النظرية السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة.

### ٣- النزعة التطورية وقيام علم الاجتماع البريطانى.

ينسب كثير من المحللين لتطور النظرية السوسيولوجية التقليدية، لإسهامات المفكرين والفلاسفة وعلماء السياسة والاقتصاد البريطانيين، ومدى تأثير كتاباتهم فى تأسيس علم الاجتماع البريطانى ذاته، الذى لعب دوراً أساسياً فى تطور هذا العلم وفروعه المتعدده، وللذى لايزال يشارك بصورة ايجابية فى تحديث النظرية السوسيولوجية، التى تتمثل فى كتابات عدد من رواد علم الاجتماع المعاصرين من أمثال "بوتومور" Bottomore، و"أنطونى جيدينز" A.Giddins وغيرهم آخرون. وتكمن أهمية كتابات المفكرين أو الحركة الفكرية البريطانية مع بداية العصر الحديث، وبالتحديد مع بداية القرن التاسع عشر، حيث ظهرت ثلاث اتجاهات فكرية قوية، تترجم لنا جذور علم الاجتماع البريطانى، والتى تتمثل فى ثلاث مصادر فكرية أساسية، وهى الاقتصاد السياسى Political Economy، والنزعة الإصلاحية Ameliorism، والتطور الاجتماعى Social Evolution.

وتجئ تحليلات "آدم سميث" A.Smith فى الاقتصاد السياسى، من أهم التحليلات التى أثرت النظرية السوسيولوجية والفكر الاجتماعى بصورة عامة. وهذا ما جاء فى كتابه المميز "ثروة الأمم" The Wealth of Nations، حيث خطط بوضوح للمبادئ الأساسية التى يجب أن تقوم عليها الرأسمالية الصناعية

الحديثة، وحدد أيضاً طبيعة نظرية الدولة والعلاقة بين الحكومة والأفراد والجماعات وغيرها من الموضوعات والقضايا التي كانت موضع اهتمام الكثير من علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة. فلقد أهتم هؤلاء العلماء بدراسة وتحليل العوامل والظروف الحتمية التي تشكل كل من عمليات العمل والانتاج والسوق، واعتباره عاملاً إيجابياً (السوق) في تطوير وتحديث الاقتصاد الحر، ونمو الانتاج وزيادة قيمة العمل والأجور ورأس المال وغير ذلك من قضايا لا تزال ترتبط بفكر "سميث" عن الاقتصاد الرأسمالي الحر.

وإنطلاقاً من أفكار "سميث" عن الاقتصاد السياسي، تم تحديث ووضع أسس علم الاجتماع البريطاني، أو كما يوضح بعض المحللين تم تشكيل نمط الخط الفكري والأيدولوجي للعلوم الاجتماعية البريطانية ككل. وهذا ما جاء في النزعة الإصلاحية كمصدر فكري أساسي لقيام علم الاجتماع البريطاني أو توجيه العلوم الاجتماعية، ومنها بالطبع علم الاجتماع ونظرياته إلى المشاكل الاجتماعية، من خلال اصلاح الأفراد أنفسهم. وهذا ما جاء من خلال تحليلات العديد من علماء الاجتماع، عندما سعوا لدراسة المشاكل الاجتماعية الكبرى التي توجد في بريطانيا، مثل مشكلة الفقر، وإن كان البعض منهم يؤكدون أن هناك بعض الحكام الذين يحرصون على وجود الفقر من أجل السيطرة على الفقراء وأغلبية الشعب. ولكن معظم تحليلات علماء الاجتماع البريطانيين الكلاسيكيين، أكدوا على أهمية حل المشاكل الاجتماعية تجنباً لحدوث الثورات والعنف والجريمة والأمراض الاجتماعية المتعددة. وهذا ما ظهر من خلال النزعة المحافظة البريطانيين، التي تتأدى بالاصلاح والتحديث الاجتماعية، ولكن بعيداً عن ظهور النزعة الاشتراكية وظهور المجتمع الاشتراكي في بريطانيا.

وأخيراً، يتجسد المصدر الفكري الثالث لنشأة علم الاجتماع البريطاني، ولاسيما نظرياته السوسيولوجية التقليدية في النزعة التطورية الاجتماعية، التي انتقلت أساساً من فرنسا خلال القرن التاسع عشر وخاصة بعد أن نشر "كونت" آرائه الوضعية، تلك الآراء التي ركزت على دراسة المشاكل والقضايا الاجتماعية عندما عمقت تصورات العلماء والباحثين، إلى ضرورة النظر إلى

البناءات الاجتماعية الكبرى، وروؤية المجتمع ككل. وهذا ما كان غير موجود في تحليلات رواد علم الاجتماع البريطاني ومفكره الأوائل الذين ركزوا على النزعة الإصلاحية أولاً، التي تبدأ من الأفراد ورغبتهم للتطور والتحديث والإصلاح، دون النظر إلى دور المجتمع أو سياساته ونظمه ومؤسساته عامة. ومن ثم، يرى بعض منظري علم الاجتماع، أن نشأة علم الاجتماع البريطاني التقليدية تأثرت كثيراً بأفكار المدرسة الفرنسية، ولاسيما رؤية "كونت" الوضعية، التي ترجمت إلى الإنجليزية تقريباً خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع وكانت المصدر الأساسي لظهور النظرية التطورية Evolutionary Theory، لدى الكثير من المفكرين والعلماء البريطانيين، لتحديد تصوراتهم النظرية وأفكارهم وإنطلاقاتهم الأيديولوجية، التي تعتمد على الطابع التحليلي ذات الرؤية الشمولية، لبناءات المجتمع ونظمه بصورة عامة. وهذا ما تمثل في رائد النظرية التطورية الاجتماعية البريطانية "هربرت سبنسر"، الذي نشر أهم أفكاره بصورة موجزة في إطار نشأة علم الاجتماع البريطاني وتأكيد على ظهور النظريات للسوسيولوجية التقليدية.

#### (١) هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣) H.Spencer

تمثل أفكار "سبنسر" الجذور الأولى لنشأة علم الاجتماع البريطاني، الذي وضع خلال القرن التاسع عشر، وتأثر بالحركة الفكرية والثقافية والسياسية التي ظهرت. في عصر النهضة أو الإصلاح، والتي ترجمت بعد ذلك في الثورة الصناعية الرأسمالية، التي وجدت من بريطانيا ذاتها مهداً خصباً لإنطلاقها وتصديرها إلى بقية الدول الأوروبية ولتأسيس الجانب الاقتصادي والسياسي الحر الذي تقوم عليه الرأسمالية الغربية حتى الوقت الراهن. فلقد تأثر "سبنسر" بالفكر الاقتصادي السياسي الحر، الذي وضعه "آدم سميث" خلال القرن الثامن عشر. وهذا ما جاء في تصورات "سبنسر" ذات الطابع الليبرالي المحافظ، نظراً لاعتناقه الكثير من الأفكار الاقتصادية الليبرالية، ولاسيما مبادئ أو فكرة أنه حر دعه يعمل، والدور الذي يجب أن تتخذه الدولة في المحافظة على الأفراد وحررياتهم وعدم تدخلها إلا في حالة الضرورة القصوى.

كما تأثر "سبنسر" بالنزعة الدارونية الاجتماعية Social Darwinism

والتي خططت لوضع نظريته التطورية العضوية، والتي سعى فيها لتأكيد الأفكار العامة لدارون، حول نظريته المعروفة عن البقاء للأصلح والأقوى. وهذا ما حاول "سينسر" تأكيده على المماثلة البيولوجية لكل من المجتمع والكائن العضوي. كما أكد "سينسر" على أن بقاء الأفراد واستمرارهم في الحياة الاجتماعية يتحدد من خلال رغبة هؤلاء الأفراد في تقوية أنفسهم وإصلاح أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، لأن البيئة الاجتماعية لا تختلف كثيراً عن البيئة الحيوانية والنباتية التي توجد في العالم الخارجي، وترى بقاء هذه الكائنات واستمرارها فيها بصورة عامة. كما حرص "سينسر" على أن يؤكد على فكرتي (البناء) و(الوظيفة)، اللتان توجد عند علماء النظرية السوسيولوجية التقليدية أو المعاصرة في نفس الوقت. بايجاز، يعتبر "هربرت سينسر"، من المؤسسين الأوائل للنظرية البنائية الوظيفية في علم الاجتماع، والتي طورها كثير من خلال نظريته المعروفة بالنظرية الوظيفية العضوية، أو بالأحرى نظرية المماثلة البيولوجية، التي سعى فيها لتبني النظرية العلمية (في البيولوجيا)، ومحاولته تحديث النظرية السوسيولوجية التقليدية وتطويرها لدراسة العالم الاجتماعي ككل.

#### ٤ - الاتجاه العلمي وتأسيس علم الاجتماع الإيطالي.

تنسب النظرية السوسيولوجية التقليدية إلى علماء ومفكرى وفلاسفة أوروبا الغربية الذين ظهوروا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وحتى العقود الأولى من القرن الماضي (العشرين). وهذا بالفعل ما تبلور في مجموعة أفكار العلماء الذين ظهوروا في كل من ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا، وأيضاً إيطاليا. فبدون شك، لقد قادت إيطاليا حركة الإصلاح والتوير، ولاسيما، أن هذه الدولة الأوروبية كانت معقل السلطة الدينية الكنسية (روما) والتي لاتزال توجد في الفاتيكان. وجاءت منها معظم الأفكار المناوئة للسيطرة المسيحية من قبل مفكرى وفلاسفة وفنانونا عصر النهضة، من أمثال "لوراند دافنشي" وغيره، الذين جسّدوا كثيراً من أفكارهم وتصوراتهم التي تتحدى بالحرية والديموقراطية والتحرر من هيمنة السلطة والعبودية.

كما تبلورت المعالم الأولى للاتجاه العلمي، الذي أسهم بصورة مباشرة في



وضع الخطوط الأساسية للنظرية السوسيولوجية التقليدية، في ليدى عدد آخر من فلاسفة التاريخ من أمثال "ج.فيكو" G.Vico الإيطالي. وهذا ما جاء في دراسته المعنونة بالعلم الجديد، وهي دراسة تعتبر من الدراسات المميزة والتي تركز على فهم المجتمع البشري بصورة علمية. كما أهتم أيضاً بضرورة التركيز على الأفراد أو الشخصية الفردية، وفهمها جيداً ومعرفة العوامل التي تدخل في تشكيلها وتكوينها، ولاسيما الدين والأخلاق والمياسة. كما جاءت أفكاره المنهجية لتؤكد على أهمية الاستعانة بالمنهج التاريخي عند دراسة المجتمعات والثقافات، وهذا ما ساعد (فيكو)، على أن يضع نظريته المميزة عن التطور الاجتماعي للتاريخ البشري، وجاءت هذه النظرية في إطار ثلاث مراحل أساسية: أولاً، المرحلة اللاهوتية الدينية، وثانياً المرحلة البطولية أي التأكيد على القيم البطولية، وثالثاً، وأخيراً مرحلة المعرفة الواقعية. وبايجاز، تكشف هذه المراحل الثلاث، مدى إستعانة مفكرى علم الاجتماع ومؤسسيه الأوائل ومنهم على سبيل المثال لالخصر، بتفسيرات "كونت" عن قانون المراحل الثلاث، التي بلورها في مراحل تطور العقل والجنس والمجتمعات البشرية والتي تماثل تقريباً تصورات "فيكو".

على أية حال، لقد أثر الفكر الإيطالي كثيراً في بلورة الكثير من جذور النظرية السوسيولوجية التقليدية، كما لاحظنا في إشارتنا الموجزة، عن رؤية "فيكو" عن التطور الاجتماعي والتي تتشابه معها كثيراً رؤية مؤسس علم الاجتماع وأفكارهم للتصورية عن التطور الاجتماعي، كما جاء ذلك عند "أوجست كونت" على سبيل المثال. ولكن بالطبع، ترتبط نشأة علم الاجتماع الإيطالي من الناحية السوسيولوجية بعدد من مؤسسي هذا العلم، من أمثال "لفريد باريتو" F.Pareto و"جيتانو موسكا" G.Mosca، اللذان يعتبران أول من أسهموا في وضع الأفكار السوسيولوجية المميزة، للقضايا التي لا تزال تشغل اهتمام الكثير من رواد نظرية علم الاجتماع الحديث. ولاسيما، تحليلاتهما حول التغير الاجتماعي، أو ما يعرف بدائرية التغير أو التطور، كما جاءت في كتاب "باريتو" وأيضاً تصور كل منهما إلى مفهوم القوة والصفوة على سبيل المثال، وهذا ما يجعلنا أن نشير حالياً - بصورة موجزة - إلى تصورات "باريتو" ممثلاً لعلماء علم الاجتماع الإيطالي، على أن نعود إليه بصورة أكثر تحليلاً في إطار النظرية السوسيولوجية التقليدية خلال الفصول القادمة.

(١) فلغريد باريتو (١٨٤٨ - ١٩٢٣) V.Pareto

يوضح تحليل التراث النظري لعلم الاجتماع التقليدي، أن نشأة هذا العلم وتطوره لا يمكن أن ترجع من الناحية التاريخية إلى مدرسة أوربية واحدة، بقدر ما نجد أن حركة تطور الفكر الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، قد تزامن حدوثه في ربوع أوروبا الغربية وبين دولها المختلفة، منذ القرون الأولى من عصر الإصلاح أو التنوير. هذا ما لاحظناه بالفعل من خلال تتبعنا الموجز للعلاقة بين مجموعة العوامل الاجتماعية والفكرية التي أدت إلى تطور النظرية السوسيولوجية التقليدية، والنشأة الأولى لعلم الاجتماع في دول أوروبا الغربية على وجه الخصوص، ولاسيما خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وهذا ما ظهر على سبيل المثال، عند تتبعنا لاسهامات علم الاجتماع الإيطالي في تطور الفكر الاجتماعي عامه والنظرية السوسيولوجية خاصة، كما ظهر ذلك في كتابات "باريتو" رائد علم الاجتماع الإيطالي خلال العقود الأولى من القرن الماضي (العشرين).

فلقد وصف عدد من المنظرين في علم الاجتماع، أن أفكار "باريتو"، توصفه بأنه "ماركس" البرجوازي، الذي تبنى الكثير من الأفكار والتصورات التي تنادى بالتغير والتطور والإصلاح، ولكن في نفس الوقت تسعى لتأكيد على أهمية الاتجاه الليبرالي أو الاقتصادي الحر. وهذا ما ظهر من تحليلنا لأفكار "باريتو" الذي ترأس أحد المدارس الاقتصادية الكبرى في أوروبا وهي مدرسة (لوزان الاقتصادية)، التي تشرف "باريتو" برأسها بعد مؤسسها الأول وعالم الاقتصاد الشهير "والراس" Walras وذلك في عام ١٨٩٣. كما جاءت معظم أفكار "باريتو" السوسيولوجية الذي وضعها في مؤلفه بالإيطالية The Treatise on Generalis، والذي ترجم إلى الإنجليزية بعنوان "العقل والمجتمع" The Mind and Society وذلك عام ١٩٣٥ وأصبح نكدر "باريتو" السوسيولوجي في متناول علماء دول أوروبا الغربية، بالإضافة إلى اهتمام عالم الاجتماع الأمريكي "تالكوت بارسونز" T.Parsons بشرح تصورات السوسيولوجية كما فعل لكل من "فيبر" و"دوركهايم".

كما نكمن أهمية اسهامات "باريتو" السوسيولوجية في تحليله المميز

للعناصر العقلانية واللاعقلانية، وكل من الرواسب والمشتقات، والغرائز البشرية المختلفة، التى تلعب دوراً بارزاً فى عمليات التغيير والتطور الاجتماعى والاقتصادى. كما جاءت نظرية "باريتو" عن التغيير الاجتماعى مختلفة كثيراً عن الفكر الماركسى، حيث ركز الأخير على دور الطبقة، ولكن سعى "باريتو" للتركيز على دور الصفوة Elite Role، والتى وضع حولها نظريته المعروفة عن نظرية الصفوة، لتضيف أبعاداً نظرية سوسيولوجية واقتصادية وسيكولوجية فى نفس الوقت. كما لا تزال أفكار "باريتو" حول دائرة التغيير، إحدى البواعث الأولى لإلهام الكثير من المنظرين السوسيولوجيين، للاهتمام بفكر "باريتو" فى الوقت الراهن بالرغم من وصفه ضمن علم الاجتماع الإيطالى التقليدى الذى أسهم فى بلورة الخطوط الأولى للنظرية السوسيولوجية، ولا يقل شيئاً عن إسهامات علماء الاجتماع الغربيين، الذين عاصروا النشأة التطورية لنظرية علم الاجتماع وأفكاره العامة.

#### مناقشة وتعقيب:

يصعب على القارئ والمهتم بدراسة النظرية السوسيولوجية، أن يتناول القضايا والمشكلات والظواهر التى تهتم بهذه النظرية، دون أن يتعرف بوضوح على مجموعة العوامل والظروف التى مهدت بالفعل لنشأتها وتطورها. ولأسباب، أن تتبع الخلفية العلمية والثقافية لدى دارسى نظريات علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى. فى نفس الوقت، أن تحليل العوامل الرئيسية أو الممهدة لظهور النظرية السوسيولوجية التقليدية، تساعد عموماً فى التعرف على الملامح العامة التى وصلت إليه النظرية السوسيولوجية المعاصرة أو الحديثة. وخاصة، أن النظرية السوسيولوجية تتمتع بمجموعة من الخصائص والسمات العامة التى نصفها بالنظرية العلمية، والتى أسهمت فى تطور علم الاجتماع وفهم نوعية المشكلات والظواهر التى تظهر بصورة مضطربة خلال العصر الحديث.

حقيقة، أن دراسة النظرية السوسيولوجية ترتبط بتاريخ علم الاجتماع ذاته، فلقد ظهر هذا العلم نتيجة طبيعية لظهور المجتمع الصناعى والرأسمالى الذى وضع أول معالمه خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وإن كانت جذور هذه النظرية وعلم الاجتماع ذاته كغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى،

ترجع إلى الارهاصات الفكرية والثقافية والسياسية التى بدأت تتبلور ملامحها خلال عصور الإصلاح والتتوير، ومهدت عموماً للحضارة الغربيه الحديثه. بالإضافة إلى ذلك، لقد تم تصنيف مجموعة العوامل الاجتماعية والفكرية، التى مهدت بالفعل لبلورة وتطور النظرية السوسيولوجية التقليدية، وجاءت الثورات السياسية التى اجتاحت أوروبا الغربية وخاصة الثورة الفرنسية لتضع الملامح الأولى لحركات التغير والإصلاح الشامل الذى غير وجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى أوروبا خاصة والعالم عامة خلال العصر الحديث. كما كانت الثورة الصناعية الرأسمالية، التى ظهرت لأول مرة فى بريطانيا، معتمدة على أفكار رائد الاقتصاد الحديث أو الحر "آدم سميث"، بمثابة الباعث الأول للنهضة الاقتصادية، وتحديث مجموعة العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع.

من ناحية أخرى، لقد كانت عمليات تطور العلم الحديث أو ما يعرف بالثورة العلمية، وما صاحبها من مجموعة من التطورات الاجتماعية والاقتصادية، مثل عملية التحضر ونمو المدن وزيادة حركة التصنيع، أو نشأة نظام المصنع - كنظام اقتصادى واجتماعى - لأول مرة موضع الهام كثير من المفكرين والإصلاحيين الاجتماعيين، والفلاسفة وعلماء السياسة، الذين كانت لأفكارهم الكثير من الاسهامات النظرية السوسيولوجية. بالإضافة إلى ذلك، لقد أثرت العوامل الفكرية فى تطوير النظرية السوسيولوجية التقليدية، والتى بدأت منذ حركات الإصلاح والتتوير الأوروبى، وخاصة تلك الحركات الفكرية التى غيرت كثيراً من النمط التقليدى العقائدى، وحررت الطبقات والفئات الاجتماعية من نظم السيطرة الكنسية، وأضفت العديد من مظاهر الحرية والديموقراطية بكل معانيها، وتسهم عموماً فى وضع أسس علم الاجتماع الأوروبى فى العديد من البلدان الرأسمالية الناشئة، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن الماضى (العشرين). بإيجاز، ان دراسة التطور التاريخى والعوامل الممهدة للنظرية السوسيولوجية التقليدية، تثرى عموماً المهتمين والباحثين فى مجال النظرية لعلم الاجتماع، الذى يعرض المجالات العلمية والتميزة، والتى يصعب فهمها أو تحليلها أو تفسيرها دون معرفة إلى أى حد تطورت هذه النظرية والعوامل التى أدت إلى تشكيلها وبلورتها، وكيف

اختلفت عن النظرية الموسيولوجية المعاصرة، وما هي أهم النظريات الموسيولوجية التقليدية، وخصائصها وشروطها وتصنيفاتها التي يهتم بدراستها علماء الاجتماع في الوقت الحاضر. وبالطبع، إن الإجابة على هذه التساؤلات سوف يكون موضع اهتمامنا خلال الفصول القادمة.

### أهم المراجع المستخدمة:

1. Abrans, P., The Origins of British Sociology Chicago: Chicago Univ. Press, 1981.
2. Althusser, L, Politics and History London: NLB, 1977.
3. Aram, R, Main Currents in Sociological Thought, vol (1) & , N.Y. Basic Books 1965.
4. Avineri, S, The Social and Political Thought of K. Marx Theory of History N.Y: Prinseton Univ, 1978.
5. Comte, A, The Positive Philosophy, N.y: Ans Press, 1974.
6. Dobb, M, Studies of The Development of Capitalism , N.y: International Publish, 1964.
- 7 Goudsblam, J, Sociology in The Blan, Acritical Essay, N.y: Columbia Univ. Press, 1977.
8. Gouldner, A, The Coming Crisis of Western Sociology, N.y: Basic Books, 1970.
9. Hotstadter, R, Social Drawinism in American Thought, W.Y: Braziller, 1959.
10. Johnson, P, Sociological Theory: Classical Founders and Contem Porary Perspective, N.y: Wiley, 1981.
11. Kuhn, T, The Structures of Scientific Revolutions, Chicago: Chicago Univ, Press, 1962.
12. Lefebvre, H, The Sociology of K. Marx, N.Y: Vintage, 1968.
13. Lemeret C. (ed) French Sociology, N.Y: Columbia Univ. Press, 1981.
14. Ritzer, G, Sociological Theory, N.y: Mcgtawhall Publish. Comp. 1988.
15. Seidman, S, Liberalism and The Orgin of European Social Theory, Berkeley: Univ. of California Press, 1983.

16. Skopolsky, T., *States and Social Revolution* Cambridge: Cambridge Univ Press, 1979.
17. Turner, J., *The Structures of Sociological Theory*, Homewood: Porsey Press, 1986.
18. Wagner, P., *The Growth of Sociological Theories*, California: Sage, 1984.
19. Wallace, A. & A. Walf, *Contemporary Sociological Theory: Continuing The Classical Tradition*, N.J, Prentice Hall, INC, 1986.
20. Zelitsky, I., *Ideology and The Development of Sociological Theory*, N.J: Prentice Hall INC, 1968.



## الفصل الثانى

### طبيعة النظرية السوسيولوجية وحدودها

تمهيد:

(١) تعريف النظرية السوسيولوجية وخصائصها.

١- تعريف النظرية.

٢- خصائص النظرية.

(٢) طبيعة النظرية السوسيولوجية وحدودها.

١- النظرية العلمية والنظرية السوسيولوجية.

٢- النظرية السوسيولوجية وتطور علم الاجتماع.

٣- حدود النظرية السوسيولوجية.

مناقشة وتعليق.



## تمهيد:

ليس هناك جدل علمي أكثر من الجدل الدائر والمستمر بين علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية والطبيعية، حول طبيعة النظرية المستخدمة في هذه العلوم، وما ينبغي أن تكون عليه النظرية، باعتبارها الموجه الأساسي لكل من الدراسات النظرية المجردة أو الدراسات الميدانية (الامبيريقية). كما تكمن أهمية دراسة النظرية أو عملية التنظير أساساً في علم الاجتماع كغيره من العلوم المتطلعة للتطور والتقدم المستمر، باعتبارها (النظرية) أحد الدعائم الأساسية، التي يستند إليها العلماء والباحثين، عند تناول قضايا أو مشكلات، أو ظواهر مطروحة للنقاش أو التحليل أو الدراسة أو التفسير بصورة عامة. هذا بالإضافة، إلى أن عملية وجود النظرية والاستناد إليها، بواسطة العلماء تساعدهم أولاً في وضع الفروض والمسلمات الأولية المرتبطة بالظواهر والمشكلات المدروسة من ناحية، ومحاولة تحليل هذه الفروض والإجابة عليها بواسطة الوسائل والخطوات المحددة التي تقوم عليها النظرية من ناحية أخرى.

حقيقة، إن حركة التنظير السوسيولوجي في علم الاجتماع قد إرتبطت من الناحية التطورية والتاريخية بالنشأة الأولية لهذا العلم ذاته. فلقد تبلورت منذ المراحل المبكرة لنشأة علم الاجتماع عدد من النظريات السوسيولوجية التقليدية التي أرتبطت بصورة أساسية، بمرحلة عصر الرواد الأوائل الذين أسهموا بالفعل في وضع أسس علم الاجتماع، ونوعية القضايا والمشكلات والظواهر الاجتماعية التي ركزت عليها بصورة واقعية. ومن ثم، فإن عملية دراسة الجذور الأولى لنشأة النظرية السوسيولوجية وتطورها، خلال القرن التاسع عشر والقرن الماضي (العشرين)، تعتبر من الدراسات الهامة، التي تجذب اهتمامات العديد من المهتمين أو المتخصصين عموماً في مجال «نظرية السوسيولوجية»، والتي تعتبر من أهم المجالات، التي تلقى قبولاً كبيراً وخاصة خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين.

بالإضافة إلى ذلك، لقد أثرت في عملية التنظير أو تحديث النظرية السوسيولوجية في مرحلتها التقليدية (الكلاسيكية) والحديثة (المعاصرة)، عدد من العوامل والمؤثرات الاجتماعية والفكرية، التي مهدت عموماً لتطور

النظرية السوسيولوجية لنظرية علمية مميزة بصورة عامة. كما تعتبر هذه العوامل أيضاً البواعث الأولى لتطور علم الاجتماع، من حيث موضوعاته وقضاياها ونظرياته، ومناهجه وطرق بحثه وأدوات تحليله وتفسيره بصورة عامة. فلقد ألهمت مجموعة العوامل الاجتماعية والتي تمثلت فى الثورات السياسية والاقتصادية العلمية والتغيرات الاجتماعية والثقافية والدينية، كثير من منظرى علم الاجتماع، وتحديث الفكر التنظيرى لهذا العلم بصورة مستمرة. ولأسبما، أن النظرية السوسيولوجية لها مجموعه من الخصائص والسمات العامة التى تميزها (كنظرية علمية) متميزة لاتزال تغزى الكثير من العلوم الاجتماعية والطبيعية، بدون إستثناء فى عمليات تطوير وتحديث مناهجها وفلسفة إتجاهاتها بصورة مستمرة. من ناحية أخرى، لقد أثرى مجال النظرية السوسيولوجية، أيضاً ولأسبما، خلال النصف الأخير من القرن (الماضى) العشرين، النهضة العلمية المستمرة وزيادة الاتجاه نحو التخصص الأكاديمى، وتنوع فروع ومجالات علم الاجتماع، التى أسهمت عموماً فى تطور كل من النظرية السوسيولوجية والمتطلبات المنهجية والبحثية اللازمة لها ولعلم الاجتماع ككل.

على لية حال، إن اهتمامنا الحالى خلال هذا الفصل، يتركز فى عدد من النقاط الأساسية التى نسعى لتحقيقها ودراستها بصورة مبسطة تسهم عموماً فى زيادة الخلفية العلمية للقارئ والمتخصص فى علم الاجتماع على وجه الخصوص والعلوم الاجتماعية والطبيعية بصورة عامة. ومن أبرز هذه النقاط، دراسة ماالمقصود بالنظرية السوسيولوجية؟، وما هى أهم التعريفات التى أطلقت عليها؟. هذا بالإضافة إلى تناول أهم المفاهيم والقضايا المرتبطة بها عند عملية تحديد معنى أو تعريف مميز حولها. كما نهتم أيضاً، بطرح عدد من الخصائص والسمات العامة، التى تتميز بها النظرية السوسيولوجية، باعتبارها إحدى النظريات العلمية الهامة فى الوقت الراهن. من ناحية أخرى، سنعالج طبيعة النظرية السوسيولوجية، ومعرفة إلى أى حد تختلف أو تتفق أو تتميز وتتباين النظرية السوسيولوجية عن النظريات العلمية الأخرى. وتحليل أيضاً، الدور الوظيفى للنظرية السوسيولوجية فى تطور علم الاجتماع وتنوع فروعها المختلفة، هذا بالإضافة إلى دراسة أهم الصعوبات التى لاتزال تواجه النظرية السوسيولوجية.

وقبل الإشارة إلى النقاط الأساسية التى سنعالجها خلال هذا الفصل، نود أن نوضح عدة أفكار هامة كما يلى:

أولاً: أن عملية تعريف النظرية السوسيولوجية، أو وضع عدد محدد من الخصائص العامة التى تتسم بها هذه النظرية، لاتعد أمراً هيناً للغاية، بقدر ما نلاحظ خلال تحليلنا للتراث العلمى للنظرية السوسيولوجية، تعدد التعريفات التى شملها هذا التراث، منذ أن ظهر علم الاجتماع خلال البدايات الأولى من القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين. ولكن هذا لايعنى وجود عدد من العقبات التى توصل إليها بعض العلماء، الذين أعطوا اهتماماً ملحوظاً لدراسات النظرية السوسيولوجية.

ثانياً: يتضمن التراث العلمى للنظرية السوسيولوجية، الكثير من نقاط الاختلاف والاتفاق بين علماء هذه النظرية على وجه الخصوص والمهتمين عموماً بعلم الاجتماع وفروعه المختلفة. وهذا ما تمثل على سبيل المثال، عند معالجة طبيعة النظرية السوسيولوجية وعملية تحليلها أو وصفها بالنظرية العلمية، كما توجد مجموعة من الصعوبات التى لاتزال تواجه هذه النظرية شأنها شأن العديد من النظريات الاجتماعية الأخرى والتى تعالج عموماً الظاهرة الاجتماعية والتى تختلف كثيراً عن الظواهر الطبيعية الأخرى.

ثالثاً: لاتزال قضية نصيف النظرية السوسيولوجية وتحديد أبعادها، أوالموجهات الفكرية والعلمية التى يتبناها علماء للنظرية السوسيولوجية، موضع اختلاف كبير، ولكن تعتبر عملية التصنيف فى حد ذاتها محاولة علمية هامة تسهم فى تبسيط الكم العلمى الهائل الذى يرتبط بقضية النظرية السوسيولوجية عامة، وهذه النقطة الأخيرة سنعالجها بالتفصيل فى الفصل القادم.

### (١) تعريف النظرية السوسيولوجية وخصائصها:

تجنى أهمية النظرية السوسيولوجية وتحديد معانيها وتعريفاتها المختلفة، ولاسيما بعد أن ركزت تحليلات كثير من علماء الاجتماع حول توجيه مهمة هذا العلم (علم الاجتماع) نحو دراسة الواقع وهذا ما حدث فى الولايات

المتحدة في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى حتى الخمسينات وإجراء الكثير من الدراسات الأمبيريقية، التي طبقت في كثير من الشركات والمصانع والمدارس والمستشفيات، بهدف دراسة المشكلات الواقعية والتعرف على أهم أسبابها ونتائجها في المجتمع الحديث.

وكما يضيف "نيقولا تيماشيف" N.Timasheff في كتابه المميز (نظرية علم الاجتماع) أن السبب وراء إهمال علماء الاجتماع دراسة للنظرية في هذه الفترة، يرجع إلى وجود اعتقاد خاطئ، ألا وهو أن الدراسة النظرية ارتبطت بعلم الفلسفة، والاهتمام بالتحليلات النظرية يعتبر شيئاً مجرداً بعيداً عن دراسة الواقع ويتصف عموماً بالتأمل العقيم. أما نتائج الدراسات الواقعية فهي أكثر موضوعية وتكون موضع اهتمام للجميع ومن ثم يجب أن يركز عليها علم الاجتماع بالدرجة الأولى.

ولكن خاصية العلم سواء كان علم الاجتماع أو أى علم إنسانى وطبيعى، لا بد ولن لا يركز فقط على دراسة الواقع، ولكن يجب أن يهتم بالاطار النظرى الذى يوجه دراسة هذا الواقع. الأمر الذى يوجب وجود نظرية محددة المعالم تكشف عموماً عن مدى عمق وزيادة نضج علم الاجتماع كغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى. ولاسيما، أن طبيعة النظرية ومفاهيمها وتصوراتها تلعب دوراً أساسياً فى توجيه البحث والملاحظة الأمبيريقية (الميدانية)، وتعزز عموماً من نتائج الدراسات التى تجرى لوصف الواقع ومشكلاته المختلفة. ومن هذا المنطلق، اهتم كثير من علماء الاجتماع بضرورة دراسة أبعاد النظرية السوسيولوجية ولبراز دورها فى توجيه البحوث والباحثين فى نفس الوقت.

وقبل الإشارة إلى طبيعة النظرية السوسيولوجية وما تتسم به من خصائص متعددة ترتبط عموماً بطبيعة النظرية العلمية، يجب أن نوضح ما المقصود بمعنى النظرية؟، أو ماهى طبيعيتها أهم التعريفات التى ارتبطت بالنظرية السوسيولوجية وذلك بصورة مختصرة؟.

## ١- تعريف النظرية:

حقيقة، لقد تعددت تعريفات النظرية السوسيولوجية كما تنوعت تعريفات علم الاجتماع ذاته، كما ارتبطت عملية تعريف النظرية بكتابات علماء النظرية والمناهج وتصوراتهم حول مدلول للنظرية السوسيولوجية. ومن أهم تعريفات النظرية تعريف "تيماشيف" الذي جاء تقريباً عند نهاية عقد الستينات ليشير إلى أنها، مجموعة من القضايا التي يجب أن تتوفر فيها الشروط التالية: أولاً، ينبغي أن تكون المفاهيم التي تعبر عن القضايا محددة بدقة. وثانياً، يجب أن تتسق القضايا الواحدة مع الأخرى. وثالثاً، أن توضع في شكل يجعل من الممكن اشتقاق التعميمات القائمة اشتقاقاً استنباطياً. ورابعاً، أن تكون هذه القضايا مثمرة وتكشف الطريق لملاحظات أبعد مدى، وتعميمات تنمي مجال المعرفة.

ويعكس لنا التعريف السابق، الذي طرحه "تيماشيف"، تصوره لمجموعة من الشروط التي ينبغي أن تكون عليها النظرية السوسيولوجية، والتي تركز على وضوح المفاهيم، والاتساق، وأن تصل إلى تعميمات، وأن تكون ذات طابع مثمر من الناحية العلمية. وإن كنا نلاحظ، أن هذا التعريف لم يشر إلى بعض الخصائص الأخرى، التي يجب أن تتسم بها النظرية السوسيولوجية كغيرها من النظريات العلمية الأخرى سواء للعلوم الطبيعية والاجتماعية. ومن أهم هذه السمات، ضرورة اخضاع النظرية ومفوماتها وفروضها للبحث والتجريب، وأن تكون لديها خاصية المرونة في التعديل والتغير والتطور. وإن كان "تيماشيف" اعترف في تحليلاته بصورة غير مباشرة بأن النظرية السوسيولوجية ليست نهائية على الإطلاق، بقدر ما يجب أن تخضع للبحث الإمبريقي بصورة مستمرة.

ويرى بعض علماء، مناهج البحث من أمثال "براثوايت R.Braithwaite"، الذي يتصور أن النظرية تشمل على مجموعة من الفروض التي تكون نسقاً استنباطياً، بمعنى أنها توضع في ترتيب متتابع فيه بعض الفروض اللاحقة، التي تلحق ببعض الفروض المتقدمة. أو بعبارة أخرى، تعد النظرية بمثابة مجموعة من القضايا أو الفروض على المستوى الأعلى مثل

مكانة المقدمات المنطقية وتكون فيه الفروض على المستوى الأدنى، بمثابة نتائج لما يتقدمها من فروض.

وهناك عدد من التعريفات الأخرى، التي قد تمزج بين كل من النظرية Theory أو النموذج Model، ومن أهم هذه التعريفات تعريف "ديفيد ويلر" D.Willer، الذي يحدد النموذج بأنه "تصور لمجموعة من الظواهر يتم تكوينه على أساس عقائلي، ويكون هدفه النهائي تزويد النسق الصوري الذي عندما يتم تحقيقه، أصبح نظرية، وبالحدود والعلاقات والقضايا. وإن كنا نلاحظ، أن هذا التعريف السابق، الذي يركز على فكرة للنموذج ومماثلته بالنظرية يرتبط بصورة أو بأخرى، بفكرة "ماكس فيبر" M.Weber عن النموذج المثالي Ideal Type، والذي حدده بأنه تصور عقلي Mental Concept وبناء فكري يطرحه الباحث مسبقاً لتوجيه البحث ومتطلباته وإجراءاته الميدانية. كما أنه (النموذج) يرتبط بذهن الباحث وتصوره حول دراسة الواقع بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

بالإضافة إلى ذلك، يوضح كل من "روثنال" Rosental و"يادين" Yudin، إلى أن النظرية تعتبر بمثابة نسق من المعرفة لتعميمية وتفسير للجوانب المختلفة للواقع، وأنها ترتبط بأشياء ومصطلحات أخرى مع أنها تختلف عنها في بعض الجوانب والوظائف، وإذا كانت كل نظرية أو نسق ما هي إلا إطاراً فكرياً، فهي بصورة عامة نسق معقد. ويتضح من هذا التعريف، ارتباطه بصورة نسبية بالطابع الفلسفي في تحديد أنساق المعرفة وتحديد النظرية العلمية التي يجب أن تكون محددة المعالم بصورة واضحة.

وربما يجئ تحديد "بوتومور" T.Bottomore، لطبيعة النظرية في علم الاجتماع من خلال أهمية أثرها نحو إقامة تعميمات واسعة من الارتباطات الامبيريقية، التي أمكن التوصل إليها، بحيث تخضع هذه التعميمات للاختبار عن طريق بحوث مستقبلية. ويتركز التصور السابق لعالم الاجتماع البريطاني المعاصر "بوتومور" من خلال تحليله لمجموعة من القوانين التي يمكن أن يتوصل إليها علم الاجتماع والتي يستند إلى استخلاصها من نتائج البحث الامبيريقى. وهذا ما أكد عليه مسبقاً "تيماشيف"، عندما حدد أهمية البحث



السوسيولوجى لتكوين النظرية وعلم الاجتماع، وإلى أى حد يمكن لهذه النظرية أن توجه مجربات البحوث الامبريقية والنظرية معاً، مما أدى إلى زيادة نضج وإثراء النظرية السوسيولوجية ككل، وهذا يعتبر فى حد ذاته أحد اهداف علم الاجتماع العامة.

## ٢- خصائص النظرية:

بعد تحديد معنى النظرية السوسيولوجية، ولتى لا تخرج بعيداً عن مفهوم أو تصور النظرية العلمية بصورة عامة. طرح عدد من علماء الاجتماع مجموعة من الخصائص العامة، التى تكشف عن طبيعة ومكونات هذه النظرية ووظائفها العامة وكذلك شروطها التى يجب أن تكون عليه وهى بصورة موجزة كما يلى:

١- المكونات: تتحدد طبيعة مكونات النظرية باعتبارها نسق استنباطى يتضمن مجموعة من الفروض التى تحتل مكانة للمقدمات وأخرى للنتائج التى يتوصل إليها. كما تشمل النظرية أيضاً مجموعة من المفاهيم، والقضايا، والقوانين التى يمكن التوصل إليها أو صياغة تعميمات حولها.

٢- الشروط: يجب أن تكون النظرية واضحة ومحددة وموجزة وشاملة وقابلة للاختبار وقادرة على التنبؤ العلمى. ولعل من أهم الشروط التى حددت للنظرية، تلك الشروط التى صاغها علماء المناهج والبحث الاجتماعى، الذين ركزوا على وضوح المفاهيم، واتساق الأفكار والتصورات، واستنتاج القوانين.

٣- الخصائص: تعتبر النظرية بمثابة الاطار الفكرى التصورى الذى يجمع الحقائق والمعرفة والنتائج التى يتوصل إليها الباحثين بصورة غير مرتبة ودقيقة. ومن ثم تجئ خاصية النظرية وسماتها، بأنها تقوم بتجميع هذه الحقائق والمعرفة والنتائج، بصورة يسهل عن طريقها اعادة دراستها أو تحليلها، وذلك من أجل تطويرها أو تحديثها حتى تكون مرتبطة بالواقع المتغير، كما تتسم النظرية بخاصية أخرى. ألا وهى، أن صياغة النظريات لا تكون صياغة استاتيكية جامدة بقدر ما تتسم بالمرونة والتجديد والتطبيق والممارسة.

٤- الوظائف: للنظرية السوسيولوجية مجموعة من الوظائف التي تؤديها لخدمة الباحثين والبحث العلمي، ولقد عبرت أو طرحت هذه الوظائف في كتابات العديد من علماء البحث والنظرية الاجتماعية من أمثال كل من "جود" و"هات" Goode & Hait، اللذان أشارا إلى مجموعة من الوظائف وهي:

١- تحديد أنواع البيانات وتجربتها.

٢- تقديم إطار تصوري يقوم بتنظيم وتصنيف الظواهر المدروسة.

٣- الوصول إلى الحقائق وإصدار التعميمات حولها.

٤- تساعد على التنبؤ.

٥- تساعد على تحقيق المزيد من المعرفة الإنسانية بصورة مستمرة.

بصفة عامة، تلك أهم السمات والخصائص العامة التي تحدد طبيعة النظرية السوسيولوجية، من حيث مكوناتها وشروطها وخصائصها ووظائفها المختلفة. ومن هذا المنطلق، يجيء دور علماء ومنظري النظريات السوسيولوجية للعمل بصورة مستمرة لبلورة هذه النظريات وتحديد خصائصها ووظائفها، والتي أصبحت في الوقت الراهن مجموعة من المبادئ والأسس العامة التي يتفق حولها كل من علماء النظرية السوسيولوجية ومناهج البحث الاجتماعي ككل. خاصة، بعد أن تعددت مجالات وميادين علم الاجتماع وتخصصاته الفرعية الأخرى، والتي تلزم الاهتمام بصورة مستمرة بطبيعة الإطار للنظرية السوسيولوجية من حيث شروطها وأهميتها ككل، ومن أجل إثراء المعرفة والحقائق التي يسعى إليها باحثي علم الاجتماع، ومعالجتهم للمشكلات النظرية والمنهجية، التي تواجه الباحثين عند إجراء دراساتهم النظرية أو الميدانية (الامبيريقية).

## (٢) طبيعة النظرية السوسيولوجية:

تتميز النظرية السوسيولوجية بعدد من الخصائص والسمات، التي تعتبر جزءاً أساسياً من مكونات النظرية العلمية، وهذا ما أشرنا إليه، عند تحليلنا

الموجز عن خصائص النظرية السوسيولوجية. ولكن، نجد ان لهذه النظرية طبيعة تجعلها أكثر تميزاً وتحديداً وتعريفاً سواء للمهتمين بدراساتها وتحليلها، من المتخصصين فى علم الاجتماع أو بالأحرى فى مجال النظرية السوسيولوجية، أو المشتغلين عموماً، بطبيعة النظرية العلمية سواء فى العلوم الاجتماعية (الانسانية) أو فى العلوم الطبيعية الأخرى. ويندرج تحت عملية تحديد طبيعة النظرية السوسيولوجية، دراسة العلاقة المتداخلة بين هذه النظرية والنظرية العلمية فى مضمونها العام، ومعرفة ما هو وجه الاختلاف والتمایز والتطابق والمماثلة بين النظرية السوسيولوجية من ناحية والنظرية العلمية من ناحية أخرى.

علاوة على ذلك، يركز الكثير من المهتمين بدراسة النظرية السوسيولوجية، وخاصة عند تناول طبيعة هذه النظرية، معرفة عدد من المتغيرات والقضايا التى لا تزال ترتبط بتحليلات علم الاجتماع. وظواهر والموضوعات التى يهتم بدراستها وتفسيرها سواء على المستويين النظرى أو الميدانى فى نفس الوقت. وهذا ما جعلنا نهتم بدراسة الدور الذى تقوم النظرية السوسيولوجية، فى تطوير وتحديث تناول الظواهر والمشكلات السوسيولوجية، وكيفية تفسيرها من الناحية الواقعية. وخاصة، أن النظرية السوسيولوجية، تعتبر الموجه الأساسى والضرورى، سواء عند عملية تحديد الاطار النظرى أو التصورى للباحثين، أو مايسمى بالبعد النظرى والتحليلى، بالإضافة إلى توجيه الباحثين ودراساتهم معاً على المستوى الامبيريقى (أو الميدانى). وهذا ما يوضح عموماً أهمية الدور التطبيقى للنظرية السوسيولوجية فى مجال تطور علم الاجتماع ومعالجته للقضايا والظواهر المجتمعية التى تزداد بصورة مستمرة.

من ناحية أخرى، أن عملية دراسة طبيعة النظرية السوسيولوجية لا تتحدد فقط عند معرفة أوجه المماثلة والاختلاف بين هذه النظرية، والنظرية العلمية بصورة عامة، أو معرفة الدور الوظيفى الذى تقوم به النظرية السوسيولوجية فى تطور علم الاجتماع وفروعه، والعلوم الاجتماعية والانسانية، بقدر ما يندرج تحت دراسة طبيعة النظرية السوسيولوجية،

مقولات وقضايا ومشكلات أخرى، تعتبر جزء هاماً من اهتمامات المتخصصين بدراسة النظرية السوسيولوجية أو غيرها من النظريات العلمية الأخرى. ومن أهم هذه المقولات، معرفة إلى أى حد تواجه النظرية السوسيولوجية - كنظرية علمية - العديد من الصعوبات والمشكلات التى تواجهها عند دراسة الظواهر الاجتماعية، على البعدين النظرى أو الميدانى. هذا بالإضافة إلى دراسة عملية تقييم النظرية السوسيولوجية بواسطة علماء الاجتماع عامة، والمستغلين بمجالها خاصة. ولاسيما، أن طبيعة النظرية السوسيولوجية تقوم على عدد من الأسس والمبادئ العامة التى تجعلها توصف عامة بالنظرية السوسيولوجية، وهذا ما يندرج عموماً تحت دراسة وتحليل طبيعة هذه النظرية.

#### ١ - النظرية العلمية والنظرية السوسيولوجية.

ترتبط عملية تحليل النظرية العلمية بدرجة اهتمام كبير من المتخصصين فى العلوم الطبيعية والاجتماعية، والتى تهدف بصورة أساسية للتعرف بالنظرية العلمية، وتحديد أركانها وشروطها وخصائصها العامة. ولقد طرحنا مسبقاً فى معرض حديثنا عن خصائص النظرية السوسيولوجية مجموعة من السمات العامة، والتى يؤكد عليها الكثير من المهتمين بعملية التنظير فى علم الاجتماع أو غيره من العلوم الاجتماعية الأخرى. وكما يعكس لنا تحليل التراث للنظرية العلمية بأنها جزء أساسى من مكونات العلم الحديث، ذلك العلم الذى يختلف بصورة مميزة عن طبيعة أنماط المعرفة الإنسانية أو البشرية الأخرى. ولاسيما، أن المعرفة العلمية تختلف عن غيرها من أنماط المعارف أو أنواع المعرفة الأخرى (غير العلمية) من حيث المنهج، الذى تتبعه المعرفة العلمية واعتمادها على المتغيرات الأساسية عند دراسة الظواهر الاجتماعية أو الطبيعية على وجه الخصوص.

على أية حال، نسعى حالياً، لتناول بصورة موجزة العلاقة المتبادلة بين النظرية العلمية والنظرية السوسيولوجية، محاولين أولاً أن نعرض لطبيعة النظرية العلمية، ومكوناتها، وشروطها ووظيفتها عموماً فى العلم الحديث.

## (١) النظرية العلمية:

تتميز النظرية العلمية عن غيرها من أنماط التفكير العلمى أو المحاولات الإجتهدية التى سعى إليها المفكرين والفلاسفة فى المراحل الأولى من نشأة العلم الحديث، أو التى لا تزال تنتج بواسطة العلماء والباحثين والتى لم تتبلور معالمها أو خصائصها العامة ولم يطلق عليها مفهوم النظرية العلمية. ولقد أسهمت جهود كثير من العلماء والفلاسفة والمفكرين الأوائل فى تطور النظرية العلمية فى فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث. وهذا ما جاء على سبيل المثال، فى اسهامات "فرنسيس بيكون" حول طبيعة المنهج العلمى وخطواته المميزة، ولا تزال تجد قبولا و إهتماماً كثيراً بين المهتمين عموماً بمجال النظرية أو المنهج العلمى فى نفس الوقت. وعلى أية حال، أن المعرفة العلمية تختلف عن أى معرفة أخرى، من خلال وجود عناصر رئيسية تتميز بها المعرفة العلمية وهى:

١- وجود ملاحظات منظمة ودقيقة.

٢- التركيز على الموضوعية.

٣- الاعتماد على القياس العلمى والتجربة.

٤- تفسير العلاقات المتداخلة عن طريق مبدأ السببية.

٥- الوصول إلى مجموعة من القوانين والاستنتاجات العامة.

ومن هذا المنطلق، نجد أن النظرية العلمية، تميز المعرفة العلمية وتجعلها مختلفة عن أنماط المعرفة أو التأملات الفكرية أو التحليلات الميتافيزيقية أو الفنية أو الأدبية، التى لا تستند جميعها إلى مجموعة عناصر سابقة، المتمثلة فى الملاحظة والموضوعية والتجربة والقياس والسببية والوصول إلى القوانين والاستنتاجات العامة. من ناحية أخرى، تتميز المعرفة العلمية، بأنها تعتمد بصورة كلية على وجود أدلة وشواهد واقعية، وتخضع عموماً للتحقيق من صدق هذه الشواهد أو ما يعرف عموماً بعملية تكرار

الظاهرة المدروسة. وهذا ما تبلور على سبيل المثال، فى العديد من تحليلات علماء المناهج أو النظرية السوسيولوجية، كما جاءت فى اهتمامات "اميل دوركايم" فى دراسته المميزة عن قواعد المنهج ورؤيته السوسيولوجية المميزة عن كيفية معالجة الظواهر الاجتماعية واعتبارها حقائق As.Facts

من ناحية أخرى، إن المعرفة العلمية يتم تكوينها وتشكيلها وتطويرها بواسطة التكامل بين شقيها الأساسيين وهما:

أولاً: الجانب الحسى، حيث تبدأ المعرفة، دائماً عن طريق استخدام الانسان الحواس فى استكشافه للموضوعات الموجودة فى العالم الخارجى، ويتصور دائماً هذه المعرفة عن طريق الخبرة، والتي تتكون نتيجة تكرار حدوث الظواهر والملاحظات التي يتم تعقلها بواسطة العقل البشرى. ولذا، يضيف العلماء والفلاسفة وعلماء النفس، تكوين المعرفة بواسطة هذا الشق أو الجانب بالمعرفة الحسية Concrte.

ثانياً: الجانب العقلى أو المجرد، حيث يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات والمخلوقات الأخرى، عن طريق تمتعه بالجهاز العصبى المعقد، وأنماط الاتصال الفكرى الأخرى، التي تكون لديه مفهومات Concepts، محددة عن طبيعة الأشياء الخارجية أو للتأملات الفكرية والذهنية. وهذا ما يظهر لدى الإنسان فى بداية مراحل طفولته الأولى، عن طريق تكوينه مفهومات حول مسميات الأشياء، التي تشكل البناء الإدراكى والمعرفى لديه بمرور الوقت أو الزمن.

كما يتم تطوير المعرفة العلمية سواء عن طريق الجانبين الحسى أو العقلى، عن طريق اعتماد الانسان على بعض العوامل الأخرى التي تساعد العقل البشرى فى إتمام عملية للتعلل والإدراك. ومن أهم هذه العوامل عملية التحليل Analyse، وهى العملية التي بواسطتها يستطيع العقل البشرى أن يقسم بها الظاهرة ويلاحظ جوانبها وعوامل وأسباب تشكيلها وتكوينها. ثم أيضاً عملية التركيب أو التآليف Synthesis، والتي بواسطتها يستطيع الانسان أن يقوم بتجميع وتركيب الأجزاء والعناصر العامة التي تتكون منها الظاهرة أو

المشكلة المدروسة. وبالطبع، أن كلا من عنصرى أو شقى المعرفة العلمية التى تتكون لدى الانسان يكملان كل منهما الآخر، وكليهما يشكلان انتاج التفكير أو المعرفة العلمية بصورة مستمرة والتى تعتمد على مصدرى الحواس أو الخبرة الحسية، التى تثرى عملية التعقل والتفكير المجرد أو تكوين المفاهيم العامة للأشياء، التى توجد فى العالم الخارجى وتحدد ماهيته وتصوراته الخاصة.

ومن ثم، يمكن وضع تعريف مميز للنظرية العلمية على انها نسق من المعرفة التى تفسر الجوانب المختلفة للواقع، وهذا ما يجعل النظرية العلمية تختلف عن غيرها من النظريات الأخرى، خاصة وأن الأولى (النظرية العلمية) تخضع للتحقيق منها أو من خلال التجربة والقياس العلمى. وهذا ما يجعل بعض المتخصصين فى دراسة النظريات العلمية، يؤكد على عدد من السمات التى تتميز بها هذه النظريات مثل: خاصية أو سمة التجريد Abstraction، والوصول إلى القوانين أو التعميمات Generalization، وأيضاً الاهتمام بمبدأ السببية Causes Principle، الذى يركز على أهمية تفسير العلاقات والعوامل المتداخلة التى تتشكل منها الظواهر أو الحقائق العلمية الواقعية. وبالطبع، أن مجمل هذه الخصائص أو السمات تساعد الباحثين والعلماء على اكتشاف القوانين أو اختبار الفروض العلمية، التى يتم طرحها للتأكد منها بواسطة النظرية العلمية.

ومن هذا المنطلق، نجد ان كثيراً من علماء النظريات الاجتماعية والسوسيولوجية، أو المهتمين أيضاً بتحديد مناهج البحث العلمى السوسيولوجية، يركزون على أهمية وجود عدد من النقاط العامة، التى تعتبر بمثابة سمات سوسيولوجية، يجب أن تقوم عليها النظرية العلمية وهى:

١- طبيعة الشكل أو البناء المنطقى للنظرية العلمية.

٢- نوعية المضمون العام أو محتوى النظرية العلمية.

٣- وجود منهج مميز تتبناه النظرية العلمية.

- ٤- تحديد الفروض أو التساؤلات التي تقوم على دراسة النظرية العلمية.
- ٥- ضرورة الاهتمام بالتفسير السببي للعلاقات المتداخلة المكونة للظواهر المدروسة.
- ٦- التنسيق بين القضايا للوصول إلى تعميمات عامة.
- ٧- إخضاع النظرية والتعميمات لاختبارها في الواقع مرة أخرى للتأكد منها.
- ٨- إمكانية جعل النظرية العلمية قادرة على التنبؤ.

## (٢) النظرية السوسيولوجية.

ما من شك أن النظرية السوسيولوجية وطبيعتها العامة قد تطورت خلال القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرون، وأصبحت إحدى أهم النظريات العلمية الحديثة التي تهتم بمعالجتها وتفسيرها الكثير من المتخصصين في مجال النظرية السوسيولوجية في علم الاجتماع أو غيره من العلوم الاجتماعية والطبيعية الأخرى. هذا بالرغم من وجود عدد من التباين والاختلاف بين استخدامات كل من النظرية العلمية، وتركيزها على دراسة الظواهر العلمية والنظرية السوسيولوجية واهتمامها بدراسة وتحليل الظواهر الاجتماعية. وبالطبع، يوجد تمايز كبير في طبيعة ومكونات كل من الظاهرتين (الطبيعية) و(الاجتماعية)، الأمر الذي يعكس العديد من مظاهر التباين والاختلاف بينهما، والنتائج التي يتم التوصل إليها بواسطة المهتمين بها وهذا ما سنعالجه لاحقاً خلال الصفحات القادمة.

أما اهتمامنا الحالي، سيكون أيضاً بصورة موجزة لتحليل طبيعة النظرية السوسيولوجية - كأحدى النظريات العلمية - ولا سيما أن طبيعة هذه النظرية (١) - سوسيولوجية - قد مرت بعدة مراحل متعددة، منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين. ففي خلال المراحل الأولى لنشأة علم الاجتماع وحتى الربع الأول من القرن الماضي (العشرين). ظهر عدد من الاتجاهات السوسيولوجية، التي أخذت آراء مثاقيقية حول طبيعة النظرية



الموسولوجية، ولكن جميعها (الاتجاهات) تنحصر في وجود إتجاهين متناقضين وهما:

أولاً: الاتجاه التجريبي، حيث رأى أصحاب هذا الاتجاه أن طبيعة النظرية الموسولوجية، يجب أن تركز على دراسة الواقع الخارجي، لو أن يركز العلماء والباحثين جهودهم حول جمع الحقائق والشواهد الخارجية، والتي تعتمد على الملاحظة والتجربة واستخدام الحواس أو التركيز على الجانب الحسي في تكوين المعرفة العلمية المرتبطة بنشأة وتطور النظرية الموسولوجية كأساس لجمع المعلومات والحقائق دون التركيز على الجوانب العقلية أو للنظرية المجردة فقط. وعموماً، لقد أطلق على أصحاب هذا الاتجاه بالاتجاه الامبيريقى أو التجريبي Empericism.

ثانياً: اتجاه النظريات المجردة، حيث ركز أصحاب هذا الاتجاه على ضرورة أن تكون لطبيعة النظرية الموسولوجية رؤية نظرية مجردة، تعتمد على العقل أو التأمل، والتفكير المجرد في الظواهر والشواهد الخارجية. خاصة، وأن العقل وحده هو الذى يستطيع إدراك هذه الأشياء، ولا يمكن الاعتماد على تكوين الأفكار والتصورات من خلال ملاحظات عابرة، يمكن أن يخدع فيها حواس البشرية. ولذا، نادى أصحاب هذا الاتجاه، بضرورة وضع نظريات عامة، لعلم الاجتماع تهتم بدراسة وتفسير الظواهر الاجتماعية الخارجية.

حقيقة، أن هذا الجدل العلمى الذى قد أثير فى المراحل الأولى من تكوين النظرية الموسولوجية التقليدية، قد أهتم بدراسة الكثير من إسهامات رواد علم الاجتماع المميزين من أمثال السير "رليت ميلز" C.Mills فى كتابه المميز الخيال الموسولوجى The Sociological Imagination والذى أكد فيه على عقم آراء أصحاب الاتجاهين المتناقضين حول طبيعة النظرية الموسولوجية، وأكد على ضرورة أن يتكامل جهود علماء الاجتماع، من أجل بلورة نظرية موسولوجية علمية، لا يمكن لها أن تغفل إحدى جوانب المعرفة العلمية والمكونة لها وهى الجانب الحسى (التجريبى)، والجانب العقلى المجرد. وخاصة، أن عملية تكوين المعرفة العلمية، لا يمكن فصل جانب دون الآخر، لو استبعاد إحدى مكونات هذه المعرفة والتحفيز لعنصر واحد فقط. وهذا ما أكد

عليه (ميلز) وغيره من ضرورة تكامل ووحدة النظرية السوسيولوجية حتى تصبح نظرية علمية مميزة.

وبالطبع، كانت لجهود علماء الاجتماع سواء من المهتمين بدراسة النظرية السوسيولوجية من أمثال (ميلز) أو المنهج العلمي من أمثال "جود" و"هات" Good & Hut و"ليندبرج" Lundberg وغيرهم آخرون، من تطور دراسة النظرية السوسيولوجية وبلورة طبيعتها ومكوناتها وعناصرها الانسانية. وهذا ما ظهر مع منتصف القرن العشرين، وشكل النظرية السوسيولوجية واتجاهاتها ومدخلها التي تجمع بين التقليدية والمعاصرة، وهذا ما سنعالجه بالتفصيل خلال اهتمامنا في هذا الكتاب، عند التركيز على النظرية السوسيولوجية التقليدية، ونؤجل اهتمامنا إلى دراسة النظريات السوسيولوجية الحديثة والمعاصرة في (جزء ثان) حول هذه النظريات مبصراً لاحقاً بالطبع. على أية حال، يكشف تحليل التراث العلمي لنظرية علم الاجتماع، أو ما يعرف بالنظرية السوسيولوجية التقليدية (الكلاسيكية) عن وجود كثير من مظاهر الاختلاف والاتفاق بين العلماء حول طبيعة هذه النظرية ومكوناتها وخصائصها وشروطها، والأسس التي تقوم عليها، وتعتبر جزءاً أساسياً عند عملية تقييمها ومعرفة الدور الوظيفي، الذي تقوم به النظرية السوسيولوجية في تطور علم الاجتماع ذاته.

ففي خلال النصف الأول من الماضي (العشرين)، ظهر نوع من العجز أو اليأس العلمي لدى علماء الاجتماع حول مدى إمكانية وضع نظرية سوسيولوجية عامة، أو على الأقل مجموعة من النظريات السوسيولوجية التي يتفق عليها أكبر عدد ممكن من العلماء أو المتخصصين في علم الاجتماع. وبالطبع، هناك العديد من الأسباب التي قد حالت خلال هذه الفترة والتي قد استمرت قرب نهاية الستينيات من القرن العشرين، ولم تبلور حولها نظريات سوسيولوجية عامة في علم الاجتماع. وبالطبع أن اختلاف الأساس الأيديولوجي للعلماء ولأسماء، للمنظرين له أو من المشتغلين بهذا العلم، كانت وراء إخفاق علم الاجتماع في بلورة نظرية سوسيولوجية مميزة. وهذا بالرغم من ظهور عدد من النظريات السوسيولوجية التي تتسم بالطابع التقليدي أو

الكلاسيكى، والتي يمكن تصنيفها تنقسم بين نوعين من النظريات هما النظريات البنائية الوظيفية، ونظريات الصراع، وهذا ما سنعالجه خلال فصول هذا الكتاب بالفعل.

وعموماً، أن النظريات السوسيولوجية التي تبلورت معالمها فى الوقت الراهن، تتفق مع غيرها من النظريات العلمية، من حيث بنائها ودورها الوظيفى فى تطوير علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى، وإن كانت تختلف النظرية السوسيولوجية، عن النظرية العلمية (التي تعالج العلوم الطبيعية)، من حيث المضمون أو نوعية الظواهر المدروسة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وهذا أيضاً ما سنعالجه عند تحليلنا للدور الوظيفى للنظرية السوسيولوجية أو الصعوبات والمعوقات التي تواجه هذه النظرية بصورة خاصة. وبإيجاز، فإن النظرية السوسيولوجية مهدت عموماً لتقديم تفسيرات ومبررات وتصورات عامة، ولطبيعة تطور الحياة الاجتماعية، والعوامل والأسباب التي تشكلها وتغيرها بصورة مضطربة، من حيث اهتمامها بدراسة ظواهر اجتماعية يصعب تفسيرها أو تحديد عناصرها بصورة نهائية ومطلقة، مقارنة بما تحققه النظرية العلمية المفسرة للظواهر الطبيعية.

ومن هذا المنطلق، نجد عدد من علماء الاجتماع البارزين، من أمثال نيقولا تيماشيف N.Timshif يجد أنه بالرغم من تباين وجهات نظر العلماء حول طبيعة النظرية السوسيولوجية إلا أنهم يتفقون على وجود عدد من القضايا والتساؤلات الهامة مثل:

- ١- ما المجتمع وما الثقافة؟.
- ٢- ما هي أهم الوحدات الأساسية التي يتكون منها المجتمع والثقافة؟.
- ٣- ما طبيعة العلاقة المتداخلة بين المجتمع والثقافة والشخصية؟.
- ٤- ما هي أهم العوامل التي تحدد حالة المجتمع والثقافة وتغيرهما؟.
- ٥- ما هو علم الاجتماع؟ وما هي أهم مناهجه المستخدمة والمناسبة؟.

يتفق مع تيماشيف أيضاً، الكثير من علماء الاجتماع حول طبيعة أهداف النظرية السوسيولوجية من أمثال "ميلز" الذى يحدد ثلاثة أسئلة عامة، تدرج تحت كل منها عدد من التساؤلات الفرعية الأخرى التى تدور حولها النظرية السوسيولوجية للإجابة عليها بصورة مستفيضة ومعمّزة وهى:

١- ماهى طبيعة البناء الاجتماعى للمجتمع العام؟ وما أهم مكوناته الأساسية، وكيف ترتبط بكل منهما الآخر؟ وكيف يختلف البناء الاجتماعى عن غيره من البناء الأخرى؟ وماهى الأدوار التى تقوم بها العناصر الواقعية للمحافظة على البناء الواقعى أو تغييره؟.

٢- ماهو موضع هذا المجتمع الحديث فى التاريخ الإنسانى؟ وماهى أسباب وآليات تغييره؟، وماهو موضع هذا المجتمع فى تطور الإنسانية ككل؟، وماهى الخصائص والسمات العامة التى تميز هذه الفترة التاريخية (للمجتمع الحديث) وإلى أى حد تختلف عن الفترات التاريخية الأخرى؟.

٣- ماهى أهم أنماط القيادات الإنسانية التى لها طابع السيادة فى هذا المجتمع (الحديث)؟ وهل سيحدث تغير فى أنماط هذه القيادات فى الفترات المستقبلية؟. وماهى أهم السبل أو الوسائل التى يتم بها اختيار هذه القيادات، وهل بالفعل تلعب هذه القيادة فى عمليات تكوين الوعي وتشكيله وتزيينه؟، وماهى طبيعة أشكال الحياة الاجتماعية (البشرية) والسلوك المصاحب لها وكما نلاحظه فى المجتمع الحديث؟.

- دراسة الظواهر الاجتماعية والظواهر الطبيعية:

على أية حال، إن تحليلات كل من تيماشيف و"ميلز" لو تساؤلاتهم السابقة، تؤكد لنا على مدى أهمية وجود النظرية السوسيولوجية وطبيعتها، ودورها الوظيفى فى تطور علم الاجتماع، وإلى أى حد يمكن أن توصف النظرية السوسيولوجية بالتعقيد مقارنة بالنظريات الطبيعية الأخرى مثل النظرية العلمية، أو الطبيعية أو الكيميائية. ويمكن الإشارة بصورة موجزة إلى الاختلافات القائمة بين الظاهرة الطبيعية والسوسيولوجية كما يلى:

١- التّعقيد، تعتبر الظاهرة الاجتماعية أكثر تعقيداً من الظواهر الطبيعية التي تقوم بدراستها النظريات الطبيعية، نظرياً لتداخل مجموعة من الأسباب والعوامل المفسرة أو المشكلة للظاهرة الاجتماعية.

٢- الموضوعية، توجد صعوبة بالغة من حيث موضوعية الباحثين والعلماء عند دراساتهم للنظرية السوسيولوجية، نظراً لتداخل إيجابياتهم ومعتقداتهم حول تشكيل وتفسير الظواهر الاجتماعية المدروسة، على خلاف دراسة الظواهر الطبيعية يصعب التداخل في مكوناتها بواسطة العلماء مثل علماء الكيمياء أو الطبيعية عندما يحللون ظواهر الطبيعة.

٣- التجربة، بالرغم من اهتمام علماء العلوم الاجتماعية باستخدام التجربة عند دراسة المشكلات والظواهر الاجتماعية، إلا أن هذا الاستخدام لا يزال محدوداً مقارنة باعتماد علماء الطبيعة على التجربة كمحك أو مقياس عام لدراساتهم للظواهر الطبيعية.

٤- القوانين، حققت العلوم الطبيعية شوطاً كبيراً في مجال الوصول إلى تعميمات واستنتاجات وقوانين عامة في كافة المجالات، على خلاف العلوم الاجتماعية التي من الصعب التوصل إلى قوانين اجتماعية في الجريمة والانحراف والتفكك وغيرها.

٥- التنبؤ، بالرغم من تطور أساليب البحث العلمي الاجتماعي وإمكانية إحراز عدد من التوقعات والتنبؤ العلمي المستقبلي بحدوث الظواهر الاجتماعية، إلا أن ذلك لا يزال قليلاً مقارنة بما وحققته العلوم الطبيعية في كافة المجالات عند دراسة الظواهر الطبيعية الخارجية.

## ٢- النظرية السوسيولوجية وتطور علم الاجتماع:

في إطار تحليلنا للخصائص العامة للنظرية السوسيولوجية نطرح بصورة موجزة، لعدد من الوظائف التي تقوم بها تجاه البحث العلمي السوسيولوجي وهذا ما جاء على سبيل المثال في كتابات الكثير من علماء الاجتماع التقليديين من أمثال جود وهات Good & Hatt اللذان أشارا إلى عدد

من الوظائف تقوم النظرية الموسيولوجية بانجازها عامة وهى:

- ١- تحديد أنواع البيانات وتجريدها.
- ٢- تقديم اطار نظورى يقوم بتنظيم وتصنيف الظواهر المدروسة.
- ٣- الوصول إلى الحقائق واصدار التعميمات حولها.
- ٤- تساعد على التنبؤ.
- ٥- تساعد على تحقيق المزيد من المعرفة الانسانية بصورة مستمرة.

ويتضح من مجموعة الوظائف السابقة، التى جاءت فى التحليلات الكلاسيكية لكل من "جود" و"هات"، أن النظرية الموسيولوجية تعتبر شيئاً أساسياً وجوهرياً، ولاسيما أنها تساعدنا فى جمع البيانات وتحديدتها، وتقديم إطار نظورى يوجه عملية تجميع البيانات والمعلومات التى تصل إليها، والسعى للوصول للحقائق والقوانين العامة، والقدرة على التنبؤ، وإثراء المعرفة الانسانية. فبالإضافة إلى هذه الوظائف، نستطيع أيضاً أن نصنف عدداً من الوظائف الأخرى، التى تعتبر مكملة للدور الوظيفى الذى تقوم به النظرية الموسيولوجية ومن أهمها:

- ١- تساعد فى عملية تفسير العلاقات السببية المشكلة للظواهر الاجتماعية.
- ٢- تحديد أوجه النقص المعرفى وتقوم بتزويده للعقل البشرى.
- ٣- تسهم فى عمليات التطبيق العلمى والعملى فى مجالات الحياة الاجتماعية.
- ٤- تساعد فى تطوير المناهج العلمية "الموسيولوجية".
- ٥- تثرى من أدوات جمع البيانات وتحديثها.
- ٦- تساعد فى عملية التحليل العلمى واضفاء السمة العلمية على الدراسات الاجتماعية.

٧- تسهم فى عملية المقارنة والتحليل والربط بين الظواهر المدروسة.

٨- تحديد المفاهيم، والفروض، والتعريفات العلمية المستخدمة فى مجال الدراسات النظرية للمجردة والتطبيقية (الميدانية).

٩- تنوع مجالات البحث السوسولوجى وزيادة الفروع العلمية المتخصصة فى علم الاجتماع.

١٠- تعمق مجالات البحث بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية والطبيعية المختلفة، أو ما يعرف بتعزيز المدخل اللبىنى بين العلوم.

من ناحية أخرى، إن تطور النظرية السوسولوجية وإسهامها فى عمليات التحديث المستمر لعلم الاجتماع، مرتبط بصورة كلية بمدى إسهام الجانب التطبيقى لهذا العلم وفروعه المختلفة فى إثراء النظرية السوسولوجية ذاتها. وهذا ما يكشف لنا من التحليلات السابقة، التى أشرنا إليها عند تناولنا لجوانب المعرفة العلمية التى تتكون من شقين أساسيين وهى: الجانب الحسى الخارجى وما يسمى بدراسة الوقائع Concert، والتى حصل عليها من خلال مشاهدة الظواهر الخارجية عن طريق الحواس المعروفة. وأيضاً، الجانب العقلى المجرد، الذى يعتمد على نقل الأفكار وفهمها وتعليلها وتحليلها وتفسير أسباب حدوثها وكيفية تكرارها عامة، كما يسهم هذا الجانب (النظرى المجرد)، فى تحديد المفاهيم، والفروض والتصورات التى تشكل جانب كبير من جوانب المعرفة العلمية. وبإيجاز، فإن النظرية السوسولوجية، كنتاج للمعرفة العلمية، أو باعتبارها نظرية علمية تتكون من الجانبين الحسى، والعقلى فى نفس الوقت، وهذا ما تبلور عموماً فى تحليلات علماء النظرية السوسولوجية للعلاقة التبادلية بين النظرية والواقع التطبيقى.

ومن ثم، يمكن القول بأن النظرية السوسولوجية، لها مجموعة من الوظائف التى تسهم بدورها فى تطور علم الاجتماع، كما وضحنا ذلك سابقاً، فى نفس الوقت الجانب التطبيقى ومجالات البحوث الميدانية المتخصصة فى فروع هذا العلم وتسهم أيضاً فى إثراء وتطور النظرية السوسولوجية، ذاتها ويمكن الإشارة إلى عدد من هذه الوظائف للجوانب التطبيقية فى إثراء النظرية

كما يلي:

١- الوظيفة الأولى: المساعدة في تكوين النظرية الموسيولوجية، فعن طريق ملاحظة الشواهد الواقعية وتكرارها، يمكن تكوين المفاهيم، والفروض، والقوانين النظرية، ولا سيما أن النظرية لا يمكن أن تتكون إلا من خلال ما تم جمعه في الواقع الخارجى.

٢- الوظيفة الثانية، تعديل وإعادة صياغة النظرية الموسيولوجية، فعملية البحث العلمى التطبيقى والميدانى المستمر، تؤدى إلى اكتشاف المزيد من الحقائق والوقائع الجديدة التى تسهم فى عملية إعادة للنظريات وتعتبرها حتى تتلاءم مع هذه الحقائق وهذا فى حد ذاته إحدى خصائص النظرية الموسيولوجية وهى القابلة للتعديل والتفسير والتطور.

٣- الوظيفة الثالثة، إثبات صدق النظرية الموسيولوجية، حيث تحتاج للنظرية بصورة مستمرة لتوضيحها، وإثبات مدى صحتها وذلك عن طريق إجراء التجارب والدراسات الميدانية، للتأكد من مدى صحتها واكتمال شروطها ومكوناتها، حتى يمكن توصيلها إلى قوانين وتعميمات عامة.

### ٣- حدود النظرية الموسيولوجية:

فى إطار تحليلنا لطبيعة النظرية الموسيولوجية كأحدى النظريات العلمية تطرح كثيراً من المناقشات والجدل المستمر ليس فقط بين المتخصصين فى مجال النظرية أو التنظير الموسيولوجى، ولكن أيضاً بينها المهتمين والباحثين والدارسين عموماً لعلم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية ككل. وهذا ملاحظناه بالفعل، خلال عملية تحليلنا لتراث النظرية الموسيولوجية خلال القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرين، فلاحظنا تحلل طبيعة النظرية الموسيولوجية والمشكلات أو الصعوبات المرتبطة بها، مكانه هامة فى كتابات وتحليلات علماء الاجتماع حتى البدايات الأولى من القرن الحادى والعشرون، وسوف نظل هذه المشكلة (طبيعة النظرية الموسيولوجية) والتحليلات المرتبطة بها، قضية هامة بين المتخصصين عموماً، فى مجال علم الاجتماع وفروعه المختلفة. ولا سيما، بعد أن لاحظنا، أن هناك كثير من



العلاقات المتداخلة التي تشكل وتكون النظرية السوسيولوجية ذاتها كأحد أنماط الأنشطة العقلية التي ينتجها العقل أو التفكير الإنساني.

على أية حال، توجد مجموعة من الصعوبات التي تواجه النظرية السوسيولوجية، والتي يمكن أن يطلق عليها بالحدود التي ترتبط أو تتعلق بهذه النظرية. ولاسيما، أن طبيعة النظرية السوسيولوجية، والتقدم الذي أحرزته في مجال تطور وتحديث ليس فقط علم الاجتماع ولكن فروعها المتخصصة وغيره من العلوم الاجتماعية والطبيعية الأخرى، تشكل نوعا من التقدم العلمي في مجال التطوير وكعملية علمية وأكاديمية مستمرة يقدم عليها الكثير من المتخصصين في مجال علم الاجتماع (النظرية السوسيولوجية)، الذي يعتبر من أهم المجالات المتخصصة في هذا العلم، ومكانته العلمية المتميزة بين المشتغلين بعلم الاجتماع وفروعها المتنوعة. ويمكن أن نعرض بصورة مختصرة لأهم الصعوبات أو الحدود التي تحد من النظرية السوسيولوجية، وتعتبر بمثابة معوقات تواجهها في عمليات البحث العلمي وتطوير علم الاجتماع ككل.

#### (١) التوجه الأيديولوجي.

تعتبر النظرية السوسيولوجية ومكوناتها الأساسية وطبيعتها بصورة عامة، نوع من المعرفة العقلية، التي تتكون من الجانبين الحسي (المعرفة الحسية)، والجانب الوجداني (المعرفة العقلية)، أو التي تستند إلى العقل والمكونات الفكرية والعقائدية والتأملية والفلسفية التي تشكل هذه المعرفة. والنظرية السوسيولوجية ما هي إلا نتاج لعدد من التوجهات الأيديولوجية المتصارعة في العالم، وهذا ما ظهر على وجه الخصوص خلال القرن الماضي (العشرين)، وما يعكس لنا تحليل تراث النظرية السوسيولوجية في مرحلة للنشأة والتكوين الأولى. فلقد ظهرت نظريات سوسيولوجية متصارعة الفكر الأيديولوجي أو الأساس الفكري والعقائدي والسياسي الذي يوجه علماء هذه النظريات أو مؤسسي علم الاجتماع ذاته. وبالرغم من تعزيز هذه الأيديولوجيات للأسس الفكرية والعقلية التي قامت عليها النظريات السوسيولوجية، إلا أنها لا تزال عائقاً في تطوير هذه النظريات ذاتها أو تكوين

نظرية سوسيولوجية وعلمية متكاملة. وهذا ما ظهر على سبيل المثال، فى وجود نظريات رأسمالية أو وظيفية تقليدية محافظة، وأخرى كونت الطابع الأيديولوجى الماركسى وأخذت مدخل الصراع كمدخل الضغط أو كأساس نظرى توجه من خلاله جميع انماط الفكر العلمى بما فيها النظريات السوسيولوجية، وهذا ما يشكل عموماً، معوقاً أساسياً فى تطوير هذه النظريات، مقارنة بغيرها من النظريات العلمية والتطبيقية التى تتميز بها العلوم الطبيعية.

## (٢) التعقيد.

يرتبط هذا البعد أساساً بطبيعة الظواهر الاجتماعية التى تهتم بمعالجتها النظرية السوسيولوجية، ويعتبر التعقيد نوع من التقيد أو جعل معالجة هذه النظريات السوسيولوجية محدوداً فى مجال تحقيق نوع البحث العلمى المتطور. ولقد أشرنا سابقاً، فى إطار توضيحنا الموجز والمقارن بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية، أن الظواهر الأخيرة تعتبر من الظواهر التى يصعب دراستها مقارنة بغيرها (الظواهر الطبيعية). لأن طبيعة هذه الظواهر، وعملية تفسيرها تعتمد على العامل الواحد أو للسبب فى حدوثها، أما الظواهر الاجتماعية، فتتعدد العوامل والاسباب التى تشكلها أو تكونها عامة، وهذا ما يصعب عملية تحليلها. فنجد على سبيل المثال، أن ظاهرة الاجرام، أو ارتفاع معدلات الجريمة والانحراف، لا يمكن أن يكون الفقر، سبباً أوحد لحدوثها، بقدر ما نجد أيضاً طبيعة الدين، والتشريعات الاجتماعية، والقوانين، والعادات والتقاليد، والظروف العالميه والمحلية جميعها تسترك فى زيادة مشكلة أو ظاهرة اجتماعية واحدة، وتتدخل جميعها فى تكوينها أو حتى الآثار التاريخية عنها بصورة عامة.

## (٣) المنهج العلمى.

لاتزال مشكلة المنهج العلمى من المشكلات الهامة التى تواجه ليس فقط نظريات علم الاجتماع، ولكن أيضاً عمليات تطبيق هذه النظريات وجمع البيانات والمادة العلمية اللازمة التى يهتم بها علماء الاجتماع، عند دراسة

المشكلات والظواهر والقضايا الاجتماعية على المستويين النظري والميداني. وبالرغم من تنوع اعتماد العلماء والباحثين على كل من المنهجين (التاريخي) و(التجريبي)، في دراستهم الاجتماعية. لأن عملية استخدام كل منهما لا يزال يواجه مشكلات متعددة تضيف نوع من الغموض في التحليل والتفسير العلمي المرتبط باستخدام هذه المناهج وهذا ما يجعل عموماً علاقة النظرية السوسيولوجية بالمشكلة البحثية والمنهجية بصورة عامة، تحتاج للمزيد من الدراسة والتحليل لتطورها، وتوضح عملية تبني المناهج المناسب عند اختيار مشكلات البحث والدراسة أو الاستراتيجية المنهجية عامة.

#### (٤) تحديد أنواع جمع البيانات العلمية (السوسيولوجية).

ترتبط هذه المشكلة بمشكلة المنهج العلمي من ناحية، وطبيعة النظرية السوسيولوجية من ناحية أخرى. خاصة، وإن عملية اختيار أنواع جمع البيانات المختلفة والمتعددة مثل المقابلة والاستبيان، والملاحظة، ودراسة الحالة، وتحليل المضمون وغيرها، تتخذ حسب نوعية كل من البحوث أو الدراسات الميدانية والنظرية. بالإضافة إلى مدى لفتتاح للباحثين حسب أهمية وملئمة كل منهما، بنوعية العينة المستهدفة وطبيعتها وخصائصها- وهذا ما يجعل هناك نوع من التخصص أولاً قبل إجراء الجانب الميداني للدراسة، حسب العلاقة المرتبطة بين كل من النظرية والمنهج والأداة المستخدمة، بالإضافة طبعاً لطبيعة البحث أو الدراسة ذاتها.

إلا أننا نلاحظ، أن عملية تحديد هذه العلاقة لا تزال تشكل نوعاً من الصعوبة الذي تواجه الباحثين، ولا سيما الذين لديهم نوع من الغموض واللبس حسب طبيعة كل من الأطار التصوري (النظري)، والاستراتيجية المنهجية عامة، والتي يهتم بها الباحثين وضرورة تحديدها مسبقاً بالإضافة إلى ذلك، لا يزال يوجد خلافاً أو جدل بين علمياً بين علماء المناهج السوسيولوجية وجدل وحول تحديد ماهية بعض أنواع جمع البيانات. مثل، تحديد ماهية دراسة الحالة أو تحليل المضمون وهل يمكن تصنيفهما على أنهما من مناهج البحث السوسيولوجي أو من طرق جمع البيانات التي تستخدم في العلوم الاجتماعية ومنها بالطبع علم الاجتماع.

## (٥) التفسير والتحليل.

حقيقة، لقد أثرت النظريات السوسيولوجية فى تفسير وتحليل العديد من الظواهر والمشكلات والقضايا التى قام بدراستها علماء الاجتماع منذ ظهور هذا العلم فى البدايات الأولى من القرن التاسع عشر. إلا أن طبيعة النظريات السوسيولوجية لاتزال تواجه مشكلات عديدة عند تفسير الكثير من المشكلات والظواهر الاجتماعية والآثار الناتجة عنها ولاسيما خلال السنوات الأخيرة. ومرجع هذه الصعوبة، أولاً إلى الشكل البنائى للنظرية السوسيولوجية ومكوناتها الأساسية، فلاتزال هناك الكثير من مظاهر الغموض حول طبيعة المفاهيم والمصطلحات والتعريفات، التى تحدد طبيعة المضمون اللغوى المستخدم لطبيعة النظرية السوسيولوجية. كما ترجع صعوبة التفسير أيضاً، إلى إزدواجية وتعدد الأطار التصورى والايديولوجى الذى يقوم باستخدامه علماء الاجتماع عند تفسيرهم للظواهر الاجتماعية، واسباب وجودها أو تفسير نتائجها وهذا ما يحدث، مثلاً عند تفسير النظرية السوسيولوجية للرأسمالية أو الماركسية لقضية الطبقة العاملة على سبيل المثال. أو مشكلة الديمقراطية، وحقوق الإنسان وغير ذلك من مفاهيم يصعب تفسيرها وتحليلها، إلا من خلال تحليل كل من النسق الوجودى، والابستمولوجى، الذى يكون النظرية السوسيولوجية، كنظرية معرفية من الدرجة الأولى.

## (٦) القدرة على التنبؤ.

يكشف تحليل التراث العلمى للنظرية السوسيولوجية، مدى محدودية هذه النظرية وقدرتها على عملية التنبؤ، وخاصة أنها تعالج بالدراسة والتحليل المشكلات والقضايا والظواهر الاجتماعية، التى تزداد بصورة مضطردة ومتلاحقة، وهذا ما نشاهده خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، قضايا الجريمة، والاحتراف، والفساد بأنواعه، والبيئة، والفقر، والاحتلال الاخلاقى، والتفكك الأمري على سبيل المثال، جميعها مشكلات اجتماعية تزداد نتائجها السلبية على كل من الفرد والأسرة والمجتمع المحلى والقومى والعالمى معاً. وهذا ما يوجه انتقادات بالجملة إلى علم الاجتماع والعاملين به، ولاسيما من قبل القائمين على صنع القرارات والسياسات الاقتصادية والاجتماعية. وخاصة

أصحاب الصفوة العسكرية والسياسية، ومحدودية دورهم فى التنبؤ بالمشكلات الاجتماعية واثارها السلبية. ولكن بالطبع، هذا يرجع بصورة أساسية إلى تعقد أسباب حدوث هذه المشكلات، فكثيراً منها يرجع إلى فساد الصفوة الحاكمة سواء أكانت سياسية لم عسكرية لم متقفة فى نفس الوقت، والبعض منها يرجع إلى قلة ما يوجه للبحث العلمى عموماً والاجتماعى خاصة من اهتمامات مادية ومعنوية.

#### (٧) القوانين والتعصيمات.

تكشف عملية التنبؤ السابقة، عن مدى تعقد الظاهرة الاجتماعية مقارنة بغيرها من الظواهر الطبيعية الأخرى، فدراسة ظواهر مثل الزلازل، والبراكين، وخسوف القمر، وكسوف الشمس، أو حدوث الأعاصير، وغيرها من ظواهر ومشكلات بيئية من السهل وضع قوانين طبيعية حولها وهذا ما يكشف عنه التراث العلمى للعلوم الطبيعية ووضع قوانين مثل الحرارة، والجاذبية، والطفو، وقوانين الطبيعة المتعددة التى يتفق حولها العلماء عند تفسيرهم للظواهر التى يدرسونها. ولكن على النقيض من ذلك، نجد أن الظاهرة الاجتماعية يصعب وضع قوانين عامة يتفق حولها العلماء مثل الجريمة، والفقر والاحتراف، والطلاق، وتنظيم الأسرة، والفساد، والتنمية، والتخلف لان جميعها تختلف حسب نوعية المجتمعات وبنائها ونظمها وسياساتها وظروفها التاريخية والاجتماعية وغير ذلك من عوامل متنوعة.

#### (٨) صعوبة وجود نظرية سوسولوجية شاملة.

تجمع آراء علماء النظرية السوسولوجية والعاملين عموماً فى مجال علم الاجتماع، على وجود صعوبة نحو تكوين نظرية سوسولوجية متكاملة وشاملة حتى المرحلة الراهنة. هذا بالرغم من إمكانية التفاوض فى المراحل المستقبلية بظهور مثل هذا النوع من النظريات السوسولوجية الشاملة. ويرجع هذا التفاوض الحذر الأخير، إلى دراسة التطور التاريخى للنظريات العلمية الطبيعية والتى تسبق ظهور النظريات السوسولوجية والاجتماعية بعدة قرون طويلة من الزمان، والتى ظهرت (النظريات العلمية) بنفس الأسلوب التطورى الحادث بالفعل للنظريات السوسولوجية. حقيقة، أننا نلاحظ فى السنوات

الأخيرة، وجود تقارب فكري وأيديولوجي بين النظريات السوسيولوجية المتصارعة الأهداف والأيدولوجيات. وهذا ما ظهر مؤخراً فيما يسمى بالنظريات أو المداخل المحدثّة التي تجمع بين النظريات البنائية الوظيفية والصراع في نفس الوقت، أو ما يسمى بمدخل الصراع البنائي، وهذا ما سنشير إليه في الجزء الثاني من كتاب النظرية السوسيولوجية المعاصرة. على أية حال، يرجع الكثير من علماء الاجتماع إلى عدم وجود نظرية سوسيولوجية شاملة، لطبيعة الانقسام الفكري والمعرفي والأيديولوجي، لدى علماء الاجتماع أنفسهم أو حتى تميزهم بين ما يسمى بالنظريات الكلية الشاملة التي تجعل من المجتمع وحدة للتفسير، أو الأخرى التي تجعل من الفرد أو البناءات والنظم وحدة للتفسير والتحليل. وهذا ما يعكس عملية انقسام النظرية السوسيولوجية من ناحية الشكل والمضمون، والطابع الأيديولوجي في نفس الوقت.

### مناقشة وتعقيب:

مع نهاية القرن العشرين تعددت المشكلات والقضايا والمجالات الاجتماعية، التي يهتم بدراستها وتحليلها علماء الاجتماع والمتخصصين فيه، وجاءت النظرية السوسيولوجية من أهم المجالات التي لاقت اهتماماً ملحوظاً ولاسيما في السنوات الأخيرة من ذات القرن (الماضي)، واستقطبت بالفعل مجموعة كبيرة من المشتغلين بعلم الاجتماع، وخاصة بعد أن تعرضت النظرية للعديد من النقد والتعديل وعمليات التقييم المستمر. كما جاءت معظم هذه الانتقادات أو عمليات التقييم متناولة دراسة طبيعة النظرية السوسيولوجية - كنظرية علمية - وأهم الخصائص والسمات والشروط والمكونات التي يجب أن تكون عليها هذه النظرية. علاوة على ذلك، ناقشت معظم الاهتمامات الدور الوظيفي للنظرية في تطوير علم الاجتماع، ومعرفة الصعوبات أو الحدود التي لا تزال تقف حائلاً دون تحديث النظرية السوسيولوجية أو وضع تنبؤية شاملة ومتكاملة لعلم الاجتماع.

بالإضافة إلى ذلك، لقد أثرى علم الاجتماع ذاته والفروع المتخصصة فيه من الدراسات النظرية والامبيريقية (الميدانية)، من عملية تطوير النظرية السوسيولوجية وتحديثها بصورة مستمرة. وهذا ما يعكس عموماً، تكامل

النظرية العلمية باعتبارها نمط من أنماط المعرفة العقلية التى تتجمع بالفعل عن طريق الملاحظات الحسية التى توجد فى الواقع، وأيضاً التى يقوم العقل بتجميعها وتحليلها وتفسيرها، وهذا ما يعرف عموماً بمكونات المعرفة العلمية التى تجمع بين كل من المعرفة الحسية والعقلية. ولقد تطورت عمليات تقييم النظرية السوسيولوجية من ناحية معرفتها مدى تكامل الشروط والخصائص اللازمة لها، كمنظرية علمية حديثة مقارنه بغيرها من النظريات العلمية الطبيعية أو المعرفية الأخرى. كما جاءت الكثير من الدراسات الحديثة أو التقليدية لتوضيح عموماً جوانب النقص والعجز أو الغموض، الذى لايزال يكتنف النظرية السوسيولوجية، ويجعلها بعيدة عن الوصول إلى موجة التقدم العلمى الذى وصلت إليه النظريات العلمية والطبيعية الأخرى.

وبالرغم من جوانب الغموض واللبس، التى لاتزال تحيط بدراسة النظرية السوسيولوجية وتعمق كثيراً من حركة التنظير فى علم الاجتماع، إلا أن جهود علماء هذا العلم أسهمت بصورة جادة فى تطور وظائف النظرية السوسيولوجية مما يساعد كثيراً فى تنوع القضايا والمجالات والفروع المتخصصة، التى أسهمت بدورها فى تعزيز كل من النظرية السوسيولوجية ونوعية المناهج وطرق وأدوات البحث الاجتماعى بصورة عامة. فى نفس الوقت، لقد أدى الإثراء النظرى السوسيولوجى إلى تنوع استخدامات علماء الاجتماع للمناهج التحليلية المقارنة، أو التى تهدف إلى زيادة سبل التعاون العلمى بين العلوم الاجتماعية من ناحية والعلوم الطبيعية من ناحية أخرى، وذلك فى إطار ما يعرف بالمناهج المتداخلة بين العلوم الطبيعية والاجتماعية كلية، وذلك بهدف تعزيز النظرية العلمية، ومع الأخذ فى الاعتبار، مدى انتماءاتها الفكرية والأيدولوجية، لأنها عموماً تهدف إلى خدمة المجتمع البشرى عامة.

على أية حال، إن دراسة مجال النظرية السوسيولوجية ومعرفة طبيعتها وخصائصها ومكوناتها الأساسية، يعتبر من أهم المجالات، التى لاتزال تحتاج للمزيد من الدراسة والتحليل والتفسير والتوضيح عموماً للباحثين والمتخصصين عموماً فى مجال علم الاجتماع وفروعه المتخصصة المختلفة.

هذا بالإضافة إلى، أن طبيعة الظواهر الاجتماعية والقضايا التي يهتم بها علم الاجتماع عموماً تزداد تعقيداً بصورة مستمرة وهذا ما نلاحظه مع نهاية القرن العشرين، والتي تنذر أيضاً بمزيد من التعقيد والتعدد والتداخل. وهذا عموماً، يجعل علم الاجتماع والمتخصصين فيه يركزون في المرحلة الحاضرة، لتعزيز أطرهم الفكرية والنصورية، الموجهة لأجراء المزيد من الدراسات النظرية والميدانية عامة، التي تهدف لمواجهة المشكلات والظواهر الاجتماعية، التي سوف تظهر في القرن الحادي والعشرين، والتي تنبئ عموماً بالمزيد من النتائج السلبية التي تواجه البشرية ككل.



## أهم المراجع المستخدمة:

### أولاً: المراجع العربية والمترجمة:

١. إيان كريب، النظرية السوسيولوجية، ترجمة محمد غلوم، سلسلة عالم المعرفة العدد (٢٤٤) للمجلس الوطنى للعلوم والفنون والآداب، الكويت، إبريل ١٩٩٩.
٢. بوتومور، تمهيد فى علم الاجتماع، ترجمة: محمد الجوهري وآخرون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢.
٣. سمير نعيم، النظرية فى علم الاجتماع، القاهرة مكتبة سعيد رافت، ١٩٧٧.
٤. عبدالباسط محمد حسن، علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٧٧.
٥. عبدالله عبدالرحمن، علم الاجتماع: لنشأة وتطور، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.
٦. نيقولا تيمائيف، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة وآخرون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢.

### ثانياً: المراجع الأجنبية.

1. Aron, R., Main Currents in Sociological Thought, vol: (1) N.y: Basic Books, 1965.
2. Bendix, R., (ed) Scholarship and Partis, Ship California Press, 1975.
3. Collin, R. (ed) Sociological Theory, San Fron Sisco, Jossey. Bass, 1983.
4. Collins, R, Four Sociological Theories, N.Y: Oxford Pres, 1994.
5. Fichter, J. Sociology, Chicago: Chicago Univ. Press, 1957.

6. Giddens, A, *Sociology*, Cambridge, Politics Press, 1989.
7. Goode, W., & Hail, *Method in Social Research*, London: Mc Grow-Hall Inc, 1956.
8. Gouldner, A, *The Coming Crisis of Western Sociology*, N.y: Basic Books, 1970.
9. Horton P. & c. Hunt, *Sociology*, N.Y, MC Graw Hill, 1964.
10. Inkeles, A, *What is Sociological Theory*, San Fran Cisco, Jossey-Bass, 1983.
11. Inkeles, A, *What is Sociology/* N.J: Englewood: Prentic Hall, 1964.
12. Johnson, p, *Sociological Theory*, N.Y: Willey 1981.
13. Mills, C.W, *The Sociological Imagination*, London: Oxford Univ. Press, 1969.
14. Nisbet, R, *The Sociological Tradition*, London, 1970.
15. Rosenta, R, & P. Yubin, *A Dictionary of Philosophy*, Masco Progress. Pub, 1967.
16. Selitize, c, (etal) *Research Methods in Social Relations*, Holt Rienchat, 1961.
17. Smelser, N, *Sociology: An Introduction*, N.Y: Wiley, 1967.
18. Thompson, p, *The Poverty of Theory*, London: Merlin Press, 1975.
19. Turner, J. *The Struture of Sociological Theory*, Homewood IIE, Dorsey Press 1982.
20. Wagner, D, *The Growth of Sociological Theory*, Bererly Hills, Calif. Sage, 1984.
21. Wagner, D & J. Berger, *Do Sociological Theories grow*, *American Journal. of Sociology*, vol (6), 1964.
22. Wardell, M & S. Turner (ed) *Sociological Theory Transition*, Boston: Allen and Univ, 1986.

23. Weber, M, Theory of Social Organization, N.Y, The Free Press, 1947.
24. Willer, D, Scientific Sociology : Theory & Method, N.j:Prentic Hall, 1967.
25. Zelman, I, Ideology and The Development of Sociological Theory, N.J: Prentic Hall, 1986.

### الفصل الثالث

#### تقييم النظرية السوسيولوجية وتصنيفاتها.

تمهيد:

##### (١) تقييم النظرية السوسيولوجية.

- ١- المحاولات المبكرة لتقييم النظرية السوسيولوجية.
- ٢- المحاولات المعاصرة لتقييم النظرية السوسيولوجية.

##### (٢) تصنيف النظرية السوسيولوجية وأبعادها.

- ١- التصنيف على أساس البعد التاريخي.
- ٢- التصنيف على أساس البعد الجغرافي.
- ٣- التصنيف على أساس المنهج.
- ٤- التصنيف على أساس النماذج المستعارة.
- ٥- التصنيف على أساس الأصول الفلسفية.
- ٦- التصنيف على أساس البعد السوسيولوجي.
- ٧- التصنيف على أساس البعد الأيديولوجي.

مناقشة و تعقيب.

## تمهيد:

تتميز النظرية السوسيولوجية كنظرية علمية بأن لها مجموعة من الخصائص العامة والسمات التي تتصف بها، كما توجد بها عدد من المكونات أو الشروط التي تجعلها تتدرج تحت إطار مفهوم النظريات العلمية من حيث الشكل والمضمون والهدف والغاية. ولقد لوحظ من خلال تحليلنا للتراث النظري لعلم الاجتماع التقليدي والمعاصر، انه توجد عدة محاولات علمية واجتهادية مستمرة من قبل المهتمين عامة بعلم الاجتماع والمتخصصين خاصة في مجال النظرية السوسيولوجية، ولذلك من أجل تقييم النظرية السوسيولوجية ومعرفة ما لها وما عليها، أو محاولة وضعها موضع نقد وتحليل وتقييم، وما يوصف أحياناً في دراسة النظرية، موضع النظرية السوسيولوجية في (الميزان)، أي تقييمها. وهذا ما حدث بصورة مستمرة خلال نشأة وتطور علم الاجتماع ونظرياته ومناهجه، وطرق وأدوات جمع بياناته وقدرته بصورة عامة على تحديث وسائله لدراسة القضايا والمشكلات والظواهر الاجتماعية.

ومن هذا المنطلق، يتضح لنا من خلال استخدامنا لمفهوم عملية التقييم (Evaluation Process) هي دراسة الحالة الحاضرة أو التي وصلت إليها النظرية السوسيولوجية وما تسهم به بالفعل في تطور علم الاجتماع وفروعه المختلفة. وما ينبغي أن تكون عليه هذه النظرية، من أجل تعزيز فاعليتها وكفاءتها كأداة علمية لها وظيفه في تطوير سبل البحث العلمي النظري أو البحثي المنهجي في نفس الوقت. وقبل الإشارة إلى اهتمام علماء الاجتماع أو النظرية العلمية والسوسيولوجية والمحكات والمقاييس Criteria، التي على أساسها نعمل عملية التقييم. حيث تعتبر من الموضوعات والقضايا التي ليس من السهل الوصول أو الاتفاق عليها من جانب المتخصصين في علم الاجتماع عامة. وهذا ما يفسر عموماً سبب عدم اتفاق العلماء على وجود نظرية سوسيولوجية، يمكن أن يطلق عليها مصطلح النظرية المتكاملة والشاملة. وهذا ما أشرنا إليه عند تحليلنا لطبيعة حدود النظرية السوسيولوجية - كنظرية علمية - أو مجموعة الصعوبات التي لا تزال تواجهها بصورة عامة سواء عند تقييم النظريات أو تصنيفها، ولاسيما أن عملية التقييم والتصنيف لا تزال تواجه كل

منهما الكثير من العقبات، كما يكشف ذلك تحليل طبيعة التراث العلمى وتباين وجهات نظر علماء الاجتماع حول الكثير من القضايا المرتبطة بهما، وهذا ما سنعالجه خلال هذا الفصل.

ولكن قبل أن نبدأ بعملية التقييم للنظرية السوسيولوجية أن يجب أن نشير إلى حقيقة أخرى مؤداها: أن النظرية السوسيولوجية تعالج وتدرس الظواهر الاجتماعية التى تتميز بالصعوبة والتعقيد مقارنة بالظواهر الطبيعية أو البيولوجية الأخرى. وهذا ما يفسر عموماً الأسباب التى أدت إلى تطوير الظواهر الأخرى، وكيفية دراستها وتحليلها والوصول إلى القوانين والتعميمات العامة حولها. وهذا بالفعل ما يظهر من خلال مدى تعاضم المشكلات والظواهر والقضايا الاجتماعية التى تزداد تعقيداً خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وتركزت بصمتها واضحة المعالم أمام الباحثين والمهتمين عموماً بدراسة مشكلة السياسات ووضع الاستراتيجيات العامة، وخاصة لعمليات الإصلاح والتطوير والتحديث. ومن ثم، يجب أن نأخذ فى الاعتبار، الاختلاف والتمايز بين طبيعة النظرية السوسيولوجية، وغيرها من النظريات العلمية أو المعرفية الأخرى. وبصورة أدق، يجب أن نهتم جيداً بمعرفة مدى التباين بين نوعية كل من النظرية السوسيولوجية والظاهرة الاجتماعية، وطبيعة اختلافها وتباين كل منهما عن النظرية والظاهرة الطبيعية.

### (١) تقييم النظرية السوسيولوجية:

فى الواقع، لقد ظهرت محاولات تقييمية متعددة للنظريات السوسيولوجية، ولقد جانب الكثير من هذه المحاولات الصدق العلمى من ناحية استنادها لعدد من الاسس التقييمية، التى يمكن أن تضع هذه النظريات موضع تحليل ونقد ودراسة وتقييم شامل. ولاسيما، أن بعض هذه المحاولات التقييمية لم تستند أيضاً على الاسس الموضوعية، التى يجب أن تستخدم فى عمليات التقييم أو لم توضح منذ البداية الاجراءات والخطوات أو السمات والخصائص أو الشروط والمكونات التى يجب اتباعها عند عملية التقييم العلمى للنظرية السوسيولوجية. هذا بالإضافة إلى، أن هناك عدد من العلماء أو الباحثين الذين قاموا بعملية تقييم مسبق للنظرية السوسيولوجية، بوصف عدد من النظريات

بصورة مميزة دون الأخرى، وإعتبار البعض منها ظريات علمية وواقعية يمكن الاستناد إليها في دراسة القضايا والمشكلات والظواهر الاجتماعية دون الأخرى. وجاءت عملية الاختبار والتقييم معاً، بعيدين كل البعد من الناحية الموضوعية في وصف وتقييم النظريات وتصنيف ما يصلح منها كأساس للمعرفة العلمية دون البعض الآخر، لتدخل العوامل الذاتية والأيدولوجية الخاصة، بهؤلاء العلماء والباحثين عند تبنيهم لنظريات اجتماعية وتركهم البعض الآخر.

علاوة على ذلك، كما يكشف لنا تحليل التراث النظرى لعلم الاجتماع أو بالاحرى مجال عملية تقييم النظرية السوسيولوجية، ان عملية المفاضلة بين النظريات السوسيولوجية قد تمت على أسس غير موضوعية أو علمية. فالبعض قد ينحاز إلى نظرية دون الأخرى لاسباب أيدولوجية، والبعض الآخر تبني أو انحاز لبعض النظريات السوسيولوجية نتيجة لأنها أكثر انتشاراً ورواجاً عن مثيلتها من النظريات الأخرى. كما نجد أن البعض أعطى لعدد من النظريات الأخرى، اهتماماً ملحوظاً دون الأخرى، نتيجة أن للنظريات الأولى، التى تبناها الباحث أكثر فهماً وسهولة عند دراستها أو تحليلها للقضايا والظواهر والمشكلات مقارنة بغيرها، التى يكتنفها بعض الغموض أو اللبس، أو قد أساء أو أخطى الباحث ذاته عند فهمه أو تفسيره الخطوط العامة أو القضايا الرئيسية التى تنطلق منها النظرية السوسيولوجية ذاتها. وهذا ما ظهر على سبيل المثال، عند المفاضلة بين النظريات الرأسمالية الوظيفية، أو الماركسية الشيوعية بصورة عامة خلال القرنين الماضيين التاسع عشر والقرن العشرين، وهذا ما لم يحدث تماماً عند دراسة وتقييم النظريات العلمية على الإطلاق أو المفاضلة بين قوانين تابعة دون الأخرى والنظريات البيولوجية أو الطبيعية عامة.

على أية حال، يجب علينا عند تقييم النظرية السوسيولوجية أن نتحرى الدقة والموضوعية والبعد عن الذاتية والاتجاهات الأيدولوجية، والأفكار غير العلمية أو اللاواقعية عند المفاضلة بين النظريات السوسيولوجية المتصارعة، وأن نقوم بتحديد الأسس العلمية والموضوعية التى على أساسها يتفق على

الأقل معظم العلماء والمهتمين عموماً بمجال دراسة طبيعة النظرية الموسيولوجية، أو خاصة عند عملية تقييمهم لها. كما يجب أن تشمل عملية التقييم المبادئ والمنطلقات والأسس التي تقوم عليها النظريات الموسيولوجية، وتحليل نقاط الضعف والقوة في نفس الوقت، أو عدم اغفال المميزات أو السلبيات أو المنعطفات العلمية التي قد تقع فيها النظريات الموسيولوجية عامة. وبإيجاز، يجب أن تكون عملية التقييم متسمة بالطابع العلمي الموضوعي، وهذا ما ظهر بالفعل في الكثير من المحاولات التقييمية للنظريات الموسيولوجية التقليدية والمعاصرة من جانب، الدراسات النقدية أو الراديكالية الحديثة بالفعل. ونشير حالياً إلى أهم محاولتين لتقييم النظرية الموسيولوجية الأولى، يمكن تصنيفها في إطار المحاولات التقليدية، والثانية تدرج تحت المحاولات التقييمية المحدثه.

#### ١- المحاولات المبكرة لتقييم النظرية الموسيولوجية:

وفي إطار تحليلنا لطبيعة النظرية الموسيولوجية وعملية تقييمها حالياً توجد عدد من الأسس العامة، التي يستند إليها أيضاً التقليديون خلال منتصف القرن الماضي (العشرين) وفي بداية السبعينات من ذات القرن، وعند عملية التقييم. ونود الآن أن نلخص أهمها حتى يمكن الاستفادة، أو الاسترشاد بها من قبل المهتمين أو المتخصصين عامة بدراسة مجال للنظرية الموسيولوجية، ولتساعد عموماً في مناقشة مدى صدق هذه النظريات والمعاملات التي قد استندت إليها بالفعل. ولقد جاءت عملية تقييم النظرية الموسيولوجية - كنظرية علمية - في إطار أربعة تساؤلات أساسية وهي:

١- ما الافتراضات أو المعاملات التي تدور حولها النظرية الموسيولوجية؟

٢- ما الأدلة على صدق هذه المبادئ أو عدم صدقها.

٣- ما المضمون الأيديولوجي والسياسي للنظرية، وما مدى تأثيره على المبادئ العامة أو المعاملات الأساسية للنظرية؟.

٤- ما هي أهم النتائج العامة التي تنتج عن النظرية إذا سلمنا بها وعند مناقشة



مسلماتها الأساسية والتي تقوم عليها بالفعل؟.

حقيقة، أن هذه التساؤلات الأربعة السابقة، والاجابة عليها تحتاج للمزيد من التوضيح أو التفسير المبسط و- بصورة موجزة - حتى يتعرف القارئ أو المتخصص على كيفية تقييم النظرية الموسيولوجية، وهذا ما سنشير إليه كما يلي:

- أولاً: الافتراضات والمسلمات التي تدور حولها النظرية الموسيولوجية.

طرح عدد من العلماء للتقليدين أو المعاصرين أيضاً عدد من الافتراضات Assumptions والمسلمات التي يجب أن تركز على دراستها النظرية الموسيولوجية من أمثال "جورج" G.Joberg، و"ألن جولدنر" A.Gouldner، وغالباً ما توضح هذه الافتراضات التوجه الأيديولوجي لأصحاب النظرية الموسيولوجية، ومدى تعاطفهم أو تحيزهم الاجتماعي نحو مشكلات وقضايا معينة. ولأسيما، أن معظم النظريات الموسيولوجية مثل البنائية الوظيفية، والوضعية، والماركسية، والتفاعلية الرمزية وغيرها، جميعها لها افتراضات ومسلمات معينة تجاه الواقع الاجتماعي، وطبيعة الإنسان، ونوعية الطبقات، والعالم المادي والاقتصادي وغيرها، وعموماً، لقد صنفنا هذه الافتراضات الأساسية إلى خمس فئات عامة، ويندرج تحت هذه الافتراضات عدد من الأبعاد الفرعية وهي:

١- افتراضات خاصة بطبيعة الواقع الاجتماعي The Social Reality ويندرج تحت هذا الافتراض الأبعاد الفرعية التالية:

(١) التغير والثبات في الواقع الاجتماعي.

(٢) التفاعل أو الصراع.

(٣) المادية أو المثالية.

(٤) وحدة الملاحظة والتحليل الخاصة (بالفرد أو الجماعة).

٢- افتراضات خاصة بطبيعة الانسان وقدراته The Nature of man and his Capabilities ويصنف تحت هذه الافتراضات الأبعاد التالية:

(١) الانسان وأفعاله المنطقية وغير المنطقية.

(٢) نزعة الانسان الفردية والجمعية.

(٣) قدرة الانسان على تحسين ظروف البيئة الاجتماعية.

(٤) رغبة الانسان نحو التغيير والتحديث والتعدد والثورة أيضاً.

٣- افتراضات خاصة بعلاقة الباحث بالظواهر الاجتماعية The Social Phenomena ويرتبط بهذا الافتراض عدد من الأبعاد ومن أهمها:

(١) مدى قدرة الباحث على عزل الظاهرة المدروسة لتحليلها.

(٢) مدى إمكانية الباحث وتأثره بالواقع الاجتماعي.

(٣) طبيعة تحقيق درجة الموضوعية عند دراسة الظاهرة الاجتماعية.

(٤) مدى جعل الباحث ذاته موضوعاً للدراسة والتحليل.

٤- افتراضات مرتبطة بمستوى النظرية The Level of The Theory ويندرج تحت هذا الافتراض عدد من المتغيرات مثل:

(١) تبني النظرية مستويات معقدة أو متوسطة أو صغيرة المدى.

(٢) كيفية استخدام النظرية للمواقف الإنسانية.

(٣) مدى استخدام النظرية للفروض والمسلمات الأساسية.

(٤) طبيعة المعرفة الإنسانية (الحسية والواقعية).

(٥) ما طبيعة وحدة التحليل للنظرية (الفرد، الجماعة، المجتمع الأكبر).

(٦) مدى امكانية توصل النظرية إلى القوانين العامة والخاصة.

(٧) امكانية تطور وتغيير النظرية السوسيولوجية أو تعديلها.

(٨) مدى علاقة النظرية بالواقع الخارجى.

(٩) طبيعة العلاقة بين النظرية والمنهج والادوات البحثية.

(١٠) مدى تكامل النظرية وتصارع عناصرها الواقعية.

٥- الافتراضات المرتبطة بالمتغيرات السببية أو التفسيرية & Explanation  
Causal Variables ويرتبط بهذا الافتراض عدد من المتغيرات من أهمها:

(١) المتغير التاريخى.

(٢) المتغير الاقتصادى أو التكنولوجى.

(٣) متغير القيم الثقافية.

(٤) متغير القوة الاجتماعية.

(٥) متغيرات تفسيرية أخرى.

- ثانياً: الافتراضات أو الأدلة المرتبطة بصدق استنتاجات النظرية.

يكشف تحليل التراث العلمى للنظرية السوسيولوجية، والنظريات العلمية والطبيعية الأخرى. وأن هناك علاقة وطيدة بين النظرية أى كان نوعها والواقع الخارجى، وهذا ما يعتبر أحد الخصائص والشروط والسمات الهامة التى تتصف بها النظرية، عن غيرها من مجموعة المعارف والتأملات الفكرية والعقلية غير العلمية. ومن هذا المنطلق، وجب علينا عند عملية تقييم النظرية السوسيولوجية أن نتحرى بوضوح مدى صدق العلاقة المتبادلة بينها وبين الواقع الذى توجد فيه أو بمعنى آخر، مدى صدق الاستنتاجات التى تتوصل إليها النظرية عند دراسة الواقع الفعلى، ولاسيما أن افتقار النظرية وعدم

صدقها بهذا الواقع يجعلها مجرد تحليلات وتأملات عقيمة لاجدوى لها.

وهذا بالفعل ما ينطبق عند تقييم الكثير من النظريات السوسيولوجية التى طرحها عدد من المفكرين الفلاسفة وعلماء الاجتماع وبعد البعض عنها فى تصوراتها وارتباطها بالواقع الخارجى، مثل نظرية الصفوة عند "باريتو" و"موسكا"، وغموض الكثير من جوانبها عند وصف قدرات الصفوة من الناحية الواقعية وتميز أصحاب الصفوة بخصائص فطرية وراثية عن ما يحصلون ويتميزون عن بقية الطبقات الأخرى بمقدار الثروة والسلطة السياسية فقط. وهذا ما ينطبق أيضاً على تصورات بعض الفلاسفة من أمثال "مونتسكيو" وغيره من العلماء الذين أبدوا النظرية الجغرافية، وأن كلا من الطقس والبيئة الباردة والحارة هى التى تجعل هناك تمايزاً ملحوظاً بين سكان المناطق الحارة والباردة، دون الأخذ فى الاعتبار مجموعة العوامل والظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتاريخية التى تجعل هناك تمايز بين سكان الشمال البارد والجنوب الدافئ أو الحار.

- ثالثاً: الافتراضات والمسلمات المتعلقة بالمضمون الأيديولوجى للنظرية السوسيولوجية.

ما من شك، أن جميع النظريات السوسيولوجية سواء أكانت بنائية وظيفية أم ماركسية أم تفاعلية رمزية أم ماركسية محدثة أو غيرها فجميعها كنظريات اجتماعية لها مجموعة من المسلمات والأبعاد الأيديولوجية التى تقوم عليها. ومن ثم، فإن وضوح هذه الأبعاد أمام الباحثين يجعلهم قادرين على تقييم النظريات السوسيولوجية من خلال الاهتمام بهذا البعد. ولهذا يمكن طرح عدد من التساؤلات المرتبطة بتحليل المضمون الأيديولوجى للنظرية السوسيولوجية، وخاصة عند اجراء عملية التقييم الخاصة بالنظرية التى تحت الدراسة، والتقييم ومن أهم هذه التساؤلات:

(١) ما هى الأفكار الاجتماعية التى تقوم عليها النظرية بصورة عامة؟.

(٢) ما هى الأطر والموجهات الأيديولوجية المرتبطة بهذه النظرية؟.

(٣) هل هذه الأفكار الاجتماعية والموجهات الأيديولوجية موجودة فى النظرية بصورة ضمنية أم واضحة عامة؟.

(٤) كيفية استخدام أصحاب هذه النظرية للسيطرة على المجتمع؟.

(٥) ماهو النظام الاجتماعى الأمثل الذى تتبناه النظرية للمجتمعات البشرية؟.

(٦) ما هى أهم نقاط القوة والضعف التى تترجمها النظرية؟.

(٧) هل يوجد اغفال متعمد، أو إبراز لجوانب معينة تقوم عليها النظرية بصورة عامة.

رابعاً: النتائج العامة التى ترتبط والنظرية السوسيولوجية.

عند عملية تقييم النظريات السوسيولوجية يجب أن نأخذ فى الاعتبار طبيعة النتائج التى تتوصل إليها النظريات، حتى تجعلها متميزة من الناحية العلمية والعملية عن بقية التحليلات والارهاصات والتأملات الفكرية الأخرى، التى لا يمكن أن ينطبق عليها مفهوم النظرية العلمية. ومن ثم، يجب أن تتوصل النظرية السوسيولوجية - كنظرية علمية - إلى عدد من النتائج العقلية والواقعية، التى يجب أن تقبل من الناحية الشكلية أو المضمون أو الاطار العقلانى، لذى تستند إليه سواء فى التفسير أو التحليل أو النتائج التى تتوصل إليها عامة.

ويمكن أن نحلل ذلك بصورة أكثر تفصيلاً، إذا ما قبلنا بصورة شكلية وضمنية للنتائج التى توصلت إليها نظريات الصفوة عن "باريتو" و"موسكا" السابقة، ولتى عرفنا فيها بأنهم يؤكدون على مجموعة من الخصائص والسمات للفطرية والوراثية التى تجعل من الصفوة القائمة صنوة أبدية ومطلقة، وتعزز عموماً أحقيتهم فى السيطرة على الطبقات الأخرى المحكومة. أو أيضاً، عند قبولنا بصورة نهائية ما توصلت إليه التفسيرات الجغرافية حول تأثير البيئة والطقس على النسق المعرفى والمعتقدات، وأيضاً قدرة الانسان ورغبته فى التفسير والتطور. وهذا ما يجعل عموماً، انصار هذه التفسيرات -

بالطبع التي لم ترق إلى مستوى النظرية - يفكرون جيداً في النتائج غير الواقعية التي تؤكد على المسلمات والافتراضات المؤكدة على البعد البيئي واثره في التغير والاصلاح، أو أن الطقس الحار أو البيئة القاسية، كافية على احباط أى محاولات للانسان الذي يعيش في هذه المناطق للتكيف معها أو السيطرة عليها، وهذا ما يتنافى عموماً مع مدى قدرة الانسان في المناطق الصحراوية وسيطرته على البيئة القاسية بها، واستغلاله لثروات الارض من بترول ومعادن وغاز طبيعي، التي أحدثت تغيرات بنائية واجتماعية وثقافية وجعلتها بيئة ملائمة لحياة أفضل من المجتمعات الشمالية المتطلعة دائماً لامتلاك الثروة والبيئة معاً.

بايجاز، أن انصار المحاولة التقييمية (التقليدية نسبياً) للنظرية السوسيولوجية ركزوا على عدد من الاسس الهامة، التي يجب اتباعها عند تقييم هذه النظرية، وجاءت معظم هذه الاسس لتختبر: أولاً: مجموعة من الافتراضات والسمات التي تنطلق منها النظرية السوسيولوجية.

ثانياً: مدى صدق الاستنتاجات التي تتوصل إليها هذه النظريات.

ثالثاً: المضمون الأيديولوجي الذي تقوم عليه النظريات السوسيولوجية والتحيز فيما بينها بصورة دائمة.

رابعاً: التركيز على معرفة النتائج والاجراءات العامة التي ترتبط بالنظرية السوسيولوجية، أو تتبعها عند دراسة وتفسير الواقع الخارجى.

وبالطبع، ان تلك الاسس اللازمة لعملية تقييم النظرية السوسيولوجية، يجب وضعها في الاعتبار قبل اجراء أى خطوة من خطوات التقييم، حتى يمكن أن نرقى بمستوى النظرية والتنظير السوسيولوجى عامة، وجعلها تهدف للوصول بعلم الاجتماع إلى مكانة علمية متميزة.

## ٢- المحاولات المعاصرة لتقييم النظرية السوسيولوجية.

مع نهاية القرن العشرين ظهرت بعض المحاولات التقييمية والتحليلية النقدية للنظرية السوسيولوجية، والتي حاولت أن تلقى الضوء على أحد مجالات علم الاجتماع، الذى لا يزال يشغل اهتمامات الكثير من المتخصصين فيه، كما هو ملاحظ فى السنوات الأخيرة. وتتمثل أحد هذه المحاولات التقييمية فى دراسة "إيان كرايب" Ian Craib، عن النظرية السوسيولوجية الحديثة أو المعاصرة Modern Social Theory والتي حاول فيها أن يركز بصورة أساسية على عدد من الأبعاد العامة، التى تقوم عليها النظرية السوسيولوجية عامة، وعلى النظرية السوسيولوجية الحديثة خاصة. كما أشار إلى طبيعة النظرية السوسيولوجية من خلال مناقشته لقيمة إسهاماتها فى تطور علم الاجتماع، وأنها فى حاجة هامة وضرورية لتعزيز عمليات التطور التحديث النظرى والمنهجى سواء فى علم الاجتماع أو العلوم الاجتماعية والطبيعية الأخرى.

فى نفس الوقت، ركز "كرايب" على أسباب اللبس والغموض الذى يكتنف دراسة النظرية السوسيولوجية، لاسيما من قبل طلاب ودارسى هذه النظرية، وأيضاً طبيعة انعكاس دراستها على المتخصصين فيها ومشكلاتهم الأكاديمية والاجتماعية فى مؤسساتهم العلمية المتخصصة. كما حاول أن يبرز عدد من النقاط الأساسية، التى حالت دون تقديم نظرية سوسيولوجية شاملة أو متكاملة، تستطيع أن تلم شتات التفكير الاجتماعى والمعرفة السوسيولوجية التى تزداد بصورة مضطردة. على أية حال، دون الدخول فى تفاصيل كثيرة ترتبط بموضوع النظرية السوسيولوجية، نحاول أن نطرح عدد من الأبعاد المختلفة التى تقوم عليها أسس وطبيعة النظرية السوسيولوجية، التى أشار إليها "كرايب"، فى إطار تقسيمه لها والتى عبر عنها فى صورة أربعة أبعاد هامة، يجب أن توضع فى الاعتبار عند تحليل الدور الوظيفى الذى ينبغي أن تقوم بأدؤه النظرية السوسيولوجية وهى باختصار شديد:

## ١ - البعد المعرفى:

يركز هذا البعد على تحديد الدور الهام للنظرية السوسيولوجية، والذي يتمثل فى وصفها وسيلة لاقامة المعرفة عن العالم الاجتماعى. ففى خلال تحليل هذا البعد، نستطيع أن نقيم النظرية السوسيولوجية، ومعرفة الجوانب السلبية التى تخفق فى معالجتها وتحليلها أو تفسيرها أو تقويمها النتائج والقوانين والتعميمات العامة. فى نفس الوقت، أن دراسة البعد المعرفى للنظرية السوسيولوجية، يساعدنا فى فهم طبيعة الانقسام الذى يحدث فى طبيعة مكونات بناء النظرية، اختلافات المضمون الأيديولوجى الكثير من النظريات العامة والصغرى التى ترتبط بها. هذا بالاضافة، إلى أن الاهتمام بالبعد المعرفى للنظرية يسهم من ناحية أخرى، فى دراسة وتحليل كيفية انخراط الباحث الاجتماعى بصورة تلقائية أو عفوية فى مجريات البحث، وتجعله بعيداً عن الموضوعية عند معالجة الواقع الاجتماعى الخارجى، وتؤثر على تجاهله عمداً لبعض مظاهر أو جوانب هذا الواقع.

## ٢ - البعد العاطفى:

يستطيع الباحثين والمتخصصين فى علم الاجتماع، ولاسيما الذين يهتمون بدراسة وتقييم النظرية السوسيولوجية، أن يتعرفوا على طبيعة مدى تأثير البعد العاطفى، لدى أصحاب النظريات المختلفة لعلم الاجتماع. وخاصة، أن الاهتمام بعملية التنظير السوسيولوجى تعمل على تجسيد المشاعر والعواطف فى محتوى النظرية ومضمونها ويحدث ذلك بصورة مباشرة وغير مباشرة. كما أن الرغبة العلمية والمعرفية، التى يتطلع إليها أصحاب النظريات والاتجاهات السوسيولوجية تتأثر بصفة مستمرة بالبعد العاطفى أو الجوانب الانفعالية والنفسية، والتى تضافى فى النهاية على استخدام المنظرين فى علم الاجتماع للوقائع أو الشواهد الموضوعية. بايجاز، كما يؤكد "كرايب" أن البعد العاطفى فى النظرية يعكس صفاء الماء، وهذا يعنى أن هذا البعد يسهم بصورة جوهرية فى غموض الأفكار، ويؤدى عامة إلى المبالغة والتركيز على بعض النقاط الاختلافية، دون الاهتمام بالنقاط أو المبادئ والمسلمات أو الافتراضات العامة التى تنطلق منها النظريات السوسيولوجية ككل.



### ٣- البعد التأملي:

يشير هذا البعد إلى أن كل من علم الاجتماع والنظرية السوسيولوجية، يعتبران عنصراً هاماً في الحياة الاجتماعية، كما يمثلان أسلوب وطريقة مميزة لفهم العالم الاجتماعي ذاته. ومن ثم، فلا بد أن يقوم كل منهما (علم الاجتماع ونظريته)، بدراسة ما هو واقعي أو خارجي، ما يحدث بالفعل في مكونات البيئة الاجتماعية. ولقد زاد أهمية هذا البعد خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين، نظراً لارتباطه بطبيعة الاسهامات والدراسات النظرية والميدانية (الامبيريقية) لكل من علم الاجتماع والنظرية السوسيولوجية، التي يجب أن تدرس بصورة واقعية الاسباب التي تؤدي إلى زيادة معدلات التغير الاجتماعي والاقتصادي والتكنولوجي. ولا سيما، أن عملية التغير تعتبر عملية شاملة لانماط من الحراك الجغرافي والبيئي والاجتماعي والمهني والوظيفي. كما أنها تعمل على تغيير الأدوار والمراكز والمكانات والمؤسسات والتنظيمات الاجتماعية ككل. وبايجاز، إن طبيعة الحياة والواقع الاجتماعي تزداد تعقيداً وتفككاً وقد تبدو بعيدة كل البعد عن محاولة السيطرة عليها ودراستها وتحليلها. ومن ثم يجب أن تأخذ النظرية السوسيولوجية في اعتبارها أسباب هذا التعقيد والتفكك، وأن كان ذلك انعكس من ناحية أخرى، على زيادة الانقسام والتنوع للمدارس والنظريات الفرعية والنظريات السوسيولوجية.

### ٤- البعد المعياري:

يؤكد "كرايب" أن هذا البعد المعياري يزيد من حجم وتأثير البعد السابق (التأملي)، لأن أي نظرية تقوم بعملية وصف الواقع، يجب أن تطرح في ثناياها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عدد من الافتراضات أو المسلمات والمبادئ العامة التي تحيط بالواقع الذي تقوم بدراسته وتفسيره. وهذا ما دعى إليه بالفعل "جولدنر" A.Gouldner وبأهمية وجود ما يعرف بـافتراضات المجال Domain Assumptions، الخاص بالنظريات السوسيولوجية والتي تميز كل منهما عن الأخرى فنجد على سبيل المثال، أن أي نظرية سوسيولوجية تقليدية أو معاصرة، لديها تصور نظري أو افتراض أساسي، حول طبيعة الفعل أو السلوك والنشاط أو النظام السياسي ككل، ويتضمن ذلك

صور وأشكال معينة بعضها مقبول والآخر قد يكون غير مقبولاً للذين لا يتفقون مع افتراضات ومبادئ هذه النظرية، وهذا ما يشير أيضاً، إلى أن النظرية الاجتماعية لا تهتم فقط بدراسة العمليات والصراعات أو المشكلات الاجتماعية، ولكنها تعتبر هي ذاتها جزءاً أساسياً من مكونات هذه العمليات والصراعات والمشكلات. وهذا لا يوصف عامة، بأنه عيب أو نقص في النظرية السوسيولوجية - كما يعتقد "كرايب" - ولذا يؤكد على أهمية أن تعلن النظريات السوسيولوجية المتناقضة والمتصارعة أو التقليدية أو الحديثة المعاصرة، صراحة عن أهم الافتراضات والمبادئ والمسلمات العامة التي تقوم عليها حتى تأخذ في الاعتبار من قبل الذين يقومون بعد ذلك بعمليات التقييم والشامل للنظريات السوسيولوجية. علاوة على ذلك، يجب أن تناقش هذه الافتراضات على أساس علمي وأكاديمي، وبصورة عقلانية، لأن ذلك هو المكان الوحيد الذي لا وجود لغيره لمناقشة الأسس العامة للنظرية العلمية السوسيولوجية.

ومن ثم ، ان وضوح الافتراضات والمسلمات، تعتبر جزءاً أساسياً في عمليات التقييم الذي يجب أن يأخذ في الاعتبار مسبقاً، قبل البدء في هذه العمليات والاجراءات المرتبطة بها. لأن ذلك، يعكس بصورة واضحة، جوانب مهمة من النظرية المراد دراستها وتقييمها، ويوضح مدى مرونتها وقبولها للتعديل والتغيير الذي يعد أحد خصائص النظرية العلمية، أنها بالطبع النظرية السوسيولوجية. فكثيراً ما تلجأ النظريات إلى تبريرات لبيان وجهات نظر أصحابها، أو تتبنى وجهات متغايرة عن النظريات الأخرى وأراء المتخصصين فيها - علاوة على ذلك، أن طبيعة الحياة الاجتماعية المعاصرة والمتغيرة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، قد يدفع كثيراً من النظريات السوسيولوجية إلى تبني مسالك ووجهات نظر بعيدة كل البعد عن مسارتها وافتراضاتها الأساسية التي أنطلقت منها. وهذا، ما يظهر بوضوح من خلال -رأستنا للنظرية الماركسية، كما ظهر ذلك خلال السنوات او العقود الأخيرة من القرن العشرين. فكثيراً ما تشكل الصراعات الدولية والاجتماعية، أو طبيعة النظام العالمي الجديد، نوعاً من الضغوط على طبيعة النظرية السوسيولوجية ومكوناتها ومضمونها وافتراضاتها العامة. وهذا ما يعكس

عموماً أهمية الحاجة إلى التركيز على ضرورة معرفة الأبعاد العامة للنظرية السوسيولوجية، عند تقييمها سواء أكانت هذه الأبعاد، أبعاداً معرفية أم عاطفية، أم تأملية، أم معيارية. كما أن هذه الأبعاد والافتراضات والمبادئ والمسلمات العامة، تعتبر عنصر أساسى فى عملية تصنيف النظريات السوسيولوجية، وهذا يعتبر موضع اهتمامنا خلال الفصول القادمة.

## (٢) تصنيف النظرية السوسيولوجية وأبعادها:

ما من شك أن عملية التصنيف Classification تعد من المشكلات التى لاتزال تواجه الباحثين فى علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى، ومرجع ذلك إلى طبيعة التداخل الشديد بين موضوعات وقضايا ومجالات علم الاجتماع ذاته أو بينه وبين مجالات العديد من التخصصات فى العلوم الاجتماعية الأخرى. وهذا ما ظهر أيضاً على سبيل المثال، عند محاولة تصنيف تعريفات وموضوعات ومجالات علم الاجتماع ككل. ولكن هذا لا ينفى على الإطلاق، البعد عن التصنيف واعتباره مشكلة بدون حل، بقدر ما يتصور بصورة أكيدة، أن هدف التصنيف من الدرجة الأولى، ترتيب البيانات والحقائق المرتبطة بالقضايا المدروسة، من أجل سهولة تحليلها، وفهمها ودراستها سواء عن طريق الباحثين والمتخصصين فى مجال الدراسة ذاته أو عن طريق غيرهم من التخصصات العلمية الأخرى.

ومن ثم، فإن هدفنا الحالى يكمن فى طرح عدد من التصنيفات، التى ترتبط بالنظرية السوسيولوجية، وذلك للتعرف على طبيعة التراث السوسيولوجى لهذه النظريات، وعلى أى أساس تم تصنيف هذه النظريات بالصورة، التى ظهرت عليها كما جاءت فى تحليلات كثير من المنظرين السوسيولوجيين لعلم الاجتماع وفروعه المختلفة.

### ١ - التصنيف على أساس البعد التاريخى:

يعتمد أصحاب هذا التصنيف على ترتيب النظريات السوسيولوجية من خلال ظهورها من الناحية التاريخية ووفقاً للمراحل الزمنية التى ظهرت فيها.

كما يمكن تقسيم كل مرحلة إلى مجموعة من النظريات العامة والتي تدرج تحتها نظريات فرعية أخرى. ولقد استخدم هذا التصنيف كل من "ليختنبرجر" Lichtenberger في كتابه "تطور النظرية الاجتماعية"، و"هاوس" Hauss في كتابه "تطور علم الاجتماع". كما اعتمد أيضاً، "تيماشيف" Timasheff في كتابه المميز عن "النظرية السوسيولوجية" على هذا التصنيف بصورة كبيرة.

فلقد تناول على سبيل المثال، "تيماشيف" طبيعة التطور التاريخي لنظريات علم الاجتماع وقسمها إلى أربعة مراحل:

١- جاءت المرحلة الأولى وتتضمن نظريات علماء الاجتماع الأوائل منذ نشأة هذا العلم حتى عام ١٨٧٥، ومن أهم نظريات هذه المرحلة نظريات "كونت"، "ميسنر"، "لوبلي"، "ماركس"، "فيبر"، "تايلور"، و"مورجان" وغيرهم.

٢- المرحلة الثانية، وتتحدد من الناحية التاريخية بالربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتشمل النظريات الدارونية الاجتماعية، والسيكولوجية، والنظرية الاقتصادية، والتكنولوجية، والديموجرافية، والمدرسة الاجتماعية، والنزعة الذاتية الروسية.

٣- المرحلة الثالثة، وتمتد خلال الربع الأول من القرن العشرين، وتتضمن مرحلة انقسام النظرية التطورية إلى أقسام فرعية، لتشمل جوانب اجتماعية وسيكولوجية ومثالية.

٤- المرحلة الرابعة والأخيرة، وهي التي تظهر تقريباً قرب القرن العشرين وتتميز بظهور مجموعة كبيرة من المدارس والاتجاهات الحديثة مثل الوضعية المحدث، والايكولوجية البشرية، والاتجاه الوظيفي، وعلم الاجتماع النظري، وعلم الاجتماع التاريخي والفلسفي، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الاتجاهات العقلية والامبريقية.

## ٢ - التصنيف على أساس البعد الجغرافى:

يعتمد هذا التصنيف عن طريق استخدام المناطق والدول التى ظهرت فيها النظريات السوسولوجية كمقياس لعرضها وتصنيفها. وفى هذا الاطار يمكن تصنيف النظريات السوسولوجية فى فرنسا وتشمل نظريات "كونت" و"دوركهايم" على سبيل المثال. والنظريات الالمانية مثل "ماركس" و"فيبر" أو النظريات البريطانية مثل تحليلات "سينسر"، وفى الولايات المتحدة من نظريات "بارسونز" وغيره. ولقد استخدم كل من "جورج جرفيثش"<sup>(١)</sup> G.Gurvitch و"بارنز" هذا التصنيف.

وإن كنا نلاحظ أيضاً، أن تصنيف النظريات السوسولوجية وفق للمناطق الجغرافية، أو إلى القوميات ونوعية الدول فيها لم يقتصر على ذلك فقط، بقدر ما نلاحظ أن هناك اهتمامات أخرى لتصنيف علم الاجتماع طبقاً للقومية مثل علم الاجتماع البريطانى، وعلم الاجتماع الالمانى، وعلم الاجتماع الأمريكى، وغير ذلك من تصنيفات لطبيعة اهتمامات علماء هذه الدول.

## ٣ - التصنيف على أساس المنهج:

يعتمد هذا التصنيف على أساس اختيار بعد المنهج، او مدى التزام النظريات بالأبعاد المنهجية العلمية فى دراستها وتحليلاتها. ومن أهم أصحاب هذا التصنيف على سبيل المثال، "هلموت فاجنر" الذى صنف النظريات إلى ثلاثة وهى:

١ - النظريات الوضعية: وتقوم هذه النظريات على تصور أن علم الاجتماع ينبغي أن يعالج موضوعاته وقضاياها باعتباره علماً طبيعياً، وتتضمن هذه النظريات كل من النظريات الوضعية المحدثه، والايكولوجية البشريه، والوظيفية البنائية، والسلوكية الاجتماعية، وأيضاً النظريات النفسية والبيولوجية.

(١) للمزيد من التحليلات ارجع إلى:

Gurvitch, G & Moore Twentieth Century Sociology. 1946.

٢- النظريات التفسيرية: وتشمل التحليلات التى تتمسك بالقواعد المنهجية العامة للعلم، ودون الاستعانة بالمناهج العلمية التى توجد فى العلوم الأخرى. وتتضمن هذه النظريات كل من نظريات الفهم الثقافى، والنظرية التفسيرية للفعل ونظرية التفاعل، ثم نظرية الفينومينولوجيا الاجتماعية.

٣- النظريات التقويمية: وهى النظريات التى تهدف إلى الربط بين علم الاجتماع والفلسفة عن طريق استخدام أحكام القيمة والتكامل الثقافى.

٤- التصنيف على أساس النماذج المستعارة من العلوم الأخرى:

كما يظهر ذلك التصنيف من خلال تصنيف النظريات السوسيولوجية حسب استعارتها من العلوم الطبيعية والاجتماعية الأخرى، مثل المدرسة الميكانيكية فى علم الاجتماع، والمدرسة البيولوجية، والمدرسة السيكلوجية، والمدرسة الجغرافية (الايكولوجية).

ويعتبر "بيترم سوروكين" P.Sorokin من أبرز العلماء الذين لجؤ إلى هذا التصنيف فى تناولهم للنظريات السوسيولوجية، حيث عرض لطبيعة المدرسة الميكانيكية، والتى تتناول تفسير الظواهر الاجتماعية فى ضوء مفاهيم الطبيعة والكيمياء والميكانيكا، والمدرسة الجغرافية، فى تحديد للعلاقة بين البيئة الجغرافية وتأثيرها على الحياة الاجتماعية والدين والاقتصاد والأسرة، والمدرسة البيولوجية، عند محاولة عقد نوع من المماثلة البيولوجية بين الكائن العضوى وبناءات المجتمع ووظائفه واستخدام مفاهيم مثل الوراثة، والانتخاب والبقاء للأنسب أو الأصلح، ثم المدرسة النفسية (السيكلوجية) عند تفسير السلوك فى ضوء الخصائص والعوامل التفسير المتعددة، المدرسة السوسيولوجية، تهدف إلى تفسير الظواهر الاجتماعية وإرجاعها إلى أصولها الاجتماعية مثل تفسيرها للعلاقة المتبادلة بين العامل الاقتصادى كعامل رئيسى الذى يؤثر على جميع مظاهر الحياة الاجتماعية.

## ٥ - التصنيف على أساس الأصول الفلسفية:

ويعتبر من أبرز علماء النظرية السوسيولوجية الذين اعتمدوا على مقياس ارجاع النظريات إلى أصولها الفلسفية "دون مارتنديل" Don Martindale فى كتابه المعروف عن (النظرية السوسيولوجية: طبيعتها وأنماطها). حيث أشار إلى خمس نظريات رئيسية ومجموعة أخرى من المدارس الفرعية التى تدرج تحتها وهى:<sup>(١)</sup>

### (١) المدرسة العضوية الوضعية Positvistic Organicism:

تمتد أصول هذه المدرسة ومصادرها الأساسية إلى الفلسفة المثالية، التى تركز على دراسة الواقع عن طريق اعتباره شيئاً متضمناً فى نوعية الأفكار، ولذا تكون الأفكار أكثر الأشياء وضوحاً وتعبيراً عن الواقع ذاته. أما الوضعية، فأنها تشمل الاتجاه الفكرى الذى يهدف إلى تفسير العالم عن طريق الخبرة. وتمتد جذور النزعة أو المدرسة الوضعية إلى فلاسفة اليونان القدماء، ولكنها تبلورت على أيدى كل من "فرنسيس بيكون"، و"لوك"، و"هيوم"، و"فولتير".

وبالرغم من تأثير هذه المدرسة بالتقدم الذى حدث فى علم البيولوجيا واعتماد الكثير من روادها على استخدام المماثلة البيولوجية فى تفسير الظواهر الاجتماعية، إلا أن لاقى معارضة شديدة، وأدت إلى أهمال هذا الاتجاه لفترة محدودة، وما لبثت أن تطورت بعد ذلك من خلال ظهور الوضعية المحدثة على أيدى مجموعة من العلماء ومن أهمهم "شينجلر"، و"توبيني"، و"سوروكن".

### (٢) مدرسة الصراع Conflict School:

ترجع جذور هذه المدرسة إلى أصول فلسفية يونانية قديمة، ويعتبر صاحبها الأول الفيلسوف "هيراقلطس" الذى يعد أول صاحب نظرية عن التغيير، وتنظر إلى الصراع عموماً على أنه ظاهرة أساسية ومحورية فى

<sup>(١)</sup> للمزيد من التحليلات إرجع إلى

Don Martindale, The Nature and Types of Sociological Theory, London, 1967.

جميع جوانب الحياة الاجتماعية. ولكن انتقلت هذه الأفكار إلى رواد الفكر السياسي والاجتماعي خلال العصور الوسطى وعصر الإصلاح التنوير، وظهرت على أيدي "ميكافيللي"، و"بودان"، و"هوبز".

ولكن هذه المدرسة أو النظرية لم تتبنى الاتجاه الفلسفي أو العقلي فقط عند تفسيرها للصراع، ولكنها انتقلت إلى الجانب الامبريقي ولجاءت الدراسات الميدانية، وذلك بفضل تحليلات كل من "هيوم"، و"فيرجسون" عن النظم السياسية، ومع بداية القرن التاسع عشر تطورت الأفكار الثورية، والتي تبنت اتجاه الصراع في تحليلاتها. وهذا ما ظهر في الماركسية، والدارونية الاجتماعية عن طريق تركيزها على دراسة كل من الطبقات الاجتماعية، كما ظهرت عند "ماركس" أو اهتمامها بالطابع المحافظ كما ظهرت في تحليلات كل من "هربرت سبنسر" H.Spencer، و"وليام سمندر" W.Sumner.

### (٣) الصورية أو الشكلية السوسيولوجية Sociological Formalism:

ارتبطت هذه النظرية بالأصول الفلسفية العقلية التي تمتد بصورة خاصة إلى الفلاسفة اليونانيين، ولكنها ما لبثت أن تبلورت في شكلها الجديد على أيدي "كانط" Kant، الذي سعى لتخليص العلم من النزعة الشككية، وتبني النزعة العقلية وذلك عن طريق الاعتماد على دراسة أنواع معينة من القضايا وهي القضايا التحليلية والتركيبية، والذان يكونا طبيعة المعرفة عن "كانط" وتهدف عموماً إلى ضرورة الربط بين الاتجاه العقلي والاتجاه الواقعي الامبريقي في تفسير المعرفة الانسانية عموماً.

ولكن ما لبثت أن تطورت هذه النظرية وأخذت أشكالاً جديدة خلال القرن التاسع عشر، ولاسيما بعد ظهور ما يعرف بالكانطية المحدثه والتي تتمثل في ظهور ما يعرف بالاتجاه الفينومينولوجي Phenomenology، كما ظهر في تحليلات رينوفيه Renouvier في فرنسا أو كتابات بارك Park وسانتاينا Santayana في الولايات المتحدة، أو تحليلات جورج زيميل G.Simmel في ألمانيا.



#### (٤) السلوكية الاجتماعية Social Behaviorism:

وترجع الأصول الفلسفية لهذه النظرية إلى كل من الفلسفة المثالية والبرجماتية في نفس الوقت، وتعتمد أيضاً على كل من المدخل السلوكي في تفسير الظواهر الاجتماعية، وتحليلها لموضوعات وقضايا علم الاجتماع بشكل متعارض مع كل من المدرسة الوضعية وأصحاب نظرية الصراع، وأيضاً المدرسة الصورية أو الشكلية الاجتماعية. وتركز المدرسة السلوكية الاجتماعية على استخدامها مناهج أمبريقية جديدة في الدراسة السوسولوجية، وذلك من أجل تجنب الأخطاء أو المشكلات المنهجية كما حدث للمدارس والنظريات السابقة الأخرى.

عموماً، لقد تطورت النظرية السلوكية الاجتماعية وانقسمت إلى ثلاث مدارس فرعية وهي: السلوكية الجمعية، والتفاعلية الرمزية، ونظرية الفعل الاجتماعي، وتركز الأولى على تبني مجموعة من المقاييس الاجتماعية الكمية لدراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية، واهتمت كثيراً بمعالجة قضايا مثل التغير والضبط الاجتماعي والشخصية. أما التفاعلية الرمزية، فترجع جذورها إلى الجمع بين البرجماتية (الواقعية) والمثالية المحدثة، وتهتم بدراسة العلاقة المتبادلة بين الشخصية الفردية والبناء الاجتماعي. كما أن نظرية أو مدرسة الفعل الاجتماعي Social Action Theory، ترتبط بتحليلات "ماكس فيبر" M. Weber على وجه الخصوص، ولكنها تبلورت أيضاً على أيدي كل من "فيبلن" Veblen، و"ماكيفر" Maciver، و"بارسونز" Parsons، و"ميرتون" Merton وآخرون.

#### (٥) الوظيفية السوسولوجية Sociological Functionalism:

ترتبط هذه المدرسة بتحليلات مجموعة من رواد علم الاجتماع التي تركز على دراسة الوظيفة السوسولوجية عند دراستها للأنساق أو البناءات الاجتماعية سواء تلك الأنساق أو البناءات أو الوحدات كبيرة الحجم أو الوحدات أو البناءات صغيرة الحجم، ولقد جعلت هذه البناءات أو الوحدات بمثابة وحدة التحليل الرئيسية أو التي يطلق عليها بالتحليلات الكبرى والصغرى Macro & Micro Analysis.

ولقد جاءت تحليلات كل من "براون" و "مالينوفسكى"، و"باريتو"، و"بارسونز"، و"ليفى"، و"ميرتون"، و"هومانز"، لتمثل دراسة الأنساق أو المجتمعات الكبيرة. بينما تدرج كتابات كل من "ليفن"، و"زاندن" وغيرهم عن طريق تبني المدخل المصغر أو دراسة المجتمعات الصغيرة. ولكننا نلاحظ، أن كتابات "روبرت ميرتون" R.Merton جمعت بين استخدام المدخل الوظيفي عند دراسته للظواهر الاجتماعية وتحديد طبيعة النظرية السوسيولوجية المثلث لدراسة المجتمع الحديث أو ما أسماه: بالنظريات المتوسطة Middle Range Theories، والتي تجمع بين النظريات الكبرى والصغرى عامة.

#### ٦- التصنيف على أساس البعد السوسيولوجي:

يعتمد هذا التصنيف بالدرجة الأولى على ضرورة استخدام المدخل السوسيولوجي في دراسة الظواهر والموضوعات الاجتماعية. ولقد استخدم هذا التصنيف أحد منظري النظرية السوسيولوجية وهو "والتر والاس"<sup>(١)</sup>، عندما أشار إلى ضرورة الأخذ في الاعتبار مجموعة من الملاحظات عند تصنيف النظريات والتي يجب أن يقوم بها الباحث قبل تفسيره للظواهر الاجتماعية أو الوصول إلى تعميمات حولها بصورة كلية. ومن أهم هذه الملاحظات هي البعد عن الذاتية وتحري الموضوعية عند دراسته وتفسيره للظواهر والمشكلات الاجتماعية.

ومن أهم النظريات التي تدرج إطار هذا التصنيف وهي، النظريات الايكولوجية، والسكانية، والسيكولوجية، والتكنولوجية، والبنائية الوظيفية، والصراع، والتفاعل الرمزي، والفعل الاجتماعي. كما أكد "والاس" على ضرورة معرفة جوانب الاتفاق بين هذه النظريات دون الاهتمام بالاختلافات بينهم فقط، خاصة لعدم وجود نظرية عامة تشمل هذه النظريات في إطار نظري واحد.

<sup>(١)</sup> ارجع إلى،

Wallace, W, Sociological Theory, London: Heinman, 1971.

## ٧- التصنيف على أساس البعد الأيديولوجي:

ارتبطت النظرية السوسيولوجية خلال النصف الأخير من القرن العشرين، بطبيعة الأيديولوجيا العالمية أو النظام العالمي خلال هذه الفترة. وهذا ما جعل هذه النظريات تصنف على أساس مدى تبنيها للاتجاه المحافظ الليبرالي، أو الاتجاه الماركسي أو اتجاه الصراع. ويستطيع الباحث أو المتتبع للتراث النظري السوسيولوجي خلال النصف الثاني من القرن الحالي، أن يتعرف بوضوح على نشأة المدارس والنظريات والمذاهب وعلاقتها بالنظام الأيديولوجي أو تبنيها اتجاهاً أيديولوجياً معيناً توصف به عامة.

وربما تعتبر تحليلات "زيتلين" Zeitlin المميزة للنظرية السوسيولوجية وتصنيفاتها في ضوء علاقتها بالأيديولوجيا خير مثال على ذلك، حيث رجع بأصول النظريات إلى الأصول الفلسفية وخاصة فلسفة التاريخ ولاسيما آراء فلاسفة التنوير، وأيضاً تميزه للاتجاه المحافظ الذي ظهر في الدول الغربية مثل تحليلات "سيمون"، و"كونت"، و"فيلر"، و"ميشلز"، و"توركاي"، و"بارسونز". كما تعتبر تحليلات "ألين جولدنر" A.Gouldner وكتابه المميز عن (الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي) The Coming Crisis in Western Sociology، من أهم التحليلات التي ربطت بين النظرية السوسيولوجية والبناء الأيديولوجي، واعتبار الإطار الأيديولوجي أحد العوامل المسيطرة على فكر المنظرين الاجتماعيين مما يهدد نظرتهم الموضوعية عند دراسة الظواهر الاجتماعية وتفسيرهم للواقع.

وبعد العرض الموجز لتصنيفات النظرية السوسيولوجية وأنواعها المختلفة، نستطيع أن نصل إلى مجموعة من الملاحظات على النحو التالي:

١- إن عملية تصنيف النظريات لاتزال مشكلة صعبة تواجه الباحثين والقيمين على عملية التصنيف ذاتها نظراً لطبيعة التداخل بين هذه النظريات وأنواعها المختلفة.

٢- يكشف التراث التحليلي للنظريات السوسيولوجية عن طبيعة الصراع بين هذه النظريات، وإن كانت حدة هذا الصراع ووجود النظريات المتصارعة قد خفت حدته مع نهاية القرن الحالي.

٣- تعكس طبيعة النظريات السوسيولوجية وأنواعها المختلفة طبيعة التطور التاريخي الذي حدث على مكونات وعناصر هذه النظريات منذ أن ظهر علم الاجتماع حتى الوقت الحاضر.

٤- لم يظهر اتفاق عام بين علماء الاجتماع ومنظريه حتى الآن، حول وجود نظرية عامة وشاملة تجمع كل النظريات السابقة في إطار واحد.

٥- ارتبطت معظم النظريات السوسيولوجية ولاسيما منذ منتصف هذا القرن بطبيعة البناء الأيديولوجي الذي يوجد في المجتمع الحديث، وأثر ذلك بصورة جوهرية على مكونات النظرية السوسيولوجية وأهدافها.

٦- لم تشهد التصنيفات للنظرية السوسيولوجية عن وجود اتفاق أو تقارب حول النظريات السوسيولوجية المتصارعة سواء كانت نظريات ليبرالية أو راديكالية، كما حدث في ظهور المدخل الصراع البنائي.

### مناقشة وتعقيب:

لا تزال الدراسات السوسيولوجية تبحث عن مدى إمكانية تطور النظرية وإثراء حركة التطوير عموماً في علم الاجتماع، وذلك عن طريق تطور عدد من الأسس والمعوقات العامة التي يجب أن تأخذ في الاعتبار عند إجراء عملية التقييم الشاملة والتي تهدف بالدرجة الأولى، إلى تعزيز المستوى العلمي للنظرية السوسيولوجية، حتى نرقى إلى مستوى النظريات العلمية والطبيعية الأخرى، وتولج المشكلات والقضايا والظواهر الاجتماعية، التي تزداد تعقيداً وتطوراً خلال العقود الأخيرة من القرن للماضي (العشرين). كما جاءت بعض المحاولات التقييمية الجادة، لتبرهن عموماً على جوقب النقص والاختلاف في مكونات النظرية السوسيولوجية، وما ينبغي أن تكون عليه كل من النظرية أو عمليات التقييم اللازمة لها، من جانب المتخصصين في علم الاجتماع، حتى تسفر هذه العمليات عن تسريع الخطى لتطويرها وتحديثها، وهذا ما حدث بالفعل خلال الفترة الماضية.

في نفس الوقت، كشفت التحليلات السوسيولوجية في مجال النظرية،

عن طبيعة التعريفات المتعددة التي ارتبطت ونوعية اهتمامات وتفسير العلماء لها، كموجه فكري وتصوري للدراسات النظرية والميدانية، وطبيعة التصنيفات وتنوعها للنظرية السوسيولوجية، ومدى تباين العلماء والمتخصصين في علم الاجتماع حول نوعية الأبعاد والأسس التي عن طريقها يمكن تصنيف النظرية السوسيولوجية. ولأسيما، بعد أن تزايد الكم والنثر العلمى كما حدث خلال النصف الثانى من القرن العشرين. وظهور العديد من النظريات البنائية الوظيفية ونظريات الصراع التقليدية، والكثير من النظريات السوسيولوجية التي تجمع ما بين التقليدية والحداثة، أو التي تطورت بصورة تجمع فيها بين الأيديولوجيات التقليدية المتصارعة سواء أكانت بنائية وظيفية أم نظريات ماركسية شيوعية.

حقيقة ، لاتزال دراسة مجال النظرية السوسيولوجية تحتاج إلى تحديد ماهيتها وتعريفاتها وخصائصها وشروط مكوناتها، والاسس الأيديولوجية والفكرية التي تنهض عليها، ومعرفة دورها الوظيفى وحدود امكاناتها فى تطور علم الاجتماع، بالاضافة إلى أن معرفة أسس عملية التقييم والتصنيف والابعاد التي يتم على ضوئها تحديد معالم النظرية السوسيولوجية، لاتزال تحتاج إلى المزيد من الدراسات النظرية والميدانية، لتعزيز مجال النظرية وحركة التنظير فى علم الاجتماع ككل، حتى يسهم ذلك بصورة عامة لاعطاء خلفية للقارئ أو المتخصص فى علم الاجتماع، عن أهم مجال من مجالات علم الاجتماع، الا وهو مجال النظرية السوسيولوجية، والتي نعطي الطابع العلمى المتميز لاحد العلوم الاجتماعية أهمية فى الوقت الراهن.

## أهم المراجع المستخدمة

### أولاً: المراجع العربية والمترجمة:

١. إيان كريت، النظرية السوسيولوجية، ترجمة محمد غلوم، عالم المعرفة (٢٤٤)، ابريل ١٩٩٩.
٢. سمير نعيم، النظرية في علم الاجتماع، القاهرة: مكتبة سعيد رافت، ١٩٧٧.
٣. عبدالباسط محمد حسن، علم الاجتماع، القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٧٧.
٤. عبدالله عبدالرحمن، علم الاجتماع: النشأة والتطور، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.
٥. نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة وآخرون، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢.

### ثانياً: المراجع الأجنبية.

1. Bannie, E, The Sociological Spirit, Belmont, Calif: Wads Worth, 1988.
2. Berger, p, Invitation to Sociology, in Harmonds Worth, Penguin, 1966.
3. Bertrand, A, Basic Sociology, N.y, 1967.
4. Bilton, T, (et.al) Introductory Sociology, London: Macmillar Comp., 1987.
5. Carrer, T, Sociology and Social Progress, Boston: Ginn, 1969.
6. Colliens, R, (ed) Sociological Theory San Francisco, Jossey-Bass, 1983.
7. Collins, R, Four Sociological Traditions, N.Y: Oxford univ. Press, 1994.
8. Connell, R, "Why Is Classical Theory Classical? American J. of

- Sociology, Vol.102, No.6. May (1997).
9. Ferrante, J., Sociology: A Global Perspective, Belmont, Calif. International Thomson, 1992.
  10. Giddens, A., Sociology, Cambridge: Polity Press, 1989.
  11. Gouldner, A., For Sociology, London, Allen, London, 1973.
  12. Gouldner, A., The Commensal Crisis in Western Sociology, London: Heineman, 1971.
  13. Gurwitsch, G. & Moore, Twentieth Century Sociology, N.Y. 1946.
  14. Haralambos, M., Sociology, Themes and Perspectives, Slough. Univ. Tutorial Book, 1980.
  15. Inkeles, A., What is Sociology, Englewood, W.J. Prentice-Hall, 1964.
  16. Johnson, P., Sociological Theory, N.Y., Wiley, 1981.
  17. Johnson, H., Sociology, London: Routledge & Kegan Paul, 1961.
  18. King, D. & M. Koller, Foundation of Sociology, San Francisco: Rinehart, 1975.
  19. Martindale, D., The Nature and Types of Sociological Theory, London, 1967.
  20. Mills, W.C., The Sociological Imagination, London: Oxford Univ Press, 1969.
  21. Nisbet, R., The Sociological Tradition, London, 1970.
  22. Wagner, D., The Growth of Sociological Theory, Beverly Hills, Calif. Sage, 1984.
  23. Wallace, W., Sociological Theory, London: Heinman, 1971.
  24. Willer, D., Scientific Sociology, Theory & Method, N.J. Prentice Hall, 1967.

25. Zelition, I, Ideology and The Development of Sociological Theory, Nj, Prentic Hall, 1968.



## الباب الثانى

النظرية الموسيولوجية الكلاسيكية (الوضعية والعضوية)

الفصل الرابع: "أوجست كونت" والنظرية الوضعية.

الفصل الخامس: "هربرت سبنسر" والنظرية العضوية.

الفصل السادس: "إميل دور كايم" ونظرية التضامن الاجتماعى.

## الفصل الرابع

### "أوجست كونت" والنظرية الوضعية

تمهيد

- (١) الاتجاه الأيديولوجي والفكري.
  - (٢) المنهج العلمي والفلسفة الوضعية.
  - (٣) الأهداف العامة لعلم الاجتماع.
  - (٤) التطور والتقدم الاجتماعي.
  - (٥) تقسيم العمل والمجتمع الصناعي.
  - (٦) النظم الاجتماعية والسياسية.
- مناقشة وتعقيب.

## تمهيد:

يصعب على الدارسين والمتخصصين فى علم الاجتماع، أن يفصلوا النشأة التطورية لهذا العلم عن طبيعة الأحداث والتغيرات الشاملة التى ظهرت مع البوادر الأولى للمجتمع الصناعى الحديث. ولاسيما، أن علم الاجتماع، جاء كنتيجة طبيعية، لدراسة هذه التغيرات والنتائج المصاحبة للحياة العصرية الحديثة، التى تطورت بسرعة مذهلة وخاصة خلال القرن الماضى (العشرين).. كما تبلورت معالم هذا العلم (علم الاجتماع)، بعد أن تزايد عدد المتخصصين والمهتمين به والقضايا والأحداث التى يطرحها للمعالجة والتحليل والدراسة النظرية والميدانية (الامبيريقية). فى نفس الوقت، كان لتطور الحياة الحديثة والنتائج المصاحبة لها، أثراً بالغ الأهمية على تطور علم الاجتماع خاصة والعلوم الانسانية عامة. وهذا ما حدث بالفعل، عند تطور وتنوع الفروع المتخصصة لعلم الاجتماع، والتى تزيد عن خمسين فرعاً تشمل مجالات متعددة وتغطي عموماً نمط الحياة الاجتماعية المعقدة.

وتعتبر دراسة النظرية السوسيولوجية من المجالات التى تطورت مع مرور الوقت ومع النشأة التطورية لعلم الاجتماع ذاته، وخاصة أن نظرية علم الاجتماع طرحت العديد من القضايا والتصورات العامة والاساسية وتعتبر الموجه الأساسى لاجراء الدراسات النظرية والميدانية. كما جاءت الأفكار العامة للنظرية السوسيولوجية معبرة عن المشاكل والظواهر والقضايا الاجتماعية والثقافية والايديولوجية، والتى تعكس الواقع الفعلى للحياة الحديثة التى ظهرت نتيجة لظهور المجتمع الصناعى الحديث.. وهذا بالفعل، ما نادى به منذ البداية، عندما حرص كثيراً على ضرورة وضع وتحديد المعالم الأولى للعلم الجديد (علم الاجتماع)، وما أسماه أولاً بالفيزياء الاجتماعية. فلتد، كان "كونت" لديه الغيرة العلمية والأكاديمية، وضرورة تحديد المعالم النظرية والمنهجية البحثية لعلم الاجتماع، ولاسيما أن هذا العلم ومؤسسيه قد تعرضا للنقد من جانب الكثير من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية الأخرى.

على أية حال، إن هذا الفصل يركز بصورة أساسية، لبلورة الخطوط

العامّة والأولى لظهور النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، كما جاءت فى أفكار "كونت" بصورة عامّة، ويحاول التعرف على عدد من النقاط الأساسية التى توضح، أولاً طبيعة المناخ الأيديولوجى والفكرى الذى حدد معالم النظرية الوضعية، عند "أوجست كونت" بوصفها أولى النظريات السوسيولوجية الكلاسيكية والتى أسهمت عموماً فى وضع أسس للنظرية البنائية الوظيفية التقليدية التى أنتشرت فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة بعد ذلك. كما يعالج هذا الفصل، طبيعة المنهج العلمى الذى تبناه كونت ونوعية القضايا الأساسية التى تقوم عليها الفلسفة الوضعية، وطبيعة اختلافها عن بقية الفلسفات العامة والمناهج وطرق المعرفة العقلية التى كانت سائدة قبل ذلك. ثم نحاول أيضاً، ان نحدد أهم الأهداف العامة لعلم الاجتماع ولاسيما الإطار النظرى للتصورى لهذا العلم، وما ينبغى أن يكون عليه، علماً متميزاً وبترأس قائمة العلوم الطبيعية والاجتماعية.

فى نفس الوقت، يهتم هذا الفصل بدراسة قضايا التطور والتقدم الاجتماعى والتى بلورها "كونت" عموماً فى إطار قانونه المميز عن المراحل الثلاث لتطور كل من العقل والمجتمعات الإنسانية. كما ركز على دراسة عملية تقسيم العمل والتخصص، والتى أدت عموماً إلى تطور المجتمع الصناعى، وأصبحت سمة مميزة للمرحلة الوضعية أو العلمية، كما يعالج هذا الفصل، الإطار النظرى العام لفلسفة "كونت" الوضعية ولاسيما عندما يهتم بدراسة أهم القضايا السياسية والاجتماعية التى شهد تطورها خلال نشأة وتطور المجتمع الحديث. وأخيراً، يقدم تحليلاً شاملاً فى صورة تقييم عام للخطوط الرئيسية التى قامت عليها النظرية الوضعية عند "كونت" ومعرفة أسباب ونتائج تأثيرها المباشر وغير المباشر على موضع أسس النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، وتحديد المعالم الأساسية للنظريات العلمية المتعددة، التى ظهرت بعد ذلك كنتيجة طبيعية للانطلاقات الفكرية والنظرية العامة لأفكار مؤسس علم الاجتماع "أوجست كونت".

## (١) الاتجاه الأيديولوجي والفكرى.

نعكس النشأة الاجتماعية والسياسية والمهنية والاسرية "لأوجست كونت" العديد من الاتجاهات الفكرية التى تركت بصماتها على أفكار هذا العالم بصورة عامة. فلقد ولد "كونت" فى فرنسا بمدينة "مونبليه" عام ١٧٩٨ بعد مرور ست أعوام فقط على قيام الثورة الفرنسية، لينتسب فى إطار التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية، التى صاحبت التغيرات الثورية التى غيرت كثيراً من معالم الحياة الفكرية والثقافية والايديولوجية ليس فى فرنسا فقط ولكن أيضاً فى الدول الأوروبية ومجتمعات العصر الحديث ككل. كما جاءت تربيته وعملية نشأته الاسرية ذات الطابع المحافظ الذى حددها والده الكاثوليكي الديانة (المسيحية)، ويلحقه بالعديد من المدارس والمراحل التعليمية المهنية والعلمية المختلفة. ومن ثم يمكن القول أن طبيعة النشأة السياسية الأولى لكونت، كانت بمثابة تجميع للعديد من العوامل الخارجية (قيام الثورة الفرنسية)، وأيضاً الاهتمامات الاسرية نحو تعليمه بصورة مميزة أثرت فيه بعد ذلك لينشغل بقضايا السياسة والمنهج العلمى المميز.

ومع بداية عام ١٨١٤ ترك "كونت" مدينته ليعيش فى باريس ولينقل عموماً الأفكار العامة (الأيديولوجية) للجمهورية الفرنسية، وخاصة بعد أن ترأسها "تابليون" عموماً، وأسهمت فى وضع أسس قومية للدولة الفرنسية، وشكلت عموماً كثيراً من آرائه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. كما كان تعرفه على أستاذه "سان سيمون" S.Simon رائد المدرسة الاشتراكية الفرنسية عام ١٨١٧، دافعاً قوياً ليشغل بقضايا العلم والسياسات الاجتماعية الوضعية، وتبلور العديد من أفكاره وأيديولوجياته الاقتصادية والسياسية. ولأسيما، بعد أن عمل سكرتيراً لأستاذه "سيمون" عندما ترأس أكبر مجلة اقتصادية وصناعية فى فرنسا آنذاك ولتنوع اهتماماته بالوضع الاستقرائى المحافظ، من ناحية، وتنزاع تصورات وأفكاره من ناحية أخرى، نحو الاتجاهات الاشتراكية المحافظة أيضاً، وليكون من أبرز أنصار المذهب الاشتراكى الغربى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ولكن طبيعة آراء كونت وأفكاره الأيديولوجية، قد تأثرت بعد ذلك

بالظروف العصرية التى شاهدها وعاصرها بالفعل، ولاسيما بعد ان لمس فى حكم النظام الجمهورى (كنظام سياسى واجتماعى)، نوعاً مميزاً من النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تهدف إلى تنظيم أو إعادة تشكيل البناءات والنظم السياسية والاجتماعية من جديد. وهذا ما جعل "كونت" يتمرد على أفكار أستاذه "سيمون"، ويأخذ طابعاً تحررياً من النزعات المحافظة التقليدية الاشتراكية، ويركز على أهمية قيام علم اجتماعى (الفيزياء الاجتماعية)، ليعالج عموماً عملية تنظيم الحياة الاجتماعية، ويدرسها بصورة موضوعية على غرار العلوم الطبيعية الأخرى. ويهدف هذا العلم الجديد، الذى أسماه بعد ذلك بعلم الاجتماع (الموسولوجيا)، إلى اكتشاف القوانين الاجتماعية التى يمكن استخدامها فى دراسة ومعالجة ومناقشة الظواهر والمشكلات والقضايا الواقعية. وهذا ما أهتم به "كونت" بعد ذلك، وظهر فى عدد من مؤلفاته العامة، والتى جاءت أولاً فى "دروس الفلسفة الوضعية" Courses of Positive Philosophy، الذى ظهر فى ستة مجلدات كاملة، نشرت فى الفترة من (١٨٣٠ - ١٨٤٢) وثانياً "مذهب السياسة الوضعية" System of Positive Politics، والذى ظهر فى أربعة مجلدات نشرت فى الفترة من (١٨٥٤/٥١م)، وبعد أهم ما كتبه "كونت" أساساً فى علم الاجتماع النظرى، ومحاولاً أن يوظف النظرية الموسولوجية فى حل المشكلات الواقعية التى توجد فى العصر الحديث وكيفية اصلاحه بصورة عامة. علاوة على ذلك، جاءت بعض كتابات "كونت" لتتوج اسهامات النظرية فى علم الاجتماع، وخاصة ما أهتم به فى تحليلاته عن الوضعية، والذى نشر عام ١٨٥٥، وحاول فيه ان يوضح علاقة النظرية بالمنهج الوضعى العلمى، الذى اقترحه أساساً لعلم الاجتماع وليكون مناظراً للمنهج العلمى فى العلوم الطبيعية.

وكما يتضح لنا مما سبق، أن النشأة الفكرية والعلمية والمهنية، أثرت كثيراً فى الطابع الأيديولوجى الذى أنتجه "كونت" منذ أن بدأ تأسيس علم الاجتماع وتركيزه على أهمية المنهج الوضعى العلمى، فى دراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية بصورة عامة. بل أن الطابع المحافظ الذى نشأ فيه "كونت" سواء على المستوى الاسرى أو المستوى المهنى، كما حدث من خلال تتلمذه على أيدى رائد المذهب الاشتراكى لمحافظ (سيمون)، جعله

يتطبع بالنزعه المحافظه، التى أرست قواعد النظرية البنائية الوظيفية أو الاتجاه الوظيفى المحافظ التقليدى بعد ذلك. فى نفس الوقت، أهتم "كونت" بالاصلاح الاجتماعى والاخلاقى فى المجتمع الحديث، بعد ان تصدعت الكثير من بناءاته ونظمه ومؤسساته، وهذا ما تبلور عموماً فى توضيح هدف علم الاجتماع منذ البداية. وجعله على قائمة العلوم، وليرتبط عموماً إلى اكتشاف القوانين الاجتماعية التى يمكن عن طريقها تحقيق الاصلاح والتوازن والانسجام والتوافق واعادة تشكيل نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية بصورة عامة.

من ناحية أخرى، نستطيع أن نتعرف بوضوح على طبيعة الاتجاه الأيديولوجى والفكرى الذى شكل عموماً الفلسفة الوضعيه عند "كونت"، وأثر فى كتاباته وتحديده لأهداف علم الاجتماع، ولاسيما اذا حاولنا أن نتعرف على مدى اهتمام "كونت" بنمط المعرفة الفلسفية والعقلية والتاريخية التى كانت موجوده بالفعل خلال البدايات الأولى من القرن الثامن عشر. ولذا، يمكن القول بأن الاطار الأيديولوجى عند "كونت" تأثراً أيضاً من خلال وجود أربعة مصادر أساسية، شغلت بصورة أساسيه هذا الاطار وهى:

ولاً: الفكر الفلسفى: فقد تأثر "كونت" كثيراً بالفلسفات التقليدية التى طرحها "أرسطو"، و"مونتسكيو"، و"كوندرسيه"، التى شكلت كثيراً من آراء "كونت" خلال الفلسفة الوضعيه.

ثانياً: الفلسفة الوضعيه: فقد جاءت آراء كل من "هيوم"، و"كانت" ذات النزعة المعرفية الشمولية من توسيع الآراء المعرفية عند "كونت"، ولاسيما أن هذه النزعة حرصت على التركيز بشدة وبضرورة تبني المناهج الوضعيه لما حققته العلوم الطبيعية من تقدم ملحوظ.

ثالثاً: فلاسفة التاريخ: ما من شك أن آراء كل من "هيجل"، و"تيرجو"، كان لها أثراً كبيراً على كتابات "كونت"، وإن كان الأخير، حاول بصورة بلرعة أن يطور هذه الأفكار والآراء، وصيغها بروح العصر والنزعة الوضعيه العلمية وتوجيهها لحل المشكلات العقلية والتى طرحها للمناقشة والتحليل.

رابعاً: علماء الاقتصاد: تبلورت معالم النزعة المحافظة مع أواخر القرن الثامن عشر، عندما وضع "آدم سميث" مؤلفه "ثروة الأمم"، ليوضح معالم الحياة الاقتصادية الجديدة بعد ذلك. وبالطبع، لقد حرص "كونت" على أن يتعرف بوضوح على اهتمامات علماء الاقتصاد الكلاسيكيين، أو ما يعرفون بالاقتصاد السياسي من أمثال "سميث" و"فيرجسون" وغيرهم آخرون، الذين أثروا كثيراً في التحليلات الوضعية عند "كونت" بصورة أساسية.

وبالرغم من تأثير المصادر الفكرية والأيدولوجية السابقة على أفكار "كونت"، إلا أننا نلاحظ أن "كونت" قد تعمقت لديه الرؤى النظرية والواقعية لطبيعة الأفكار الفلسفية والسياسة الاقتصادية والاجتماعية، التي ظهرت بالفعل من خلال الفترة التي عاشها. فلم يتخذ موقفاً مؤيداً من النزعات الاشتراكية أو الليبرالية الرأسمالية أو الشيوعية، بل اتخذ موقفاً ناقداً لطبيعة هذه الأيدولوجيات والخطوط العامة التي انطلقت منها. فنجده على سبيل المثال، قد أيد بالفعل السياسات الجمهورية الليبرالية للثورة الفرنسية خلال حكم الجمهوريين، إلا أنه لم يوافق تماماً على النظام الفوضوى الذى عقب الثورة الفرنسية فى بادئ الأمر. كما أنه قد رفض أيضاً النزعات والأيدولوجيات الاشتراكية، التي تبناها تماماً أساتذته "سان سيمون"، وحاول أن يجعله يتبنى نفس الخط الاشتراكي، هذا بالرغم أن للمذهب الاشتراكي لدى "سيمون" كان مغايراً للأفكار الشيوعية المتطرفة. فى نفس الوقت، لقد اتخذ "كونت" موقفاً ناقداً جداً للشيوعية واعتبرها أيدولوجية لا أخلاقية، لأنها تتبنى الطريق الثورى والدموى لتغيير البناء والنظام الطبقي فى المجتمعات الحديثة والغلوها لنظام الملكية الخاصة.

وعلى أية حال، لقد تبني "كونت" السياسات الليبرالية الرأسمالية المعتدلة التي تؤكد على أهمية توافر المناخ الاقتصادى الحر والسياسى الديمقراطى، وإن كان "كونت" قد أيد فى بادئ الأمر، ضرورة إقامة النظم الديكتاتورية، ولكن من النوع الذى يقوم على العدل والدستور واحترام القانون، وذلك بهدف احترام النظام والقضاء على الفوضى التي قد تنتج عن الثورة، وهذا ما ظهر خلال الفترة اللاحقة بالثورة الفرنسية وظهور حكم الغوغاء. وعموماً، يتضح



من التحليل الموجز، لموقف "كونت" من الأيديولوجيات والتي ظهرت في عصره أنه كان يسعى من الدرجة الأولى لتبني السياسات الليبرالية الرأسمالية الإصلاحية، التي تجمع بين كل من المذاهب الاشتراكية، والرأسمالية المعتدلة، والبعد قليلاً عن النظم الأيديولوجية المتطرفة مثل النظام الشيوعي الذي رفضه كلياً. بالإضافة إلى ذلك، لقد خطط "كونت" بصورة علمية هدفه النقدي والأيديولوجي كعالم اجتماع، يهدف بالدرجة الأولى للحفاظ على النظم الاجتماعية، التي تؤدي إلى الاستقرار واحترام الحريات وحقوق الإنسان، والسعي لحل مشكلاته الواقعية، وهذا ما ترجمه بالفعل من الناحية العملية في الأهداف العامة أو الغاية من علم الاجتماع ككل.

## (٢) المنهج العلمي والفلسفة الوضعية.

### أولاً: المنهج العلمي

ركز "كونت" على أن يوضح طبيعة المنهج الذي يجب أن يستخدمه علم الاجتماع ويهتم أولاً وأخيراً بملاحظة الظواهر والسعي إلى تصنيفها. كما يجب أن يهتم بدراسة الأسباب التي تؤدي إلى حدوث الظواهر، وذلك عن طريق استخدام ما يعرف بالعوامل العلوية أو المسببة لحدوث الظواهر. كما حرص لاستبعاد كافة التفسيرات الطبيعية أو الميتافيزيقية، والتي تهتم بدراسة وتبرير حدوث الظواهر الاجتماعية أو تكرار حدوثها. ويؤكد على أن مهمة العلم لا تهدف إلى الوصول للحقائق الكاملة أو المطلقة، متلماً تفعل العلوم والدراسات اللاهوتية الدينية، بقدر ما يهتم بدراسة العلاقات التي ترتبط بالواقع الموجود بالفعل.

في نفس الوقت، حرص "كونت" لعقد مقارنة بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، وإلى أي حد تطورت العلوم الأخيرة بفضل تطوير مناهج وطرق البحث الاجتماعي. ومن ثم، يجب على علم الاجتماع أن يتبنى المنهج العلمي، عند دراسته للظواهر الاجتماعية، وذلك من أجل الاستفادة من هذا العلم لإعادة تنظيم المجتمع، الذي حدثت فيه العديد من التغيرات السياسية نتيجة للثورة الفرنسية والثورة الصناعية أو ظهور مجتمع المصنع الحديث.

ولذا، أنكر دور الفلسفة أو غيرها من العلوم التي تسعى للوصول إلى الحقيقة المطلقة، والتي يصعب عليها تطبيق المنهج العلمي السليم عند دراستها للظواهر والقضايا التي تهتم بمعالجتها.

ومن منظور علمي ومنهجي متميز، ركز "كونت" على تحديد أربعة أجزاء تكون المنهج العلمي، والتي حددها في ضوء نظريته عن المعرفة الوضعية هي الملاحظة، والتجربة، والمقارنة والمنهج التاريخي. كما حاول أن يربط بين هذه المكونات الأربعة الأساسية للمنهج العلمي، الذي يجب أن يهتم به علم الاجتماع، وبين وجود نظرية عامة توجه البحث العلمي نحو تحقيق أهدافه والوصول إلى قوانين يمكن استخدامها في دراسة وتحليل الظواهر والمشكلات الاجتماعية. كما ركز "كونت" على أهمية المنهج التاريخي، وذلك من أجل البحث عن القوانين العامة للتغير المستمر. وهذا ما ظهر بوضوح، في معالجاته السوسيولوجية المتميزة مثل معالجته لقانون المراحل الثلاث، أو دراسته للنظام الحكومي والسياسي، وتحليلاته لتطور الطبقات الاجتماعية، أو ظهور كل من الاشتراكية والشيوعية وغيرها من الأفكار السوسيولوجية الأخرى.

على أية حال، لقد ركز "كونت" على أن يتبنى المنهج العلمي (الوضعي)، ويطرح أراؤه المنهجية في إطار تصوراته عن الفلسفة للوضعية التي اعتمدت بالفعل على المكونات العامة للمنهج العلمي والمتمثلة في الملاحظة، والتجربة، والمقارنة، وهذا ما ظهر بوضوح في تحليلاته عن الاستاتيكا الاجتماعية، والديناميكا الاجتماعية. ولأسيما، أن هذا المنهج العلمي (الوضعي) عند "كونت" ساعده على وضع القوانين الاجتماعية، التي تفسر الواقع المتغير الذي عاصره بالفعل في المجتمع الحديث الصناعي. هذا بالإضافة إلى استخدام "كونت" منهجه العلمي المميز ساعده أيضاً في طرح نموذج نظري مميز عن علم الاجتماع الخالص Pure Sociology الذي جدد مفهوم العامة للنظرية الوضعية التي وضعت الأسس النظرية لعلم الاجتماع ككل.

## ثانياً: الفلسفة الوضعية:

جاءت اهتمامات "كونت" النظرية للفلسفة الوضعية من خلال أهم مؤلفاته عامة وهي، دروس في الفلسفة الوضعية (١٨٣٠ - ١٨٤٢)، ومذهب في السياسة الوضعية (١٨٥١ - ١٨٥٤) ولقد عبر فيهما "كونت" صراحة، عن وجهة نظره العلمية حول ماهية وأهداف هذه الفلسفة واعتبارها الموجه العلمي والنظري للمفكرين والعلماء والمصلحين، أيضاً الذين يهدفون إلى تطوير مجتمعاتهم وتحديث أنماط التفكير وأساليب المعرفة، والعمل على تغيير الأفكار والمعارف والفلسفات التقليدية البالية، التي تعتمد على التراث أو النفس كأسلوب للتفكير فقط، دون الاعتماد على الواقع واستخدام التجربة والملاحظة، والمقارنه، والدراسات التاريخية والواقعية ككل. وهذا بالفعل، ما قصده "كونت" من فلسفته الوضعية Positivism الذي قصد بها ضرورة اتخاذ مواقف إيجابية لدراسة ما هو قائم بالفعل في المجتمع الخارجي، وعدم تبني النزعات أو المواقف السلبية النقدية التي ترفض هذا الواقع نتيجة لتبنيها أيديولوجيات أو عقائد أو مذاهب أو فلسفات عقيمة، وتقوم على أفكار النقل، التجريد والبعد عن الواقعية والخيال بصورة عامة.

ومن هذا المنطلق، لقد رفض "كونت" كلية أن ترتبط النظرية الاجتماعية بأي فلسفات اجتماعية وفلسفية نقدية أو سلبية، وهذا ما جعله يأخذ موقفاً عدائياً لكثير من الفلسفات الخيالية والأيديولوجية المتطرفة. كما رفض أيضاً، أفكار علماء الاقتصاد السياسي، الذين اتخذوا في بادئ الأمر، موقفاً عدائياً ضد علم الاجتماع، والتشكيك في أفكاره ومنهجيته وتصورات، وأهميته العلمية والعملية لدراسة الواقع الاجتماعي. وهذا ما جعل "كونت" يطور أهمية وغايات علم الاجتماع - العلم الوضعي - ووضعه على قائمة تسلسل العلوم الإنسانية والطبيعية، نظراً لاهتمامه بدراسة الواقع والاستفادة من الناحية المنهجية لكافة العلوم جميعها بما فيها بالذات الاقتصاد. وكما رأى كثيراً من العلماء المحللين لأفكار "كونت" للوضعية، أن الهدف الأساسي من هذه الأفكار، تتمثل بوجه عام، في الكشف عن القوانين العامة والثابتة التي تحكم الكون ولأن وظيفة علم الاجتماع تهدف للتوصل إلى القوانين العامة والثابتة نسبياً والتي تحكم المجتمع الحديث.

ومن ثم، فإننا نلاحظ أن فلسفة "كونت" الوضعية، كانت الاطار النظرى والمنهجى معاً، الذى حدده بالفعل ليكون مرشداً عاماً لعلم الاجتماع، ودفاعاً عن قيم وأهداف هذا العلم. وهذا ما جعل "كونت" يلغى تماماً الذات البشرية التى تقوم على تفسير الأشياء أو تبرير حدوثها عن طريق استخدام العقل والنقل وتكوين المعارف بصورة فلسفيه مجردة فقط. ولذا، دعى "كونت" لتوجيه علوم الفلسفة والعلوم الاجتماعية، بما فيها علمه الاجتماعى لدراسة الواقع القائم بالفعل، والاعتماد على كل من العقل والملاحظة الحسية فى تكوين المعرفة العقلية. كما أكد "كونت" على أن هذه الفلسفة الوضعية (كنظرية علمية وأسلوب وطريق للدراسة والتحليل ومنهج مميز)، قادرة على دراسته ليس فقط الواقع الخارجى الذى يعيش فيه الانسان فى المرحلة الحاضرة، بل أيضاً تجعل الانسان أو الذات البشرية قادرة على تغيير هذا الواقع نحو الأفضل فى المرحلة المستقبلية، التى يجب أن يعزز أساليب الفلسفة الوضعية كمنهج للتفكير والتأمل والدراسة والتحليل فى نفس الوقت.

عموماً، وكما يرى بعض المحللين للنظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، والتى تمثلت فى النظرية الوضعية التى حددها "كونت" منذ أكثر من قرنين من الزمان، أو بالتحديد مع البدايات الأولى من القرن لتاسع عشر، أن هدف "كونت" الاساسى من وضع فلسفته الوضعية، جاءت بمثابة رد فعل للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والايديولوجيات والتيارات الفكرية والفلسفية التى عاصرها بالفعل فى فترة من أهم الفترات التاريخية التى مهدت كلية لظهور المجتمع الصناعى الحديث. فلقد، أكد "كونت" على أهمية الفلسفة الوضعية كأسلوب للتفكير والتأمل ودراسة الواقع بصورة علمية، واتخذ موقف معارض لمناهج الاقتصاد السياسى، واعتباره المنهج العلمى الأوحى لدراسة الواقع الاجتماعى. كما فكر تماماً آراء فلاسفة عصر التنوير للفرنسيين والأوروبيين الذين كانوا يقيسون للعمل الانسانى بمقاييس تسمو على النظام الاجتماعى القائم بالفعل، وسعوا إلى تغيير النظام الاجتماعى عن طريق تبني أفكار مثالية أو يوتوبية أو ايديولوجية متطرفة، دون دراسة الواقع الفعلى، والسعى لتحقيق الاستقرار والمحافظة على النظام الاجتماعى واصلاحه وتطويره إلى الأفضل وخدمة للبشرية، وهذا ما تبلور عموماً فى هدف لفلسفة الوضعية أو للنظرية الوضعية كما حددها "كونت" من البداية.

### (٣) الأهداف العامة لعلم الاجتماع.

كشفت التحليلات السابقة المرتبطة بالاتجاه الأيديولوجى والفكرى ونوعية المنهج العلمى وجوهر الفلسفة الوضعية وأسسها عند "كونت"، كيفية تأثيره بالمناخ الفكرى السائد فى فرنسا خاصة وأوروبا عامة خلال البدايات الأولى من القرن التاسع عشر. كما قد عاصر "كونت" أيضاً مجموعة من القوى السياسية والاجتماعية المهمة والتي شكلت بعد ذلك ظروف العصر الحديث ككل، ومن أهم هذه الظروف ظهور الثورة الفرنسية والنتائج المرتبطة بها بعد إعلان الجمهورية وحقوق الانسان، وما صاحب هذه الثورة من إيجابيات وسلبيات جعلته يزيد هذه الإيجابيات أحياناً، وينتقد مساوئها أحياناً أخرى، خاصة أنها عملت على تهيئة النظام الاجتماعى الأخلاقى. من ناحية أخرى، لقد عكست النظرية الوضعية عند "كونت"، مدى اهتمامه بتحديد الخط الفاصل بين النزعات السياسية والدينية والفكرية المتطرفة أو التقليدية وبين التيارات الوضعية العلمية، التى كانت فى موضع صراع بين الدين والعلم فى نفس الوقت.

ومن ثم، يمكن القول، أن "كونت" قد ركز كل من فلسفته الوضعية وأفكاره الأيديولوجية المحافظة لتحديد مهمة علم الاجتماع الذى دافع عنه بقوة شديدة، ولاسيما فى السنوات الأولى عندما خرج هذا العلم الوضعى الجديد، ونقده للتيارات الفلسفية المثالية أو أفكار فلاسفة التنوير، أو علماء الاقتصاد السياسى أيضاً. وحرص "كونت" على تحديد ماهية علم الاجتماع الجديد، الذى يهدف إلى إعادة تنظيم دراسة المجتمع الواقعى على أسس علمية، وذلك بصورة تدرجية وبنى القوتين العلمية الاجتماعية، بعد أن رفض "كونت" كلية أسلوب الثورة فى التغيير والتجديد أو الإصلاح الاجتماعى أو الشامل. وهذا ما حدده "كونت" عندما قال أن الثورة ليست وسيلة لبناء المجتمع، بقدر ما تعتبر تهيئة أخلاقى من الدرجة الأولى. وبإيجاز، أن "كونت" كان يأمل من علم الاجتماع - باعتباره العلم الاجتماعى الجديد - إعادة لرساء قواعد لتنظيم الأخلاقى والاجتماعى الجديد، الذى يقضى على مظاهر القوضى الاجتماعية. وإذا، يمكن أن نطرح عدد من الاقتراحات الأساسية لعلم الاجتماع وهى:

١- رأى "كونت" ثمة وجود عدد من القوانين الطبيعية اللامرئية أو الخفية، التى تنظم للعالم الخارجى، وتتف هذه القوانين وراء تطور ونمو العقل أو المعرفة الانسانية، أو القيم الاجتماعية السائدة، كما تلعب هذه القوانين أدواراً ايجابية فى تطور العلوم الطبيعية و مناهجها ونظرياتها والقوانين التى تتوصل إليها لأنها تعتمد على الموضوعية والواقعية.

٢- حلل "كونت" طبيعة عملية التغير فى المجتمع الخارجى، بأنها عملية حتمية، ويمكن ادراكها بواسطة مكونات المعرفة البشرية سواء كانت عن طريق المعرفة العقلية أو المعرفة الحسية التى تعتمد على الملاحظة والتجربة والمقارنة. وأكد على أهمية المعرفة الحسية، وهذا ما جعله يحدد المراحل التى يمر بها العقل والمجتمع الانسانى، وهى المرحلة اللاهوتية أو الغيبية والتى ترجع كل شئ إلى القوى الخارقة، ثم المرحلة الميتافيزيقية، وهى مرحلة تروسفية أو إنتقالية، وتتميز بالفكر المجرد أو البحث عن العلل والأسباب المجردة. وأخيراً المرحلة الوضعية، وهى مرحلة العلم الحديث، التى تعتمد كلية على البحث عن القوانين التى تحكم الظواهر، والتى تسمح عموماً باستخدام المنهج الوضعى.

٣- ركز "كونت"، على أهمية علم الاجتماع، باعتباره العلم الاجتماعى الجديد، الذى يسعى لفهم واكتشاف القوانين الاجتماعية، على غرار القوانين الطبيعية التى تحكم العالم الطبيعى الخارجى. فمهمة علم الاجتماع وقوانينه الاجتماعية، تعطى للإنسان فرصة كبيرة لدراسة وفهم الظواهر الاجتماعية، كما يسهم هذا العلم أيضاً لدراسة وفهم القوانين الطبيعية، التى تفهم وتدير أيضاً العالم الاجتماعى الذى يعيش فى العالم الطبيعى ككل.

٤- حاول "كونت"، أن يبرهن على الدور الوظيفى الذى يمكن أن يقوم به علم الاجتماع، فى دراسة وفهم كل من القوانين الطبيعية والاجتماعية فى نفس الوقت، أى فهم العالم الخارجى الذى يحيط بالانسان سواء كان هذا العالم طبيعياً واجتماعياً. ومن ثم، فإن دور علم الاجتماع يكمن فى سعيه لوضع نظام علمى وأخلاقي أيضاً، ولذا يعتبر هذا العلم علماً متكاملأ لإعتماده على المنهج العلمى الوضعى من ناحية، وسعيه للمساهمة فى تطور النظام

الاجتماعى والطبيعى بصورة أخلاقية من ناحية أخرى.

٥- رأى "كونت" أن عملية التطور التى تحدث على جميع جوانب المعرفة البشرية، ما هى إلا عملية إجتماعية بصورة عامة، لأن طبيعة هذه المعرفة لاتحدث أو يحصل عليها الفرد إلا من خلال البيئة الاجتماعية الذى يعيش فيها. فى نفس الوقت، أن اكتمال الموقف البشرى، وتطوره مرتبط بتطور المجتمع ونمط المعرفة والتفكير والبحث عن الحقيقة الواقعية، والتى تعزز بدورها تطور العقل الانسانى الذى يعكس كلية، نوعية المجتمع أو الحياة الاجتماعية والبيئية الذى يعيش ويتطور فيه. وهذا ما يعتبر أحد أهداف علم الاجتماع ودراسته لكل من تطور العقل البشرى والمجتمعات الانسانية.

٦- حدد "كونت" أيضاً ماهية وغاية علم الاجتماع، من خلال الدور الذى يقوم به هذا العلم فى دراسة مكونات النسق الاجتماعى، الذى يتكون من جزئين رئيسيين هما: الاستاتيكا الاجتماعية، والديناميكا الاجتماعية. حيث يركز الجزء الأول على دراسة الطبيعة الاجتماعية والانسانية وقوانين الوجود الاجتماعى للإنسان. أما الجزء الثانى (الديناميكا الاجتماعية) فيهتم بمعالجة قوانين التغير الاجتماعى، التى تعتبر عنصراً أو مجالاً رئيسياً من مجالات علم الاجتماع، لأن العلم يجب أن يهتم بدراسة العوامل والأسباب، التى تؤدى إلى التغير، والنتائج والظواهر المصاحبة لهذه العملية، وهذا ما يميز علم الاجتماع عن غيره من العلوم الاجتماعية الأخرى.

٧- فسر "كونت" طبيعة النسق الاجتماعى ومكوناته الأساسية والذى يشمل ثلاث أنماط كبرى من الغرائز وهى أولاً، غرائز المحافظة على النوع وتشمل بدورها (الغرائز الجنسية والحاجات المادية)، وثانياً، غرائز تحسين الأوضاع وتشمل كل من (النواحي العسكرية والصناعية)، وثالثاً، وأخيراً غرائز الاجتماعية وتتضمن كل من (عمليات التضامن والاحترام، والحب الشامل). وهذا النوع الأخير، يمثل مكانه وسطى بين النوعين الأولين من الغرائز وهى غرائز المحافظة على النوع وغرائز تحسين الأوضاع المجتمعية. وبالطبع، نجد أن "كونت"، حرص على استخدام الغرائز الاجتماعية - كمفهوم - حل من خلاله طبيعة الدوافع والحوافز الانسانية، التى تدفع كل من الانسان



والمجتمعات، وسعيهما للتغير والتطور والتقدم، وهذا ما يجعل علم الاجتماع حريص للاهتمام بمناهج العلوم الاجتماعية الأخرى مثل علم النفس على سبيل المثال.

٨- حرص "كونت" على أن يجعل علم الاجتماع على قائمة العلوم الطبيعية والاجتماعية، أو ما اسماء بقائمة تسلسل العلوم، وجاء هذا الحرص الذى طرحه فى صورة افتراض حاول به "كونت" أن يتوج العلم الجديد لكى ينال مكانة علمية خاصة، باعتباره العلم الوضعى الذى يدرس الواقع الفعلى، ويقوم بتقديم تفسيرات علمية لكل من الظواهر الطبيعية والاجتماعية فى نفس الوقت. وهذا ما يفسر عموماً مدى حرص "كونت" على اعطاء التبريرات العلمية لمكانة علم الاجتماع بين العلوم الأخرى. من ناحية أخرى، فسر "كونت" احترامه لمكانة علم الاجتماع، لانه يعد من أكثر العلوم الاجتماعية والطبيعية حداثة ويسعى لتطوير مناهجه وأساليب تفكيره الانسانى، وذلك عن طريق الاستفادة من كافة المناهج وطرق البحث التى توصلت إليه كافة العلوم الطبيعية والاجتماعية الأخرى.

على أية حال، لقد حرص "كونت" كل الحرص على تحديد المكانة العلمية والعملية لعلم الاجتماع، أو ما اسماء أولاً بالفيزياء الاجتماعية، على غرار الفيزياء الطبيعية والفلكية والبيولوجية وغيرها. كما حرص أيضاً على أن يقدم مبررات تفسيرية لأحقية علم الاجتماع وتمنعه بالمكانة الميادية بين العلوم، وذلك لأن هذا العلم يهدف إلى تبين المناهج الوضعية، والسعى إلى تقديم تفسيرات علمية لكل من القوانين الطبيعية التى تحكم العالم الخارجى. وأيضاً، أن هذا العلم (الاجتماع)، يهدف إلى تفسير ووضع القوانين الاجتماعية التى تحلل وتناقش كيفية حدوث الظواهر والمشكلات والقضايا والموضوعات الاجتماعية. اذن، تتبلور مهمة العلم الجديد، فى السعى لتقديم التفسيرات العلمية الواقعية وحل المشكلات التى يطرحها كل من العالم الخارجى (الطبيعى)، والعالم الاجتماعى الواقعى. من ناحية أخرى، أن مهمة علم الاجتماع ترقى كلية إلى مرحلة الوضعية العلمية، بعد أن توافرت فيه الشروط الموضوعية، التى تجعله مؤهلاً لهذا الارتقاء العلمى بين العلوم الطبيعية والاجتماعية،



وتجعل قادراً على دراسة التغيرات التي تحدث في العالم الطبيعي والاجتماعي في نفس الوقت. كما يهدف عموماً إلى تطور المجتمعات والشعوب الانسانية عن طريق تبني الأساليب العلمية الاصلاحية التدريجية إلى تعتق كافة المبادئ الأخلاقية، المحافظة على القيم، وقواعد المجتمع، استمرار وجوده وتطور الكائن البشرى عموماً.

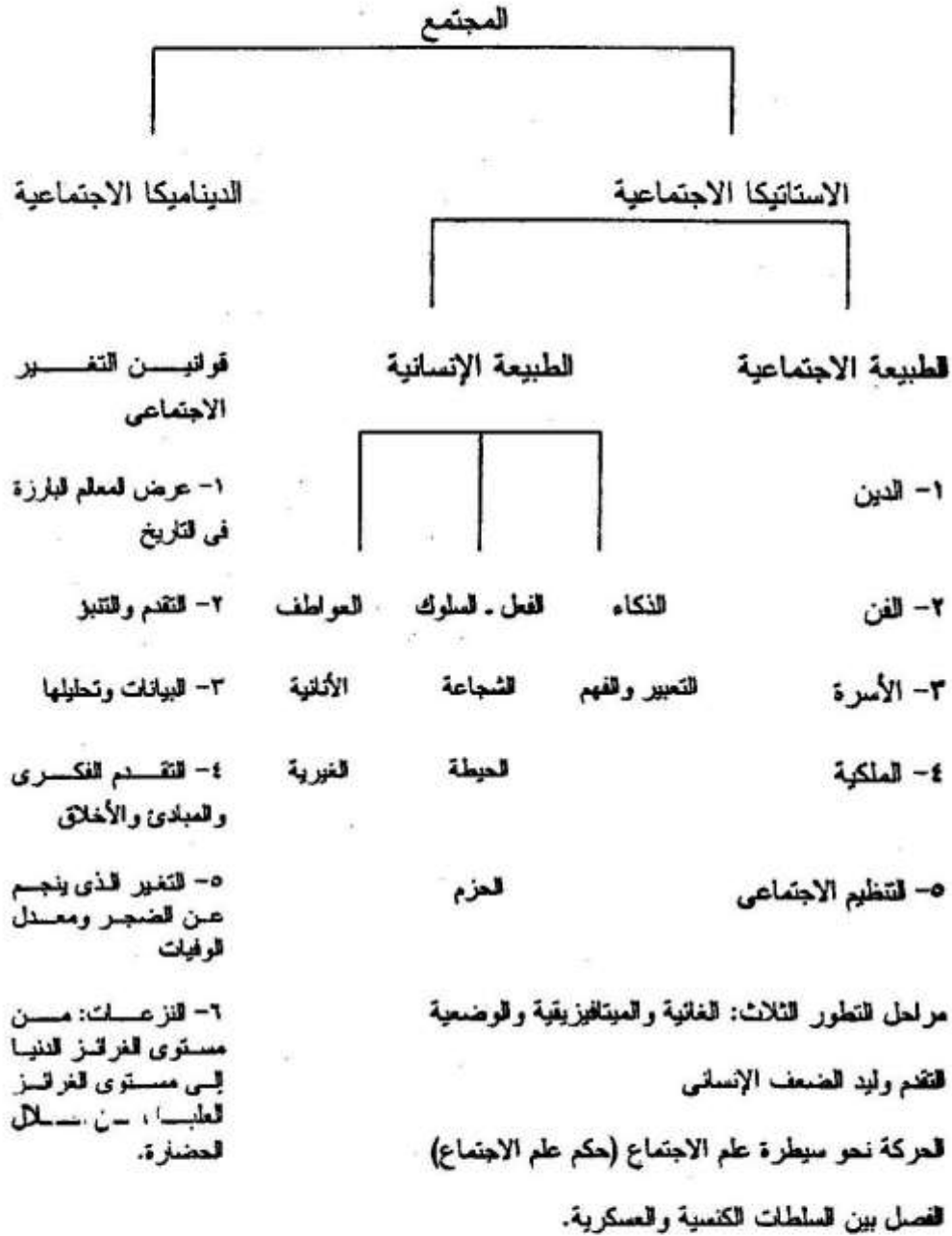
#### (٤) التطور والتقدم الاجتماعي.

تكمن أهمية النظرية السوسيولوجية عند "كونت"، نظراً لأنها تعتبر أولى الملامح الفكرية و التصورية التي حددها عالم اجتماع ولم يسبق أن طرحها عالم آخر قبله. وربما جاءت تحليلات كونت النظرية وليدة مجموعة من الأفكار والتيارات الفلسفية والاقتصادية والسياسية إلا، أنه سعى جاهداً لأن يبلور الخطوط النظرية العامة لعلم الاجتماع، ويحدد معالم هذا العلم الجديد من حيث مفاهيمه، وتصورات، ونظرياته ومناهجه، وقضاياه، ومشكلاته ومجالاته التي يهتم بدراستها ومعالجتها على أسس علمية ووضعية. وهذا ما تبلور بالذات في اهتمام كونت بدراسة عمليات التطور والتقدم الذي يحدث في النظام الاجتماعي الحديث، حيث رأى أن هذا النظام (الاجتماعي) مثله مثل أى نظام في نظم الطبيعة الخارجية، حيث يعمل وفقاً لمجموعة من القوانين الاجتماعية التي يمكن التحكم فيها بواسطة الانسان او بالارادة الاجتماعية التي تسمح بالاصلاح والتعديل والتغيير والتطوير. وهذا ما ظهر عموماً في آراء كونت حول نسبية القوانين الاجتماعية و مرونيتها لأنها تشكل طبيعة النظام الاجتماعي بصورة مستمرة .

ومن هذا المنطلق، حرص كونت على أن يوضح الافكار النظرية العامة لعلم الاجتماع، عندما طرح لنا عدداً من القضايا السوسيولوجية التي أثرت بعد ذلك في رواد النظرية العامة لعلم الاجتماع، ولا سيما عند كل من هربرت سبنسر H. Spencer، و"إميل دور كايم" E. Durkheim، و ماكس فيبر M. Weber وغيرهم آخرون من رواد النظرية السوسيولوجية التقليدية، على نحو ما سنشاهد ذلك بصورة أكثر تفصيلاً خلال الفصول القادمة. فلقد قسم كونت دراسة النظام الاجتماعي أو دراسة المجتمع الحديث من خلال طرحه

لنموذجين أساسيين (كفكرة تصورية) «وهي الاستاتيكا الاجتماعية» و«الديناميكا الاجتماعية»، وهاذين العنصران يشكلان طبيعة المجتمع الحديث الذى عاصره كونت وشاهد تغييره و تطوره . ويقصد بالعنصر الاول ، الطبيعة الاجتماعية وتتمثل فى الدين، والفن، والاسرة ، والملكية ، والتنظيم الاجتماعى، وايضاً الطبيعة البشرية ، وتشمل الغرائز ، والعواطف، والعقل والذكاء. اما العنصر الثانى (الديناميكا الاجتماعية ) فتتمثل فى قوانين التغير الاجتماعى و العوامل المرتبطة به مثل مستويات الضجر ، وطريقة الحياة ، ونمو السكان، ومستويات التطور الاجتماعى والقوى . كما رأى كونت أن النظام الاجتماعى بشقيه الثابت (الاستاتيكي) والمتغير (الديناميكي) يتقدمان حسب قوانين التطور أو المراحل الثلاث من أجل الوصول الى المرحلة الوضعية . وهذا ما يظهر من خلال الجدول التالى لنظام المجتمع عند كونت:

## نمط المجتمع عند كونت



- المصدر، جرهام كينلوش، النظرية السوسولوجية، ترجمة: سعيد فرح، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠، ص ٨٧.

و سنترك الحديث حالياً، لدراسة البناء الاجتماعي أو ما يعرف بالاسثنائيات الاجتماعية على أن نتناولها لاحقاً، ونركز الآن على دراسة الديناميكا الاجتماعية، باعتبارها الفكرة التصورية الرئيسية لعمليات التطور والتقدم الاجتماعي، التي تعتبر جوهر فكرة النظرية الوظيفية عند كونت حيث يتصور، أن الديناميكا الاجتماعية، تبدأ أولاً بدراسة و معرفة معدلات النمو و التغير، ولكن قد يظهر هذا التطور والتغير بصورة نسبية ولا يحدث بصورة فجائية، أو تبدو مظاهره واضحة المعالم في التو واللحظة كما يحدث في البيئة الطبيعية الخارجية. كما رأى كونت، أن التطور أو التقدم لا يسيران في خط مستقيم، كما رأى بعد ذلك العديد من رواد نظريات التقدم الاجتماعي Social change Theories، الذي يصنفون في إطار ما يعرف بالنظريات الخطية Lineral Theories وخاصة، أن كونت تصور بأن للتقدم عوامل ونتائج ومظاهر، كما قد يحدث للتقدم بصورة تذبذبات أو تقلبات، وذلك بفضل تدخل الإرادة الإنسانية، التي بواسطتها يمكن تعديل مسارات التغير والتطور و معدلاته بصورة عامة.

في نفس الوقت، لقد اهتم كونت بعقد نوع من المماثلة البيولوجية بين التطور والتقدم الاجتماعي والتطور الذي يحدث في المملكات النباتية الأولى، خاصة عند تحليله لمدى استمرارية التطور والتقدم. حيث تصور أن عملية التقدم التي تحدث في الحياة والبناءات والنظم الاجتماعية تماثل تماماً عمليات التقدم التي تحدث في الكائنات الحية (النباتية والحيوانية) الكبرى. وهذا ما يوضح لنا كيف استفاد كونت من التحليلات البيولوجية التي طرحها، قبل ذلك العديد من علماء البيولوجيا أو الطبيعة من أمثال تشارلز دارون "Darwan"، وكتابه المميز عن أصل الأنواع. كما قد أثرت تحليلات "كونت" أيضاً في أفكار عالم الاجتماع البريطاني، "هربرت سبنسر" عن المماثلة البيولوجية، وعقده أنواع من المماثلة بين المجتمع والكائن الحي، وسنتناول ذلك بصورة أكثر تفصيلاً وتحليلاً وذلك خلال الفصل القادم. على أية حال، لقد طرح "كونت" أفكاره عن التطور والتقدم في ضوء تحليله لفكرة تطور المجتمعات البشرية ودراسة عملية التغير الحتمي، وهذا ما أثر عموماً بعد ذلك على الكثير من تحليلات العلماء التطوريين في علم الاجتماع في الفترات اللاحقة على "أوجست كونت".

كما بلور "كونت" نظريته السوسيولوجية الوضعية ولاسيما عند تحليله لفكرة التقدم، التي اعتبرها ممثلة في تصوره عن عمليات التغير الديناميكي التي تحدث في المجتمع، واعتبار أن التقدم ظاهرة عامة تحدث في جميع مكونات الحياة الاجتماعية بدون استثناء. وهناك مظاهر للتقدم أو الجوانب التي يحدث فيها، فقد يكون التقدم فيزيقياً، أو أخلاقياً، أو عقلياً، أو سياسياً. ولكن "كونت" ركز على أهمية التقدم الذي يحدث في الجوانب العقلية واعتبرها من أهم الجوانب التي تؤثر على الحياة الاجتماعية وبقية مظاهر التقدم الأخرى. حيث اعتبر "كونت" أن التقدم الفعلي Mental Progress ، هو المسئول الأول عن التغير في مجريات الأحداث والتاريخ، كما أن التاريخ ذاته لا يتغير إلا من خلال وجود مجموعة من الأفكار العقلية التي توجهه إلى مسارات معينة. في نفس الوقت، حرص "كونت" على أن يبرز أهمية التقدم العقلي الذي يوجه الإنسان البشري نحو إشباع حاجاته الأساسية والمادية. لذا استنتج "كونت" مقولته المميزة التي مؤداها: أن النمو والتقدم العقلي يؤدي حتماً إلى النمو والتقدم المادي، ويكون الواقع الأول نحو تطوره بصورة مستمرة في كافة المراحل والعصور التاريخية ولاسيما في العصر الحديث.

من ناحية أخرى، تبرز أهمية كتابات "كونت" عن التطور والتقدم، لأنها وضعت المعالم الرئيسية الأولى لنظرية التغير الاجتماعي التي نتناولها بالدراسة والتحليل العديد من النظريات السوسيولوجية بصورة عامة. فلقد تناول "كونت" مشكلة معدلات التقدم أو مستويات التغير ودائريته، كما ظهر ذلك عند علماء نظرية التغير الاجتماعي المعاصرين. فلقد عرض "كونت" عدد من العوامل التي تلعب دوراً أساسياً في زيادة معدلات التقدم وتفاوتته حسب العادات والظروف التاريخية والسياسية والمناخية والسلالات والجنس أو النوع. كما ألمح في تحليلاته إلى أن منطقة البحر المتوسط تعتبر من أكثر المناطق ملائمة لظروف التطور والتقدم. علاوة على ذلك، تصور "كونت" أن العمل السياسي قد يؤدي إلى زيادة التقدم أو يعوقه في نفس الوقت، ويقصد بذلك طبيعة الظروف السياسية التي توجد في المجتمعات، كما أشار إلى أهمية دور القيادة في عمليات التغير والتقدم، وهذا ما أوضحه في تحليله لدور (العابرة والقيادات الفذة) في تغير مجريات التطور التاريخي وقيادتهم لحركات التغير المستمر.

بالإضافة الى ذلك، سعى "كونت" ليفسر نظريته عن الفلسفة الوضعية، من خلال مناقشته لمراحل التقدم، الذي عبر عنها في قانون المراحل الثلاث The Law of The Three Stages، و اعتمد على كل من التحليلات الفلسفية و السيكلوجية والاجتماعية في نفس الوقت، لبيان وجهة نظره حول طبيعة هذا القانون الذي يعتبر لب التغير وجوهرها الاساسى. حيث تصور "كونت" أن الاهتمام بدراسة وتفسير قانون المراحل الثلاث على أسس للفلسفة الوضعية، يعتبر مسألة ضرورية وحيوية، لأن هذا التفسير يرد القانون الى الطبيعة الانسانية ومعرفتها بسهولة، ولا سيما أن التطور والتقدم لا يحدث فقط في المجتمعات البشرية، ولكن أيضاً يحدث في الذات والعقل الانسانى. ومن هذا المنطلق، عقد "كونت" مجموعة من الارتباطات التى تفسر عملية التطور والتقدم والمراحل العقلية، والمادية، وأنماط الوحدات الاجتماعية، وطبيعة وأنواع النظم الاجتماعية، وايضاً للمشاعر والأهداف السائدة والتى بلورها في قانون المراحل الثلاث كما يلي:

|   | المرحلة العقلية | المرحلة المادية | نموذج الوحدة الاجتماعية | نموذج للنظام | نموذج المشاعر     |
|---|-----------------|-----------------|-------------------------|--------------|-------------------|
| ١ | اللاهوتية       | العسكرية        | الاسرة                  | منزلى        | المحبة والتعلق    |
| ٢ | الميتافيزيقية   | التشريعية       | الدولة                  | جمعى         | الاحترام والتقدير |
| ٣ | الوضعية         | الصناعية        | الجنس (الانسانية)       | عالمى        | الاحسان والخير    |

وفى الواقع، لقد اعطى "كونت" مزيداً من التحليل للمرحلة اللاهوتية و الميتافيزيقية، ولم يعالج كثيراً للمرحلة الأخيرة الوضعية، ربما لحدائة العهد أو الفترة التاريخية لهذه المرحلة التى كان يعيش فيها. كما حاول أن يبرز هذا

التطور والتقدم الذى حدث خلال المرحلة اللاهوتية من ناحية تطور العقل والمجتمعات البشرية، والتي حددها فى خمس مراحل فرعية تعكس عموماً تصورات عن التقدم والتطور وهى:

- ١- مرحلة الأثرية الأسرة
- ٢- مرحلة تعدد الآلهة (الامبراطوريات الشرقية) الدولة والملكية
- ٣- مرحلة تعدد الآلهة على أساس عقائى (الأغريق) اسهامات الملكية
- ٤- مرحلة الوحدات الاجتماعية (روما) الوطن
- ٥- الوحدات الدفاعية (العالم الكاثوليكي) تحرير المرأة والعمال

بإيجاز، لقد سعى "كونت" لأن يعطى لنا تصوراً فكرياً تاريخياً مقارناً عن التطور والتقدم، الذى حدث عبر المجتمعات البشرية، والتي مرت بمراحل متعددة إلى أن وصلت على ما هو عليه، خلال المرحلة الوضعية أو المرحلة الصناعية، التى أصبحت نظاماً عالمياً. وإن كانت هذه المرحلة الأخيرة لم تأت أو تتطور من فراغ، فلقد سبقها أيضاً تغيرات عسكرية وتشريعية ونظامية وسياسية مهدت جميعها لتطور المجتمعات الصناعية الجديدة.

## (٥) تقسيم العمل والمجتمع الصناعى

### أولاً- تقسيم العمل.

فى إطار تحليلات "كونت" ونظريته السوسيولوجية الوضعية، نجد أنه كان حريصاً جداً لتحليل الواقع الاجتماعى الذى عاش فيه، كما اعتمد على المنهج التاريخى المقارن فى دراسة طبيعة التطور والتقدم، الذى طرأ على حياة المجتمعات البشرية عبر العصور والمراحل التاريخية التى ترجمها بالفعل فى قانونه المعروف بقانون المراحل الثلاث، الذى يعد من أهم القوانين الاجتماعية التى طورت بعد ذلك، العديد من النظريات السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة ونظريات التقدم والتغير الاجتماعى كما ترجم "كونت" أفكاره السوسيولوجية

الوضعية، من خلال طرحه لمهمة ووظيفة علم الاجتماع واهتمامه من الناحية العملية والعلمية بدراسة المجتمع الواقعي، الذي ينقسم الى قسمين رئيسيين هما: الاستاتيكا والديناميكا الاجتماعية، لوما أسماه بعد ذلك بعلم الاجتماع الاستاتيكي وعلم الاجتماع الديناميكي.

ومن ثم، يمكن أن نقول، أن آراء "كونت" عن كل من الاستاتيكا والديناميكا الاجتماعية تعد بمثابة نظرية عامة عن طبيعة النظام الاجتماعي Social System ، ذلك النظام الذي يشير بوضوح، الى كل من الانسجام والتوازن بين ظروف وواقع الانسان ونظمه بناءاته في المجتمع، كما يتمثل ذلك خاصة في تصوره عن الاستاتيكا الاجتماعية. بينما جاءت تصوراته عن الديناميكا الاجتماعية كنظرية سوسيولوجية تبرز عملية التقدم والتغير الاجتماعي. وإن كان "كونت" قد حرص على أن يوضح الحقيقة للنظام الاجتماعي في صورتيه الاستاتيكية والديناميكية من خلال تأكيده على فكرة الاتساق العام، أو الارتباط الضروري بين عناصر المجتمع.

كما اعتبر "كونت" هذا الاتساق بمثابة التضامن الاجتماعي Social Solidarity في المجتمع، كما يعد أيضاً أساس عملية تقسيم العمل الاجتماعي، تلك العملية التي جاءت كنتيجة ضرورية لطبيعة عملية التعاقد، الذي تزايد بصورة مضطردة على مكونات الحياة الاجتماعية والإقتصادية والسياسية. في نفس الوقت، إن عملية تقسيم العمل هي، التي تؤدي الى المزيد من التعاون Cooperation و التضامن في نفس الوقت عموماً، وهذا ما ظهر في تحليلات "اميل دور كايم"، الذي استعار كثيراً أفكار "كونت" سواء من أفكاره عن الاستاتيكا والديناميكا أو التضامن الاجتماعي وتقسيم العمل، وهذا ما جعلنا نشير أولاً الى جوهر أفكار "كونت" حول عملية تقسيم العمل ودراسته عن المجتمع الحديث.

على أية حال، إن اسهامات علماء الاجتماع الأوائل تكشف عموماً عن مدى الالتقاء الفكري والنظري بينهم، وهذا ما تبلور في أفكار "كونت" عن تقسيم العمل والتضامن الاجتماعي حيث تتركز أهمية كتابات "كونت" بصفة عامة في إطار تحليله للعناصر الرئيسية للاتساق الاجتماعي The Social



Systems، وذلك عن طريق تأكيد المسنر على مفهوم تقسيم العمل The Division of Labour فى فهم المجتمع. وفى الواقع إن تحليلاته ركزت كلية على دراسة وفهم المجتمع على أنها وحدات Units وعناصر أساسية للبناء Structure، وتنظيماته أو أجهزته Apparatus المختلفة وعلاقاتها المتداخلة مع تنظيم المجتمع ككل. ولقد اهتم "كونت" بتحليل التطورات والتغيرات التى تطرأ على المجتمع الحديث فى ضوء اعتماده على فكرة تقسيم العمل والوظائف باعتبار زيادتها نتيجة طبيعية وحتمية لتعدد المجتمع الصناعى وعلاقاته المتعددة مع البيئة الخارجية التى تحيط به. وعلى أية حال، إن كتابات "كونت" تظهر بوضوح اهتمامه بالمدخل البنائى الوظيفى The Structural Functional approach من أجل فهم حقيقة النظام والتغير الاجتماعى وعلاقاتهما بالظروف البيئية المتغيرة فى المجتمع الصناعى.

ويعرض "كونت" لأهمية تقسيم العمل والوظائف كنتيجة لانتشار الصناعة وانعكاساتها المتعددة على البناء الاجتماعى فى المجتمع الصناعى الحديث، ونظر لأهمية هذه الآراء نوجزها فيما يلى:

- ١- تشكل الصناعة التنظيم العلمى للعمل، وأصبح الإنتاج منظماً من أجل تحقيق معدلات أعلى من أجل صالح المجتمع.
- ٢- نتيجة لتطبيق العلم فى تنظيمات العمل، زاد سعى الإنسان وجهده من أجل الحصول على المزيد من الثروة والموارد.
- ٣- يقوم الإنتاج الصناعى على أهمية وجود الطبقات العمالية فى وحدات الإنتاج والمصانع، واعتبار الطبقات العمالية بمثابة ظاهرة اجتماعية جديدة.
- ٤- إن أهمية دراسة الطبقات العمالية فى المناطق الصناعية توضح حقيقة الصراع سواء أكان ظاهراً أم كامناً بين العمال وأصحاب العمل وبين العمال (أو البروليتاريا) والإدارة أو الرأسماليين.
- ٥- نتيجة لزيادة الثروة عن طريق تطبيق الوسائل العلمية فى نظام العمل بصفة مستمرة سوف يودى الى ظهور مشاكل أخرى نتيجة لزيادة الإنتاج

## Over-Production وزيادة الفقر Poverty .

٦- يرتبط التنظيم الإقتصادي The Economic Organization بطابع العمل الصناعي والعلمي والذي يخلق المشروع الحر The Free Interprise والبحث عن تحقيق المكاسب والربح من جانب الإدارة وأصحاب العمل.

على أية حال، لقد ركز "كونت" على أهمية تقسيم العمل والتخصص في الوظائف كأساس ضروري لنمو وانتشار الصناعة والتي تؤدي بدورها الى زيادة الإنتاج، تلك الفكرة التي تفترضها بالفعل النظرية الإقتصادية الحديثة وتركز على أهميتها في تقدم المجتمع الصناعي، وهذا ما يؤيده "كونت" في تحليلاته بأنه لا يمكن تقدم المجتمع الحديث إلا بزيادة الإنتاج. وبكلمات أخرى، ان التحول نحو الرأسمالية Capitalization كان سمة جوهرية في فلسفة "كونت"، وهذا يوضح مدى معارضته المستمرة لأي خطط من شأنها أن تهدف الى تحويل الرأسمالية أو الملكية الخاصة الى ملكية القطاع العام. ومن ثم فقد ركز "كونت" كثيراً على أهمية الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج.

ويشير "كونت" قضية هامة مؤداها: توجد علاقة قوية وحتمية بين الملكية باعتبارها سلطة إقتصادية وأنواع السلطات الأخرى سواء كانت سلطة سياسية أم اجتماعية. ومن ثم نجد مدى اهتمام "كونت" بمفهوم السلطة Authority باعتبارها مظهراً من سمات الشخصية بغض النظر عن نوعيتها الثلاث السابقة. وهكذا يؤكد "كونت" على ضرورة امتلاك السلطة الاقتصادية والتي لا توجد بدورها في الواقع إلا بمشاركتها لامتلاك السلطة الاجتماعية فكليةما وجهان لعملة واحدة. وتشير الوقائع والحقائق التاريخية الى أنه منذ قديم الأزل فلقد كان الحكام السياسيين غالباً ذوي سلطة إجتماعية وإقتصادية في نفس الوقت لامتلاكهم الثروة ورأس المال. ومن ثم فإن امتلاك هذه العناصر تكون شيئاً ملازماً لامتلاك المكانة الاجتماعية في المجتمع. وأخيراً، حاول "كونت" أن يصيغ تحليلاته بالطابع الأخلاقي من أجل خدمة الحفاظ على النظام الاجتماعي و ضمان استمراره وبقائه، حيث يؤكد على أنه يجب على كل من الأغنياء سواء كانوا من الصناعيين الرأسماليين والمديرين وأصحاب البنوك أن يوزعوا مسؤولياتهم الاجتماعية Social Responsibilities من أجل

تحقيق أهداف النظام الاجتماعي.

### ثانياً- المجتمع الصناعي الحديث

توضح معالجة "كونت" و تحليلاته للمجتمع الصناعي الحديث عن مدى اهتمامه وتأثره بكتابات العديد من العلماء والفلاسفة السابقين والمعاصرين له مثل "مونتسكيو Montesquieu"، و"كوندرسيه Condorcet" و"مان سيمون S. Simon" وغيرهم. ولقد حاول "كونت" أن يطور العديد من كتاباتهم، فنجد على سبيل المثال، محاولته لتطوير كتابات "مونتسكيو" وخاصة كتابه الشهير روح القوانين The spirit of Laws، وما وصفه "كونت" بالعلم الوضعي The positive science، وذلك عن طريق تحليله واكتشافه لمبدأ التطور أو النشوء The Evolutionary Principle. ولقد طور أيضاً "كونت" هذه الفكرة من آراء "كوندرسيه" الذي نادى بضرورة الاعتماد عليها واعتبارها كشيء جوهري لفهم تطور العقل البشري The Human Mind، وتحقيق مرحلة التنظيم الاجتماعي The Stage of Social Organization من أجل تطوير الحضارة. هذا بالإضافة الى مجموعة من الأفكار والآراء الأخرى "لمونتسكيو" مثل الارادة الاجتماعية، ودور الحكومة، تلك الأفكار التي توضح طبيعة التطور الحضاري والتي أدت لظهور التنظيم الصناعي The Industrial Organization. على أية حال، تشير تحليلات "كونت" للمجتمع والتنظيم الصناعي عن بداية ظهور مرحلة تاريخية ونهاية أخرى وهي المجتمع الاقطاعي. ومن ناحية أخرى، توضح هذه التحليلات طبيعة الأسس الأيديولوجية التي اهتم بها "كونت"، وحاول التركيز عليها من أجل إعادة النظام بعد فترة من التمزق والتفكك السياسي والاجتماعي التي عاشتها فرنسا وأوروبا نتيجة لأحداث الثورات التي ظهرت هناك.

ويشير "آرون R. Aron" الى أن "كونت" في تحليلاته ذات الطابع التاريخي لتطور المجتمع الغربي، ركز على كيفية ظهور المجتمع الصناعي الحديث الذي ظهر بعد فناء مجتمعات العصور الوسطى الاقطاعية، ذلك النوع من المجتمعات الذي كان يتميز بالطابع الديني والعسكري ومسيطر عليه من قبل الكنيسة الكاثوليكية. أما المجتمع الصناعي الحديث، فإنه يتميز بطابع

التفكير العلمى والصناعى الذى حل محل التفكير اللاهوتى والغيبى، ويخطط له العلماء والمفكرين بدلاً من رجال اللاهوت أو القساوسة وغيرهم من أصحاب النظريات الغيبية. ومن ثم، فلقد انتقلت القوى الروحية The spiritual power لأيدى العلماء العلمانيين تلك الروح التى تعمل على خدمة النظام الاجتماعى وتقدمه. ومن ناحية أخرى، ركز "كونت" على نشأة الصناعيين Industrialists فى المجتمع الصناعى الحديث ممثلين فى رجال الأعمال، والمديرين والممولين وأصحاب البنوك محل العسكرين أو المحاربين Warriors. وهكذا يتسم التنظيم الاجتماعى الحديث بالطابع العقلانى وانجاز المشروعات الصناعية وتوجيه صراع الانسان ضد الطبيعة واستغلال الموارد بصورة علمية منظمة.

ويعكس تحليل "كونت" لطبيعة المجتمع الصناعى الحديث وتنظيماته المتنوعة حقيقة الواقع الاجتماعى الذى عاصره بالفعل، فنادى بضرورة تحسين الظروف وتقديم الاصلاحات الاجتماعية وخاصة تصحيح الفكر الثقافى السائد مع التركيز على تبنى الوسائل العلمية والنظريات الواقعية التى تهتم أساساً بتطبيق العلوم الحديثة، وخلق ما أسماه "كونت" بالسياسات الوضعية The Positive Policies من أجل إعادة تنظيم المجتمع بالطرق العلمية السليمة، متخذاً بذلك طريقاً ومنهجاً يختلف تماماً عن الأسلوب الثورى الماركسى نحو اصلاح المجتمع. على أية حال، إن تلك النزعة الوضعية لم تكن وليدة اهتمام "كونت" فقط، فلقد اهتم بها العديد من العلماء الذين عاصروه والذين تبنوا وجهة نظر محافظة عند تحليلهم لأزمات ومشاكل المجتمع للحديث مفسرين تطور المجتمعات كظاهرة طبيعية نتيجة لاختفاء نوع معين من النظام الاجتماعى، ونشأة وظهور نظم اجتماعية جديدة تختلف بالضرورة من حيث البناء والوظيفة.

ويكشف تصور "كونت" للعلم الوضعى The Positive Science، على أنه سجاز علمى يركز بالفعل على فهم التنظيمات الاجتماعية والدينية الموجودة وعلاقة الانسان بهذه التنظيمات فى المجتمع بل إن الاهتمام بهذا العلم بصفة مستمرة سوف يكون الحل الوحيد لكثير من المشاكل التى تواجه الانسان

الحديث، وتساعد على تطوير أفكاره واتساق المعرفة لديه. ومن ناحية أخرى، يستطيع العلم الوضعي أو العلم الاجتماعي الذي أطلق عليه فيما بعد بعلم الاجتماع Sociology، أنه يعمل على إعادة بناء النظام الاجتماعي وتنظيماته المختلفة بعد انهيار النظم التقليدية للعصور الاقطاعية، والعمل أيضاً على تحسين الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتي يجب أن يلزمها أنواع جديدة معينة في انساق التفكير، والمشاعر والاتجاهات والقيم والمصالح.

على أية حال، إن تحليل "كونت" للمشاكل والأزمات المعاصرة التي ظهرت في المجتمع الصناعي الحديث، تظهر مدى اهتمامه بتوضيح أوجه الاختلاف والتعارض بين سمات وخصائص نوعين من المجتمعات هما: المجتمع اللاهوتي والعسكري التقليدي، والمجتمع الحديث الصناعي الذي يقوم على النظام العقلاني. وهذا بالفعل ما تتميز به كتابات "كونت" باعتناق طريق الإصلاح والتطور السلمي بعيداً عن طريق التغيير الثوري الجذري الذي اعتنقه "كارل ماركس" وأيضاً لم يهتم "كونت" بالطريق الليبرالي الذي اعتنقه كل من "مونتسكيو" و"مكيافيلي"، بل لقد كان في الواقع عالماً متخصصاً في العلم الوضعي ومناصراً له بشدة حتى يكون الطريق الأمثل للإصلاح والتطور.

وتظهر تحليلات "كونت" خصائص وسمات التغيير على المجتمعات قبل أن تختفي وتظهر مجتمعات أخرى جديدة حيث تمر بفترات من التحول أو الانتقال Transitional periods، تلك الفترات التي توضح نواحي التحول والتغيير الذي يحدث في المجتمعات السابقة وهي المجتمعات الاقطاعية وتغييرها إلى المجتمعات الصناعية الحديثة، حيث تختص بالتدرج خصائص وسمات المجتمع الأولى، وتظهر المجتمعات الثانية بنوعية جديدة من التنظيمات التي تحكمها طبقة أيديولوجية جديدة من العلماء والعلمانيين وطبقة الصناعيين الممثلين في رجال الأعمال وأصحاب المشروعات الصناعية والتجارية ومديري الشركات والبنوك. حيث نكتسب هذه الطبقة الجديدة ما يعرف بالقوى الروحية التي تساعد في الإصلاح حيث تتضمن هذه القوى نسق علمي من التفكير والمعتقدات والاتجاهات والآراء الثقافية والفكرية

الجديدة التى تساعد على تشكيل البناءات التنظيمية والسياسية فى المجتمع.

وفى الواقع، اننا نجد نوع من التشابه بين تحليلات "كونت" و"ماكس فيبر" فى تحليله لطبيعة التغييرات التى تطرأ على البناءات التنظيمية والسياسية والدينية والإدارية فى المجتمع الحديث والذى يختلف بالضرورة عن المجتمعات السابقة وذلك عند تمييز فيبر لأنواع السلطة الثلاث سواء كانت سلطة كاريزمية أم تقليدية أم عقلانية حديثة. حيث يلزم كل نوع من هذه السلطات أنواع من المجتمعات، فنجد أن السلطة الكاريزمية تتمتع بنفس الخصائص اللاهوتية الدينية، والسلطة التقليدية بانواعها المختلفة تشير الى طبيعة السلطة الأبوية والإقطاعية فى المجتمعات الإقطاعية مثلما يشير "كونت" أيضاً الى طبيعة النظام التقليدى الإقطاعى والعسكرى وسيطرة الكنيسة على السلطة. أما النوع الثالث عن السلطة عند "فيبر" وهو السلطة العقلانية فنجدها تشير الى المجتمعات البيروقراطية والصناعية الحديثة وهو نفس الشيء الذى أشار اليه "كونت" عن المجتمع الصناعى الحديث الذى يتميز بالعقلانية واعتناق العلم الوضعى بشكل عام. ومن ناحية أخرى يتفق كل من "كونت" و"ماكس فيبر" على أن لكل فترة تاريخية من المجتمعات سواء كانت تقليدية أم عقلانية حديثة نوع معين من التنظيمات الإدارية والسياسية القيادية التى تختلف عن الأخرى فى أنظمتها القيمية والعقائدية والاتجاهات واتساق التفكير ككل. علاوة على ذلك، تتشابه طبيعة تحليلات كل من "كونت" و"فيبر" وذلك عن طريق اعتمادها على التحليل النظرى والمنهجى الذى اتبعاه فى ذلك التحليل وهو المنهج التاريخى المقارن. وهذا ماسنعالجه بصورة أكثر تحليلاً عند معالجتنا لاسهامات "ماكس فيبر" فى النظرية السوسيولوجية لاحقاً.

على أية حال، إن فلسفة "كونت" السوسيولوجية الوضعية تتركز حول ثلاثة أفكار رئيسية لفهم طبيعة المجتمع والتنظيم الصناعى الحديث، ونعرض لهذه الأفكار: شيء من الايجاز كما يلي:

أولاً: يرى "كونت" أن المجتمع الصناعى الحديث الذى كانت تعيشه أوروبا فى عصره سوف يصبح لجميع الشعوب ويكون مجتمعاً عالمياً Universal، لأن هذا المجتمع ما هو إلا تنظيم صناعى Industrial Organiztaion يقوم على

العقلانية والإنجاز وكفاءة الاداء تلك الخصائص التي تميزه عن أنواع التنظيمات الأخرى، ولأنه يقوم على مبدأ تقسيم العمل والتخصيص Specialization.

ثانياً: وتتركز الفكرة الثانية على الاتجاه نحو عالمية التفكير العلمى Scientific Thinking، لأن الفكر الوضعى المتمثل فى العلوم الطبيعية مثل الرياضيات، والطب، أصبح له أهمية عالمية ومنتشر بين جميع عناصر الجنس البشرى، وأن هناك عديد من الشعوب قد تبنت هذا المنهج العلمى فى التفكير، وهذه الفكرة توضح أن آراء "كونت" على جانب كبير من الصواب نظراً لانتشار العلوم الحضارية الغربية، وتؤكد حقيقة ما كان يقصده "كونت" بفكرته للعالمية The Nation of Universality حيث تتقدم العلوم الوضعية من العلوم الطبيعية والرياضية إلى العلوم والمجالات السياسية والدينية والاجتماعية. وهذا ما كان يهدف اليه "كونت" وهو ضرورة تبنى المنهج الوضعى كأساس للتقدم والتطور الحضارى.

ثالثاً: وتدور هذه الفكرة حول تركيز "كونت" على نظام السياسة الوضعية System de Politique Positive والتي تدور حولها بعض القضايا والتساؤلات مثل، إذا كان وجود البشرية متشابه، وأيضاً للناس والشعوب جميعاً، وإذا كان طبيعة النظام الاجتماعى واحد أيضاً؟ فما هو مصدر التنوع والاختلاف فى التقدم الحضارى بينهم؟. تلك هى القضية التى ركز فيها "كونت" على أهمية تطور المجتمع الصناعى الغربى ليصبح مجتمعاً عالمياً نظراً للخصائص والسمات وأنواع التنظيمات والمناهج العلمية التى يتبعها لينفرد به على غيره من التنظيمات الأخرى.

وعموماً، يركز "كونت" تحليلاته حول المجتمع والتنظيم الصناعى، من أجل تفسير التطورات والتغيرات البنائية الوظيفية التى ظهرت فى هذا المجتمع فى جميع نواحي الحياة مع مقارنته بالتنظيمات الاجتماعية فى العصور الاقطاعية. ولقد أكد "كونت" كثيراً على ضرورة ما أسماه بالنظام الروحى Spiritual Order بضمان استمراريته عن طريق تبنى المنهج أو العلم الوضعى مع ضرورة توافر الثروة الاقتصادية والقوى الاجتماعية المكاملة،



وهذا ما أطلق عليه أيضاً باتحاد الموقف الزماني لطبيعة المجتمع الصناعي الحديث. على أية حال، أن أفكار "كونت" كانت وليدة ظروف العصر الذي عاش فيه والتي تقوم على عدة حقائق أساسية وهي:

١- حرية العمل.

٢- تطبيق العلم فى الصناعة.

٣- نشأة التنظيم العقلانى.

٤- الاهتمام بالقيمة الاخلاقية للفرد.

خلاصة القول، إن آراء "كونت" تأثرت بالعديد من العلماء السابقين والمعاصرين له فى تحليله وتفسيره لطبيعة المجتمع والتنظيم الصناعى الحديث، وإن كانت "كونت" كثيراً من التعديلات والأفكار الجديدة والتي ظهرت واضحة فى كثير من كتاباته، ومعارضته لكثير من الآراء وبصفة خاصة نكرتى احتلال الشعوب Colonialism ، والاستعمار Imperialism تلك الفكرتين اللتان كانت لهما جذوراً فى نشأة نماذج أو أنماط الانتاج السابقة على ظهور الرأسمالية، وباعتبارهما مصدران أساسيان لتكوين الثروة ورأس المال. ولكن رأى "كونت" إن الضمان الرئيسى للتقدم الاقتصادى للمجتمع الصناعى يأتى عن طريق تبنى العلم الحديث، وضرورة تطبيق مبدأ عقلانية تنظيم العمل.

## (٦) النظم الاجتماعية والسياسية

### أولاً النظم الاجتماعية

عكست النظرية الوضعية السوسيولوجية عند "كونت" الكثير من الآراء راسخة التصورية، التى وجهت لكل من علم الاجتماع وعلمائه بصورة عامة، عند اجراء دراساتهم النظرية السوسيولوجية أو الواقعية الميدانية فى نفس الوقت. وهذا ما يتبلور على سبيل المثال، فى عديد من القضايا النظرية التى طرحها "كونت"، والتى تمثلت فى نظريته عن البناء الاجتماعى Social



Structure ،والتي عبر عنها في ضوء اهتماماته عن علم الاجتماع الاستاتيكي. حيث عرض "كونت" بوضوح لوجود ثلاث مستويات في البناء أو النظام الاجتماعي وهم: الفرد، والأسرة، والاتحادات الاجتماعية. وإن كان قد استبعد أحياناً "كونت" للفرد في تحليلاته الموسيولوجية، إلا أنه تعرض له بصورة مباشرة وغير مباشرة في تحليلاته، خاصة في تحليله للبناءات الجمعية، مثل الأسرة أو الاتحادات أو الجماعات الاجتماعية الكبرى، أو تحليله للدولة باعتبارها الوحدة الرئيسية التي تظهر في التنظيم الاجتماعي للرسمي . . Formal Social organization

#### ١ - الأسرة

كما تكمن أهمية تحليلات "كونت" في النظرية الموسيولوجية، حيث أكد على اعتبار الأسرة Family ، هي الوحدة الاجتماعية الرئيسية في المجتمع. كما أن الأسرة تتميز عن غيرها من الوحدات أو النظم الاجتماعية، لأنها تتمتع بطابع أخلاقي متميز يقيس عموماً نوعية الحاجات الانسانية الجمعية أو الفردية لوجودها (الأسرة) كبناء اجتماعي يقوم بلشباع الحاجات الانسانية، سواء كانت عاطفية أم غرائزية أو مادية أو أخلاقية في نفس الوقت. كما حاول أيضاً، "كونت" أن يحلل لنا كيفية اتحاد الأسرة الاجتماعية، بالرغم من حياة البعض منها في مرحلة من العزلة الاجتماعية، ولكنها سعت عن طريق التضامن والتعاون والتنسيق، لتظهر بعد ذلك في عدد من الطبقات أو الاتحادات الاجتماعية المتميزة. كما حرص "كونت" لتحليل كيفية تطور الحياة الاجتماعية وتقدمها في العصور التاريخية، حينما سعت الجماعات الأسرية، لتكوين ما يعرف بالنظام السياسي والذي تمثل في الدولة أو الحكومة أو النظام السياسي التقليدي عامة. كما حاول أن يعرض أهمية وجود الحكومة كهيئة تنظيمية سياسية تتجسد فيها وظائف الدولة الحديثة، التي عبر عنها "كونت" خلال المراحل التاريخية، لتطور المجتمعات البشرية. وهذا ما سينشر إليه، في إطار تحليلاته عن النظم السياسية التي ظهرت عن الحكومة، ولأيضاً آراءه النظرية عن كل من الطبقات والشيوعية والاشتراكية، باعتبارها من النظم الاجتماعية والسياسية الهامة التي تناولها "كونت" ولم يعرفها القارئ العربي أو

المتخصص في النظرية السوسيولوجية لأسباب متعددة.

## ثانياً النظم السياسية

### ١ - الحكومة

يعرض "كونت" تصوره لفكرة الحكومة Government وما هيئتها كبناء تنظيمي يقوم على أساس علمي محدد، له خصائص مميزة حيث يتسم بطابع الاستمرارية، وتنظيم البناءات التنظيمية الأخرى في المجتمع ابتداء من التنظيم الأسري Family Organization حتى أكثر التنظيمات تعقيداً ويعتمد التنظيم الرسمي الحكومي على فكرة تخصص الوظائف وتوزيعها بين التنظيمات الفرعية التي تسعى من أجل إنجاز الوظائف والأهداف العامة والمتنوعة لما اسماه "كونت" بالاقتصاد الاجتماعي The Social Economic. ومن أهم الوظائف لهذا التنظيم الحكومي هي جمع وتكوين الأفكار والمعتقدات والمشاعر العامة المتداخلة في المجتمع في صورة بناء تصوري كلي، والذي يهدف أساساً لتحقيق التقدم الاجتماعي The Social Progress وتعتبر وظيفة تقديم الأمن والحماية لأعضاء المجتمع من أهم وظائف الحكومة باعتبارها البناء والسلطة التنظيمية الأولى في المجتمع. ومن ناحية أخرى، تقوم الحكومة وأجهزتها التنفيذية والإدارية المختلفة بممارسة ثلاثة أنواع مميزة من النشاطات وهي النشاطات المادية، والفكرية، والأخلاقية. وهذا المركب الثلاثي من النشاطات اعطى له "كونت" كثيراً من الأهمية في تحليلاته ليوضح وظائف وخصائص التنظيم الحكومي باعتباره بناءً تنظيمياً يهدف بالدرجة الأولى لتحقيق فكرتي الاقتصاد العالمي والتقدم الاجتماعي.

ويظهر تحليل "كونت" للتنظيم الحكومي من خلال نظريته للتنظيم الاجتماعي The Theory of Social Organization ، تلك النظرية التي يصفها "كونت" بأنها تقوم على أسس ذات قيمة منطقية وعلمية، وتعطى لنا تفسيراً مميزاً يحدد تصوراتهِ الأساسية عن نظريته الوضعية للنظام الاجتماعي The Positive Theory of Social Order تلك النظرية التي يعبر فيها "كونت" عن إعجابه الشديد بمؤسسيها الأوائل من أمثال "أرسطو" و"هوبز"

وغيرهم، حيث يوضح أيضاً شرطين أساسيين تقوم عليهما الأسس العامة لهذه النظرية وهما التعاون Cooperation، والاستقلال Independence حيث يقوم عليهما أساساً أى عمل ذو طابع جمعى تنظيمى.

ويؤكد "كونت" على أهمية مبدأ تقسيم الوظائف Separation of Functions فى جميع أنواع التنظيمات ابتداء من أبسطها فى التنظيمات العائلية أو الأسرية الى أكثرها تعقيداً فى المجتمع. حيث يعتبر هذا المبدأ من أهم المؤشرات التى تدل على حقيقة نضج المجتمع السياسى الذى يعتمد بالضرورة على مبدأ التعاون المتبادل بين التنظيمات المختلفة. ويشير "كونت" الى حقيقة الاعتماد على مبدأ تقسيم العمل والوظائف كنتيجة طبيعية لزيادة التنوع الذى حدث فى نظام العمل والمين وظهور النزعة الفردية Individualism، ووجود الاختلافات بين الأفراد على حساب التخصص العلمى والمهنى. ومن ناحية أخرى، يوضح "كونت" ضرورة الحاجة لخلق روح التضامن بين الأفراد والتنظيمات فى المجتمع، فيشير على سبيل المثال، الى أن الأسرة باعتبارها تنظيم بسيط يقوم على مبدأ تقسيم العمل من أجل إشباع حاجات ورغبات أفرادها، ولكن مع تطور ظروف المجتمع المعقدة تتضامن مجموعات من الأسرة عن طريق التبادل فى الخدمات والتعاون فى إشباع وظائف أعضائها ككل. وهذا بالفعل سوف ينعكس على زيادة روح التضامن والمشاعر والأفكار العامة التى تسعى من أجل تحقيق العلاقات المتجانسة Harmonious Relations التى توضح أهمية الوجود البشرى وتطويرة وذلك فى إطار تحقيق مبدأ عيش من أجل الآخرين. (To live for others)

ويعطى "كونت" للفرد الاجتماعى أهمية فى تحليلاته عند توضيحه للعلاقة التى تربط الفرد بالبناء التنظيمى والمجتمعى وذلك فى إطار تمييزه بين نوعين من النظام هما النظام الروحى (الأخلاقى)، والنظام الزمانى (الدنيوى)، هذا التمييز وأن كان يقوم على أفكار "كونت" ذات الطابع الميثاقىزىقى أحياناً، والأخلاقى أحياناً أخرى، إلا أنه يفضل النظام الأول (الروحى) حيث يرتبط الفرد أكثر بالنواحي الأخلاقية، ومع ذلك يوضح "كونت" أن للنظام الثانى (الزمانى) أهمية أكبر فى إعطاء الفرد مزيد من القوة والسلطة فى المجتمع.

على أية حال، إن لهذا النوع من التمييز بين هذين النظامين وعلاقتهما بالفرد فى المجتمع، تؤكد على تمسك "كونت" بأهمية النظام الروحى أو ما يصفه بالأحكام النوعية The Qualitative Judgments التى تميز للفرد وكنوع من التقييم الأخلاقى له فى المجتمع.

ويتضح من التحليل السابق، أن "كونت" يؤكد على أهمية العلاقة بين الأفراد والتنظيم الحكومى وضرورة الخضوع العقلانى Rational Subordination والطاعة المستمرة من قبل الأفراد للحكومة. وما يسميها أحياناً بمفهوم تنظيم السلطة السياسية Organization of Political Authority حتى يقوم بمهامه ووظائفه المتعددة من أجل تحقيق التقدم الاجتماعى. فيعرض "كونت" الى أن التنظيم الحكومى أو تنظيم السلطة السياسية يقوم على قوى هامة وهى القوى الفكرية العلمية، والأخلاقية، والضبط الاجتماعى. وكما يضيف أيضاً، فالتنظيم الحكومى فى المجتمع ما هو إلا امتداد طبيعى للحكومة الخاصة بكل جماعة صغرى، ولأن هذه الأشكال البسيطة من السلطة تكون موجهة لتحقيق هذا الغرض، وهو تحقيق هذه القوى الثلاث السابقة. ويجب أن تحترم السلطة بواسطة الجميع وهذا ما يتم عن طريق التدريب للفكرى والعلمى المستمر للأفراد من أجل الخضوع وطاعة التنظيم الحكومى. ومن ثم يجب على السلطة السياسية أو القوى الحاكمة أن تصل الى درجة عالية من الكمال الفكرى بصفة مستمرة، حتى يجعلها قادرة على تحقيق وظيفتها الأساسية فى حفظ النظام.

ومن ناحية أخرى، يشير "كونت" الى تطور نشأة فكرة الخضوع والطاعة العقلانية من قبل الأفراد تجاه التنظيم الحكومى وذلك عن طريق تحليل ما وصفه بالميزات العملية التى تكون كرد فعل ونتيجة طبيعية للتطور الطبيعى فى العلاقات الإنسانية التى تظهر بوضوح من خلال طريقين هما:

أولاً: الحياة الفردية، حيث يقوم للفرد بصفة مستمرة بالسيطرة على غرائزه الشخصية والعائلية وما يسمى بالغرائز العاطفية Sympathetic Instincts.

ثانياً: اجتماعياً وهذا ينتج عن طريق التطور المستمر للتأثيرات الفكرية

وهذا النوع الأخير، يظهر عن واقعية الوجود الانساني ويتمثل في ثلاثة أنواع فرعية أخلاقية وهي:

أولاً: الأخلاقية الفردية Personal Morality والتي تنتج عن قدرة احتفاظ الفرد وامتناله الى النظام العقلائي.

ثانياً: الأخلاق العائلية Domestic Morality، والتي تخضع الذات الفردية الى احترام العواطف والروابط العائلية والأسرية.

ثالثاً: الأخلاق الاجتماعية Social Morality، والتي توجد في الميول والاتجاهات الفردية عن طريق استخدام العقل نحو المجتمع والحفاظ استمراره وتماسكه.

## ٢- الطبقات الاجتماعية

تظهر تحليلات "كونت" للطبقات من خلال تصوراته لفكرتي الشيوعية Communism والاشتراكية<sup>(١)</sup> Socialism اللتين حللتهما في ضوء نظريته الوضعية للتشظيم الاجتماعي بصفة عامة، ونظريته للرأى العام Theory of public opinion بصفة خاصة. ومحاولة تهدف أساساً لتفسير تنظيم المجتمع الصناعي الحديث، بتقديم نوع من التحالف الفكري بين الطبقات العامة والفلاسفة، وتفسير الامتيازات التي يمكن توفيرها لطبقة البروليتاريا، والطرق الكفيلة لتوافر جميع المطالب الشرعية Legitimate Claims لها. ولقد أبدى "كونت" اهتمامه بالتركيز على الطبقة العمالية باعتبارها ظاهرة اجتماعية جديدة لها وظائف اجتماعية واقتصادية هامة، وتعتبر وجودها من العوامل المكونة للقوى الروحية (الأخلاقية) الجديدة التي لاغنى عنها في المجتمع. ويحلل "كونت" وضع الطبقات العمالية في العصور الوسطى الإقطاعية وكيف استبعدت هذه الطبقات وظلت بعيدة تماماً عن النظام السياسي، ولكن مع ظهور

The main Ref., Comte, A. System of Positive Policy, vol -2, op.cit.(١)  
p. 223-49. (sec., thompson op. cit, pp. 178 -88.

المجتمع الصناعى وضح الدور الفعال لهذه الطبقات فى تكوين موارده وثرواته  
إذ أصبحت لهذه الطبقات وضع مميز لاسهاماتها فى تشكيل الحياة العامة.  
ويرى "كونت" أن الاهتمام بتحليل الطبقات وإبراز أهميتها يعد نوع من  
التعويض Compensation للأعمال الشاقة والحيوية التى تقوم بها تجاه  
المجتمع، ومن ثم يجب الاهتمام بمكانتهم الاجتماعية.

ويعرض "كونت" لأهمية توجيه مسار الطبقات العاملة وذلك عن طريق  
زيادة الاهتمام ببنى النزعة الوضعية، بتقديم البدائل الكفيلة من أجل توجيه  
العاملة الى نشاطات ذات طابع أخلاقى وبعيداً عن النشاطات  
السياسية. فالنزعة الوضعية لها القدرة على تقديم الأطر التصورية والفكرية  
العقلية لتوفير حقوق هذه الطبقات فى ضوء اتباع الطرق السليمة وبعيداً عن  
التصورات والطرق الثورية التى تسعى الى امتلاك القوى السياسية فقط والبعد  
كلية عن الالتزام بالنشاطات الأخلاقية. وهكذا يرى "كونت" حقيقة النزعة  
الوضعية The positivism باعتبارها العلاج الوحيد لاقناع الطبقات العمالية  
للحل الأمثل للمطالبه بحقوقها الشرعية، والأمثال للقوى الأخلاقية الروحية من  
أجل اداء واجباتها تجاه المجتمع. وهذا الاقناع من جانب النزعة الوضعية  
يجب أن يزداد تجاه الطبقة العمالية، التى يجب أن يعلم بدورها على-حد تعبير  
"كونت"- وتدرك جيداً أن جميع المشاكل الاجتماعية الأساسية التى تشغل  
اهتمامها هى فى الدرجة الأولى أخلاقية أكثر من كونها سياسية.

وهكذا نرى تصور "كونت" للطبقة العمالية وذلك فى ضوء اعتناقه  
الاتجاه المحافظ ذات الطابع الايديولوجى المميز تجاه الحفاظ على النظام  
القائم، تلك النزعة أو الاتجاه الذى وجد صدًى كبير فى الأوساط الفكرية  
والثقافية التى ظهرت فى أوروبا وعاصرها "كونت" والتى شكلت كثيراً من  
نظريات علماء الاجتماع والسياسة وغيرهم من علماء العلوم الاجتماعية، تلك  
النظريات التى ما زالت تشغل أيضاً كثير من النظريات السوسيولوجية  
المعاصرة ممثلة فى الاتجاه البنائى الوظيفى الغربى المحافظ المتمثلة فى أعمال  
كثير من علماء الاجتماع التنظيمى من امثال بارسونز ومدرسته. وكما  
يعبر "رونالد فيلتشر R.Fletcher" أن تحليل "كونت" لفكرة المصالح

الاجتماعية Social Interests تعبر عن وجهة نظره وآراءه حول الطبقات العمالية وأمله فيها باعتبارها من العوامل المساعدة لانتشار التحول نحو التصنيع The Industrialization ، لأن طبقة البروليتاريا لها دورها الإيجابي تجاه المجتمع وتقدمه، لأنها القوى البشرية المكونة للصناعة. ومن ثم يجب على هذه الطبقة رفض كل التفسيرات والأفكار الميتافيزيقية واللاهوتية، وأن تسعى بكل الوسائل لتبني النزعة الوضعية التي توجه بدورها كل الوسائل من أجل تقديم التحسينات والتطورات العملية لخدمة الإنسان والحياة في المجتمع الصناعي. وهكذا يجب أن تركز عملية تحديد أهداف النشاطات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الصناعي من أجل فهم العالم الخارجي، وتقديم التفسيرات العقلانية لكل ما يدور حولنا في العالم والبيئة المحيطة به.

### ٣- الشيوعية والاشتراكية

يحلل "كونت" مفهوم الشيوعية، باعتباره من الأفكار التي انتشرت سريعاً في أوروبا وبصفة خاصة بين الطبقات العمالية، وبالرغم من عدم تقبل "كونت" لهذه الفكرة إلا أنه يفسر سبب انتشارها بين طبقة البروليتاريا لتبنيها كثيراً من المشاكل الاجتماعية التي تتعلق بها. ويحاول "كونت" جاهدًا أن يعدد المكاسب التي حصلت عليها هذه الطبقة وخاصة بعد قيام الثورة الفرنسية وبعيداً عن تطبيق الشيوعية. حيث لم تتبع الثورة طريق التضليل السياسي، وركزت على لقناع كثير من أفراد الطبقات العاملة لتمييزها بين مفهوم الملكية The Property، ومفهوم القوة The Power حيث توجد اختلاقات واضحة حول مضامين هذين المفهومين. وفي نفس الوقت، يتهم "كونت"، الشيوعية بأنها لا تهتم كثيراً بتحليل المشاكل الاجتماعية وعدم حيلها في معالجتها لهذه المشاكل، بالإضافة لأن لها جذوراً ميتافيزيقية مصدرها العصور الوسطى.

ويركز "كونت" كثيراً من تحليلاته لنقد الشيوعية واتهامها باعتناق الأفكار الميتافيزيقية وتقديمها للأوهام السياسية للطبقات العاملة. ومن ثم يجيء دور النزعة الوضعية باعتبارها طريق التقدم الطبيعي الذي يوجه المسار الحقيقي للروح التطورية وتبني التقدم الأخلاقي لأنه أفضل بكثير من التقدم الفكري. ومن ثم، يجب توجيه الاتجاهات والميول القومية نحو حل القضايا



والمشاكل الأخلاقية تاركه تماماً المشاكل السياسية الخالصة. ولكن بالرغم من أهمية ذلك، فرواد الفكر الشيوعي على عكس ذلك تماماً، لاهتمامهم بالقضايا السياسية كما فعل كثير من المفكرين في العصور الوسطى والقديمة السابقة. ويركزون في الوقت الحالي (الشيوعيون) على ضرورة تنظيم الملكية بالطرق الثورية، ولكن الأمر يتطلب الاهتمام بتقديم الحلول للمشاكل الاجتماعية للطبقة العمالية عن طريق اعتناق الحل الأخلاقي، وباعتبار أن الحل السياسي لهذه المشاكل غير ملائمة ومدمر في نفس الوقت.

ويتصور "كونت" بأن الطبقات العمالية سوف تكون لديها القدرة على التمييز في الوقت الحاضر وفي المستقبل لفهم الشيوعية والنظريات المسطحية الأخرى التي تهتم بالعواطف كمصدر للإلهام، والمبادئ الميتافيزيقية مصدراً للخيال أو اليوتوبيا الشيوعية. وعندما تقوم الطبقة العمالية بتحديث أفكارها سوف ترى جيداً الطريق السليم لمصالحها الشرعية The Legitimate Claims، وسوف تتبنى بالضرورة التصورات العملية للإتجاهات الوضعية التي تحمل الحلول السلمية بصفة مستمرة، والبعد عن اعتناق الأفكار التي تشبع الغرائز فقط وتؤدي إلى الفوضى، وحينئذ سوف يكون من الطبيعي تخطي الطبقات العاملة عن الشيوعية.

من ناحية أخرى، نجد "كونت" يعقد نوع من التحليل على أسلوب المقارنة، حيث يفضل أحياناً في بعض تحليلاته طبقة العمال اليدويين The manual workers على طبقة المديرين The Managers، والذي يصنفهم ضمن طبقة الرأسمالية The Capitalists وذلك في إطار فهم واعتناق النزعة الوضعية، لأنهم أكثر احتكاكاً (العمال) بالعناصر المادية. أما طبقة المديرين، فأنهم ينشغلون في عملية اتخاذ القرارات Process of Decisions Making. ويتصور "كونت" أيضاً أن الطبقة العمالية لا تتمتع كثيراً بمباهج الحياة وقضاء أوقات الفراغ، ولكن بالرغم من ذلك لديهم المقدرة التي تجعلهم بعيدين عن قيود المهن وما يشغل أصحاب الطبقة البرجوازية، بل وتقبل الأفكار الوضعية لأن عقولهم لم تقسد بروتين التعليم الرسمي The Formal Education وضيق أفق الشخص، وسيطرة الفكر الأكاديمي الخالص، مثلما حدث لطبقة المديرين أو



البرجوازيين. وأخيراً كما يقول "فيلتشر":

"بالطبع لقد تأثر كارل ماركس K.Marx بأراء كونت. وفى الحقيقة لقد قرأ ماركس كتابات كونت، ولكن إلى أى حد تأثر بأعماله فهذا من الصعب تحديده. وعلى أية حال، أن ماركس أكد على أهمية دور طبقة البروليتاريا فى تشكيل العالم الصناعى الحديث، ذلك التأكيد الذى يكون بالطبع بعيداً عن ما هو مقترح الآن"<sup>(١)</sup>.

ويوضح "كونت" تطور النسق الفكرى بمرور الوقت وبظهور فكرة الاشتراكية The Socialism، التى تعتنقها الطبقات العمالية فى فرنسا، لأن الاشتراكية توافق ضمناً على القضايا التى تهتم بها الشيوعية ولكنها ترفض فى نفس الوقت رفضاً قاطعاً لأساليب حلها. ومن ثم، فرواد الاشتراكية بقفون موقف الحذر من الشيوعية ومبادئها الغرائزية والعاطفية واستخدام القوة فى تحقيق المطالب الشرعية للطبقة العاملة. ويؤكد بأن الاشتراكية - فى نفس الوقت - تعتبر اندلاراً حقيقياً للطبقات العليا The Upper classes، وعلى أية حال، يأتى دور الوضعيون فى نشر أفكارهم فى أوروبا الغربية من أجل تنفيذ دعاوى الشيوعية التى تقوم على الخيال السياسى والأفكار الثورية المدمرة للبناء الاجتماعى. ومن هنا، يأتى عملية اعتناق الوضعية كأسلوب للحياة والعمل أساساً على حل مشاكل الطبقات الفقيرة وإشباع حاجاتهم، مع تقييد وضبط نزعات الطبقات الغنية من أجل بناء مجتمع جديد ملائم.

#### مناقشة وتعقيب:

ما من شك أن آراء "كونت" فى النظرية الوضعية، جاءت بمثابة رد فعل طبيعى لطبيعة التقدم العلمى والتكنولوجى الذى ظهر مع البدايات الأولى نسأة المجتمع الصناعى الحديث، و تطور العلوم الطبيعية التى قطعت شوطاً كبيراً فى مجال الدراسات التطبيقية والنظرية، وعملت على تبنى المناهج العلمية الدقيقة التى تستخدم الملاحظة والتجربة والمقارنة بين الظواهر

---

(١) Fletcher, R. The Making of Sociology vol. (1), London, Nelson Univ. Paperback, 1972.

والأحداث وعملية تكرارها وحدوثها. ومن ثم، يمكن القول، أن آراء "كونت" وضعت الخطوط العامة بضرورة تبني نفس الأساليب العلمية والمنهجية للعلوم الاجتماعية كافة وعلم الاجتماع خاصة. ولأسيما، أن بؤرة التفكير الأساسية عند "كونت"، لم تكن موجهة لإقامة نظرية سوسيولوجية متميزة بقدر ما ركز على إنشاء وتأسيس علم اجتماعي وضعى يهدف بالدرجة الأولى لدراسة التغيرات والأحداث الاجتماعية المتلاحقة التى بدأت فى الظهور مع أوائل القرن التاسع عشر. وهذا ما جعل "كونت" يركز على الغايات العلمية والأهداف العامة من ظهور علم الاجتماع، كعلم متميز يهدف إلى التوصل لمجموعة من القوانين الاجتماعية على غرار القوانين للطبيعية التى تحكم العالم الخارجى، ومن ثم يجب على علم الاجتماع، أن يوجه قوائمه الاجتماعية للتحكم والسيطرة على البيئة الاجتماعية المضطربة نتيجة لتغير الظروف والأحداث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمجتمعية ككل.

حقيقة، لقد أعطى "كونت" مزيداً من الدراسة والتحليل لقضايا التغير والتطور والتقدم سواء فى البناءات أو النظم الاجتماعية والسياسية، وهذا ما جاء فى معالجته لقوانين الحالات الثلاث، أو تصوره للمراحل التطورية التى يمر بها كل من العقل والمجتمع الإنسانى، وغير ذلك من القضايا التى جعلته يقسم المجتمع ويدرسه فى قسميه الاستاتيكي والديناميكي. ولذا، يعتبر "كونت" من أول من أسهم فى وضع عدد من النظريات السوسيولوجية الصغرى، التى تندرج تحت الأفكار العامة للنظرية البنائية الوظيفية الكلاسيكية، مثل نظريات التطور والتقدم الاجتماعى. كما جاءت آراء "كونت" للنظرية لتؤكد على دور الأسرة والفرد والعلاقة المتبادلة بينهما، وتكوين الاتحادات الاجتماعية والتى تدرس أيضاً تطور الدولة وتكوين التنظيم الحكومى وتحديد العلاقة بين الفرد والجماعة والمجتمع. ولهذا يعد أول تحليل سوسيولوجى مميز لمجموعة من القضايا الاجتماعية والسياسية التى كانت تشغل العديد من المفكرين والفلاسفة، علماء السياسة والاقتصاد. إلا أن تصورات "كونت" الوضعية لمثل هذه القضايا، أضفت الصبغة السوسيولوجية الواقعية، وفتحت المجال بعد ذلك لكثير من التحليلات النظرية التطورية والسياسية بصورة عامة.

من ناحية أخرى، أن أفكار "كونت" التى أتسمت بالموضوعية السوسيولوجية لم تأت من فراغ، بقدر ما عكست بالفعل الواقع الأيديولوجى والفكرى الذى كان سائداً آنذاك. كما تتبلور أهمية هذه الأفكار الوضعية لدى "كونت" من خلال عمليات التقييم والتحليل العلمى الذى عقده "كونت"، لكثير من المذاهب الأيديولوجيات والفلسفات الفكرية التى عاصرها فى الواقع. فلم يقبل كلية النزعة الشيوعية لايمانها بالكثير من الأفكار المتطرفة، أو تبنى سياسات التغير عن طريق الثورة أو إلغاء الملكية الخاصة. وهذا ما رفضه "كونت" صراحة ولاسيما أنه تصور أن التغير العجائى مثلما يحدث بعد قيام الثورات، سوف يؤدي إلى نوع من الفوضى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. كما رفض أيضاً، العديد من التصورات الاشتراكية ذات الطابع الارستقراطي، الذى آمن بها أستاذه "سيمون" وأخذ طريقاً آخر للإصلاح والتغيير عبر عنها بوضوح، فى نظريته الوضعية وأفكاره عن الاشتراكية والرأسمالية الغربية. من ناحية أخرى، رفض أفكار فلاسفة التنوير الفرنسيين والعديد من تصورات علماء الاقتصاد السياسى، لأنها كانت بعيدة عن الواقع المتغير ولا تهدف لتطور المجتمع أو الشعوب الإنسانية.

علاوة على ذلك، لقد جاءت آراء "كونت" الوضعية، لتقييم أسس استخدام المنهج المقارن فى الدراسات السوسيولوجية، ولتعزيز عموماً تطور النظريات الاجتماعية التى تتبنى النزعة العلمية فى تحليلاتها وتصوراتها للواقع ودراساتها للظواهر والقضايا والمشكلات الاجتماعية. وهذا ما ظهر على سبيل المثال، فى تناوله لعدد من المقارنات بين المجتمع الإنسانى وتطور الكائنات الحية النباتية والحيوانية الأخرى. وبالطبع، لقد تأثر "كونت" بفكرة التطور والتغير عند "دارون"، إلا أن أفكاره وجدت بعد ذلك قبولاً ملحوظاً لدى الكثير من علماء الاجتماع التطوريين والانتشاريين والاحتميين أيضاً، الذين تبينوا نفس أفكاره لاسيما تصورات "هربرت سبنسر" عن المماثلة البيولوجية، وهذا ما سنحلله لاحقاً فى الفصل القادم. على أية حال، لقد عزز "كونت" بنظريته السوسيولوجية الوضعية، إن لم يكن قد وضع الأفكار التصورية الأساسية لإقامة نظرية سوسيولوجية متميزة، تجعل من علم الاجتماع أحد العلوم الاجتماعية والإنسانية التى تهدف عموماً للتطور والتقدم للجنس

البشرى، والعمل على استقرار المجتمعات وتقوية عناصر الروابط والتضامن الاجتماعي، وتحقيق التكامل والانسجام بين الفئات والطبقات الاجتماعية. وهذا ما يعكس عموماً نزعة الوضعية المحافظة التي ترجمت بعد ذلك، في النظرية السوسيولوجية الوظيفية الكلاسيكية المحافظة عامة.

وبالرغم من ذلك، إلا أننا نلاحظ وجود الكثير من الانتقادات النظرية السوسيولوجية عامة، التي توجه إلى "كونت"، التي رآها البعض إنها كانت سبباً وراء إهمال الكثير من المنظرين حالياً لأراء "كونت" الوضعية وتجاهل الكثير من رواد النظرية السوسيولوجية وعلم الاجتماع الكلاسيكي لأفكار "كونت" ذاتها. ومن أهم هذه الانتقادات:

١- افتراض "كونت" بأن المرحلة الوضعية سوف تفرض ذاتها على النظام الاجتماعي، وتؤدي إلى نوع من التغيرات الإيجابية للإنسان والمجتمع البشرى، ولكن ذلك لم يحدث كلية بقدر ما عمت الفوضى وانتشرت المشكلات وأثارها السلبية على الفرد والمجتمع ككل، هذا بالرغم من تخوف "كونت" ذاته من ظهور هذه المشكلات التي أراد حلها عن طريق العقل والتربية والاخلاق.

٢- ركز "كونت" في جزء كبير من تحليلاته للنظرية الوضعية على الأفكار الفلسفية اللاهوتية والميتافيزيقية، وأعطى لهاتين المرحلتين بعداً فكرياً وتحليلاً كثيراً على حساب تصوراتهما عن المرحلة الوضعية، وإن كان ذلك يرجع إلى حداثة هذه المرحلة التي عاصرها بالفعل، ولم يكن قد مضى عليها فترات طويلة خلال ظهور أفكار "كونت" ذاتها.

٣- جاءت تصورات "كونت" للنظرية الوضعية في صورة تحليلات وتجمعات فكرية وثقافية واجتماعية، وموجهة أساساً لإقامة علم اجتماعي وضعي جديد، ولم تكن أساساً موجهة لإقامة نظرية سوسيولوجية وذلك حسب المفهوم العام للنظرية العلمية.

٤- تعتبر كتابات "كونت" الوضعية، ما هي إلا تمجيد للنظام الرأسمالي والاستقراطي، والذي ناصره "كونت" كغيره من البنائيين الوظيفيين التقليديين أو المعاصرين، وهذا ما يعكس عموماً الخط الأيديولوجي لوضعية "كونت"

### الوضعية التقليدية كلية.

بإيجاز، إن تلك الانتقادات السابقة، لا تقلل من مكانة وإراء "كونت" سواء في علم الاجتماع أو في نظريته السوسيولوجية الوضعية. ولا سيما، أن "كونت" يعتبر المؤسس الحقيقي لهذا العلم، والذي مهد كلية لوضع أسسه ومناهجه ونظرياته، وفتح المجال بعد ذلك أمام الكثير من المتخصصين لتحديث أفكاره وآرائه التي جاءت في فترة كانت كل العلوم الانسانية تتدرج تحت الفلسفة وسيطرتها الفكرية والميتافيزيقية. لقد سعى "كونت" ليقم علماء متخصصاً ومعتزاً به عالمياً وأكاديمياً، وهذا ما جعل الكثير من علماء النظرية السوسيولوجية خلال العقود الأخيرة يعيدون تقييم كتابات "كونت"، ويحاولون إحياء أفكاره النظرية والمنهجية، والمعالجة للقضايا السوسيولوجية الواقعية، والتركيز عموماً على التحليلات العلمية الوضعية، كما حددها "كونت" منذ أكثر من قرن من الزمان.

## أهم المراجع المستخدمة:

### أولاً المراجع العربية.

١. جرهام كينلوش، النظرية السوسيولوجية، ترجمة سعيد فرح، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠.
٢. سمير نعيم، النظرية في علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة سعيد رافت، ١٩٧٧.
٣. عبدالله عبدالرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعي، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.
٤. عبدالله عبدالرحمن، علم لاجتماع التنظيم، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨.
٥. محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣.
٦. نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، ترجمة محمود عودة وآخرون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢.
٧. هربرت ماركيز، العقل والثورة، ترجمة نفوذ زكريا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.

### ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Abraham, H, Origins and Growth of Sociology, London: Penguin Books, 1973.
2. Aron, R, Main Current in Sociological Thought (vol.1), London: Penguin Books, 1965.
3. Bilton, T, (et.al) Introductory Sociology, London: The Macmillan Press, 1982.

4. Comte, A, Positive Philosophy (Trans.by H. Harineau)  
London: Trabner, 1955.
5. Coser, L, Masters of Sociological Thought, N.y: Harlourt  
Brace, 1977.
6. Fletcher, R, The Making of Sociology vol.1, London: Thomas  
Nelsons L.Td, 1973.
7. Gouldner, A, The Comming Crisis of Western Sosiology  
London: Heinemann, 1973.
8. King, D & M.Koller, Foundation of Sociology, San Francsico,  
Riehart, 1975.
9. Martindole, D, Nature and Types of Sociological Theory,  
London: Routledge & Kegan Poul, 1961.
10. Nisbet, R, The Sociological Tradition, London Heiman, 1970.
11. Thompson A, A.Comte, The Foundation of Sociology,  
London: Thomas Nelsons Ltd, 1980.
12. Zeitlin, I, Ideology and Development of Sociological Theory,  
N.Y. Prentic Hall, 1968.





## الفصل الخامس

"هربرت سبنسر" والنظرية العضوية

- تمهيد:

(١) الاتجاه الأيديولوجي والفكري.

(٢) المنهج العلمي ودراسة التطور العضوي.

(٣) المجتمع الصناعي الحديث.

(٤) السياسة الاجتماعية والحريات العامة.

- مناقشة وتعليق.



## تمهيد:

تشير كتابات علماء النظرية السوسيولوجية سواء أكانت تقليدية أم حديثة ومعاصرة الكثير من الجدل والنقاش، حول اهتمامات عالم الاجتماع البريطاني "هربرت سبنسر" H.Spencer التي تجد قبولاً كبيراً في الأوساط العلمية الأكاديمية حديثاً لأهميتها في تطوير علم الاجتماع سواء من الناحية المنهجية أو النظرية بصورة عامة. كما تكمن أهمية كتابات "سبنسر" في النظرية السوسيولوجية، بأنها أضفت الطابع العلمي الوضعي على اهتمامات وقضايا ومشكلات علم الاجتماع، وتبنت نفس الأسلوب الذي بدأه عالم الاجتماع الفرنسي "أوجست كونت" منذ أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. وإن كانت تحليلات "سبنسر" تتميز بأنها ركزت بصورة أساسية على دراسة المجتمع الحديث، دون الدخول في تحليلات فلسفية أو ميتافيزيقية، كما ظهر في تصورات "كونت" عن الفلسفة الوضعية. وبغض النظر عن عقد مقارنات علمية بين رواد النظرية السوسيولوجية التقليدية سواء أصحاب نظرية الفلسفة الوضعية أو النظرية العضوية حالياً، إلا أننا نجد من الأهمية أن نوضح قيمة أسهامات "سبنسر" في النظرية السوسيولوجية، حتى نعطي للقارئ خلفية عن أهمية هذه الاسهامات ووضعها الجذور العلمية الأولى للنظريات السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة.

وكما يعكس لنا تحليل التراث السوسيولوجي لرواد علم الاجتماع البريطاني، نجد أن "هربرت سبنسر" يعتبر المؤسس الكلاسيكي لنشأة علم الاجتماع البريطاني، ولاسيما أن أفكاره ظهرت مباشرة بعد أن تم ذبوع أفكار "كونت" الوضعية في دول أوروبا الغربية بدون استثناء. وهذا ما جعل "سبنسر" من أول العلماء البارزين الذين تبناوا كثيراً من هذه الأفكار، ولاسيما تحديد "كونت" لماهية علم الاجتماع وتعريفه بهذه التسمية. في نفس الرقاب، تظهر أهمية تحليلنا لأفكار "سبنسر" عن النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، لأن هذه الأفكار لا تزال تجد نوع من القبول والتحديث. أو بكلمات أخرى، تجد الكثير من التبنى العلمي لحياتها وتطورها، وخاصة تصوراتها حول المنهج العلمي والنظرية السوسيولوجية (المماثلة البيولوجية)، وتصوراتها

عموماً حول دراسة المجتمع الصناعى الحديث، وتحليلاته الواقعية للنظم السياسية والاجتماعية، التى ظهرت فى أوروبا خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

كما تكمن أهمية تناولنا لتحليلات "سبنسر" فى النظرية السوسيولوجية، وخاصة بعد أن تعددت الآراء وركزت فى السنوات الأخيرة على ضرورة تطوير المناهج العلمية وأساليب البحث المنهجية، ليس فقط بين العلوم الانسانية، ولكن بينها وبين العلوم الطبيعية الأخرى. وهذا ما ظهر بوضوح فيما يعرف بأهمية تبنى المداخل أو المنظورات المتداخلة بين العلوم Inter Disciplinary Approches، ولاسيما أن منهجية كل من العلوم الانسانية والطبيعية تحتاج للمزيد من المنظورات والتحديث، بعد أن تزايدت نوعية المشكلات والظواهر الاجتماعية والطبيعية، وأصبحت أكثر تعقيداً عما كانت عليه خلال القرنين الماضيين (الثامن عشر والتاسع عشر). وتعد المحاولات النظرية السوسيولوجية الحديثة لدى الكثير من المتخصصين فى علم الاجتماع، من أبرز المحاولات العلمية التى رأت حديثاً أهمية الرجوع إلى أفكار "سبنسر" التقليدية وخاصة نظريته عن التطور الاجتماعى والمماثلة البيولوجية، لأنها تمثل أول النقاء علمى ومنهجى بين العلوم الانسانية ممثلة فى علم الاجتماع والعلوم الطبيعية ممثلة فى علم الأحياء أو البيولوجيا.

حقيقة، إن إسهامات "سبنسر" فى النظرية السوسيولوجية تعتبر من الاسهامات العلمية المميزة، هذا بالرغم من إهمالها فى العديد من الكتابات فى مجال النظرية السوسيولوجية، التى لم تعط اهتماماً ملحوظاً للنظرية العضوية أو المماثلة السوسيولوجية عند "سبنسر". وهذا بالطبع، يعتبر نوع من التجاهل العلمى الذى يخطئ فيه الكثير من المنظرين فى علم الاجتماع، وخاصة عند تقييمهم للنظرية السوسيولوجية. وهذا ما اشرنا اليه خلال الفصول الأولى من هذا الكتاب، باعتبارها نظرية علمية، وبعيداً عن النزعات الفلسفية والأيدولوجية المتطرفة التى قد يتجنبها الكثير من المهتمين بدراسة النظرية السوسيولوجية. وهذا ما يؤدى الى كثير من الغموض فى تحليلاتهم ونزاهتها الواقعية أو الموضوعية. على أية حال، نسعى حالياً للإشارة لإسهامات "سبنسر"

فى النظرىة السوسىولوجىة، متناولىن أولاً الإطار الأىدىولوجى والفكرى الذى شكل عموماً طبقىة هذه الإسهامات وبلور معالمها العلمىة، ثم تحلىل أهم تصورات "سبنسر" حول المنهج العلمى فى علم الاجتماع وهوىته وارتباطه بنظرىته عن التطور الاجتماعى والمماثلة البىولوجىة، وأيضاً كتاباته الممىزة عن طبقىة المجتمع الصناعى الحدىث، الذى عاصره فى أوروبا عامة وبرىطانىا خاصة، ثم أخيراً معالجتنا العلمىة حول أهم النظم السىاسىة والاجتماعىة التى اعطى لها اهتماماً ملحوظاً.

### (١) الإتجاه الأىدىولوجى والفكرى

تعتبر عملىة التنشئة الاجتماعىة "سبنسر" من أهم المراحل التى أثرت كئبراً فى تصورات وأفكاره العلمىة والمهنىة بعد ذلك. فلقد ولد فى وىرلى بانجلترا فى عام ١٨٢٠، وتوفى عن عمر يناهز الثالثة والثمانون حىث توفى عام ١٩٠٣. وجاءت هذه الحىاة العمرىة ملئنة بالأنشطة والأعمال والإسهامات السوسىولوجىة الممىزة، (وأيضاً الكتابات السىاسىة والاقتصادىة التى عالج فىها الكئبر من القضايا). والشئون المجتمعىة التى لا يمكن أن يتغافلها عالم اجتماع ممىز مثل "سبنسر"، نظراً لمعاىشته ومعاصرته لها، وحللها بالفعل بصورة علمىة وواقعىة ممىزة. كما أثرت هذه القضايا والمشكلات فى خطه ومنهجه الأىدىولوجى والفكرى، الذى يصنف عموماً تحت إطار النظرىة السوسىولوجىة البنائىة الوظيفىة المحافظة. إلا أن هذا الإطار الأىدىولوجى لم يتشكل من فراغ أو خلال مرحلة عمرىة محدودة أو طبقة مهنىة معىنة، بقدر ما نلاحظ أن تنوع عملىة التنشئة والتعليم، والحىاة الاجتماعىة والمهنىة، والظروف الاجتماعىة والسىاسىة والاقتصادىة والفكرىة جمىعها، لعبت دوراً بارزاً فى تحدىد معالم الإطار الأىدىولوجى والفكرى عند "هربرت سبنسر" عامة.

فمن ناحىة عملىة تربيته وتعلیمه فلقد نشأ فى أسرة كاثولىكىة محافظة، ولم يتلق التعلیم فى المدارس النظامىة الحكومىة منذ البدایة، وخاصة أن والده وخاله قاما بتوجیبه أولاً بدراسة العدىد من الكتب والعلوم، ولاسىما العلوم الرىاضىة والطبیعىة، التى انشغل بها كئبراً قبل الإهتمام بالعلوم

الإنسانية والاجتماعية والفلسفية كما كانت "سبنسر" اهتمامات خاصة فى علوم الأحياء والكيمياء، وهذا ما الهمنه بعد ذلك بالعديد من الأفكار والتصورات ودراسة القضايا الاجتماعية، ومن هنا عقد الكثير من المقارنات بين دراسة هذه القضايا ودراسة الظواهر البيولوجية والطبيعية والرياضية الأخرى. فى نفس الوقت، اشتغل "سبنسر" فى عمله المهنى البعيد كل البعد عن العلوم الاجتماعية، حيث عمل مهندساً فى السكك الحديدية، ولكنه كان مشغولاً بهذه العلوم والظواهر التى تقدم بدراستها وتحليلها وهذا شأنه شأن الكثير من العلماء البارزين فى علم الاجتماع سواء أكانوا من التقليديين أو المعاصرين من أمثال "باريتو Parito" حيث عمل نفس المهنة (مهندساً بالسكك الحديدية)، أو "ميل سملسر Smelser" الذى كان يعمل بالاقتصاد و كليهما تخصصا بعد ذلك فى علم الاجتماع وخاصة علم الاجتماع الاقتصادى، أو "فريدريك تيلور F.Tylor" الذى كان يعمل مهندساً للبناء.

ومع بداية عام ١٨٤٠ بدأت حياة "سبنسر" المهنية والعلمية تأخذ مسارات أخرى جديدة بعيداً عن عمله بالسكك الحديدية، حيث ركز على كتابة المقالات النقدية الراديكالية، التى انتقد فيها الكثير من السياسات الحكومية الداخلية والخارجية، والتى قام بنشرها فى العديد من المجلات والصحف العلمية واليومية سواء داخل بريطانيا أو خارجها. وتعتبر مرحلة عمله بعد ذلك فى النشاط الاقتصادى ولاسيما عمله فى أشهر مجلة اقتصادية بريطانية، لاتزال تصدر حتى اليوم وهى مجلة "الاقتصادى Economist" من أهم المراحل التى أتاحت له فرصة كبيرة ليعرض فيها آراءه وتصوراته بصورة واضحة وخاصة بعد أن ركز على دراسة المشكلات والقضايا والظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمجتمعات بصورة عامة. وإن كان فى نفس الوقت، يكتب وينشر مقالاته المستمرة فى الكثير من المجلات العلمية الاقتصادية والسياسية الأخرى مثل مجلة "بنتهام وبستمينستر Benthamist Review" ومجلة "لندنبرو الاقتصادية Wihg Edinburgh Review" وغيرها من المجلات الأخرى، مثل مجلة "شمال بريطانيا The North Biritsh Review".

وكما يرى لويس كوزر L.Coser " في تحليله للمناخ الأيديولوجي والفكرى "سبنسر" إن اهتمامات "سبنسر" ودراسته للقضايا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، قد بُنيت الكثير من المعالجات العلمية المميزة سواء من الناحية المنهجية والنظرية الخالصة. حيث جاءت كتابات "سبنسر" عن نظرية التطور الاجتماعي Evolution Theory قبل ظهور أفكار "دارون Darwin" بأكثر من سبع سنوات كاملة، حيث نشر كتابه "أصل الأنواع Origin of Species" فلقد كان السبق العلمي "سبنسر" عندما نشر عام ١٨٥٢ مقالة هامة عن "الفروض المتطورة The Developmental Hypothesis" ومن ثم، يمكن القول- حسب رأى "كوزر"-أن أفكار "سبنسر" العلمية التطورية سبقت مرحلة ظهور نظرية "دارون" عن التطور ذاتها. ولهذا يعتبره الكثيرون من العلماء أنه المؤسس الحقيقي لنظرية التطور والنشؤ والارتقاء، التى أثرت عموماً على فكر "سبنسر" التطورى فى جميع كتاباته وحياته العلمية والمهنية المتخصصة.

من ناحية أخرى، إن بلورة المعالم الأساسية للإطار الأيديولوجي والفكرى عند "سبنسر" تترجم من خلال تنوع كتاباته ومؤلفاته التى يمكن تقسيمها الى عدة علوم أو مجالات علمية واجتماعية وفلسفية هى باختصار:

١- العلوم الطبيعية، حيث وضع العديد من المؤلفات فى هذا المجال.

٢- علوم الإحصاء الاجتماعى والرياضيات.

٣- علم النفس الاجتماعى.

٤- علم الاجتماع.

٥- الفلسفة والأخلاق.

٦- العلوم السياسية، وخاصة كتابه عن الامن والدولة.

حقيقة إن التنوع العلمى والإنتاجى "سبنسر" استمرت خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر حيث نشر أول كتاب له عن "الإحصاء الاجتماعى" عام ١٨٥٣ ونشر أول كتاب بعد وفاته بعلم ولحد ١٩٠٤ عن الأيكولوجيا.

من ناحية أخرى، إن تنوع أفكار "سبنسر" وتشكيل الإطار الأيديولوجي والفكري لنظريته العضوية السوسولوجية، جاءت ولید لاحتكاكه بالكثير من المؤرخين، والفلاسفة، وعلماء الاجتماع، والاقتصاديين سواء في أوروبا أو أيضاً في العالم العربي. فلقد كانت لديه صداقات علمية مع عدد من علماء الاجتماع "جورج اليوت G. Eliot" و"هاكس Huxley" و"تيندال Tyndall" وأيضاً "الشيخ محمد عبده"، حيث كانت هناك العديد من الآراء والرسائل المتبادلة مع "سبنسر"، عندما كان "محمد عبده" يعمل محرراً لجريدة العروة الوثقى، التي كانت تصدر في لندن باللغة العربية سواء في فرنسا أو إنجلترا. حيث تناول (سبنسر ومحمد عبده) الكثير من الموضوعات مثل المنهج العلمي ومشكلة التربية والأخلاق، والمشاكل السياسية مثل الديمقراطية والدولة، وهذا ما أشرنا إليه في مؤلفنا عن تاريخ الفكر الاجتماعي. من ناحية أخرى، لقد جاءت تصورات "سبنسر" متأثرة بالعديد من الأفكار التي ظهرت في عصره مثل أفكار "مالتوس Maltus" عن السكان، أو "آدم سميث A. Smith" عن ثورة الأمم، أو التصورات والكتابات النفعية عند كل من "مل Mill" و"بنتام Bentam"، "هكسلي Huxley"، بالإضافة بالطبع إلى كتابات كل من "كومنت Comte"، و"ماركس Marx" وهذا ما سنشير إليه لاحقاً في إطار تقييمنا لإسهامات "سبنسر".

في نفس الوقت، لقد شكلت الظروف الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية البريطانية، طبيعة الإطار الفكري العام لكتابات "سبنسر" ونظريته السوسولوجية. وخاصة أن "سبنسر" قد عاصر بالفعل مرحلة ظهور نتائج تطبيق الثورة الصناعية Industrial Revolution، التي بدأت تظهر معالمها واضحة على كل من البناءات الاجتماعية والطبيعية المتعددة. كما أدت هذه الثورة إلى تغير نمط الحياة اليومية والمعيشية التي وجدت في بريطانيا خلال هذه الفترة وانتشرت بعد ذلك إلى دول أوروبا الغربية. وهذا ما جعل "سبنسر" يهتم أولاً وقبل أن يلتحق بعمله في مجلة "الاقتصادى"، أن ينتقد الكثير من السياسات الاقتصادية والسياسية للحكومة الداخلية والخارجية. حيث اهتم أيضاً بدراسة الكثير من المشاكل التي كانت تواجه بريطانيا في فترة تكوينها وسيطرتها على المستعمرات فيما وراء البحار، وتكوينها للثروات الطبيعية



عامة. ومن ناحية أخرى، لقد تميزت كتابات "سبنسر" بأن الكثير منها أخذ الطابع الراديكالي النقدي، حيث تأثر بالعديد من تحليلات العلماء والمفكرين، بالرغم من تصنيف كتابات "سبنسر" عموماً في إطار الاتجاه الأيديولوجي للرأسمالي المحافظ.

وكما يوضح بعض المحللين للنظرية السوسيولوجية التقليدية المعاصرة من أمثال "كوزر Coser"، و"زيتلين Zeitlin"، و"بوتومور Botomore"، و"جيدنز Giddins"، إن إسهامات "سبنسر" في النظرية السوسيولوجية تعد من الإسهامات التي طورت عموماً التحليلات السوسيولوجية النظرية والمنهجية في نفس الوقت. ولأسيما، إن الوضوح الفكري والأيديولوجي كان مميّزاً في أفكار وتصورات "سبنسر" والتي تبنى فيها الطابع المحافظ الليبرالي، الذي تزعم أهمية إعادة تنظيم المجتمع وبناءاته ونظمه ومؤسساته بعد عملية التصدع والتفكك الذي أصابه من كافة الجوانب. وهذا ما يجعل أفكار "سبنسر" تتلاقى كلية مع أفكار رواد النظرية السوسيولوجية التقليدية، وخاصة "أوجست كونت" كما منشير إلى ذلك لاحقاً. بالإضافة إلى ذلك، إن تصورات "سبنسر" للنظرية السوسيولوجية تبنت أيضاً التحليلات النقدية الراديكالية التي انتقد فيها الكثير من السياسات الحكومية الداخلية والخارجية، ولأسيما تحليلاته عن الديمقراطية وعلاقة الفرد بالدولة، تلك الأفكار التي تبنت نفس الإطار الأيديولوجي عن مؤسس الرأسمالية الغربية، "آدم سميث" عندما حدد ذلك في "ثروة الأمم".

## (٢) المنهج العلمي ودراسة التطور العضوي

بعد تحليلنا للإطار الأيديولوجي أو الفكري الذي شكل عموماً تصورات "سبنسر" في النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، والذي كشف عموماً عن ضرورة معرفة مجموعة الظروف الاقتصادية والسياسية والثقافية والفكرية، التي أثرت بالفعل في تشكيل آراء "سبنسر" وأفكاره والتي بلورها في عدد من التصورات السوسيولوجية الهامة والتي تكشف عموماً مدى تأثير "سبنسر" بالنزعة التطورية والتي بدأها بالفعل في كتاباته قبل عدة سنوات من ظهور أفكار "دارون" عن أصل الأنواع أو نظرية النشوء والارتقاء، وهذا ما جعل

الكثير من الممثلين للنظرية السوسولوجية التقليدية، يؤكدون أن "سبنسر" أول من كتب عن نظرية التطور وليس "دارون". وعلى أية حال، نسعى حالياً لعرض عدد من الافتراضات الأساسية والأفكار العامة التي تبلورت فيها آراء "سبنسر" العضوية وهي:

١- ركز سبنسر على دراسة المجتمع الغربي، وما أصابه من تغيرات جذرية أدت إلى أحداث الكثير من جوانب التطور الاجتماعي والتفكك في نفس الوقت، ولذا أيد "سبنسر" علم الاجتماع كعلم، يهتم بدراسة كل من التطور والتغير والتفكك الذي يحدث بصورة مضطربة.

٢- أكد "سبنسر" على عملية التطور باعتبارها عملية طبيعية وعامة وشاملة، كما يمكن استخدام القوانين الطبيعية في دراسة كل من الظواهر الطبيعية والاجتماعية معاً، ولا سيما أن كل منها يحدث نتائج ومظاهر متعددة على الحياة الاجتماعية، وهذا ما أسماه "سبنسر" بمبدأ التطور الطبيعي الشامل.

٣- حدد "سبنسر" مهمة علم الاجتماع في دراسة المجتمع الحديث، واعتباره كلاً عضوياً متكاملًا، بالرغم من وجود الكثير من الاختلاف بين أجزاء هذا العضو أو (المجتمع) وإن كان هناك الكثير من التشابه بين عملية التطور التي تحدث في كل من البناء الوظيفي لكل من المجتمع والكائن للعضو. وهذا ما تبلور في نظريته عن المماثلة البيولوجية.

٤- قسم "سبنسر" المجتمع إلى جزئين رئيسيين، هما الاستاتيكا والديناميكا الاجتماعية على غرار آراء "كونت" ونظريته إلى المجتمع الحديث، وحالته البنائية الثابتة والوظيفية المتغيرة، ولذا يعتبر "سبنسر" أول من طور الأفكار البنائية الوظيفية وخاصة أفكاره حول عملية التطور.

٥- اهتم "سبنسر" بدراسة النظم والوحدات الاجتماعية الكبرى التي يتشكل منها المجتمع، مثل النظام الأسري، والعشائري، والنظام السياسي والديني، والمهني، الذي عبر عنه في تحليلات مميزة عن تقسيم العمل والنظام الصناعي.

٦- عالـج "سبنسر" أفكاره عن تطور المجتمع من خلال استخدامه لمبدأ التطور التدريجي، على غرار قانون المراحل الثلاث عند "كونست"، حيث تصور "سبنسر" أن بناءات نظم المجتمع تتطور من النسق البدائي والقبلي والقائم على العبودية إلى مجتمع متطور يقوم على نظام سياسي مميز (الدولة)، ويعتمد على التخصص وتقسيم العمل.

٧- قسم "سبنسر" مكونات المجتمع أو بناءاته الأساسية إلى نسقين أساسيين هما: النسق الداخلي ويرتبط بتوزيع الوظائف، والنسق الخارجي الذي يهتم بالضبط الاجتماعي، ويرتبط بكل من هذين النسقين مجموعات من الأنساق الفرعية، التي تهدف إجمالياً للمحافظة على النسق الأكبر (المجتمع) ووحدة وتطوره واستمراره وجوده وبقائه. ومن أهم هذه الأنساق الفرعية على سبيل المثال، نسق التوزيع، ونسق التنظيم، ونسق الاعالة (كما هو موضح في الجدول التالي لطبيعة نمط المجتمع عند سبنسر).

## نمط المجتمع عند "سبنسر"\*

### المجتمع

#### الديناميكا الاجتماعية

#### الاستاتيكا الاجتماعية

- أولاً: النظم (البناء الاجتماعي)
- ١- الامرة (التي تقوم على الزواج ٢- من تجانس إلى لا تجانس المجتمع (الاحادي)
- ٢- الشعائريه نتيجة للخوف من الإخفاق من ٣- تراكم العناصر فوق العضوية (الثقافية والموت)
- ٣- من الرئاسة العسكرية السياسية إلى ٤- الحركة نحو التوازن الذي قد ينهار إذا للدولة.
- ٤- النزعة اللاهوتية مصدرها عبادة أهل السلف.
- ٥- التطور المهني لتقسيم العمل والمهنة.
- ٦- من العبودية إلى العمل للمأجور وفق عقد العمل.

#### ثانياً: الأسس:

- ١- النسق الداخلي ١- نسق للتوزيع ٢- نسق الإعالة
- ٢- النسق الخارجي ١- التنظيم

#### ثالثاً: الأنماط:

- ١- النمط العسكري - الخضوع للدول وحسب المركزية.
- ٢- للصناعي - الفردية والارادة وللا مركزية.
- \* المصدر، جرهام كينلوش، النظرية السوسيولوجية، مرجع سابق، ص ٩٣.

٨- عالـج "سبنسر" فى اطار تحليلاته عن التطور الاجتماعى والعضوى، عدد من العمليات الاجتماعية المتغيرة الديناميكية وهى:

١- استمرارية الحركة والتطور.

٢- التحول من التجانس إلى اللاتجانـس (من الشكل البدائى إلى الحديث)

٣- تراكم العناصر فوق العضوية والعناصر الاجتماعية والثقافية ولاسيما عند تطور المجتمع.

٤- يسعى المجتمع - ككائن عضوى - لتحقيق عمليات التوازن، بالرغم من حالات التغير المستمر الذى يحدث فى بناءاته ونظمه ووظائفها العضوية.

بايجاز، جاءت تصورات "سبنسر" العضوية، عندما رأى أن المجتمع يماثل بصورة أوبأخرى طبيعة الكائنات الحية الأخرى، بالرغم من وجود عدد من مظاهر التماثل والاختلاف إلا أن عملية التطور التى تحدث لدخل بناءاتها ووظيفتها، تؤكد على أن هذه العملية هى جوهر التغير والتطور الاجتماعى. ولذا، يعتبر "سبنسر" أول من أكد على أهمية تحليل دراسة كل من البناء والوظيفة كفكرتين نظريتين، يمكن الكشف عن طريقهما لدراسة الظواهر والمشكلات والبناءات الاجتماعية المعقدة. وهذا ما يفسر عموماً تأييده لفكرة البنائية الوظيفية، ويعتبر أول المؤيدين لها، على حد تصور عديد من المنظرين للنظرية السوسيولوجية، وهذا ما يتضح أيضاً من خلال تبنيه للمنهج العلمى المتميز فى دراسة هذه القضايا.

ويكشف تحليل النظرى السوسيولوجى لاسهامات "سبنسر" مدى تحديده للبنائية الوظيفية الكلاسيكية، والتى تطورت بعد ذلك فى عدد من النظريات السوسيولوجية المعاصرة والتى سنفالجها فى الجزء الثانى: من كتاب النظريات السوسيولوجية فى علم الاجتماع. خاصة، وأن "سبنسر" فى تحديده لماهية علم الاجتماع، كعلم اجتماعى يدرس الظواهر الاجتماعية والتغيرات البنائية والوظيفية التى تحدث فى المجتمع الحديث، أراد أيضاً أن يحدد منهجية هذا العلم على أسس وضعية متبنياً نفس المسار العلمى والمنهجى "الأوجست

كونت". كما نجد أن "سبنسر" أكد على عدد من الخصائص والعناصر المنهجية التي يجب أن يستخدمها الباحث والمتخصص في علم الاجتماع، كما استخدمها هذا أيضاً في دراسته للواقع الاجتماعي الذي عاش فيه. فلقد استخدم "كونت" الملاحظة الأمبيريقية، والتحليل المقارن كما ظهر في المماثلة البيولوجية Biological Analogy التي تعتبر من الدراسات المقارنة والتحليلية المميزه بين الكائن العضوي، والكائن الاجتماعي، التي أثرت النظرية السوسيولوجية الوظيفية بعد ذلك بمزيد من التحليلات المتعمقة والمقارنة.

من ناحية أخرى، تظهر منهجية "سبنسر" من خلال إسهاماته في مجال الإحصاء الاجتماعي Social Statistics وخاصة دراساته المميزة في الاقتصاد السياسي. كما تبنى "سبنسر" أيضاً القياس والاستدلال الكمي والكيفي، وهذا ما ظهر في وضعه تعريفاً مميزاً عن الفلسفة التركيبية والمنطقية. بالإضافة إلى ذلك، استند "سبنسر" إلى التحليلات التاريخية والأثنولوجية في تحليلاته للكثير من المظاهر والمشكلات والقضايا والأحداث الاجتماعية التي عاشها بالفعل مع الاسترشاد بالكثير من الشواهد التاريخية التي ساعدت كثيراً في دراسة عملية التطور والتغير الاجتماعي. وهذا ما ظهر بوضوح، في عقد الكثير من الدراسات التحليلية السوسيولوجية والتاريخية المقارنة، عندما تناول على سبيل المثال، تحليل التطور التاريخي للمجتمعات البشرية من المراحل البدائية الأولى أو ما أسماه بالمرحلة العسكرية إلى المرحلة الحديثة، أي المرحلة الصناعية، وهذا ما سنشير إليه لاحقاً عند تناولنا بصورة خاصة رؤيته السوسيولوجية المميزة لعمليات التحول نحو المجتمع الصناعي. وبإيجاز، لقد أسهمت عملية وضوح الرؤى النظرية العضوية عند "سبنسر" في استخدامه للعديد من المناهج وطرق البحث العلمي المميز، الذي أضفى بدوره على بلورة أفكاره التصورية، ووضع الخطوط الأساسية لقواعد البحث الاجتماعي التي أثرت في تطور علم الاجتماع وفروعه المختلفة.

على أية حال، نكشف معالجة "سبنسر" لفكرة المماثلة بين مكونات البناء العضوي والتنظيم الاجتماعي ومدى اهتمامه بتبني المدخل البنائي الوظيفي The Structural Functional Approach، من أجل دراسة وتحليل المجتمع الذي

عاش فيه، وهناك العديد من العلماء الذين شاركوا في نفس الاتجاه حيث استخدم المدخل (البنائي الوظيفي) من أجل تحليل عملية التشابه والاختلاف بين البناءات والوظائف المكونة بين التنظيمات الاجتماعية والكائنات العضوية، واهتمامه بتحليل أنواع معينة من المجتمعات للتعرف على طبيعة التغيرات التي حدثت في المجتمعات الحديثة، تلك التحليلات التي تمت فيما كان يقصده بالفعل من عملية التطور والنشوء الاجتماعي The Process of Social Evolution.

وفي الواقع ان تحليلات "سبنسر" تشير إلى تفسيره بأن المجتمع يتكون من مجموعة من البناءات الاجتماعية تعتمد كل منها في علاقاتها المتداخلة مع الأخرى، ولكن لكل منها طابعه المميز الذي يحدد أهدافه ووظائفه حيث أشار إلى وجود ثلاثة أنواع من الأنساق المتداخلة والمتكاملة في نفس الوقت والتي تخص كل منه بأنماط معينة من البناءات وأنشطتها المتعلقة بها وهي:

١- النسق الاستمراري The Sustaining System، وهو يختص بالتنظيمات والنشاطات ذات الطابع الزراعي والصناعي.

٢- النسق التوزيعي The Distributive System، ويتعلق بالتنظيمات والنشاطات التي تهتم بنظم الاتصالات والتبادل.

٣- النسق النظامي The regulatory System، وهو يتعلق بالتنظيمات الرسمية الحكومية والعسكرية.

ويحاول "سبنسر" أن يناقش العلاقة بين هذه الأنساق الثلاثة التي تربط بينها في ضوء تحليله لنواحي التكامل والاختلاف التي تجمع بين هذه النظم الثلاث. ولقد كان الغرض الأساسي من توضيح هذه الأنساق ووظائفها في المجتمع هو تحديد قيمة مفهوم تقسيم العمل، وتطور ذلك النظام الذي يفسر طبيعة التعاون والتكامل بين الأفراد والجماعات، بالرغم من وجود الاختلافات الجغرافية والمكانية أو اتساع حجم المجتمعات الحديثة بصفة عامة، الذي أدى بالضرورة لزيادة تقدم سبل الاتصالات والتبادل ونظم التوزيع، وتعد المجتمع الذي نتج عنه تغير واضح في الأنساق النظامية والإدارية والاتجاه نحو مركزية السلطة السياسية The Centralisation of Political Authority.

ومن ثم، فإن العلاقة بين هذه الأنساق الثلاث (الاستمرار، التوزيع، النظام) علاقة تبادلية تهدف إلى تحقيق التكامل، والتوازن والتعاون من أجل بقاء المجتمع واستمراره. وهذا ما أكد عليه "سبنسر"، بأن الهدف العام الذى تسعى إليه هذه المجتمعات باعتبارها مثل الكائنات الحية، هى زيادة الاعتماد المتبادل بين الأجزاء، حتى تتضمن هذه الزيادة فاعلية النسق النظامى وتطوره. ويرى "سبنسر" أن هذه الأنساق الثلاثة تعمل بصورة تلقائية ولكنها تتأثر بالعالم الخارجى مثل تجديد أهداف التنظيمات الصناعية باعتبارها أجهزة تعمل وتتأثر بالعوامل البيئية المحيطة بها مثل تأثرها بميكانيزم السوق على المستوى المحلى والقومى. وبايجاز، تكشف هذه التحليلات عن مدى عمق تصورات "سبنسر" النظرية العضوية كعالم اجتماع، اهتم بتحليل البناءات والوظائف والأنساق الاجتماعية، كما أثرت تخصصاته المهنية والعلمية والاقتصادية من تنوع مناهج البحث العلمى، الذى أثرى بدوره الرؤى النظرية والواقعية، للأحداث والظواهر التى عاشها بالفعل وهذا ما يظهر عموماً فى تحليلاته عن المجتمع الصناعى الحديث بصورة خاصة.

### (٣) المجتمع الصناعى الحديث

تعتبر من أهم الاسهامات السوسيولوجية التى تركها "سبنسر"، تحليلاته حول المجتمعات العسكرية والمجتمعات الصناعية، وذلك فى محاولة لتصنيف طبيعة المجتمعات واختلاف تنظيماتها وبنائها الداخلية، واختلاف نمط الوظائف حسب نوعية التخصص وتقسيم العمل. ومن ناحية أخرى، لقد حاول سبنسر أن يعكس فكرته عن النشؤ والتطور ليوضح أهم الملامح والتغيرات التى حدثت على المجتمعات الصناعية الحديثة. ويظهر هذا الإهتمام مدى التشابه بين كتابات "سبنسر" وعديد من علماء الاجتماع من أمثال "كونت" و"ماركس" وغيرهم لإقتراحهم المراحل التطورية لظهور المجتمعات حتى - ن - المراحل الصناعية المتقدمة. وفى إطار تحليلنا للنظرية السوسيولوجية عند "سبنسر" سوف نشير أولاً، الى تصوراته عن المجتمع الصناعى الحديث، ثم ثانياً، سوف نعالج فكرته حول تقسيم العمل والتخصص التى تعتبر من أهم المعالجات السوسيولوجية والتى تبرز أفكار "سبنسر"



الواقعية للمجتمع الرأسمالى الصناعى الأوروبى الذى عاش فيه:

#### - أولاً: المجتمع الصناعى الحديث

تعتبر تحليلات "سبنسر" عن المجتمع الصناعى محاولة علمية مميزة يسترشد بها الكثير من المحللين والنظرين عمومأ لنشأة الرأسمالية الغربية وتطورها، ويمكن أن نوضح أهم الخطوط العريضة التى يتميز بها هذين النوعين من المجتمعات (العسكرية والصناعية) على النحو التالى:

لأولاً: المجتمع العسكرى: يقوم هذا المجتمع بتنظيماته المختلفة على أساس مبدأ التعاون الإجبارى The compulsory cooperation ، والذى يعكس طبيعة التنظيمات الداخلية واستعدادها الدائم للحروب والعمليات العسكرية، وتتركز السلطة وأجهزة الضبط الاجتماعى فى أيدي القادة العسكريين وتوجد قيود متعددة على الفرد والحربة والملكية، وتثبت المهن والوظائف بأفرادها بصفة مستمرة. أما النشاط الاقتصادى يقوم على الاكتفاء الذاتى وقليل من التجارة الخارجية، وتتركز السمات الفردية حول مفاهيم متعددة مثل الولاء والطاعة، والإخلاص للسلطة والنظام.

ثانياً: المجتمع الصناعى: فهو على عكس المجتمع العسكرى وتنظيماته السابقة، ذلك المجتمع الذى أخذ يتطور ملامحه منذ انهيار العصور الاقطاعية، ويتميز هذا المجتمع بأن كثيراً من نشاطاته لم تسخر من أجل الحروب، وتقوم النشاطات على أسس الطابع الإختيارى التطوعى، وعلى حياة التبادل بين الأفراد من أجل تبادل الخدمات وذلك ناتج عن زيادة تقسيم العمل والتخصص. ومن ناحية أخرى، يظهر فى هذا المجتمع طبيعة العلاقات المتبادلة بين تنظيماته المختلفة ونوعية النشاطات الرئيسية الثلاث وهى: الاستمرارية، والتوزيعية، والنظامية التى تعمل فى صورة تبادلية تلقائية.

على أية حال، يعكس هذا النوع الأخير (المجتمع الصناعى) مدى اهتمام "سبنسر" بتحليل طبيعة المجتمع الذى عاش فيه، وكان نواة لتطور التنظيم الاقتصادى والرأسمالى ذى الطابع الليبرالى والقائم على فكرة المنافسة الحرة، ويمكن أن نعرض للخصائص المميزة للمجتمعات العسكرية والصناعية

بصورة إجمالية فيما يلي<sup>(١)</sup>:

| الخصائص                                  | المجتمع العسكرى                                                                         | المجتمع الصناعى                                                                                        |
|------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١- النشاط والوظيفة السائدة.              | - الدفاع الجماعى، التضامن والنشاط الهجومى من أجل الاستقرار والتوسع.                     | - يتسم بالطابع السلمى والاعتماد المتبادل بين الأفراد والجماعات.                                        |
| ٢- مبدأ التنسيق الاجتماعى.               | - التعاون الاجبارى، طاعة الأوامر والتنظيم بواسطة التنظيمات النظامية الايجابية والسلبية. | - التعاون الاختيارى، طاعة الأوامر بواسطة التعاقد ومبدأ العدالة ووجود النشاطات النظامية السلبية.        |
| ٣- العلاقة بين الفرد والدولة.            | - الأفراد موجودون من أجل مصلحة الدولة، وجود قيود على الحرية، والملكية والحراك.          | - الدولة موجودة من أجل مصلحة الأفراد، وجود الحرية، وبعض القيود القليلة على الملكية، والحراك الاجتماعى. |
| ٤- العلاقة بين الدولة والتنظيمات الأخرى. | - جميع التنظيمات عامة للجميع، ولاوجود للمشروعات والتنظيمات الخاصة.                      | - تشجيع المشروعات والتنظيمات الاقتصادية للمشروعات والتنظيمات الخاصة.                                   |

(١) للمزيد من التحليلات ارجع إلى:

Spencer, H, The Principles of Sociology, op. cit, vol. 1 chap 10 & vol. 2 chap 17 & 18. (Construced by, Smelser, N, J. Essays in Sociological Explanation (Englewood Cliff, N.J, Prentic - Hall, 1968) .p. 246. See, Coser, L.A, op. cit, p. 95.

٥- بناء الدولة. - مركزية. - لا مركزية.

٦- بناء التقسيم - تثبيت المستويات - مرونة المستويات  
المهنية، والمحليات، المهنية، والمحليات  
تسوارث المهنة والتتقل بين المكنات  
والوظائف. والوظائف.

٧- نوع النشاط - الاستقلال - عدم وجود الاستقلال  
الاقتصادي. الاقتصادي، الاكتفاء الاقتصادي، الاعتماد  
الذاتى، قليل من التجارة المتبادل بين التجارة  
الخارجية، وجود نظام الداخلية والتجارة  
الحماية. الخارجية الحرة.

٨- السمات الشخصية. - الوطنية، الشجاعة، - الاستقلالية، احترام  
والقيم الفردية. الاحترام، الولاء الغير، مقاومة القهر  
والطاعة، الاخلاص وجود الغرائز الفردية،  
للسلطة والنظام. وعدم الاخلاص.

ويوضح "سبنسر" أن عملية التصنيف بين المجتمعات العسكرية والصناعية، تساعدنا على فهم التطور الذى حدث فى المجتمعات الأولى وانتقالها الى المجتمعات الصناعية الحديثة. ويؤكد أنه لا يمكن وجود تمييز قاطع بين هذه المجتمعات ووجودها تماماً فى الواقع. بل تعتبر نوعاً من الأنماط التحليلية أو النماذج التصنيفية المثالية، التى تساعدنا على الدراسة والتحليل ومعرفة الجوانب المتباينة بين أنواع المجتمعات البشرية. بل من الصعب أحياناً أن تصنف المجتمعات سواء كانت بسيطة أم معقدة تدعى أدار المجتمعات العسكرية بصورة دائمة، أو على النقيض من ذلك حيث تتبنى المجتمعات الأسلوب التعاونى والعلاقات التجارية والصناعية ذات الطابع التعاقدى كمدخل فى علاقاتها المتبادلة مع كل منهما الأخرى.

ولهذا دعا "سبنسر" ليقترح نموذجاً ثالثاً للمجتمعات، يسمى بالنموذج المختلط The Mix Type بين المجتمعات العسكرية والصناعية، ذلك النوع من المجتمعات الذى يجمع بين العديد من الخصائص والسمات سواء لكل من المجتمعات العسكرية أو الصناعية معاً، وكل منهما على حده. بل يؤكد "سبنسر" كثيراً على تداخل السمات والخصائص التى تميزها كل من المجتمعات السابقة فى معظم الأحيان، بل يلاحظ أن كثير من المجتمعات الصناعية الحديثة- حسب تحليلات "سبنسر"- بعيدة كل البعد عن هذا التصنيف السابق، فالمجتمعات الحديثة المعقدة ربما تقوم على الطابع العسكرى، وربما انعكس ذلك التباين فى تحليل "سبنسر" ليوضح الفكرة التاريخية منذ أوائل القرن الثامن عشر، التى شهدت تغيراً ملحوظاً من قبل كثير من المجتمعات الصناعية واهتمامها الشديد نحو زيادة التسليح، والاتجاه نحو التوسعات العسكرية لتكوين المستعمرات، وانتشار التنظيمات أو المؤسسات الداخلية ذات الطابع القهرى، وتقييد كثير من حريات المواطنين على النحو الذى كان سائداً فى المجتمعات العسكرية والاقتصادية السابقة على المجتمع الصناعى الحديث.

ويجب الإشارة هنا الى نقطة هامة، ساعدت وأثرت على تشكيل آراء "سبنسر" وهى، الى حد أثرت ظروف العصور الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى تشكيل هذه الآراء. فنجد أن آراءه اتسمت بالطابع الليبرالى المحافظ وتقديسه لنظام تقسيم العمل والتخصص، بالإضافة الى دراسته للأوضاع القائمة فى كل من ألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا، حيث مكنته من زيادة رؤيته الشمولية لطبيعة التغيرات التى تحدث على مستوى البناءات الاجتماعية الكبرى أو تحليل للتنظيمات ذات المستويات الكبرى Large-Scale Organizations ، وتباين وظائفها، وكيفية تأثيرها على تغير الأنساق الاجتماعية والدينية والقيمية ومدى تحديدها للعلاقة بين الفرد والمجتمع بصفة عامة.

هكذا، إن هدف "سبنسر" من وراء تحليل المجتمعات الصناعية الحديثة هو معرفة الحقائق الاجتماعية الواقعية، مستخدماً فى ذلك تحليل فكرته التطورية ذات الطابع التصورى لتطوير المجتمعات الانسانية، ولقد استخدم أيضاً المنهج التاريخى المقارن فى تحليل طبيعة التغيرات الراديكالية التى حدثت على تطوير

للمجتمعات التقليدية الاقطاعية ذات الطابع العسكرى، وبصفة خاصة التغيرات على المستوى البنائى والتنظيمى والوظيفى والظروف والعوامل التى ساعدت على اعتناق هذه المجتمعات لعملية التحول نحو التصنيع.

#### - ثانياً: تقسيم العمل والتخصص.

ومن أهم القضايا التى عالجها "سبنسر" هى (تقسيم العمل والتخصص) فى المهن والتى حللها فى ضوء مناقشته لفكرة التغير الاجتماعى الذى حدث على البناءات التنظيمية والاجتماعية فى المجتمع الصناعى الحديث، ولقد أشار أيضاً "سبنسر" تأثير المحليات The Localities والمجتمعات المحلية Communities فى تشكيل نمط الإنتاج الصناعى والتجارى، حيث يعرض أن من أهم العوامل التى تساعد على زيادة نمو التنظيم الصناعى هى التخصص فى المهن والوظائف وانجاز الأعمال والتى تؤثر بدورها فى زيادة الإنتاج، الذى يعتبر مطلباً ضرورياً لما تفرضه الزيادة السكانية من مشكلات، والحاجة الى إنتاج المزيد من السلع والخدمات تلك هى العوامل التى تعجل بتبنى المزيد من التخصص فى المهارات الوظيفية.

وفى ضوء ذلك، يعطى "سبنسر" أهمية خاصة الى نمط الاتصالات والتوزيع والاهتمام بالعوامل البيئية والجغرافية التى تلعب دورها فى عمليات توزيع الإنتاج، حيث تحاول المشروعات الصناعية بصفة مستمرة أن تكيف ظروف إنتاجها مع طبيعة المواد الخام المتاحة، ومع العوامل الداخلية والخارجية الأخرى التى تحيط بالتنظيمات الصناعية والتى تؤثر على متغيرات السوق وما يسمى بمتغيرات العرض والطلب. ومن ناحية أخرى، يعرض "سبنسر" لأهمية تنوع الإنتاج التى تتطلب توازناً فى التخصص فى الوظائف وهذا يتطلب المزيد من عمليات التدريب Training حتى تحدث الزيادة فى الإنتاجية، وتوازن آخر بين مستويات الإنتاج والطلب والاستهلاك. ومن ثم، نجد أن "سبنسر" فى تحليلاته السابقة، يعكس بالفعل مدى اهتمامه بتحليل القضايا السوسيوولوجية والإقتصادية الهامة التى تواجه طبيعة المجتمع الصناعى الحديث، وزيادة الحجم والتعقيد وهذا يتطلب توافر وتوازن فى التخصص وتقسيم العمل من أجل زيادة الإنتاج، والاهتمام بالتدريب، وتوافر

الإنتاج من أجل مواجهة الإستهلاك، مع تركيزه أيضاً على أهمية انساق الإتصالات والتوزيع، وغيرها من القضايا الأخرى التى تعكس مدى تنوع اهتمامه بمتغيرات هامة ذات طابع تنظيمى، واقتصادى، وسوسولوجى واهتمامه بتحليل ليس فقط التغيرات التى حدثت على المجتمع الصناعى ولكن أيضاً العوامل التى تؤدى الى تقدم هذا المجتمع وتطوره.

وعلى، أية حال إن اتجاهات "سبنسر" فى تحليله لطبيعة المجتمع الصناعى الحديث تعكس مدى اهتماماته ذات الطابع الرأسمالى المحافظ، وتزيد ذلك عديد من التعليقات من جانب المحللين لأعمال "سبنسر" السوسولوجية من أمثال "ثريبورن" Therborn، الذى يرى أن اعتناق "سبنسر" للنظام الليبرالى جعلته يتبنى نظام التخصص من أجل المنافسة الحرة الإحتكارية وتطبيقه لفكرة البقاء للأصلح The survival of the fittest. وأيضاً كما يرى "بيل" Peel، أن اهتمامات "سبنسر" الليبرالية تظهر فى تأييده المستمر لفكرة تقسيم العمل والتخصص فى الصناعة من أجل زيادة الإنتاج، واهتمامه بحرية نظام العمل ومشاكله المتعددة. وبالرغم من ذلك لم يقدم "سبنسر"، أى مقترحات أو حلول للمشاكل الاجتماعية التى تصاحب وجود الرأسمالية الصناعية، وهذا ما يعكس اهتمامه الواضح بفكرة التعاون، من أجل تحقيق التوازن والتكامل المستمر فى المجتمع. وأخيراً كما يرى "تالكوت بارسونز" T.Parsons أن كثيراً من أعمال وملاحظات "سبنسر" حول الرأسمالية الصناعية أصبحت بالضرورة تحليلات جامدة نظراً لوجود التغيرات الجذرية التى حدثت على الرأسمالية التقليدية وتطوير النظام الإقتصادى العالمى عموماً، وسيطرة الشركات متعددة الجنسيات عليه ومن ثم، اختفت كثيراً من معالم وعناصر الليبرالية الرأسمالية التقليدية.

#### (٤) السياسة الاجتماعية والحريات العامة

تعكس طبيعة الإطار الأيديولوجى والفكرى العام لتصورات "سبنسر" ونظريته السوسولوجية العضوية، مدى اهتمامه بداسة القضايا والسياسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى عاصرها بالفعل، وهذا ما تبلور فى اهتماماته الأولى من حياته العملية والمهنية عندما نشر عدد من المقالات فى

بعض المجالات والدوريات الأكاديمية والصحفية، ناقداً فيها السياسات الحكومية الداخلية والخارجية، ومحاولاً تقييم الوضع السياسى والاجتماعى الموجود بالفعل فى المجتمع البريطانى الذى كان يشهد تطوراً وتقدماً واضطراباً وتفككاً ملحوظاً خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر. ولاسيما، بعد أن أحدثت الثورة للصناعة الكثير من التغييرات وسعى بريطانيا لتكوين قوة عظمى فيما وراء البحار، وانشاء العديد من المستعمرات، وزيادة سيطرة القوى الحكومية والسياسية على زمام الأمور فى الدولة، مما أدى ذلك فى مجمله الى استقطاب الكثير من المهتمين لدراسة هذه المشكلات، وبالطبع كان "سبنسر" معاصراً لهذه الأحداث التى اعطى لها اهتماماً ملحوظاً وعبر عنها بوضوح فى تحليلاته العامة، والتى يمكن أن نشير اليها فى تحليلنا الموجز لإسهاماته النظرية:

#### ١- السياسة الاجتماعية.

طرح "سبنسر" عدد من القضايا الاجتماعية التى حرص على مناقشتها من منظوره الوظيفى الوضعى، وتبنيه مبدأ عدم التدخل Non Intervention Principle، ذلك المبدأ الذى استمدّه أولاً من مصدرين أساسيين وهما: آراء "سميث" الإقتصادية القائمة على عدم تدخل الحكومة فى الحركات الثورية والاجتماعية إلا عند الضرورة القصوى، وثانياً، من آراء دارون، التى تؤكد على حتمية التغير عن طريق هيمنة العوامل والقوانين الطبيعية على بقاء واستمرارية الكائنات الحية والبشرية. وهذا ما تبلور عموماً فى تصورات "سبنسر" عندما حرص بشدة فى التأكيد أن علم الاجتماع يجب أن يوضح للبشر بعدم تدخلهم فى العمليات والقوانين الطبيعية، التى تحدث فى الواقع الاجتماعى. والسبب يرجع إلى ذلك الاعتقاد أو الافتراض من قبل "سبنسر"، لأنه كان يؤمن بأن الطبيعة الخارجية تستطيع عن طريق التغير والتكيف المستمر أن تتخلص من الأشياء السالبة، ولن يبقى فيها إلا الأصلح والأقوى من البشر أو المجتمعات ولاسيما الذين يتمتعون بخصائص عضوية مميزة وخاصة الذكاء والقوة الجسمانية ذلك حسب تصورات "سبنسر" حول هذا المبدأ (عدم التدخل).

وقد عبر "سبنسر" عن هذه الأفكار موضعاً بعض التفسيرات والعلل الاجتماعية والأخلاقية، وذلك عندما تناول العديد من القضايا والمشكلات الاجتماعية التي كانت تواجه الحكومة البريطانية، ولاسيما عندما ناقش السياسات الحكومية الداخلية. فلقد رفض على سبيل المثال، أن توجه الدولة جزءاً كبيراً من الضرائب للإنفاق على الضعفاء من الأفراد والجماعات الاجتماعية ومنهم على سبيل المثال، الأفراد مجهولي النسب أو اللقطاء. وجاء تبرير "سبنسر" على ذلك مؤكداً مبدأ عدم تدخل الدولة في حماية هؤلاء الأفراد، لأن ذلك لن يحل هذه المشكلة، بقدر ما يزيدها حجماً وتعقيداً، ويحث الأمهات من صغار السن على ارتكاب الرزيلة، والبعد عن الزواج الشرعي والأخلاق، وسعيهم فقط للانجاب والتخلص من أبنائهم أو التخلص منهم، ووضعهم في المؤسسات الاجتماعية للدولة، طالما أن الدولة تقوم بهذه الوظيفة بصورة عامة. وهذا ما جعل "سبنسر" يهتم بتحديد الأسس التي تبنى عليها علاقات الدولة والأفراد والجماعات، وتحديد وظيفة الدولة في توفير الصحة، والتعليم، وتحسين الخدمات والمرافق والبنية التحتية والاقتصاد.

وبإيجاز، لقد سعى "سبنسر" أن يربط بين تحليلاته حول التطور والنظم الاجتماعية، وما يحدث بالفعل لدى الكائنات البيولوجية، محاولاً التأكيد على فكرته العامة بأنه كلما زادت درجة التعقيد في المجتمعات، كانت هناك فرص ونتائج أكثر نحو التكامل الاجتماعي. ومن ثم فلقد ركز "سبنسر" على توضيح بعض الحلول التي بموجبها تستطيع الدولة التدخل في الإدارة الاجتماعية، وتوفير الإجراءات والأساليب الخاصة بالرعاية الاجتماعية. وبصورة أو بأخرى، كان "سبنسر" لا يؤمن بضرورة أن لاتتخذ الحكومة موقفاً سريعاً وحاسماً للتغيير الاجتماعي الجذري، ولهذا السبب كان معادياً للتدابير الحكومية نحو الحد من الفقر واللامساواة، مبرراً تلك الإجراءات بأنها ضد الطبيعة الإنسانية ذاتها.

علاوة على ذلك، استخدم "سبنسر" مفهوم "الشخصية القومية" ليشير إلى أن كل فرد يجب أن يسعى لتحقيق رفاهيته بمجهوده الذاتي. ومن ثم، فإن الجهود الفردية والجماعية للرفاهية سوف تسهم في خلق فروق بين المانحين



والمحتاجين، كما أن سياسات الرعاية الاجتماعية في مجملها سوف تهدد من مستوى معيشة الطبقة العاملة لأنها الوحيدة التى تدفع الضرائب الحكومية وتمول تلك السياسات. ومن ناحية أخرى، أن تلك التدابير سوف تؤدي لزيادة البيروقراطية الحكومية، وسوف تشجع على المزيد من الانحرافات والحياة اللا أخلاقية فى المجتمع، مشيراً فى ذلك للإعانات التى تقدم على سبيل المثال لأمهات الأطفال غير الشرعيين وغيرها من الأمثلة التى تؤدي للمزيد من السلوكيات اللاأخلاقية.

## ٢ - قضية الحرية السياسية

وفى إطار تبنى "سبنسر" لمبدأ تتم التخل، الذى استقاه أساساً من الفكر الداروينى والاسميثى نسبة إلى (دارون وسميث)، وغير ذلك من المصادر الفكرية التى تمت جذورها فى المجتمع البريطانى على وجه الخصوص، حيث كانت آراء علماء نظرية العقد الاجتماعى Social Contrat Theory، وخاصة آراء "هوبز" و"لوك" السياسية قد أثارت العديد من الآراء السياسية التى تحدد العلاقة التى ينبغى اتباعها بين الأفراد والجماعات والدولة (الحكومة). وحرص "سبنسر" على أن يطور هذه الأفكار والآراء فى ضوء التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى ظهرت مع اواخر القرن التاسع عشر بصورة خاصة. ولأسيما، بعد أن تغيرت العلاقات والسياسات الداخلية وزاد من هيمنة الدولة، كتنظيم سياسى وبطشها على الأفراد والجماعات وتمارس العديد من أساليب القهر والقوة. وهذا ما جعل "سبنسر" يناقش قضية الحرية السياسية، ليحدد بوضوح طبيعة هذه القضية، وما ينبغى أن تكون عليه العلاقة المتبادلة بين الدولة والأفراد فى ضوء نظريته السياسية الرأسمالية المحافظة والليبرالية فى نفس الوقت. حيث عرض "سبنسر" للحرية السياسية The Political Freedom والتى تغيرت كثيراً عما كانت عليه: أى انعدام السابقة، فكانت تتم عملية الاختيار السياسى سواء لإختيار جماعة استبدادية أو أوليغاركية مما أدى الى سوء استخدام السلطة ووضع قوانين سيئة غير ديمقراطية وإلغاء القوانين الطبيعية والتقاليد المتوارثة. ولقد نتج عن ذلك نوع من التشكك فى شعور الناس نحو أنفسهم أولاً ونحو احترامهم للسلطة

الموجودة، وبالرغم من ذلك كانت السلطة تحاول بكل بقوة أن تتمسك بوجودها واستقرارها. على أية حال، لقد تغير هذا الوضع تماماً، وجاء التمثيل السياسى لكل الأقاليم والمقاطعات عن طريق انتخاب الممثلين عنهم، ليصبحوا القوة السياسية الحقيقية التى تضع القوانين وتحترمها فى نفس الوقت.

ويناقش "سينسر" عملية الولاء والتنظيم الداخلى للحزب من قبل الأعضاء المنتخبين، هل يكون ولائهم الى برامج الحزب الثابتة أم أن كثيراً من الأعضاء يمثلون لأوامر واتباع قادة الأحزاب فقط؟. ويرى "سينسر" أن هذا أمر يصعب تطبيقه فى معظم التنظيمات والأحزاب السياسية الحرة، واعترف بوجود بعض الأخطاء والثغرات السياسية التى تشير أن الكثير من الأعضاء المنتخبين يرتبطوا بأوامر ورغبات قائد الحزب دون اتباع برامج الحزب فى بعض الأحيان، وهذا ما يكشف عن تطبيق النظام الإستبدادى الأوليغاركى فى بعض التنظيمات السياسية (الأحزاب). ويؤكد على ضرورة تفسير الحرية على أنها تحقيق النشاطات البشرية دون أدنى أنواع من القيود التى تحرم الأغلبية من الأعضاء والمنتخبين من ممارسة حقها وتحقيق رغباتهم التى تتمشى مع الرغبات القومية، وذلك هو المسار الحقيقى لممارسة الديمقراطية والحرية السياسية داخل الأحزاب، بل إن هؤلاء الأعضاء هم أصحاب وضع القرارات والقوانين ومن ثم يجب احترام هذه القرارات من جانب الآخرين.

ويعطى "سينسر" أمثلة متعددة، لضرورة إحترام رأى الأغلبية من الأعضاء المنتخبين ليس فقط داخل الحزب كتنظيم سياسى، بل أيضاً فى بعض التنظيمات الأخرى من التنظيمات المحلية والإدارية العامة، والنقابات والإتحادات العمالية، كلها تنظيمات يتم انتخاب أعضائها للممثلين من مجموع الأفراد العاملين بكل تنظيم على حده. وهم يمثلون لقراراتهم، وكما يحدث فى النقابات العمالية مثلاً إذا حدث نوعاً من القيام بالإضرابات أو العودة الى العمل، فإن أصحاب القرار هم الأعضاء المنتخبين الذين تحترم قراراتهم من جانب أعضاء التنظيم كل. ويوضح سينسر، أن فى بعض الأحيان تستغل السلطات والقوة من جانب هؤلاء الأعضاء المنتخبين، ويحدث نوع من الغموض فى تصوراتهم ومفاهيمهم نحو الحرية. وهذا ما عبر عنه

"سبنسر" من مخاوفه وقلقه المستمر على تطبيق الديمقراطية داخل أى نوع من التنظيمات الحرة التى تفوض ممارسة السلطة للأعضاء المنتخبين، بل وصفهم بأعضاء اللجنة التنفيذية The Executive Committee التى تمارس السلطة بطريقة أوليجاركية فى كثير من الأحيان، وتشير الدلائل إلى الاتجاه بالإستبداد بالسلطة وتطبيق أساليب المجتمع العسكرى.

### ٣- قضية الديمقراطية

من أهم الأفكار التى تناولها "سبنسر" بالتحليل وترتبط بقضيته الأساسية حول تحقيق فرص الديمقراطية، وماهى العلاقة بين الفرد والتنظيمات السياسية بصفة عامة، هى فكرة الخرافة السياسية The Political Superstition، تلك الفكرة التى كانت فى الماضى ممثلة فى إعطاء الحق الإلهى The Divine Right للملوك والحكام، ولقد تغيرت هذه الفكرة فى العصر الحديث إلى إعطاء الحق الإلهى للبرلمانات السياسية. ويحاول "سبنسر" أن يحدد بالضبط طبيعة ما يقصده بهذه الفكرة وذلك عن طريق تحليله لأهمية الحقوق الفردية وضرورة الاعتراف بها، باعتبار أنها جزء لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية ككل. ويستعرض "سبنسر" فى تفسيره لأفتراضه حول الحق الإلهى للبرلمانات فى ضوء دراسته للمواطن والأفكار الأخلاقية والسياسية للجنس البشرى وكيفية تطورها إلى أن ظهرت ممثلة فى صورة رأيين أو نظريتين مختلفتين هما:

أولاً: النظرية الأولى: تلك النظرية تأخذ من البعد التحليلى التاريخى مدخلاً لها فى دراسة تطور القوانين منذ ظهورها فى المجتمعات البدائية وقبل ظهور الحكومات كتنظيمات سياسية، حيث أيدت هذه القوانين الحقوق الخاصة للمواطنين وضرورة الحفاظ عليها. وبعد ذلك حدثت تغيرات عديدة حيث ظهرت عديد من القوانين المستقلة لكثير من الأمم القديمة التى حرمت كثير من هذه الحقوق على مواطنيها، تلك الحقوق التى لا يمكن أن تكون القوانين الصناعية مصدرها، بل تعتبر هى فى حد ذاتها (الحقوق) المصادر الطبيعية.

\* Spencer, H., The Man Versus The State, 1892 (It quoted in Andreski, op, cit, pp. 190-194)

ومع حدوث التطور الاجتماعى المستمر، ظهرت القوانين التى تحافظ على حقوق الملكية والحقوق العامة للمواطنين، وزاد الاهتمام من قبل الحكومات نحو تعزيز هذه الحقوق والحريات بل عملت على تعزيزها وأصبحت الحارس الأمين لها فى نفس الوقت وأخيراً، ثم تقوية الاهتمام وتعزيز حقوق الملكية وأفكار العدالة والمساواة، وأصبح هدفاً لشرعى القوانين الاهتمام بتلك الحقوق والأفكار التى لم تنشأ وتوجد من اعتراف للقوانين بها، ولكن جاءت القوانين لتأكيدا وتعزيز شرعيتها.

ثانياً: النظرية الثانية: التى ترى أن كلاً من الحياة الفردية والاجتماعية العامة تعترفان بصفة مستمرة بضرورة الحفاظ على العلاقات الطبيعية تلك العلاقات التى كانت موجودة ومعترف بها قبل ظهور الحكومات كبناءات رسمية، ولكن مع مرور الوقت، حدثت تطورات اجتماعية متعددة كما تدل الشواهد التاريخية، على أن العلاقات الاجتماعية اعترف بها من قبل القوانين والنظم الأخلاقية. ومن ناحية أخرى، نجد هؤلاء الذين ينكرون تلك الحقوق الطبيعية يعترفون بها ويؤكدون على مشروعيتها بالرغم من عدم ادراكهم لتلك الحقيقة فى نفس الوقت. حيث يرون أن تلك الحقوق خلقت بطريقة صناعية بواسطة القوانين، وإن كان هذا يعتبر رأياً مدمراً فى حد ذاته ومنافياً للحقائق والوقائع الثابتة.

ويعترض "سبنسر" على رأى كل من النظريتين السابقتين، لأن رايهما بجانب كثيراً من الصواب والحقيقة، ويرى أن كثيراً من التصورات الغامضة تكثف وجهة نظرهما، ويجب أن نبني أفكارنا على أسس علمية حتى تظهر وجهة نظر ذات طبيعة عقلانية سليمة، توضح طبيعة العلاقة التى تربط مدى احترام رأى الأغلبية فى المجتمع والتعاون مع الأقلية فى نفس الوقت للحفاظ على الحقوق العامة والخاصة، ذلك التعاون الذى يدل على أن المجتمع يعتبر فى حد ذاته وحدة تنظيمية متكاملة. وأن احترام العلاقة بين الحرية الفردية والحياة أو الحرية الاجتماعية باعتبارهما وحدة متكاملة يدل على مدى شرعية العلاقة، واحترام رأى الأغلبية أو الجماعة فى مقابل رأى الفرد (أو الأقلية)، بل تأكيد التعاون بينهم من أجل الحفاظ على الحقوق الطبيعية والمكتسبة على حد سواء.

ويرى "سبنسر" أن الهدف من ذلك يعكس أهمية الدفاع عن المجتمع من:

أولاً: المعتدين الخارجيين The External Invaders، وهى محاولة تتم عن طريق وضع الإجراءات الكفيلة التى تحرم على المواطنين امتلاك الوسائل التى تشبع رغباتهم فقط، وتحرم محاولتهم لامتلاك المزيد من هذه الوسائل حتى لا يحدث نوع من التفكك الاجتماعى والفردية.

ثانياً: المعتدين الداخليين The Internal Invaders، من أمثال الخارجين على القانون مثل المجرمين مشيعى الفوضى، وعدم احترام النظام والأمن. وهذا الدفاع سواء ضد كل من المعتدين الخارجيين والداخليين، يؤدى بالضرورة إلى الحفاظ على الحقوق، والحريات العامة، والفردية على حد سواء، وهذا لا يتم إلا بتحقيق نوع من التعاون بين الفرد والجماعة أو المجتمع. ومن ثم تكون طاعة الأقلية للأغلبية شيئاً شريعياً وضرورياً. تلك الشرعية The Legitimacy التى لا تتضمن سوى حماية كل منهما، ومن أجل المجتمع واستقراره.

#### ٤ - قضية الامبريالية.

وربما تعكس تحليلات "سبنسر" حول قضية الامبريالية The Imperialism والعبودية The Slavery امتداداً وبعداً حقيقياً لأهمية كتاباته للتنظيمات السياسية والمجتمعية من ناحية، وسعة رؤيته وتأكيده المستمر على أهمية مشكلة الديمقراطية وعلاقة الفرد بالتنظيم الذى يعيش فيه من ناحية أخرى، حيث يوضح أن المجتمعات التى تميل إلى العدوان وتكوين العداءات مع المجتمعات والشعوب الأخرى، هى فى حقيقة الأمر مجتمعات قائمة على القهر The Corection، وذلك للقهر الذى لايعكس فقط طبيعة المجتمعات العسكرية التى تستخدم من التنظيم العسكرى أو الجيش وسيلة للردع والعدو، إن ضد الشعوب والمجتمعات الأخرى، بل يعكس فى نفس الوقت، مدى اتعدام فرص الديمقراطية وزيادة أساليب القهر داخل التنظيمات والمؤسسات و داخل هذه الشعوب نفسها. ويؤكد "سبنسر" أن هذا لا ينطبق فقط على المجتمعات ذات الطابع العسكرى، ولكن أيضاً ينطبق مفهوم الامبريالية على المجتمعات الصناعية الحديثة تلك المجتمعات التى تتناول مفاهيم الحرية،

والديموقراطية، ومضمونها بتصورات بعيدة عن الواقع وتحريمها خارجياً مع الشعوب الأخرى ودخلياً على أفراد شعوبها.

ويتناول "سبنسر" من منظور التحليل التاريخي المقارن للتنظيمات الاجتماعية، التي اضطبغت مظاهرها بحياتها بالأفكار العسكرية والتي وجدت في العصور القديمة ومنها على سبيل المثال، مدينة أسبرطة، وإمبراطورية روما التي قامت أساساً على أسس وأفكار إمبريالية، ويحلل أيضاً طبيعة التنظيمات الاجتماعية والعسكرية في مصر القديمة، حيث يعرض تسالولاً مؤداه: ما هي العلاقة التي كانت توجد بين الفرد والتنظيم الحكومي عند قدماء المصريين وخاصة في الفترات التي أقاموا فيها أهراماتهم الخالدة؟. فيعرض من منظور تاريخي نوعية السلطة الاوتوقراطية التي كانت موجودة، وبالرغم من ذلك تركت نتائج باهرة مثل بناء الأهرامات. ولكن ما هي أنواع الحريات إذا كانت موجودة أو عديمة في هذه الفترات التاريخية أيضاً؟. يجيب "سبنسر" على ذلك، ربما لم يظهر لنا الدليل القاطع على ذلك، ولكن كما تدل الشواهد أن الفرد كان (عبداً) إلى التنظيم الحكومي بصفة عامة.

#### ٥- قضية الحرية الدستورية.

ويركز "سبنسر" على قضية فكرية وسياسية وتنظيمية هامة حاول فيها أن يربط بين تحليلاته السابقة عن التنظيمات السياسية لحزب الحكومة أو البرلمانات من جانب، ومفهوم الحرية والديموقراطية والإمبريالية واستغلال السلطة من جانب آخر. حيث يشير إلى حقيقة التقلص الواضح في الحرية الدستورية The Constitutional Freedom، والتناقص الملحوظ في الوظائف التشريعية The Legislative Functions للبرلمانات، حيث يتم القيام بمثل هذه المهام والوظائف من جانب مجموعة قليلة تتشكل من أعضاء البرلمان أو في الغالب من أعضاء الحزب الحاكم، ثم يوضح "سبنسر" ومن القوفين، أن البرلمان في كثير من الأحيان لا يتولى سيجها سجنه التنفيذية The Executive Committee، بل أن التنظيم الداخلي لهذه اللجنة يكشف عن تركيز السلطة فيها في أيدي مجموعة أقل عدداً وتتسم بالطابع الأوليغاركي في معظم الأحيان.

ويقدم "سبنسر" الأدلة على ذلك، فى تحليله للبناءات والتنظيمات السياسية التى عاصرها فى بريطانيا، ووجد فيها عودة إلى مظاهر الحياة السياسية القديمة والتقليدية والتى كانت تقوم على نظام احتكار السلطة واستقلالها. حيث يوضح أن الحياة السياسية، والاجتماعية والاقتصادية والدينية فى بريطانيا تقدم الدليل على ذلك، حيث تنتشر اللجان التنفيذية مثل: لجنة وزارة الداخلية، ولجنة التجارة، ولجنة التعليم، ولجنة الحكم المحلى وغيرها من اللجان التنفيذية فى جميع النشاطات، والتى تتمتع بكافة السلطات والصلاحيات القانونية وتشريعها وتطبيقها أيضاً.

وخلاصة القول، أن "سبنسر" كان يخشى زيادة نفوذ أجهزة الدولة سواء أكانت تنظيمات سياسية وبرلمانية، أم اقتصادية، أم بيروقراطية عسكرية وإدارية على حريات الأفراد واستقلالهم. ولقد انعكس هذا الاهتمام بمعالجة تلك القضايا التى ظهرت مع بداية القرن الحالى ومشاهدة "سبنسر" لهذه الأحداث والتغيرات التى ظهرت بصفة خاصة فى بريطانيا ونمو الأجهزة الإدارية وزيادة تخصصاتها وامتداد صلاحياتها القانونية والتشريعية، والتى تنتج عنها تكوين اللجان التنفيذية وتركيز معظم الوظائف التشريعية والتنفيذية والنظامية فى أيدي مجموعة قليلة من الأعضاء واللجان التى هى فى أغلب الأحيان تقوم على أسس استبدادية أوليجاركية، كل ذلك انعكس على تحليلات "سبنسر" ومخاوفه الشديدة على تقلص الحريات من قبل أجهزة الدولة وتنظيماتها ومؤسساتها المختلفة، وهذا ما عبر عنه "سبنسر" فى كتابه "مبادئ علم الاجتماع".

### مناقشة وتعقيب:

تكم أهمية تحليلات "سبنسر" وإسهاماته فى النظرية السياسية بـولوجية، عن طريق تنوع هذه التحليلات وشمولها الكثير من القضايا والمشكلات والمجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة، التى تشغل اهتمامات علماء الاجتماع والمهتمين عموماً بقضايا المجتمع الصناعى الحديث. وهذا ما تبلور بالفعل فى نوعية الظواهر الاجتماعية التى سعى لتحليلها على المستوى النظرى والمنهجى، وعبر عنها بوضوح فى كيفية استخدام المناهج العلمية



والتحليلية المقارنة، والتي استعارها بالفعل من بعض العلوم الطبيعية مثل الرياضيات والاحياء. وهذا ما جاء فى نظريته المعروفة عن المماثلة البيولوجية ومحاولته عقد نوع من المقارنة بين الكائن العضوى والمجتمع، وذلك لمعرفة طبيعة التشابه والاختلاف بينهما، وليثبت عدد من القوانين الاجتماعية التى أراد أن يستخدمها فى دراسة الحياة الاجتماعية ككل. وهذا ما يجعل كثير من المحللين للنظرية السوسيولوجية، أن ينسب لسبنسر المؤسس الأول للنظرية البنائية المخفية بصورة عامة.

وفى الواقع، نجد أن كتابات "سبنسر" تتقارب لدرجة كبيرة مع تحليلات "كونت" باعتبارهما من رواد النظرية السوسيولوجية التقليدية التى تصطبغ بالطابع العضوى والنظرة الوضعية، إلى الحقائق والأشياء ودراسة الظواهر الاجتماعية، يمكن فيما يلى الإشارة إلى أهم نقاط الاتفاق بين آراء هذين الرائدین كما يلى:

١- جاءت ظروف العصر الذى عاش فيه كل منهما لتكون الموجه الفكرى والأيدىولوجى لاتجاهاتهم السوسيولوجية النظرية، فلقد جاء عصر النهضة والتطوير والإصلاح الأوروبى بمثابة المرشد العام لتبادل القضايا والمشكلات التى اهتم بتحليلها كل منهما. وإن كنا نلاحظ أن "سبنسر"، ركز بصورة أكثر على دراسة الواقع البريطانى، خلال ما يسمى بالعصر الفيكتورى، أو التركيز بصورة أساسية على دراسة واقع السياسات الداخلية والخارجية التى عاشتها إنجلترا خاصة خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

٢- ركزت التصورات السوسيولوجية لكل من "كونت" و"سبنسر" على كيفية فهم القوانين الاجتماعية على غرار دراسة القوانين الطبيعية والدور الذى تقوم به القوانين الأخيرة (الطبيعية) فى الحياة الاجتماعية ككل. فى نفس الوقت، أراد كل منهما أن يحدد عملية التطور التى تحدث فى المجتمع بأنها عملية مستمرة وأنها "طابع تدريجى" وتهدف فى النهاية إلى إصلاح الحياة الاجتماعية وتطوير الإنسان نحو حياة أفضل وتحقيق السعادة للجنس البشرى.

٣- جاءت تصورات كل من "كونت" و"سبنسر" عن عملية التغير الاجتماعى



باعتبارها عملية حتمية من حيث الحدوث، ولكنها متعددة الأسباب والعوامل. وهذا ما يتشابه تماماً على عملية حدوث التغير في العالم الطبيعي، وإن كانت عملية التغير الاجتماعي قد يصاحبها الكثير من العوامل والمظاهر السلبية، كما حدثت الكثير من مظاهر الفوضى والتفكك الاجتماعي المصاحبة للثورة الصناعية والسياسية في كل من فرنسا وإنجلترا بصورة عامة.

٤- ركزت التحليلات السوسيولوجية عند "سبنسر" و"كونت" على كيفية توظيف مهمة علم الاجتماع، للبحث عن كيفية تكوين أو صياغة القوانين الاجتماعية المضطربة، على غرار القوانين الطبيعية. ومن ثم، يمكن القول بأن تصوراتهما هدفت إلى توظيف مهمة علم الاجتماع نحو تحقيق التوازن والمحافظة على نمط المجتمع واستقراره وتطوره ككل.

٥- تصنيف كتابات كل من "سبنسر" و"كونت" تحت إطار النظرية السوسيولوجية العضوية، التي جعلت من المجتمع كائن عضوي منطوي، يسعى دائماً إلى الارتقاء إلى المراحل الوظيفية العليا التي يستخدم فيها كافة الأساليب العلمية والمناهج المتطورة لتكيفه مع البيئة الاجتماعية، وهذا ما حدث خلال تركيزهما (كونت وسبنسر) على المرحلة الوضعية للصناعية الحديثة.

٦- ارتبطت النظرية السوسيولوجية العضوية عند كل من "كونت" و"سبنسر" بتزويد إطارها العام الأيديولوجي والفكري من خلال واقع المجتمع والعصر الذي عاش فيه كل منهما، في نفس الوقت، ربط كل منهما بين استخدامات النظرية السوسيولوجية ونوعية المناهج السوسيولوجية، أيضاً التي يجب استخدامها بواسطة الباحثين وعلماء الاجتماع وخاصة التركيز على الملاحظة، والتجربة، والقياس والمقارنة والتحليل. وهذا ما ساعدهما في عمليات التصنيفات الخاصة بقضايا ومشكلات وبناءات ونظم المجتمع الصناعي الحديث، وكيف تطور عبر العصور التاريخية إلى أن وصل إلى مرحلة الحياة الاجتماعية المعقدة.

وبالرغم من أهمية تحليلات "سبنسر" في النظرية السوسيولوجية، إلا أن

هذه النظرية قد تعرضت لعدد من الانتقادات التى تظهر من خلال تحليلنا لتراث النظرية السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة، ويمكن أن نشير إلى أهم هذه الانتقادات بصورة موجزة كما يلي:

١- جاءت تصورات "سبنسر" السوسيولوجية، عن مشكلة العلاقة بين الفرد والدولة، لتبرز النزعة الفردية والمتطرفه، التى تجعل من الفرد صاحب السلطة والسيادة على الدولة، أو بمعنى آخر، لقد مجد "سبنسر" الفرد وجعل تدخل الدولة بأى صورة من الأشكال، يعتبر خرقاً للقوانين الاجتماعية والطبيعية، وذلك فى اطار تأكيده على مبدأ عدم التدخل كسياسة عامة وموجها لأفكاره ذات النزعة الفردية المتطرفة.

٢- جاءت تحليلات "سبنسر" عن التطور والتقدم، مبنية على الطابع التحليلي والاسلوب الاستنباطي الفلسفي، ولاسيما أنه أشتق مكونات ومراحل التطور وحتى حتمية التغير من خلال استنتاجات نظرية تصورية مكتسبة مجردة فى كثير من الأحيان، دون الاستدلال أو الاستشهاد بالأحداث والمجتمعات البشرية، كما حدث بعد ذلك فى تصورات "دوركهايم" و"فيبر" على سبيل المثال.

٣- عكست نظرية "سبنسر" العضوية التطورية وأفكاره عن المماثلة البيولوجية، كيفية الاستفادة من العلوم الطبيعية وخاصة البيولوجيا فى عقده المقارنة بين الكائن العضوى والمجتمع. واعتبر الأخير كما لو كان كائناً عضوياً لا يختلف حسب عنصرى الزمن والمكان، ولا يعطى أهمية للتمايز والاختلاف والتشابه بين نوعية المجتمعات أو تباينها، عندما تقوم بعملية التحليل المقارن بينها. وهذا الخطأ لا يزال تخطئ فيه أكثر من النظريات الغربية عن استخدام التحليل المقارن، لدراسة تطور كل من المجتمعات الغربية والنامية على سبيل المثال.

٤- جاءت بعض من تحليلات "سبنسر" النظرية أو المنهجية، مصطبغة بالكثير من عناصر اللبس والغموض والاستدلال المبيريقى على صحتها وعدم الدقة وهذا ما ظهر فى تحليلاته حول الظواهر الفوق العضوية، أو لتطور الفوق العضوى، كما لم يحدد تعريفاً مميزاً لعلم الاجتماع وأقسامه الرئيسية الاستاتيكا

والديناميكا الاجتماعية، ولكنه جعل من قانون التطور القانون الاسمي لكل موجود فى الواقع.

على أية حال، أن الانتقادات السابقة لانتقل كثيراً من أهمية "سبنسر" وإسهاماته السوسيولوجية، سواء فى مجال النظرية، أو المنهج، أو علم الاجتماع، أو القضايا الاجتماعية والسياسية المعقدة التى أثارها بالفعل كمؤسس لعلم الاجتماع البريطانى الكلاسيكى، حيث يعتبر أول عالم اجتماع بريطانى ظهر خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، ولاقت أفكاره ذيوياً وانتشاراً واسع النطاق خلال هذه الفترة. كما كانت تحليلاته جزءاً من الثقافة العامة التى يحتذى بها فى بريطانيا وأوروبا خلال القرن العشرين. بالرغم أن ذلك لاينفى على الإطلاق أن هناك الكثير من العداءات العملية والايديولوجية لسبنسر ذاته، إلا أن الكثيرين من خصومه كانوا لاينكرون حقيقة إسهاماته ونزعة النقدية لواقع السياسات الداخلية والخارجية فى بريطانيا، هذا بالرغم من تصنيفه تحت إطار اصحاب النزعة الوظيفية البنائية المحافظة. فى نفس الوقت، كان لتبنى "سبنسر" مبدأ عدم التدخل، ودعه يعمل، من تحقيق مكانه خاصة فى العديد من دول أوروبا الغربية وأيضاً الولايات المتحدة.

عموماً، ظهرت خلال السنوات الأخيرة اهتمامات سيوسولوجية متعددة، تدعو إلى ضرورة تبنى أفكار "سبنسر" العضوية الوظيفية، ولإسما أفكاره حول المماثلة البيولوجية ونظرية التطور والارتقاء، وغير ذلك من الأفكار الهامة التى أثرت بها النظرية السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة فى نفس الوقت. وخاصة، إن تحليلات "سبنسر" خلال فترات الحرب الباردة أو قبل ذلك بكثير قد لاقت قبولاً واسع النطاق فى الاتحاد السوفيتى (سابقاً) والكتلة الاشتراكية التى كانت تابعة فى أوروبا الشرقية، نظراً لأن كتابات "سبنسر" وإن كانت محافظة ليبرالية فى مجملها، إلا أنها تتبنى المدعى النعدي الراديكالى، ولإسما عندما ناقش "سبنسر" السياسات الاجتماعية والقضايا السياسية الداخلية والخارجية التى وجدت فى بريطانيا على وجه الخصوص وأوروبا بصورة عامة. ومن ثم، إن الفكر السوسيولوجى المعاصر متعطش دائماً لهذا النوع من التحليلات التى يهتم بمعالجة الاوضاع الاجتماعية

الواقعية، التي تسعى إلى الإصلاح والتغير، وتجعله هدفاً لتصوراتها النظرية واعتبارها موضع للقضايا الأساسية. علاوة على ذلك، أن الكثير من محلى النظرية السوسيولوجية عند تقييمهم لأفكار "سبنسر" وجدوا أن هذه الأفكار تتبنى خطوط أيديولوجية واضحة، وهذا ما جعل الكثير من علماء النظرية السوسيولوجية المعاصرين يتبنوا نفس المنهج العلمى والاطار الأيديولوجى الذى أسخدمه "سبنسر" بالفعل فى كتاباته.

## أهم المراجع المستخدمة:

### أولاً: المراجع العربية:

١. جرهام كينلوش، النظرية السوسيولوجية، ترجمة: سعيد فرح، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠.
٢. عبدالله عبدالرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعى، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.
٣. عبدالله عبدالرحمن، سياسات الرعاية الاجتماعية، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣.
٤. عبدالله عبدالرحمن، علم اجتماع التنظيم، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨.
٥. محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣.
٦. نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، ترجمة: محمود عودة وآخرون، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢.

### ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Abraham, H, Original Growth of Sociology London: Penguin Books, 1973.
2. Andreski, S(ed) Herpert Spencer N. Welson Univ.
3. Bilton, I (etal) Introductory Sociology, London: Macmiltan Eduction, 1987.
4. Collins, R, Four Sociological Tradition, N.Y: Oxford Univ. Press 1994.
5. Connell, R, Whyis Classical Theory Classical? American I.of

Sociology, vol.102, No.(may.1997).

6. Coser, L, Masters of Sociological Thought, N.Y: Harcourt Brace Inc. 1977.
7. Flasher, R, The Making of Sociology vol. (1), London: Thomas Nelson & Son ltd, 1972.
8. Levine, D, Visions of The Sociological Tradition, Chicago: Univ of Chicago Press, 1995.
9. Maus, H, A Short History of Sociology, London: Routledge & Kegan Paul, 1962.
10. Nisbet, R, The Sociological Tradition, London: Heinemann.
11. Paxton, L, G.Eliot and H.Spencer, N.J: Princeton Univ. Press, 1991.
12. Peel, Y, Herbert Spencer, London: Heinemann, 1971.
13. Popenoe, D, Sociology, N.Y: Appleton Comp., 1971.
14. Robertson, I, Sociology, N.Y: Worth, 1987.
15. Smelser, N, Essays in Sociological Explanation N.y., Englewood Cliffs, Prentice Hall, 1968.
16. Thio, A, Sociology: An Introduction, N.Y: Harper & Row, 1992.

## الفصل السادس

### "إميل دوركايم" ونظرية التضامن الاجتماعي

تمهيد:

- (١) الاتجاه الأيديولوجي والفكري.
  - (٢) القضايا الأساسية لعلم الاجتماع.
  - (٣) قواعد المنهج ودراسة الظواهر الاجتماعية.
  - (٤) المجتمع وأنماط التضامن الاجتماعي.
  - (٥) النظم الاجتماعية والسياسية.
- مناقشة وتعليق.





## تمهيد:

تكشف تحليلاتنا للتراث النظري لعلم الاجتماع عن المكانة العلمية المرموقة للفكر الدوركي، التي تزايدت في السنوات الأخيرة ولاسيما، أن طبيعة أفكار "دوركايم" السوسيولوجية استمدت خصوصيتها من الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي التي ظهرت فيه. أو يعبره أخرى، إن الخط الفكري والأيدولوجي لأفكار "دوركايم" واسهاماته في النظرية السوسيولوجية واضحة كل الوضوح، ولايختلف حولها أى باحث أو متخصص في علم الاجتماع مهما اختلفت آراؤه حول هذه الأفكار أو الاسهامات بصورة عامة. ولقد أشرنا في الفصول السابقة، عندما تناولت لإسهامات بعض رواد علم الاجتماع الأوائل أو من يسمونهم بمؤسسي هذا العلم، ان هناك الكثير من الدراسات السوسيولوجية النظرية الحديثة، التي تتجاهل بالفعل بعض هؤلاء ال رواد، ولكن لم نجد على الاطلاق أى كتابات حول النظرية السوسيولوجية خاصة، وعلم الاجتماع عامة، تتجاهل اسهامات "دوركايم" على وجه الخصوص. والسبب يرجع في ذلك، إلى أن أفكار "دوركايم" ككل عبرت عن الواقع التي ظهرت فيه، وجاءت إنعكاساً موضوعياً وواقعياً، لنوعية الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية التي ظهرت خلال فكرة حياة "دوركايم" ذاتها.

من ناحية أخرى، تكمن أهمية اسهامات "دوركايم" في النظرية السوسيولوجية، من ناحية اعتبارها الموجه العلمي والأكاديمي الأول لعلم الاجتماع في دراسة القضايا والمشكلات الاجتماعية. أو بمعنى آخر، لقد أضفى "دوركايم" طابع الشرعية العلمية والأكاديمية على علم الاجتماع، حيث يعتبر أول عالم اجتماع يقوم بتأسيس قسم للاجتماع في فرنسا في أعرق الجامعات التي عمل فيها بالفعل "دوركايم" مثل جامعة السوربون وجامعة باريس. من ناحية أخرى، قد تبدو أهمية اسهامات "دوركايم" عن غيرها من كتابات واسهامات رواد علم الاجتماع من أمثال "أوجست كونت"، أو "هربرت سبنسر" من حيث تركيزها على اجراء الدراسات الميدانية (الامبيريقية)، التي حاول فيها اختبار أفكاره ونصورياته النظرية. ومن ثم، ان التضافر الفكري

بين التصورات السوسيولوجية والأفكار النظرية الخالصة عند "دور كايم"، ثم صقلها علمياً ومنهجياً، عندما أجرى "دوركايم" الكثير من الدراسات الواقعية حاول فيها اختبار هذه التصورات من ناحية، وأيضاً الأساليب المنهجية والبحثية من ناحية أخرى، وهذا ما تبلور في دراسته حول ظاهرة الانتحار، التي لا تزال تعتبر من الدراسات السوسيولوجية المتميزة والنادرة في نفس الوقت.

بالإضافة إلى ذلك، لقد اتسمت كتابات "دوركايم" في علم الاجتماع عامة، وفي النظرية السوسيولوجية خاصة، بالصبغة العلمية والأخلاقية والتربوية والمعرفية. وهذا ما يعرف حالياً في الكتابات السوسيولوجية بالسمعة أو الخاصية أو النزعة الدوركايمية، نسبة إلى اتجاهات "دوركايم"، وحرصه الشديد على الاهتمام بالدين والأخلاق والتربية، واعتبرها من أهم القضايا والمشكلات، التي نالت اهتماماته بصورة مستمرة. من ناحية أخرى، تعكس كتابات "دوركايم" في النظرية السوسيولوجية مرحلة جديدة تطورت على ضوئها كتابات المنظرين من علماء الاجتماع، ولاسيما أن "دوركايم" وضع مؤلفات مستقلة تعالج النظرية السوسيولوجية من ناحية، وأيضاً مؤلفات أخرى مناظرة، لتعالج قواعد المنهج وعلاقتها بدراسة علم الاجتماع. وهذا ما يندر عموماً في كتابات علماء الاجتماع سواء من الرعيل الأول أو العلماء المعاصرين في نفس الوقت. بالطبع، لقد جاءت أفكار "دوركايم" في النظرية السوسيولوجية لتعكس لنا، إسهامات مميزة تدرج تحت إطار النظرية البنائية الوظيفية الكلاسيكية، والتي سعى الكثير لإحياء هذه الإسهامات نظراً للمكانة العلمية لها في الوقت الراهن.

على أية حال، إن اهتمامنا الحالي في هذا الفصل، سوف يتركز على دراسة إسهامات "دوركايم" في النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، محاولين التعرف بوضوح على أهم القضايا التي سعى "دوركايم" لتناولها، لإبراز هذه الإسهامات، وإلى أي حد لا تزال تمثل مكانة علمية مرموقة في الكتابات السوسيولوجية المعاصرة، سواء التي تركز على كل من النظرية السوسيولوجية، أو المناهج البحثية في علم الاجتماع. وبالطبع، أن بداية تحليلنا

لإسهامات "دوركهايم"، سوف تعالج أولاً الاتجاهات الأيديولوجية والفكرية لظروف العصرية التي استمد منها "دوركهايم" أفكاره. ولا سيما، أن هذه الأفكار ظهرت في فترة كانت تموج فيها فرنسا خاصة وأوروبا عامة، بالعديد من الأفكار والأيديولوجيات المتصارعة والمتنافرة، ثم سنشير إلى أهم القضايا الأساسية لعلم الاجتماع، محاولين أن نعطي للقارئ الخطوط العريضة التي قامت عليها كتابات "دوركهايم" في علم الاجتماع، كما نركز على تحليل أهم القواعد المنهجية والبحثية التي حددها "دوركهايم" كمسلمات علمية يجب أن يقوم عليها علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى، وإيضاً نشير إلى طبيعة الحياة الجمعية وكيفية تطور المجتمع وخاصة عند تحليلنا لظاهرة تقسيم العمل والتضامن الاجتماعي، كما سنهتم بتحليل أفكار "دوركهايم" الخاصة بالنظم الاجتماعية السياسية مثل إسهاماته في القانون، والتربية، والأخلاق، والسياسة على سبيل المثال، وأخيراً نختم الفصل ببعض الآراء التي تُقيم "دوركهايم" وخاصة إسهاماته في تطور النظرية السوسيولوجية.

## (١) الاتجاه الأيديولوجي والفكري.

جاءت فترة حياة "دوركهايم" (١٨٥٨ - ١٩١٧م) في فرنسا مليئة بالحياة والنشاط العلمي والمهني وتركزت إسهامات سوسيولوجية، لا تزال تمثل مكتبة بارزة في التراث الأكاديمي لعلم الاجتماع بصورة عامة. فقد أثرت طبيعة الحياة الاجتماعية والأسرية التي عاشها "دوركهايم" على نوعية اهتماماته السوسيولوجية للمحافظة، فقد نشأ في أسرة يهودية متمسكة بالتقاليد الدينية والأخلاقية. وظل حتى عمر الثامنة عشر في مسقط رأس أسرته بمدينة نيمال بمناطق اللورين بفرنسا، وبعد الإنتهاء من مرحلة تعليمه، التحق مباشرة للعمل بالتدريس ولم يحقق رغبة أسرته ليكون رجل دين. ولكن ما لبث أن سافر "دوركهايم" إلى باريس ليلتحق بمدرسة الليسيه، كشرط لاسمى للإلتحاق بعد ذلك بمدرسة المعلمين العليا التي تقبل الطلاب والمدرسين الأكاديميين المتفوقين، الذين أعطت لهم الدولة فرصاً علمية لمواصلة دراستهم العليا.

ومع بداية عام ١٨٧٩ اجتاز "دوركهايم" إختباراً تمهيدياً مما جعله من الطلاب المتفوقين في مدرسة المعلمين العليا بباريس، وخلال مرحلة الدراسة

بها سنحت له الفرصة للتعرف على مجموعة من رواد الفلسفة والعلم البارزين، من أمثال "بيرجسون" Bergson، و"جون جوريه" J.Jaures، و"بلوندل" Bloundel وغيرهم آخرون. كما جاءت هذه الفترة الدراسية ليتعلم على أيدي مجموعة بارزة من العلماء والفلاسفة والسياسيين البارزين، من أمثال "أميل بتر"، و"فوستل دي كولانج"، و"جيلوس موتو" وغيرهم، جذبوا اهتماماته للتعرف على قضايا اجتماعية وفلسفية كثيرة وسمحت له بالتعرف على أفكارهم وتصوراتهم في مجالات السياسة، والمنطق، والمعرفة، والأخلاق، والفلسفة إلا أن "دور كايم" مالّب أن يسعى لزيادة معارفه وتعاليمه، وبدأ ينشغل بعلم الاجتماع كعلم بدأ يظهر في الأوساط الأكاديمية الفرنسية ولاسيما، في الفترة التي سبقت ظهور الثورة الفرنسية، فقرأ كتابات كل من "سان سيمون" S.Simon، و"أوجست كونت" A.Comte وأعجب كثيراً بأفكارهم وبعلمهم الجديد وأصبح بعد ذلك رائداً من رواد هذا العلم.

ولكن بعد تخرج "دور كايم" من مدرسة المعلمين العليا عمل بالتدريس لفترة خمس سنوات بالمدرسة الثانوية، ساعدت بعد ذلك على اطلاعه على العديد المقررات والمناهج الدراسية، ولتقوم بإجراء العديد من المقارنات بين المناهج العلمية بالمدارس والجامعات وغيرها من الجامعات الأوروبية، ويضع مؤلفات في علم التربية والمنهج، لا تزال تعد من المراجع العلمية والأكاديمية وذلك فيما يعرف بسوسيولوجيا المنهج، الذي يعد من أهم فروع علم اجتماع التربية Sociology of Education، كما منشير إلى ذلك لاحقاً. وخلال فترة عمله بالتدريس بالمدارس الثانوية، سنحت له الفرصة للحصول على إجازة دراسية للسفر إلى ألمانيا، وليحتك عن قرب بالفلسفة الواقعية والمثالية الألمانية، التي تأثر بها كثيراً، ولاسيما كتابات "كانط" و"هيجل"، كما تعرف على عالم النفس الاجتماعي "فوندت" الذي كانت له تجارب معملية هامة.

ومع بداية عام ١٨٨٧ حدث تطور في الحياة الاجتماعية والمهنية "دور كايم"، ليشتغل وظيفة محاضراً لعلم الاجتماع في جامعة برودو Bordeaux، وظل يعمل بها حتى عام ١٨٩٦ وشغل أعلى المناصب الأكاديمية في ذات

التخصص، وبجانب انشغاله بالعملية التدريسية والبحثية، حصل على درجة الدكتوراة عن دراسته المميزة عن "تقسيم العمل" Divison of Labour، كما أعد أيضاً رسالة أخرى باللغة اللاتينية عن المفكر الفرنسي "مونتسكيو". وخلال هذه الفترة أيضاً تشغل "دور كايم" بمناهج علم الاجتماع الى جانب اهتماماته النظرية والميدانية وجاء ذلك عام ١٨٩٥ عندما نشر دراسته حول (قواعد المنهج في علم الاجتماع) واجراء دراسته المميزة عن (الانتحار) عام ١٨٩٧. في نفس الوقت، سعى "دور كايم" الى أن يبرز مكانة علم الاجتماع في فرنسا وأوروبا الغربية، عندما قام بتأسيس مجلة علم الاجتماع، وذلك عام ١٨٩٨، والتي كانت تهتم بالكثير من القضايا والمشكلات والظواهر الاجتماعية والفلسفية والأخلاقية والدينية والتربوية.

وفي إطار سياسات الدولة الفرنسية بقضية التربية، تم التحاق "دور كايم" بجامعة السربون عام ١٩٠٢، وليشغل منصب أستاذاً بذات الجامعة، وظل يعمل بنفس الوظيفة حتى عام ١٩١٣، وأصبح أستاذ علم الاجتماع والتربية معاً. كما قام أيضاً بالتدريس بجامعة باريس، وخلال هذه الفترة شغل مناصب إدارية وأكاديمية عليا، وأصبح من أبرز مؤسسي اللجان التربوية والعلمية في فرنسا التي قامت بتحديث السياسات التربوية والمناهج والمقررات الدراسية، والتي ترجمها في مجموعة من مؤلفاته المميزة مثل (التربية وعلم الاجتماع في فرنسا) والذي نشر عام ١٩١٥، وأيضاً (علم الاجتماع والمنهج في فرنسا) ونشر أيضاً عام ١٩١٦، ويعد من أبرز الدراسات والمؤلفات في (موسولوجيا المنهج والتربية) في الوقت الحاضر، وجاءت هذه المؤلفات لتكون آخر مؤلفات علمية كتبها "دور كايم" حيث توفي بعد ذلك عام ١٩١٧.

ومن ثم ، يتضح لنا من خلال العرض الموجز للحياة الاجتماعية العلمية والمهنية "دور كايم"، أن نتعرف بوضوح على مدى تأثير هذه الظروف على كتاباته واهتماماته الأكاديمية. وهذا ما تبلور على سبيل المثال، عندما درس "دور كايم" الحديد من المعارف والعلوم الاجتماعية والفلسفية. لكن جاءت عملية اقتناعه بعلم الاجتماع ليكون موضع اهتمامه الأول، ولاسيما بعد أن انتقل الى العمل بجامعة برادو بفرنسا. كما كتبت فترة عمله بالتدريس ما قبل الجامعي إحدى

المراحل، التي جعلته يهتم بعد ذلك بقضايا التربية والأخلاق والمناهج والمقررات الدراسية، ومدى تأثيرها على جيل المعلمين أو المتقنين في فرنسا. كما جاءت عملية سفره إلى الخارج وخاصة ألمانيا، فرصة ليتعرف فيها على الفكر الفلسفي والاجتماعي الألماني، والتي عززت لديه عنصر المقارنة والدراسة والتحليل وخاصة للمقررات الدراسية الألمانية، التي كانت تركز على التضامن الاجتماعي، والولاء والانتماء والتضحية لدى النشئ والدارسين. وهذا ما جعل "دور كايم" بعد ذلك يعيد تصميم المقررات الدراسية، ولاسيما دراسة التاريخ الفرنسي، ومحاولته لإبراز حياة المشاهير والأبطال الفرنسيين، لزيادة الروح المعنوية، والتضامن والولاء لدى الشباب الفرنسي عامة.

من ناحية أخرى، يجب أن نشير إلى أن المرحلة التي عاشها "دور كايم" كانت من أهم المراحل التاريخية، التي شهدتها فرنسا خاصة، وأوروبا عامة، وهي مرحلة ظهور الثورة الفرنسية التي ألحقت النظام الجمهوري وغيّرت كثيراً من العلاقات الاجتماعية، وتركيزها على الديمقراطية والحرية. كما أدت أيضاً إلى ظهور الكثير من عناصر الفوضى الاجتماعية، وإحداث العديد من مظاهر التفتك في العلاقات والبناءات والنظم الاجتماعية الموجودة في فرنسا. وهذا ما جعل "دور كايم" مثل "أوجست كونت"، أن يؤكد على أهمية وجود علم الاجتماع، كعلم يهتم بدراسة التغيرات والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي صاحبت الثورة الفرنسية السياسية وأيضاً الثورة الصناعية في نفس الوقت.

ولقد ساعدت الثورة الفرنسية على ظهور النزعات السياسية المتطرفة سواء أكانت ليبرالية رأسمالية أم اشتراكية وشيوعية، وأصبحت هذه النزعات عنصراً هاماً لتشكيل الوعي الأيديولوجي والفكري لكثير من الفلاسفة والعلماء والمفكرين ومنهم بالطبع علماء الاجتماع. ولكن "دور كايم" يتخذ موقفاً موضوعياً من هذه النزعات بصورة عامة وهناك من رأى من أمثال "ريموند أرون" R.Aron، أن أفكار دور كايم الموسيولوجية تعتبر محاولة علمية بديلة للنزعات السياسية المتطرفة سواء أكانت اشتراكية أم رأسمالية. فقد هاجم "دور كايم" الاشتراكية والفكر الماركسي وقلم بدحض المبادئ والأفكار

والمسلمات العامة التى تقوم عليها ولاسيما تصوراتها حول الغاء الملكية الخاصة وإحلال النظام الإشتراكي الشيوعى. كما انتقد بشدة النزعة الشيوعية عند الإشتراكيين المتطرفة التى تؤمن بأسلوب الثورة الدموية كأساس للإصلاح والتغير الجذرى فى المجتمع الحديث. كما رفض كلياً فكرة إعادة توزيع الثروة (الملكية)، وتحقيق أى نوع من المساواة يتم عن طريق إلغاء الملكية الخاصة، حيث رأى "دور كايم" أن سبب مشكلة المجتمع الرأسمالى لايمكن أن يكون سبباً إقتصادياً بحتاً بقدر ما هو سبب أخلاقى من الدرجة الأولى. أما حالة الصراع بين العمال وأصحاب العمل والمال، ماهى إلا دليلاً واقعياً على حالة التفكك والفوضى الاجتماعية وحدوث مايعرف باللامعيارية Anomie فى ذلك المجتمع الرأسمالى، ويمكن إصلاح ذلك عن طريق التربية والتضامن الاجتماعى وليس عن طريق الغاء الملكية الخاصة.

من ناحية أخرى، انتقد "دور كايم" التيار الأيديولوجى الماركسى الذى فسر الصراع الطبقي واعتباره سلسلة متواصلة الحلقات منذ بداية الحضارات ونشأة المجتمعات الأولى. هذا الصراع الذى يستمر بين من يملك ومن لا يملك ويجب على الطبقات المحرومة من الملكية أن تقوم بثورة ضد الظلم والتهمر الاجتماعى والاقتصادى. ولكن رأى "دور كايم" فى النظام الجمهورى الفرنسى نوع من الخلاص نحو الإصلاح الاجتماعى بالرغم من تحفظه عليه بسبب الفوضى السياسية والأخلاقية والاجتماعية و التى نتجت عن عملية تطبيق الثورة، ولاسيما فى مراحلها الأولى وظهور ما يعرف بحكم الغوغاء. وأكد على أهمية التنشئة الاجتماعية والتربية والإصلاح الاجتماعى والأخلاق، وخلق نوع من الرضا لدى الطبقات الاجتماعية. وإن كان "دور كايم" حرص أيضاً على أهمية وجود القانون والنظام التشريعى، ليقوم بدور الرقيب والمحفظ على الأمن الاجتماعى. وهذا ما جعل جوهر نظرية "دور كايم" من التضامن الاجتماعى، والمحافظة على البناء والنظام الاجتماعى، هو جوهر أفكاره السوسيولوجية والإطار الأيديولوجى والفكرى الذى اعتقه منذ البداية، يؤكد على مسلمات البنائية الوظيفية كنظرية سوسيولوجية، تهتم بالتوازن والتسجام والتعاون والتكامل، شأنه مثل غيره من رواد هذه النظرية الأوائل من أمثال "كونت" و"مبيسر".



بالإضافة الى ذلك، عكست طبيعة الظروف السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية، التي عاشها "دور كايم" نمط الإطار الأيديولوجي الذي بلور مجمل أفكاره ونظرياته السوسيولوجية، التي عالجهما بكل وضوح وصراحة وموضوعية تامة. فلقد شكك "دور كايم" في دور الدولة أو السلطة السياسية في المجتمع الحديث، وأيضاً في العلاقات المتبادلة بين الدولة كسلطة سياسية، وبين الأفراد والجماعات، نظراً لفقدان الثقة المتبادلة بينهما بصورة مستمرة، وتخلي كل منهما (الدولة والأفراد) عن مجمل الحقوق والواجبات المتبادلة بينهما. ولهذا حرص "دور كايم" على أن يبرز لنا في إطار إسهاماته السوسيولوجية سياسة التخلي عن المسؤوليات الاجتماعية والأخلاقية بين كل من الفرد والدولة أو النظام السياسي. ومن هذا المنطلق، حرص "دور كايم" على أن يؤكد الدور الوظيفي، الذي يمكن أن تقوم به الإتحادات وال نقابات المهنية والعمالية باعتبارها تنظيمات وسيطة بين الدولة والفرد وتعزز من المسؤوليات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية بينهما. وهذا ما جاء عموماً في مناقشته لأهمية هذه التنظيمات ودورها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعنصرية، إذ تلعب دوراً إيجابياً في تحقيق التضامن الاجتماعي، الذي يعتبر جوهر النظرية السوسيولوجية عند "دور كايم" وأساس فكره الأيديولوجي عامة.

## (٢) القضايا الأساسية لعلم الاجتماع

جاءت تحليلات "دور كايم" في علم الاجتماع، لتركز على وضع نظرية سوسيولوجية متميزة، ولتحدد معالم هذا العلم الذي وضع أسسه الفلسفية الوضعية "أوجست كونت"، وطور أفكاره، غيره من رواد علم الاجتماع الأوائل من أمثال "هربرت سبنسر" رائد النظرية العضوية، وأيضاً أفكار "كارل ماركس" التي وجدت الكثير من القبول والرفض في نفس الوقت من الكثير من الفلاسفة والعلماء والمفكرين. ولاسيما، عندما ركز على مقولة الصراع الطبقي، الذي إتخذ منها "دور كايم" موقفاً مغايراً ومناهضاً لفكرة هذا الصراع وأسباب وجوده في المجتمع الحديث. وإن كانت تصورات "دور كايم" السوسيولوجية تتميز عن غيرها من تحليلات رواد علم الاجتماع التقليديين،



نظراً للتنوع الفكرى والثقافى والمعرفى عامة، التى تميزت بها هذه الكتابات  
والتي أثرت النظرية السوسيولوجية لسببين رئيسيين وهما:

أولاً: جاءت تحليلات "دور كايم" النظرية فى علم الاجتماع، متناولة الكثير من  
القضايا والموضوعات والظواهر الاجتماعية، التى ظهرت بالفعل فى المجتمع  
الأوروبى الحديث، والتى عاصرها فى الواقع "دور كايم"، وتناولها بنوع من  
الموضوعية والتحليل العلمى المتميز، كما عكست هذه الأفكار الاتجاه  
الأيديولوجى والفكرى الذى تبناه "دور كايم" منذ البداية، عندما دافع عن جوهر  
نظريته السوسيولوجية والمتمثلة فى التضامن الاجتماعى، التى اعتبرها "دور  
كايم" النظرية الأساسية التى يجب أن يكرس لها اهتمامات علم الاجتماع  
والمختصين فيه.

ثانياً: عكست كتابات "دور كايم" فى النظرية مدى عمق تصوراتهِ وتوجيهها  
لدراسة الواقع، ولاسيما عندما حدد "دور كايم" قواعد المنهج العلمى، الذى يجب  
أن يستخدمه الباحث الاجتماعى عند دراسته الظواهر الاجتماعية وهذا ما تبلور  
بالفعل فى إحدى إسهاماته المنهجية فى علم الاجتماع، والذي لكتسب على  
إثرها "دور كايم" مكانته كأستاذ جامعى وأكاديمى، أضفى بصورة عامة صفة  
الشرعية الأكاديمية على علم الاجتماع والمختصين فيه، بعد أن كانت أفكار  
هذا العلم، نوع من الثقافة العامة وبعيداً عن التخصص العلمى والأكاديمى.

على أية حال، إن إسهامات "دور كايم" فى النظرية السوسيولوجية،  
يمكن بلورتها فى عدد من القضايا والظواهر والمشكلات التى طرحها "دور  
كايم"، بالفعل منذ أن حصل على الدكتوراة من جامعة برودو عن تقسيم العمل  
عام ١٧٩٣، حتى إسهاماته المتنوعة سواء فى قواعد المنهج، أو دراسته عن  
الانتحار، وتحليلاته حول الفرد والحياة الجمعية، ومقالاته المتميزة عن الدين  
والأخلاق، وكتاباته عن العلاقة المتبادلة بين التربية وعلم الاجتماع، ومناقشته  
المتعمقة والواقعية الميدانية لمشكلات المنهج والمقررات الدراسية فى فرنسا،  
وكيفية دراستها وتحليلها بواسطة علم الاجتماع وفروعه المتخصصة.  
وعموماً، نسعى حالياً لعرض أهم الأفكار والقضايا الرئيسية التى بلورها "دور  
كايم" لتكون أسس علم الاجتماع وهى بإيجاز:

١- ركز "دور كايم" على تصور المجتمع بوصفه ضميراً جمعياً، أو نوع من الشعور الجمعي Collective Consciousness، الذى له وجود مستقل، ويمارس نوع من القهر والإجبار على الأفراد باعتبارهم أعضاء فى هذا المجتمع وينتمون إليه. فالمجتمع يعتبر كائن عضوى جمعى متكامل فيه جميع الأجزاء والبناءات والنظم والأعضاء والجماعات، كما يختلف ويتميز عنها جميعاً، ولكن المجتمع لا يمكن أن يتحقق ويستمر إلا من خلال وجود هذه العناصر العضوية مجتمعة. وهذا ما يعكس تصور "دور كايم" وتمائل أفكاره حول المجتمع عند غيره من رواد النظرية العضوية ولاسيما أفكار "هربرت سبنسر" عن المماثلة للبيولوجية.

٢- أكد "دور كايم" على ضرورة دراسة الوقائع الاجتماعية، باعتبارها حقائق As Facts واقعية، وتمارس نوع من القهر أيضاً مثل أفعال القهر التى تمارسها المعايير والأعراف والنظم الدينية والمؤسسات التنظيمية. ومن ثم، اعتبر "دور كايم" الوقائع وحدة التحليل الاجتماعى والتى حددها فى دراسته للظواهر الاجتماعية، التى تمارس نوع من الضبط والإجبار والقهر وتنصف بالعمومية فى المجتمعات البشرية. كما أن الوقائع الاجتماعية غير قابلة للملاحظة المباشرة، كما تتميز بخاصيتين أساسيتين وهما: أولاً أنها خارجة عن الفرد، وثانياً أن لها خاصية الإلزام، وذات تأثير مباشر على السلوك الفردى، لأنها مجرد انعكاسات وتعبيرات مصدرها الجماعة والمجتمع، أى أنها نوع من العادات والتقاليد الاجتماعية الجبرية.

٣- رأى "دور كايم" أن قوة الإجبار والقهر للحقائق الاجتماعية، تستمد أساساً من العقل الجمعي Collective Mind، ذلك العقل الذى يتجسد فى قوة الجماعة والمجتمع، والتى تقوم بتشكيل المعايير الفردية والجمعية، وتمارس نوع من الضبط الاجتماعى، على أعضاء جماعتها وأفرادها العضويين. فى نفس الوقت، رأى "دور كايم" أن المعايير الجمعية التى تستمد من العقل الجمعي، تعتبر بمثابة القاعدة الأساسية التى يقوم عليها كل مظاهر البناء الاجتماعى ونظمه المختلفة، وتلعب هذه المعايير الدور الوظيفى فى التنسيق بين البناءات والنظم الاجتماعية بصورة عامة.

٤- بالإضافة الى ذلك، تصور "دور كايم" أن الحقائق والوقائع الاجتماعية أو المعايير الجمعية، كما أسماها بالفعل، لها دور وظيفي وبنائي متميز، حيث تقوم بعملية الإشباع للحاجات الأساسية Basic Needs، لكل من أفراد وجماعات المجتمع في نفس الوقت. كما أوضح "دور كايم" الحاجات الأساسية (الاجتماعية) بأنها الظواهر الاجتماعية، حيث يوجد ارتباط قوى بين كل منها (الحاجات والظواهر الاجتماعية). وهذا الارتباط بصورة عامة، يعكس لنا طبيعة الاتجاه أو المدخل البنائي الوظيفي الذى تبناه "دور كايم" وأصبح فى الوقت الحاضر نوع من الاهتمامات الرئيسية لعلماء الاجتماع المعاصرين.

٥- ناقش دور كايم قضايا المجتمع وظواهره ومشكلاته الواقعية، بنوع من التحليل البنائي الوظيفي المتميز الذى يتماثل مع غيره من رواد النظرية السوسيولوجية التقليدية، الذين يصنفون بالنزعة الوظيفية العضوية. وهذا ما يتمثل على سبيل المثال، فى مناقشة "دور كايم" لنظام تقسيم العمل The Division of Labour، واعتبر هذا النظام هو أساس عملية التماسك والتكامل الاجتماعى. أى أن تقسيم العمل يرتبط ارتباطاً أساسياً بدرجة التماثل والتكامل، فكما أصبحت الأدوار الاجتماعية والوظيفية أقل تعقيداً، إرتفعت معدلات التماسك الاجتماعى، نظراً لوجود نوع من الاعتماد المتبادل بين الأفراد لسد حاجاتهم الاجتماعية، وإشباعها بصورة عامة. وكما أصبحت الأدوار الاجتماعية أكثر تعقيداً، قلت معدلات التماسك الاجتماعى كما يحدث فى المجتمعات الحديثة.

٦- انطلاقاً من أفكار "دور كايم" حول التماسك أو التكامل وتقسيم العمل، يرى أيضاً وجود ارتباط منطقى بين حجم المجتمع والكثافة الاجتماعية من جانب، ومستوى تقسيم العمل والتماسك الاجتماعى من جانب آخر. أو بكلمات أخرى؛ تصور "دور كايم" أنه كلما زاد عدد السكان وارتفعت الكثافة السكانية، نتج عن ذلك زيادة معاملة فى تقسيم العمل وضعفت عملية التضامن والتماسك والتكامل الاجتماعى. وهذا ما تبلور بعد ذلك، فى تصورات "دور كايم" عن بناءات المجتمع وتطوره، الى أن وصل الى ما هو عليه خلال المجتمعات الحديثة.

٧- تعتبر تحليلات "دور كايم" عن أنماط المجتمع من الأفكار الأساسية فى

نظريته السوسيولوجية أو تصوراتها العامة لعلم الاجتماع ككل. فلقد تصور "تور كايم" وجود شكلين أساسيين للتماسك الاجتماعي يعكسان بصورة أساسية تصوراتها حول عملية التطور والتغير الاجتماعي، الذي يعتبر جوهر النظرية السوسيولوجية البنائية الوظيفية للتقليدية. وهذين الشكلين هما:

- أولاً: التماسك الآلى: وهو إحدى خصائص المجتمعات التقليدية، التى يتضاعف فيها نظام تقسيم العمل حيث يحدث نوع من التماثل والتشابه بين أنماط العمل السائد فى هذه المجتمعات. كما تظهر المعايير الاجتماعية باعتبارها قوة ضاغطة وتمارس نوع من القهر والإجبار، وتحدث نوع من التماسك الاجتماعي، حيث تتماثل المعايير والأعراف والتقاليد والقيم، وتتضارب وجهات النظر والآراء إلى درجة كبيرة.

- ثانياً: التماسك العضوى: يعتبر أهم خصائص المجتمعات الحديثة المتقدمة، التى تقوم على نظم معقدة لتقسيم العمل، وتتوحد نمط العلاقات التعاقدية الفردية، التى تؤدى إلى انخفاض درجات التماسك الاجتماعي وندرة مظاهر التضامن. كما تؤدى إلى تفكك العلاقات الاجتماعية، وضعف قوة لضبط الاجتماعي التقليدى وتظهر مظاهر متعددة للانحراف والجريمة والتعدى على حقوق الآخرين، ويصبح النظام الاجتماعي عاجزاً تماماً لممارسة معايير وقواعده التقليدية.

بإيجاز، تعتبر تلك القضايا الأساسية السابقة، جوهر اهتمامات علم الاجتماع ومسلّماته العامة، التى يجب أن يتبنها المهتمين بهذا العلم، كما تبرز هذه القضايا مدى حرص "تور كايم" لتحديد المهام الأساسية التى يجب أن توظف فيها النظريات السوسيولوجية لدراستها وتحليلها بصورة علمية. وإن كانت آراء "تور كايم" لا تقتصر على مثل هذه القضايا النظرية لعلم الاجتماع، بقدر ما سعى أيضاً لتوظيف قواعد منهجية محددة لدراسة هذه القضايا والظواهر الاجتماعية على أسس علمية وموضوعية.

### (٣) قواعد المنهج ودراسة الظواهر الاجتماعية

إنطلاقاً من الأفكار الوضعية السابقة للنظرية السوسيولوجية الوظيفية التقليدية، حرص "دور كايم" على تطوير هذه الأفكار واستحداثها بأساليب علمية ومنهجية، أكثر تقدماً من الأساليب الاستنباطية والفلسفية الوضعية التي طرحها قبل ذلك عالم الاجتماع الفرنسي "أوجست كونت"، أو أصحاب النزعات العضوية التي قامت على منهج الملاحظة والمقارنة بين الكائنات العضوية والمجتمعات البشرية كما تمثل في تحليلات "سبنسر". وهذا ما يعتبر قيمة إسهامات "دور كايم" البحثية والمنهجية، والتي يرجع إليها الفضل الأول في تحديد قواعد المنهج العلمي، والتي ظهرت في أولى مؤلفاته السوسيولوجية المتميزة وجعلته من أوائل علماء البحث العلمي، إذ حدد الخطوات الأساسية التي يجب أن يقوم عليها منهج البحث الاجتماعي، الذي يعزز بدوره عملية تطور للنظرية السوسيولوجية، وطرق وأساليب وعمليات جمع البيانات عن الظواهر والشواهد الواقعية. وعلى أية حال، تبرز حالياً أهم القواعد الأساسية التي أشار لها "دور كايم" عن منهج البحث الاجتماعي وهي كما يلي:

١- يجب قيام الباحث الاجتماعي قبل بدء دراسته للظواهر الاجتماعية، أن يقوم بملاحظتها وتسجيلها واعتبارها حقائق فردية مستقلة عن ذاته، وبعيداً عن ارتباطها بمجموعة الأفكار والغايات الأيديولوجية التي تبعد الباحثين عن معرفة الأسباب الحقيقية وراء ظهورها أو تكرارها. ومن ثم، سعى "دور كايم" ليؤكد على أهمية التزام الباحث بالناحية الموضوعية، عند دراسة الظواهر والحقائق الاجتماعية وتحليلها بصورة واقعية، حتى يستطيع الوصول إلى مجموعة القوانين التي تفسرها وتشكلها.

٢- ضرورة أن يهتم الباحث بدراسة الظواهر الاجتماعية، واعتباره وحدة متكاملة ومتراصة، ولا يمكن عزل أجزاء منها عن الأخرى، لأنها جميعاً تنصب على وصف الحقيقة الاجتماعية، فهي (الظواهر) تؤثر في بعضها البعض ويوجد بينها تفاعل مستمر. وهذا ما يتمثل في أنماط التفاعل بين النظام الاقتصادي والنظام الديني والمسيحي، فكل منهم يؤثر في الآخر بصورة مباشرة، ولا سيما أن النظم الاجتماعية تعتبر ظواهر اجتماعية متكاملة.

٣- استبعد "دور كايم" الاستعانة بالأساليب الاستنباطية الفلسفية، وأيضاً الأساليب الستكولوجية التي تعتمد على منهج الاستنباط الداخلي (النفسي)، ورأى أنه يجب تفسير الظواهر الاجتماعية ودراستها بصورة واقعية أى كما هى فى الواقع. ولكن يمكن تفسير إحدى الظواهر الاجتماعية عن طريق التفسيرات السابقة لظواهر اجتماعية مماثلة مع الأخذ فى الاعتبار بعدى الزمان والمكان.

٤- يجب على الباحث الاجتماعى أن يستبعد تماماً أى نوع من الأحكام القيمة أو التصورات المسبقة التى تكون لدى الباحثين على الظواهر المدروسة، حتى ولو كانت هذه التصورات شائعة أو متعارف عليها. لأن مثل هذه التصورات أو الأحكام القيمة من شأنها أن تؤدى الى تفسيرات بعيدة عن الواقع عند دراسة الظواهر الاجتماعية.

٥- أكد "دور كايم" على أهمية الاستعانة بمناهج الملاحظة، والملاحظة، وأيضاً استخدام المنهج التاريخى، الذى يساعدنا فى دراسة الوقائع والحقائق والظواهر الاجتماعية، ولاسيما معرفة أسباب نشأتها وتطورها. وعموماً لقد تصور "دور كايم" التاريخ واعتبره بمثابة معمل ضخيم يشمل الكثير من التجارب والأحداث التاريخية، التى يجب أن يستفيد منها الباحثين الاجتماعيين. فى نفس الوقت، أكد "دور كايم" على ضرورة استعانة الباحثين بكتابات المؤرخين، ولاسيما عند ندرة المادة العلمية حول تطور الظواهر الاجتماعية والتاريخية.

٦- بالإضافة الى المناهج السابقة، حرص "دور كايم" كغيره من رواد النظرية البنائية الوظيفية التقليدية، أن يؤكد على أهمية الاستعانة بالمنهج المقارن Comparative Method، عند دراسة الوقائع والظواهر الاجتماعية وخاصة أن كثيراً من الظواهر قد تطورت وتغيرت كثيراً عند تطور المجتمعات البشرية من المرحلة البدائية أو التقليدية حتى الحديثة، وهذا ما يشارك "دور كايم" بالفعل كل من "كونت"، و"سبنسر"، و"ماركس".

٧- أهتم "دور كايم" بالإحصاء فى جمع البيانات وتحليلها، حول الظاهرة المراد دراستها، واعتبر الإحصاء المادة الخام التى يجب الاعتماد عليها فى

بداية الظواهر الاجتماعية وقياسها بصورة كمية، أو الاعتماد عليها أيضاً في التحليلات الكيفية. وبالطبع، تعتبر دراسة الإنتحار التي قام بتحليلها "دور كايم" أحد الظواهر الاجتماعية، التي اعتمد فيها على الإحصاء من الدرجة الأولى، خاصة عندما حلل أسباب ونتائج ومظاهر هذه الظاهرة في دول أوروبا بصورة عامة.

يؤكد "دور كايم" على أن وظيفة علم الاجتماع النظرية والمنهجية تتمحور حول التفسير السببي للظواهر والقضايا والمشكلات الاجتماعية، وينتج عن هذه الوظيفة، أن علم الاجتماع يعتبر مثل العلوم الطبيعية التي تتبنى مناهج علمية متطورة تسعى دائماً للإنتقال من البحث عن الأسباب إلى الكشف أيضاً عن الوظائف. وأن كان "دور كايم" يؤكد على أن هذه الوظيفة تحتم على الباحث الاجتماعي ضرورة الاهتمام بالموضوعية والبعد عن الذاتية، حتى يتعرف بوضوح على مدى إسهام الظاهرة المدروسة، وتشكيلها للبناء الاجتماعي وتحديثه.

٩- اهتم "دور كايم" بتحديد قواعد المنهج، وضرورة أن يصل علم الاجتماع إلى عدد من القوانين التي يتم استخلاصها بصورة دقيقة. ولأسيما، إن عملية الوصول إلى القوانين تعتبر من أهم أهداف علم الاجتماع وخصائصه العلمية. كما حد "دور كايم" إمكانية صياغة القوانين سواء بصورة كمية أو كيفية، أي عن طريق استخدام الأرقام للكمية، أو إبراز الخصائص أو الصفات العامة الكيفية، وهذا في مجمله يعد نوع من الانجاز العلمي لعلم الاجتماع ويدعم مكانته بين العلوم الطبيعية والاجتماعية في نفس الوقت.

في الواقع، لقد حرص "دور كايم" في قواعد المنهج لعلم الاجتماع على أن يصلق الأسس العلمية والبحثية والمنهجية، التي يجب أن يقوم عليها هذا العلم. وخاصة، أن "دور كايم" سعى لأن يكمل مسيرة "أوجست كونت" في تحديد ماهية علم الاجتماع، واعتباره علماً وضعياً مثل غيره من العلوم الطبيعية الأخرى، وسعى بالفعل للوصول إلى مكانة هذه العلوم وما حققته من تقدم ملحوظ نتيجة تطویرها الأساليب المنهجية والبحثية، التي تعزز الأطر التصورية النظرية التي تقوم عليها، وخاصة، إن استخدام الأساليب المنهجية



المتطورة من شأنها أن تطور النظرية العامة (السوسيولوجية)، والوصول إلى القوانين التي تفسر أسباب حدوث الظواهر الاجتماعية وتكرارها في الواقع.

#### (٤) المجتمع وأنماط التضامن الاجتماعي

##### أولاً: المجتمع

يشير "أنطوني جيننز" A. Giddens، إلى أن كتابات "دور كايم" لها دور هام في الكشف عن التغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الهامة التي ظهرت في عصره، بل أن أهمية هذه الكتابات تعكس مدى أهميتها وبعدها الأكاديمي العلمي والتي لا تظهر في كثير منها التعصب الأيديولوجي الذي نلاحظه في كتابات كثير من العلماء الذين كانوا معاصرين "دور كايم". هذا بالإضافة إلى، أن إسهاماته كان لها تأثيراً فكرياً ومكانة هامة ساعدت على ازدهار الحركة الفكرية الفرنسية بصورة عامة. فلقد حاول "دور كايم" مثل "كونت" و"سان سيمون" وغيره من بعض العلماء الفرنسيين، أن يقدموا عرضاً فكرياً وتحليلاً ذا طابع سوسيولوجي ثقافي لانتهاء عصر المجتمع الاقطاعي وظهور عناصر التحديث لنشأة وتطور المجتمع الصناعي الحديث. ومن ناحية أخرى، تكمن أهمية كتابات "دور كايم" وتحليلاته للبناءات التنظيمية والاجتماعية للمجتمع الحديث عن طريق دراسته وتحليله لكثير من كتابات العلماء والمفكرين السياسيين والاجتماعيين وتأثره بهما من أمثال، "مونتسكيو" و"روسو" و"دارون" و"سيشافلي" و"لينفلد" وغيرهم. ويؤكد "تايلور" وزملاؤه، أن العديد من التفسيرات الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره مثل الفلسفة الأخلاقية، والسياسة، والاقتصاد السياسي، والمدارس الوضعية وغيرها من التفسيرات التي سيطرت عليها النزعة الفردية The Individualism، وازدهار الاتجاهات الليبرالية الرأسمالية ومفهوم العقد الاجتماعي The Social Contract والاهتمام بالحقوق الفردية وتقديم الضمانات الكفيلة لها من قبل المجتمع.

وتتميز كتابات "دور كايم" عن المجتمعات برفضها النزعات الغائية، والمثالية، فيرى أن المجتمعات ما هي إلا أنساق اجتماعية Social Systems



مكونة من تنظيمات أو مؤسسات اجتماعية، باعتبارها تتكون من مجموعات من الأفراد والجماعات التي تسعى لتحقيق أهدافها في البقاء والاستمرار. وتتفق أفكار "دور كايم" مع الكثير من العلماء والمفكرين المعاصرين له الذين درسوا أنواع المجتمعات وتطورها من أمثال "كونت" Comte، و"سبنسر" Spencer، و"ميل" Mill، و"ماركس" Marx، و"ورد" Ward، و"سيمنر" Sumner، و"توينيز" Tonnie، و"وستر مارك" Waster Marck، و"هوبهاوس" Hobbhouse وغيرهم. فجميع هؤلاء اعتقدوا بأن المجتمعات تتكون من الأنساق الاجتماعية، وضرورة وجود الشعور العام والمشارك بين الأفراد والجماعات من أجل تكوين المجتمعات. ولكن ينفرد "دور كايم" عن هؤلاء العلماء والمفكرين الاجتماعيين بأنه جعل مهمة علم الاجتماع هي دراسة المجتمع وتنظيماته المختلفة، تلك المهمة التي يختلف فيها هذا العلم ويتميز فيها عن العلوم الأخرى مثل البيولوجيا Biology وعلم النفس Psychology. هذا بالإضافة إلى معالجته للحقائق الاجتماعية على أنها (لشياء) لا يمكن فهمها إلا في ضوء تفسير علاقاتها المتداخلة وأسباب حدوثها في النسق الاجتماعي باعتبارها الوحدة الكلية، بل أيضاً معرفة التغيرات التي تحدث على البناءات الاجتماعية وتفاعلها المستمر.

ولقد استخدم "دور كايم" في تفسيره للمجتمع عدداً من المفاهيم الاجتماعية والحقائق الاجتماعية Social Facts مثل الوعي أو الشعور الجمعي Collective Consciousness الذي عن طريقه يعتبر الأفراد أعضاء في المجتمع. وبعد ذلك استخدم "دور كايم" مفاهيم أكثر تطوراً مثل الكائن الاجتماعي Social Organism الذي يتكون من مجموعة من العلاقات المتداخلة للبناءات والتنظيمات المجتمعية، ويكشف هذا المفهوم عن مدى تأثير "دور كايم" بمفهوم "سبنسر" ما فوق العضوى Super-Organic، وراة أصحاب النزعة الفردية في تصورهم للمجتمع، كما أعرب عن رأيه الواضح نحو معارضته للعلماء التطوريين The Evolutionists من حيث المنهج والتحليل، وبالرغم من ذلك فلم يرفض الفكرة الأساسية للتطور في حد ذاتها وهذا ما أوضحه في قواعد منهجه ورؤيته المميزة للمجتمع وتنظيماته المعقدة. وهكذا، فإن الفكرة الرئيسية التي اهتم بها "دور كايم" في تحليله للمجتمع هي

تفسير شبكة العلاقات التي تتكون منها التنظيمات الاجتماعية، والتي تقوم بصفة أساسية على جوهر النظام الأخلاقي الذي يعتبر من أهم السمات الأساسية والمقومات الأساسية لوجود المجتمع واستمرار بقائه. تلك هي القضية الأساسية التي اهتم بها "دور كايم" كثيراً وهذا يظهر بوضوح عموماً في تحليلاته للدين، وتقسيم العمل، والتنظيمات العائلية والمحلية، وتحليله للجرائم الموجودة في المجتمع بما فيها ظاهرة الإنتحار وتفسيراته حول طبيعة عضوية الجماعة التي تقوم عليها الإتحادات الإدارية والمهنية وغيرها من التحليلات التي تهدف لتفسير السلوك الفردي داخل تنظيم المجتمع، واحترامه لقواعده ونظمه الأخلاقية والدينية.

وربما تظهر أهمية كتابات "دور كايم" في معالجته للبناءات التنظيمية وعلاقاتها بالبناء الاجتماعي بوضوح في تحليله لمفهوم الأنومي Anomie الذي يمثل أحد الاسهامات الهامة في علم الاجتماع الدوركايمي، والذي يعبر من خلاله على مشاكل التنظيم الاجتماعي تلك المشاكل التي تتركز بصفة أساسية على العلاقة بين الفرد والمجتمع من ناحية، وعلاقته (الفرد) بالتنظيمات المجتمعية التي يتفاعل معها بصورة مباشرة من ناحية أخرى. وقد استخدم "دور كايم" أيضاً مفاهيم أخرى، لتشير لنفس العلاقة بصورة أو بأخرى، مثل الشعور أو الوعي الجماعي والذي عن طريقه يمكن فهم العلاقة المتبادلة بين الفرد أو الجماعة أو التنظيم الاجتماعي الذي يعيش فيه أو يتفاعل معه. ويعتبر الهدف الأول الذي يسعى إليه "دور كايم" هو الحفاظ على تماسك المجتمع بصورة مستمرة وهذا ما أسماه بالتضامن الاجتماعي The Social Solidarity. ويصف "لويس كوزر" L. Coser بشئ من التركيز لوجهة نظر "دور كايم" وما كان يقصده من تحليله لمفهوم الأنومي، ذلك المفهوم الذي حاول "دور كايم" فيه أن يعرض ببساطة العلاقة التي تربط بين الفرد والتنظيم الاجتماعي للرسمي وهو الدولة، وتنظيماتها ومؤسساتها المختلفة. وتحديداً أيضاً للعلاقات التي تربط أجزاء المجتمع وأفراده بتلك التنظيمات، في إطار واحد وهو المجتمع للكل الذي يتكون من مجموع أجزائه للصغرى. وهكذا يشير مفهوم الأنومي، إلى علاقة الكل بالجزء والعكس، كما يميز سبل التعبير عن رغبات الأفراد وحاجاتهم ومصالحهم، تلك الحاجات التي لم تعد تحكم

وتسيطر بواسطة القيم والعرف والعادات السائدة فى المجتمع التقليدى، بل أصبحت عن طريق المعايير الأخلاقية والقانونية ذات الطابع والتنظيم الرسمى وبما يتلائم مع متطلبات وظروف العصر والمجتمع الحديث المعقد.

ويعترف "نور كايم" بصراحة، بأن تطبيق فكرة الأنومى، بصورة كاملة يعتبر أمراً صعب التحقيق فى المجتمعات، لأن الأنومى، هو القاعدة المعيارية التى تهتم بتنظيم علاقات الأفراد فى المجتمع، تختلف تطبيقاتها فى المجتمع من وقت إلى آخر، بل قد تختلف الجماعات باعتبارها التنظيمات المسؤولة عن تطبيق القواعد المعيارية والنظامية والأخلاقية فيما بينها من تطبيق فكرة الأنومى. فقد تختلف بالفعل هذه القواعد فى الأسرة باعتبارها أبسط التنظيمات عن الجيش أو المصنع أو المدرسة باعتبارها تنظيمات أكبر تعقيداً وهكذا. ومن ناحية أخرى، أن القواعد المعيارية أو الأنومى تختلف وتتأثر بالتغيرات الاجتماعية والسياسية، والدينية، والثقافية، والاقتصادية التى تحدث فى المجتمع وتؤثر بالفعل على نمط العلاقات والتفاعل الاجتماعى بصورة ملحوظة. ويركز "نور كايم" على تحليل دور بعض العوامل الهامة التى تؤثر على المعيارية والنظامية مثل لزيادة السكانية، والتغيرات الاجتماعية المفاجئية مثل الهجرات والثورات والحراك الاجتماعى التى تؤدى إلى تغييرات كبيرة أحياناً ونتائج عكسية على الطابع الأخلاقى والتوقعات السلوكية فى أتماط العادات وتقاليد فى المجتمع. وربما يؤدى التغير فى النسق الاقتصادى ولزدهاره إلى تغير ملحوظ فى عادات وتصرفات بعض الناس وسلوكهم مما يحدث خلل واضح فى طابعهم الأخلاقى والنظامى عما كانوا عليه من قبل. وعلى أية حال، أن أى حركات اجتماعية سريعة فى البناء والتنظيمات الاجتماعية، من شأنه أن يحدث أنواعاً من الاضطرابات وعدم الاستقرار فى شبكة العلاقات الاجتماعية والأخلاقية بصفة عامة وتعتبر قيم الثورات الفرنسية ونتائجها شى أحداث تغييرات جوهرية وجذرية على النسق البنى، والاجتماعى، والاقتصادى، والسيسى، والثقافى عموماً وما صاحب ذلك من ظهور مشاكل عديدة، أثرت بالضرورة على للنظم الاجتماعى وتنظيماته المتعدده. تلك العوامل التى جعلت "نور كايم" يحلل طبيعة الواقع الاجتماعى والبيئة الاجتماعية التى يعيش فيها ويتأثر بها، ورأى عدم ملائمة البناءات التنظيمية

التقليدية لعدم قدرتها على مواجهة المشاكل والتغيرات الاجتماعية التي ظهرت في المجتمع. ومن ثم فكانت الحاجة ضرورية لوجود تنظيمات حديثة تلائم تلك المشاكل وتتكيف مع التغيرات الحديثة من أجل حفظ النظام والبناء الاجتماعي وتماسكه.

يصعب على المهتمين بدراسة النظرية السوسيولوجية التقليدية عند "دور كايم"، أن يتجاهلوا العديد من القضايا والموضوعات التي تناولها بالفعل وبأسلوب منهجي وموضوعي مميز، ولا سيما أن طبيعة اسهامات "دور كايم" من الصعوبة تجزئتها أو تحديدها بعيداً عن الواقع الذي ظهر فيه، أو تفسيرها بدون فهم الاطار الأيديولوجي والفكري الذي تقوم عليه هذه الاسهامات. وهذا ما يتمثل عند دراستنا لأنماط التضامن الاجتماعي وبناءات المجتمع الحديث وتطوره. ولا سيما، أن العمل الأساسي الأول "دور كايم" كما جاء في رسالته للدكتوراة عن "تقسيم العمل"، الذي على أساسه يمكن فهم طبيعة عملية تغيير المجتمع وتطورها وتفسيرها أيضاً حسب أنواع تقسيم العمل، ونوعية التماسك والتفكك الاجتماعي الذي يكشف بوضوح عن جوهر النظرية السوسيولوجية العامة، التي بنى عليها "دور كايم" أفكاره الوظيفية، والتي تمثلت أساساً في نظرية التضامن الاجتماعي. ولكن قبل الإشارة إلى أنماط أو أشكال التضامن الاجتماعي، يجب أن نوضح أولاً تقسيم العمل باعتباره الفكرة أو المسلمة الأساسية، التي توضح بدورها نوعية التضامن الاجتماعي بصورة عامة، وتعد من اسهاماته في النظرية السوسيولوجية، ومما لا شك فيه أن كتابات "دور كايم" وتحليلاته تحتوي على تدخل واضح فيما بينها إذ تكشف في نفس الوقت عن نظريته السوسيولوجية العامة، فتربط تصوراتهِ عن الدولة بالمجتمع والفرد بالسلطة، والنظام الأخلاقي والديني والعائلي، بتقسيم العمل وظاهرة الإنتحار، وبفكرته حول التضامن الاجتماعي والشعور الجمعي، وأيضاً بتصوراتهِ ونظريته السياسية وحول الديمقراطية والحرية، والاسترلاكية والشيوعية والصراع الطبقي والثقافات، والاتحادات المهنية. تلك الأفكار التي نحول تحليلها بما يتلاءم مع موضوع اهتمامنا حول تحليل كتابات رولد وعلماء الاجتماع الذين أسهموا في تطور النظرية العامة والعديد من الفروع المتخصصة لعلم الاجتماع.

## ثانياً: أنماط التضامن الاجتماعي

### ١ - تقسيم العمل

تعتبر دراسة تقسيم العمل من أهم الدراسات الجادة التي أسهم بها "دور كايم" في تأسيس وتطور علم الاجتماع وفروعه المختلفة، تلك الدراسة التي تعكس اهتمام عالم الاجتماع بتحليل الواقع الاجتماعي وتفسير ظواهره الاجتماعية المعقدة، ومن أجل معرفة الظروف والعوامل التي تؤدي إلى التغير والتطور الجذري في جميع أنماط الحياة الاجتماعية، وتشكيل العديد من البناءات التنظيمية السياسية والدينية والاقتصادية في المجتمع الحديث. ونظراً لأهمية هذه الدراسة وارتباطها بسياق النظرية السوسيولوجية العامة لدور كايم من جانب، ومدى علاقتها بموضوع اهتمامنا الحالي بتحليل أسهامات هذا العالم في تطوير الاهتمام بالدراسات التنظيمية والبناءات الاجتماعية من جانب آخر، سوف نتناول بصورة تحليلية الأفكار الرئيسية لهذه الدراسة.<sup>١</sup>

يشير "دور كايم" صراحة، إلى أن دراسته حول تقسيم العمل لم تكن حديثة التناول من جانبه، فلقد تناولها بعض المفكرين الأوائل مثل "أرسطو" Aristotle، ولكن لم تعرض هذه الظاهرة بنوع من التحليل ذات المضمون والمؤشرات الاجتماعية إلا عند نهاية القرن الثامن عشر. وكانت أول محاولة جادة على يد العالم الاقتصادي الشهير "آدم سميث" A. Smith. في تحليلاته الاقتصادية والاجتماعية، وبعد ذلك استعارتها بعض العلوم الطبيعية مثل علم الأحياء Biology. وكما يرى "برستيدت" R. Biersteat إن تناول "دور كايم" لظاهرة تقسيم العمل يعد تناولاً سوسيولوجياً مميزاً، أضفى عليها طابعاً خاصاً وجعلها من بعده مركز اهتمام العديد من العلماء الطبيعيين والاجتماعيين ومنهم على سبيل المثال فقط، "سيمل" Simml، و"شمولر" S. L. M. و"بيخر" Bucher، و"ماينييه" Maunier وغيرهم.

ويرى "دور كايم" أن ظاهرة تقسيم العمل في العصر الحديث تطورت بصورة أكثر تعقيداً مما كانت عليه في العصور الماضية، هذا التطور كانت نتيجة لظهور متغيرات جديدة في العصر الصناعي الحديث مثل استخدام قوة

الآلات ونمو رأس المال. ومن ثم كانت الحاجة الى تحديث نظام لتقسيم العمل من أجل تطوير المهن والوظائف Occupations على أساس التخصص Specialization، ليس فقط فى المصانع والمشروعات الصناعية والتجارية والتنظيمات السياسية والدينية فحسب، بل فى جميع الأنشطة الاجتماعية. وهكذا أصبحت ظاهرة تقسيم العمل حاجة ملحة ملازمة للتطور والتغير الذى حدث فى البناءات التنظيمية والاجتماعية.

على أية حال، إن اهتمام "دور كايم" بتناول ظاهرة تقسيم العمل لم تأت من فراغ، بل تعكس اهتمام العالم السوسيولوجى الذى اهتم بتناول التغيرات الاجتماعية، السياسية، والدينية التى تحدث فى الواقع الاجتماعى. وخاصة أن مرحلة ظهور "دور كايم" ومعاصرتة لأهم أحداث العصر الحديث وهى قيام الثورة الفرنسية وما صاحبها من قيام الثورة الصناعية، وظهور ما يعرف بنظام المصنع، كان لهما أثر قوى وعامل جوهري فى تغيير كل من النظم الفكرية، والثقافية، والاقتصادية، كل ذلك أدى الى زيادة الاهتمام بتناول الحقائق الاجتماعية ومعالجتها فى ضوء ظاهرة تقسيم العمل والتخصص مع تحليل التغيرات الناتجة وأثرها على البناءات التنظيمية، وخلق تنظيمات ونظم حديثة حتى تلائم طبيعة الحياة الاجتماعية المعقدة فى العصر الحديث.

والواقع أن اهتمام "دور كايم" بتحليل الظواهر الاجتماعية على أنها حقائق واقعية أو "كأشياء" تميزه عن غيره من العلماء، فلقد أدرك حقيقة نتائج التغيرات التى حدثت فى البناءات التنظيمية نتيجة للتغير الاجتماعى المصاحب لكل من الثورة الفرنسية والثورة الصناعية التى حدثت فى العالم الغربى، والتغيرات التى ظهرت على العلاقات الاجتماعية وإحداث الكثير من التفكك الاجتماعى والتنظيمى. ومن ثم، فظهرت وجهة نظر "دور كايم" المحافظة لتؤكد على أهمية إعادة تشكيل التنظيمات والمؤسسات الاجتماعية حتى تتلائم مع طبيعة التغيرات الجديدة، ومن أجل وضع الحلول الملائمة لمشاكل وأزمات المجتمع الصناعى. وباختصار، إن تركيز "دور كايم" على تحليل التغيرات التنظيمية والمجتمعية فى المجتمع الغربى تتلخص فى ثلاثة أفكار رئيسية وهى:

١- تحديد طبيعة تقسيم العمل واكتشاف الحاجات الاجتماعية لإشباعها.

٢- البحث عن أسباب تقسيم العمل.

٣- تفسير التغيرات والتفكك الذى حدث على البناء الاجتماعى.

ولقد ظهرت عدة متغيرات ومفاهيم سوسيولوجية هامة عند تناول "دور كايم" لظاهرة تقسيم العمل منها على سبيل المثال، مفهوم الوظيفة Function، والدور Role، والنشاط Activity، والهدف Object، والنتائج Results، والمؤثرات Effects وغيرها من المفاهيم التى أضفى عليها الطابع السوسيولوجى من أجل التعرف على وسائل إشباع الحاجات والضروريات الاجتماعية. ويبين الغرض الأساسى من أهمية وجود تقسيم العمل فى المجتمع. ذلك الغرض الذى كرس له "دور كايم" مجهوداً كبيراً فى تحليلاته، وهو تحليل العلاقة بين تقسيم العمل والتخصص، وإمكانية وجود القاعدة الأخلاقية التى تسهم فى تحقيق فكرة التضامن الاجتماعى وإعادة تماسك المجتمع والحفاظ على استمراريته، وهكذا يؤكد "دور كايم" على أهمية تقسيم العمل وأثره فى المجتمع الحديث.

ومن ثم، نجد "دور كايم" يركز على ربط مهمة تقسيم العمل والتخصص لتحديد الوظائف والأهداف التى تقوم بها فى المجتمع من أجل تحديد العلاقات الاجتماعية سواء بين الأفراد والدولة أو بين الأفراد أنفسهم. بل أن فكرتى الجريمة والعقاب، وتقسيم العمل والتخصص بينهما علاقة وظيفية مشتركة هى وضع كل جريمة أو عقاب فى صورة وظيفية معينة تساعد على إعادة التماسك والتضامن، وتنظيم الأفراد وسلوكهم، ومواجهة الانحرافات فى المجتمع، تلك النزعة أو الاتجاه التى تتسم به كتابات "دور كايم" وتعكس مدى حرصه على وضع الحلول لمواجهة الأزمات والمشاكل الملزمة لتجديد المجتمع الصناعى الحديث. ومن ناحية أخرى حاول "دور كايم" الربط فى تفسيره لوظيفة تقسيم العمل وفكرته للتضامن الاجتماعى، حيث أوضح أن للتضامن الاجتماعى أنواع متعددة وأشكال مميزة تعكس طبيعة الواقع الاجتماعى المتنوع مثل التضامن العائلى، والتضامن الوظيفى والمهنى، والتضامن القومى أو الوطنى. وكل نوع من هذا التضامن يعكس بصورة أو



بأخرى طبيعة تطبيق مبدأ تقسيم العمل والتخصص وتحديد الواجبات والحقوق داخل كل تنظيم أو جماعة اجتماعية ابتداء من تنظيم العائلة أو الأسرة حتى التنظيمات الكبرى المعقدة في المجتمع.

وتوجد عديد من العوامل والأسباب التي تؤدي لزيادة تقسيم العمل وتطوره بصورة أكثر تخصصاً حتى يتلاءم مع حقيقة المجتمع الصناعي الحديث والتغيرات التي تحدث في جميع البناءات التنظيمية الاجتماعية المختلفة ومن أهم هذه العوامل: (١) زيادة السكان وكثافتهم، (٢) تكوين المدن الحديثة وزيادة التحضر، (٣) التطور السريع في وسائل النقل والمواصلات بالإضافة الى ذلك، توجد بعض العوامل الثانوية الأخرى التي تساعد على زيادة تقسيم العمل والتخصص وهي: الهجرة Immigration والحراك الاجتماعي Social Mobility، والبيئة الاجتماعية Social Enviroment والظروف الفيزيائية والطبيعية في المجتمع.

وأثار "دور كايم" قضية هامة، ركز فيها على أهمية تطوير تقسيم العمل والتخصص بصفة مستمرة حتى يتلاءم وطبيعة التغيرات التي تحدث في المجتمع الحديث. حيث يعتبر تقسيم العمل في حد ذاته ما هو إلا نتيجة الصراع من أجل البقاء والوجود، وباعتباره الوسيلة الفعالة من أجل زيادة التفاعل والعلاقات الاجتماعية والتضامن الاجتماعي. ويرى "دور كايم" أن زيادة تقسيم العمل سوف تؤدي حتماً لزيادة التخصص وبصفة خاصة داخل التنظيمات الصناعية والتجارية، حتى تؤدي دورها في زيادة الانتاج وتحسين نوعيته. ومن ثم تصبح وظيفة تقسيم العمل كالية هي تلبية احتياجات وضروريات المجتمع وأفراده.

## ٢- التضامن الاجتماعي

ومن أهم للقضايا التي عالجها "دور كايم" في إطار تحليله لظاهرة تقسيم العمل والتخصص خاصة تصوراتة حول دراسة التغيرات التي حدثت على المجتمع الصناعي الحديث، وهي دراسته لكل من فكرة التضامن الآلي Solidarity Mechanical، والتضامن العضوي Organic Soidarity.



## النوع الأول:

التضامن الآلى، هذا النوع يوجد فى المجتمعات البدائية البسيطة ويشير إلى وجود التضامن بين أفراد المجتمع الذى يتم عن طريق العادات والتقاليد والعواطف المشتركة بينهم، تلك العناصر التى تسمى بروابط الشعور الجمعى، والتى تعمل أيضاً على التكامل الاجتماعى Social Integration الذى يعتبر العامل الرئيسى فى وجود واستمرار الحياة الاجتماعية حيث يعمل على زيادة الروابط والعلاقات الاجتماعية والتكامل بين الأفراد وبين المجتمع. ومن ناحية أخرى، حاول "دور كايم" أن يربط هذا النوع من التضامن ونوعية الجزاءات وطبيعة القواعد الأخلاقية والمعيارية والقانونية بصفة عامة وأثرها على الحفاظ على التماسك الاجتماعى الذى يظهر عن طريق الاحساس المشترك بالوعى الجمعى والانتماء إلى المجتمع. وعموماً هذا النوع من المجتمعات يتميز بالتجانس الاجتماعى Social Homogenous.

## النوع الثانى:

التضامن العضوى، فيشير إلى طبيعة المجتمعات الصناعية الحديثة، حيث يختلف مضمون التضامن اختلافاً يكاد يكون جذرياً عن التضامن الموجود فى المجتمعات البسيطة، لأنه لايقوم على نسق العادات والتقاليد والعواطف المشتركة، والانتماء، والشعور الجمعى، ولكن يقوم أساساً على مبدأ تقسيم العمل والاتجاه نحو المزيد من التخصص فى المهن والوظائف، واستقلالية الفرد الذاتية عن الجماعة التى ينتمى إليها. فكل عضو فى المجتمع يسعى لتحقيق أهدافه الخاصة، وينعكس ذلك على وجود الاختلافات بين الأفراد فى آرائهم، واتجاهاتهم، وسلوكهم. ويكون النظام القانونى الرسمى هو سمة الضبط الاجتماعى بعيداً عن العرف والعادات والتقاليد. وعموماً، يظهر هذا المجتمع نتيجة لزيادة التصنيع والتنوع فى النشاطات الاجتماعية، والسياسية، والتعليمية، والدينية، وإلى زيادة التخصص وتقسيم العمل ووجود النزعة الفردية، ويتميز بالتجانس الاجتماعى Social Hetergenous.

ويؤكد "دور كايم" على أن التمييز بين هذين النوعين من التضامن يعبران في نفس الوقت عن شيء واحد، وأنهما مظهران يعكسان لطبيعة الواقع الاجتماعي، ولا يمكن أن نلاحظ وجود التمييز الفاصل بينهما بصورة قاطعة. ولكن تحتم ضرورة الدراسة والتحليل للتمييز بينهما من أجل معرفة أوجه الشبه والاختلاف بين كل من التضامن الآلي والتضامن العضوي، وفهم وتفسيرات التغييرات التي تحدث على البناءات الاجتماعية وإدراك طبيعة التطور والتغير الاجتماعي.

والواقع أن اهتمام "دور كايم" بفكرة التضامن الآلي والعضوي وتمييزه بين نوعين من المجتمعات البسيطة والصناعية الحديثة لم تكن فكرة وليدة وقاصرة على تصورات "دور كايم" فقط. ولكن نجد كثيراً من علماء الاجتماع والمفكرين الذين اهتموا بتحليل هذه الفكرة وتمييزهم بين نوعين من المجتمعات أو ما يعرف بفكرة (الثنائية) ومنهم على سبيل المثال، "كونت" و"سينسر" اللذان يميزا بين المجتمعات العسكرية والصناعية وإيضاً "فريدناند تونيز"، و"سيمل"، و"فير" و"بلاي" وغيرهم. تلك الفكرة التي تتشابه تحليلها من قبل هؤلاء العلماء جوهراً أو مضموناً وإن كانت تختلف من حيث تناول والمنهج الذي يتبعه كل عالم على حده، وتعكس في نفس الوقت مدى اهتماماته التي يتناولها بالدراسة والتحليل. على أية حال، أن "دور كايم" كان هدفه واضحاً في اهتمامه بفكرة التضامن الاجتماعي ليعبر عن النزعة الليبرالية المحافظة من أجل تماسك المجتمع ومواجهة المشاكل والأزمات التي ظهرت نتيجة للنمو الصناعي أو زيادة المجتمع وتعبده.

#### (٥) النظم الاجتماعية والسياسية.

تتلو أهمية إسهامات "دور كايم" في النظرية السوسيولوجية، نظراً لوضوح التصور الفكري والأساس الأيديولوجي، الذي تبناه "دور كايم" بصورة مستمرة عند تحليله للكثير من الظواهر الاجتماعية، والقضايا والمشكلات التي تم معالجتها على المستويين النظري أو الميداني الأميريقي. كما تكمن أهمية هذه الإسهامات أيضاً من خلال معالجتها للظواهر الاجتماعية على أسس منهجية وبحوثية، لا تزال تعتبر نقطة انطلاق وموجياً عاماً لكثير من المتقنين

فى مناهج البحث الاجتماعى، ولا سيما، أن أفكار "دور كايم" قد طرحت قضايا نظرية ومنهجية، لاتزال الشغل الشاغل لكثير من المهتمين عموماً بتطور مجال النظرية السوسولوجية ومناهج وطرق البحث الاجتماعى. وخاصة، تصورات حول الموضوعية، والبعد عن الذاتية، والتحرر من الأحكام القيمية والأيدولوجية، وغير ذلك من التصورات التى تعتبر من أهم النقاط الأساسية، التى يطرحها العلماء عند تقييم النظرية السوسولوجية فى الوقت الحاضر.

فى نفس الوقت، لقد أكد "دور كايم" على ضرورة منهجية هامة والنس تتمثل فى مبدأ السببية Principle of Casualty، والاهتمام به عند تفسير الحقائق والوقائع والظواهر الاجتماعية. كما حرص "دور كايم" أيضاً على ضرورة الانتقال من مرحلة التفسير السببى للظواهر الى معرفة الوظائف التى تقوم بها الظواهر فى الحياة الاجتماعية والفردية، وتشكيلها عموماً لطبيعة البناءات والنظم التى توجد فى المجتمع. وتعتبر هذه القضية من أهم الاسهامات البنائية الوظيفية لرواد علم الاجتماع الكلاسيكيين، الذين تبناوا النظرية الوظيفية، كما جاء ذلك فى تحليلات "كونت" و"سبنسر" و"فيبر" والذين تدرج كتاباتهم تحت إطار النظرية السوسولوجية البنائية الوظيفية الكلاسيكية، والنس لاتزال تثرى تطور النظرية السوسولوجية المعاصرة، بكثير من الأفكار والتصورات والقضايا، التى تعزز عموماً من أهمية علم الاجتماع ومكانته بين العلوم الطبيعية والاجتماعية. خاصة، وأن أنصار النظرية السوسولوجية الوظيفية التقليدية، قد ركزوا على أهمية تطويرها والاستعانة بالمناهج الكمية والكيفية المختلفة، واستخدم الملاحظة والتجربة والمقارنة والتحليل التاريخى، عند دراسة الظواهر والبناءات والنظم الاجتماعية وتحليلها على أسس موضوعية وواقعية.

ويتضح ذلك، من خلال تحليلنا لاسهامات "دور كايم" فى النظرية السوسولوجية، ومحاولته لتصنيف الدراسات الاجتماعية فى ثلاث أقسام رئيسية وهى:

أولاً: المورفولوجيا الاجتماعية Social Morphology، وتشمل هذا النوع من الدراسات (١) البيئة والجغرافية وعلاقتها بالنظم الاجتماعية، (٢) دراسة

السكان من حيث توزيعهم وكثافتهم على سطح الكرة الأرضية.

ثانياً: الوظائف الاجتماعية Social Phsyology، ويتضمن هذا النوع من الدراسات، تحليل النظم الاجتماعية مثل النظام العائلي أو الأسرى، والأخلاقي والديني، والقانوني، والاقتصادي، واللغوي، والسياسي، وغيرها.

ثالثاً: علم الاجتماع العام General Sociology، ويركز هذا القسم من الدراسات الاجتماعية على دراسة فلسفة العلم، وتحليل القوانين والنتائج العامة، والتي تنتج من دراسة الظواهر والقضايا والمشكلات الاجتماعية. كما يحاول "دور كايم"، أن يركز على هذا النوع من الدراسات أكثر لتعزيز عمليات التخصص العلمي، ولا سيما تحديده لأنماط المناهج وقواعدها المستخدمة في الدراسات الواقعية والنظرية السوسولوجية.

وفي إطار اهتمامنا بمعرفة اسهامات "دور كايم" في النظرية السوسولوجية، نشير حالياً وبصورة موجزة لأهم للنظم الاجتماعية والسياسية، التي اهتم بالفعل بدراستها وتحليلها وكيفية معالجتها في نطاق الإطار العام لنظريته المعروفة عن التضامن الاجتماعي والتي تميز تحليلات "دور كايم"، عن غيره من رواد علم الاجتماع التقليديين، الذين تتدرج تحليلاتهم عموماً تحت إطار النظرية البنائية الوظيفية الكلاسيكية. ولكن قبل الإشارة الى، أهم النظم الاجتماعية والسياسية، نود أن نوضح حقيقة هامة مؤداها: أن أفكار "دور كايم" حول هذه النظم الاجتماعية والسياسية، جاءت في مؤلفات كثيرة ومتنوعة ومن الصعب علينا حالياً أن نعرض لكل هذه التحليلات لاعتبارات مكانية من ناحية، ولإشارتنا لبعض هذه النظم في التحليلات السابقة لاسهامات "دور كايم" من ناحية أخرى. ولذا، منوضح أهم النظم الاجتماعية والسياسية، التي بلورها "دور كايم" بالفعل في صورة تحليله لمجموعة الظواهر والقضايا الاجتماعية والتي تعد جزء هاماً من اسهاماته في النظرية السوسولوجية.

#### ١ - النظام القانوني.

تجئ أهمية تحليلات "دور كايم" عن كتابه تقسيم العمل الاجتماعي الذي ظهر مع أواخر القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٩٣، والذي أشار فيه الى

تطور النظام العقابي والجزائي في المجتمع، من أهم الاسهامات السوسيولوجية المبكرة في مجال علم الاجتماع القانوني. فلقد حرص "دور كايم" على أن يبرز العلاقة بين أنماط القانون والأشكال الاجتماعية المختلفة، علاوة على أن اعتبار القانون ذاته يعتبر الرمز الأول والمعبر عن التضامن الآلي Mechanical Solidarity، والتضامن العضوي Organic Solidarity، والتمييز بينهما يجرى عن طريق مدى تأثير القانون، إذا كان عرفياً أو وضعياً في كل من المجتمعات البسيطة، والمجتمعات الحديثة المعقدة.

من هذا المنطلق، سعى "دور كايم" إلى تحديد معنى القانون بأنه القواعد الجزائية المنظمة للسلوك البشري، فالقانون في المجتمعات ذات الطابع الآلي، يلزمه نوع من الجزاءات الخاصة به، وما أطلق عليه، بالتحديد مصطلح القانون الرادع Repressive Law أما المجتمعات الحديثة والمعقدة والتي وصفها بالمجتمعات العضوية فيلزمها القانون التعويضي Restitutive Law. كما أن هناك صوراً متعددة للجزاءات المترتبة على تطبيق كل من القانون الرادع والقانون التعويضي، في كل من المجتمعات البسيطة التقليدية والمجتمعات الحديثة العضوية نجد أن الإعدام، والطرْد الإلزامي، وتطبيق القصاص الجسماني وغيرها من مظاهر الجزاءات التعويضية، تظهر في المجتمعات الأولى. أما الجزاءات التعويضية، فإنها تظهر في المجتمعات الحديثة، والتي تتمثل في صور شتى مثل معالجة الأضرار أو التعويض الملائم. وكل من هذه الجزاءات Sanctions بنوعها الرادع والتعويضية تستمد شرعيتها من العادات والتقاليد والأعراف، أو أيضاً من القوانين الوضعية المنظمة للحياة الاجتماعية.

ويرى بعض علماء الاجتماع القانوني من الجيل الثاني لرواد البنائية الوظيفية من أمثال "جورج جورفيتش" G. Gurvitch، إن تحليلات "دور كايم" عن القانون تجيء من خلال اهتمامه بدراسة الوحدات الكبرى، التي اتخذت من المجتمع كوحدة تحليلية عامة، كما تميزت التحليلات الوظيفية لمرحلة عصر الرواد الأوائل ككل. من ناحية أخرى، لقد حرص "دور كايم" على اتباع الأسلوب التاريخي المقارن في عرض أفكاره وتصورات، وهذا ما حدث

بالفعل فى تحليلاته لكل من تقسيم العمل، وعرضه لنظريته الوظيفية عن التضامن الاجتماعى، فوجد على سبيل المثال، أن "دور كايم" سعى لإثبات آرائه عن طريق دراسته لتاريخ القانون وتطوره ولاسيما عند ربطه بين أنماط الجزاءات وأنواع القوانين وطبيعة العقوبات، فالقوانين الرادعة ظهرت فى المجتمعات التقليدية، التى اعتمدت على الدين فى العصور القديمة والوسطى، وإن كانت فى الصور الوسطى قد بدأت تخف حدة القوانين وتطبيقها، وهذا ما ظهر خلال العصر الحديث حتى أصبحت القوانين مخففة أو تعويضية.

وكما يضيف "جرفيتش"، معلقاً على تحليلات "دور كايم" فى علم الاجتماع القانونى، خاصة عندما أشار الأخير الى دراسة أفكاره عن القانون وربطها بالدولة أو السلطة Authority، ونوعية هذه السلطة سواء أكانت مركزية لم غير مركزية أو نوعية العلاقة المتبادلة بين القانون أو النسق القانونى والنسق السياسى، تلك العلاقة التى لعبت دوراً كبيراً فى تحديد نوعية الجزاءات، والعقوبات أو أدت ككل الى تطوير القانون فى المجتمعات البشرية.

من ناحية أخرى، نجد أن "دور كايم" قد ربط بين تحليلاته الأولى فى علم الاجتماع القانونى، وكيفية تفسيره للقاعدة أو النسق القانونى وتميزه بين أنماط المجتمعات البشرية، والتى سعى فيها لتصنيف المجتمعات حسب نوعية القانون، وطبيعة الجزاءات، وأنماط التضامن الاجتماعى فى نفس الوقت، لقد حاول "دور كايم"، التمييز بين أربعة أنماط مختلفة من المجتمعات والتى عرضها فى فكرته عن المجتمع الشامل، ونماذجها المختلفة. فهناك أولاً، المجتمع البسيط المتعدد الأقسام، الذى يتكون من البطون Clans، وثانياً المجتمعات البسيطة التى تندمج فيها عدد من القبائل Tribals. وثالثاً، المجتمع البسيط متعدد الأقسام الذى قد يتكون من المدن Cities، أو من إتحادات أو مجموعة من القبائل. ثم رابعاً، المجتمع المنظم، الذى قد يتكون بدوره من الأنماط الثلاثة السابقة مجتمعة.

بالإضافة الى ذلك، لقد سعى "دور كايم" لأن يربط بين تكوين هذه المجتمعات، ونوعية الأنساق الدينية، والاقتصادية، والقانونية أيضاً. فلقد سيطرت الديانة التوتمية فى النوع الأول من المجتمعات، بينما ظهرت الديانة

القبلية فى النوع الثانى، فى حين نجد أن الدين القومى National Religion، كان موجهاً للنوع الثالث من المجتمعات. أما النوع الرابع والأخير فلقد ساد الدين القومى بصورة جزئية حتى أصبح الدين العام فى هذا النوع من المجتمعات. ونلاحظ، أن تصورات "دور كايم" السابقة حول المجتمع الشامل، ما هى إلا تطور فى طبيعة البناءات والأنماط الاجتماعية والاقتصادية والدينية والقانونية، والتي سعى فيها لعرض التطور الاجتماعى لأنماط المجتمعات البشرية ككل.

لكننا نلاحظ أيضاً، أن "دور كايم" أهتم بدراسة نوعية الوظيفة العامة للقانون فى المجتمعات البشرية، وكيف تطورت هذه الوظيفة فى صور شتى من المؤسسات القضائية Judicial Institutions، وأيضاً تحليله للمحاكم العليا Superme Courts، أو القضاة العليا Superme Judges، فى بعض المجتمعات البشرية وخاصة عندما درس بصورة تحليلية تاريخية وقانونية مقارنة لوظيفة العدالة الرادعة Repressive Justice فى كثير من المجتمعات القديمة والبسيطة، وهذا ما أشار إليه بوضوح فى كتابه تقسيم العمل فى المجتمع. فلقد سعى "دور كايم" لدراسة العلاقة بين القانون والجزاءات والشئون المدنية Civil Affaris فى المجتمع الرومانى القديم، والتي كان يهتم بها بعض القضاة المتخصصين، أو ما يطلق عليه بالباربيتر Praetor لما الشئون الجنائية Criminal Matters، فكان يتولاها مجموعة من رجال القضاة أو ما يطلق عليهم بلجنة أو هيئة الشيوخ الرومانية Curile Comites، والتي تحولت بعد ذلك لتحكم الشئون الاجرامية بواسطة القوائم الاثنى عشر The Law of the Twelve Tables، والتي كانت تستخدمها للجان المركزية Central Commities.

ثم ناقض "دور كايم"، طبيعة المحاكم والقوانين والتشريعات القضائية، التي ظهرت أيضاً فى المجتمعات اليونانية القديمة. فلقد حلل بوضوح نوعية التشريعات القضائية الموجودة فى أثينا، والتي كان يطلق عليها بتشريعات Legislation of solon وكانت جزءاً من التشريعات الجنائية Criminal Jurisdiction، وكانت تطبق على جميع المواطنين الذين يبلغون سن الثلاثين



بالإضافة الى ذلك، اهتم "دور كايم" بتحليل نوعية القوانين والتشريعات والمؤسسات القضائية التى كانت توجد فى المجتمعات أو الشعوب اللاتينية الألمانية German-Lation People. حيث ظهرت هيئات المحلفين Juries، ولعبت دوراً كبيراً فى الحياة القضائية فى هذه المجتمعات. كما ناقش أيضاً نوعية العلاقة بين هذه الهيئات القضائية والسلطة السياسية ودور الدولة بصورة خاصة، والى أى حد تميزت بعض الطبقات الاجتماعية عن غيرها من الطبقات الأخرى فى تطبيق الأحكام والجزاءات.

كما اهتم "دور كايم" بربط نوعية الجرائم، وخاصة عندما حرصت المجتمعات التقليدية على تطبيق الجزاءات الرادعة أو العقابية، والتى أدت بدورها الى زيادة أنماط التضامن الاجتماعى. خاصة، وأن القانون العقابى Penal Law، يهدف الى الاهتمام بالمصالح الجمعية، كما أنه نابع من الشعور الجمعى Collective Consciencs. أما القانون التعويضى أو ما أسماه بالقانون التعاونى Cooperative Law، فهو يعكس مرحلة من المجتمعات البشرية الحديثة والمعقدة، والتى سيطر فيها هذا النوع من القانون وتقوم به بعض المؤسسات، أطلق عليها "دور كايم" بالمؤسسات القانونية الإدارية Administrative Law Institutions والتى تظهر صور المحاكم القانونية الحديثة، التى ظهرت فى المجتمعات المعاصرة، وتتميز بانحرافها عن الحياة الجمعية وكسرها لطبيعة الحياة التضامنية.

علاوة على ذلك، ينتقد "دور كايم" بشدة نوعية القوانين التعويضية، التى ظهرت فى المجتمعات الحديثة، والتى جاءت كنتيجة طبيعية لزيادة أنماط وأنواع الجريمة، والخروج عن الحياة الجمعية التقليدية المألوفة كما فى المجتمعات السابقة. كما يفسر زيادة معدلات الجريمة بأنه ما هو إلا مظهراً معبراً للخروج على العادات والتقاليد، والحياة التضامنية التى تكثر مظاهرها فى المجتمع الحديث. كما فند "دور كايم" النظريات والنزعات الحديثة، التى تحاول أن تخفف من أنماط العقوبة على الأفراد المجرمين، الذين خرجوا بدورهم عن الحياة الجمعية، واحترام الحياة التضامنية. إلا أنه يفسر أيضاً أن الخروج، ما هو إلا تعبير عن فقدان الشعور الجمعى أو الروح الجمعية



Collective Soul، والعمل على حماية المجتمع بقدر الإمكان من الخارجين عليه وعلى الشعور الجمعى أو من فقدوا الإحساس الجمعى بالمرّة.

حقيقة، إن المتعمق فى كتابات "دور كايم" وخاصة ما عرضه فى كتابه الشهير تقسيم العمل فى المجتمع، نجد الكثير من اسهامات هذا العالم الوظيفى، خاصة تصوراتّه عن تعبير القانون، وتطوره، وعلاقة النسق القانونى بالأنساق الاجتماعية الأخرى مثل الأنساق الاقتصادية، والدينية والسياسية، كما تكشف التحليلات السوسيو- قانونية السابقة عن المحاكم، والهيئات القضائية والنظام القضائى فى بعض المجتمعات البشرية القديمة والعصور الوسطى، عن مدى اهتمام "دور كايم" فى تحليلاته بأهمية القانون والعقاب، وخاصة أنه من أنصار حماية المجتمع من الأفراد وهذا ما أكد عليه فى أهمية التضامن الاجتماعى. وهذا ما نلاحظه بوضوح فى كتاباته، والتي كان لها الفضل الأول فى تطوير المذاهب القانونية الحديثة مثل مذهب التضامن الاجتماعى وأفكار الفقيه الفرنسى "ليون دوجى L. Duguit".

نضيف الى ذلك، إن تحليلات "دور كايم" عن التضامن الاجتماعى، وطبيعة القانون، ونوعية للجزاءات العقابية الرادعة أو التعويضية كانت لها الفضل الأول فى ظهور مذهب الدفاع الاجتماعى الجديد La Defence Sociale Nouvelle على يد المستشار القانونى "مارك أنسل" M. Ancel، خلال النصف الأخير من القرن العشرين. والذي عبر بوضوح عن إحياء فكرة حماية المجتمع من الأفراد وخاصة للخارجين عليه من المجرمين، والتي عبر عنها "دور كايم" صراحة فى تصوراتّه السابقة على التضامن الاجتماعى والشعور الجمعى، وكيفية اضمحلال هذه الفكرة فى المجتمعات المدنية نتيجة لإضمحلال نوعية للقانون وجزاءاته بصورة أساسية. وبإيجاز، يمكن القول، إن آراء "أنسل" ومذهبه للدفاع الاجتماعى ما هى إلا إحياء لفكرة "دور كايم" السابقة، ورداً على أفكار المدرسة الإيطالية فى علم الاجرام، والتي ترأسها "لامبروزو"، والتي خصصت كثيراً من نظريات الدفاع عن المجتمع، وسعت لتطوير قوانين حماية المجرمين من المجتمع ذاته.

وقبل أن نختم آراء واسهامات "دور كايم" فى علم الاجتماع القانونى

وتحديثه للنظريات السوسيولوجية فى مجالات علم الاجتماع المختلفة، يجب أن نوضح أيضاً أن تحليلات هذا العالم تكشف الكثير من إهتماماته فى هذا المجال، والتي نلاحظها بوضوح فى كتاباته خاصة من تطور الجماعات الثانوية Secondary Groups أو تحليلاته المميزة عن الجماعات المهنية أو الإتحادات العمالية. وخاصة محاولته لتطوير تصوراته عن التضامن الاجتماعى، وتفسيره للتطور المستمر للقانون، والسلوك الفردى والحياة الجمعية ككل. فلقد سعى "دور كايم"، ليحدد نسق العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، والجماعات المهنية، والسلطة السياسية، خاصة بعد أن تقلصت دور الجماعات الأولية (الأسرة)، وتعددت إنتماءات الأفراد إحلالهم حسب نوعية المهنة التى يعملون بها فى صور شتى من النقابات، التى اعتبرها "دور كايم" بمثابة صمامات أمن قانونية، تحمى كل من الأفراد، والدولة فى نفس الوقت.

## ٢ - النظام التربوى.

فى الواقع، جاء نسبة كبيرة من تصورات "دور كايم" فى علم اجتماع التربية فى كتابه المميز عن "التربية وعلم الاجتماع"، Education and Sociology الذى نشر عام ١٩٠٦، وتصور فيه أن التربية شئ اجتماعى Social Thing، وأنها تغير المجتمع ككل، كما أنها تعد بمثابة للوسط الاجتماعى Social milieu، والذى يحدد الأفكار والمثل والقيم، كما أن المجتمع لا يستطيع أن يبقى إلا عندما يحدث نوع من التماسك الكاف، ويعتبر التربية هى الوسيلة التى تعزز بقاءه وجوده. كما أنها (التربية) تعتبر جزء أساسى من عناصر ومتطلبات للحياة الجمعية Collective life Demands. ومن ناحية أخرى- كما يتصور "دور كايم"- أنه بدون التنوع والتعاون لا يمكن تحقيق الحياة الجمعية، ولكن عن طريق التربية يمكن السعى لإحداث التنوع والتخصص المطلوب للحياة الاجتماعية (الجمعية).

كما سعى "دور كايم" ليحدد مفهوم التربية، أو ماذا يقصد بعملية التربية Education Process؟ فنجد أنه يشير إليها بأنها التأثير الذى يمارس بواسطة الأجيال الراشدة على الأجيال الصغيرة الذين لم يتأهلوا بعد لمرحلة الحياة الاجتماعية. علاوة على أنها (التربية) تهدف الى نشأة وتطوير الأطفال فيزيقياً

وفكرياً، وأخلاقياً، وتعد مطلباً أساسياً الى المجتمع السياسى ككل. كما أنها تعد الوسط الخاص الذى يحدد كل شئ بالنسبة للأفراد الناشئين. ومن ثم نلاحظ، أن "دور كايم" يستخدم مفهوم التأثير أو النموذ الذى تقوم به التربية فى المجتمع، أو بالتحديد، أن "دور كايم" سعى ليوضح لنا الوظيفة الاجتماعية لعملية التربية. خاصة، وأن التربية هى التى تعد الأطفال وخاصة الناشئين الى مرحلة الحياة الاجتماعية، ويقصد بالتربية أنها تعنى مجموعة القيم والعادات والتقاليد والمعايير التى تحدد نوعية الحياة الاجتماعية. خاصة وأن هذه الحياة لا يمكن تحقيقها أو ظهورها بدون الحياة الاجتماعية المشتركة بين الأفراد والجماعات.

كما تعد قضية التنشئة Socialization إحدى القضايا الهامة التى أوضحها بعد عرضه لقضية التربية من ناحية المعنى والمفهوم وعلاقتها بالحياة الاجتماعية للأفراد والمجتمع ككل. فالتنشئة تعتبر جزء أساسى من عملية التربية ذاتها التى تؤهل الأطفال أو الصغار على اكتساب العادات، و التقاليد، والسلوكيات، ونسق القيم والمعايير من الأجيال الرشيدة (أو الكبار) ومن خلال الأسرة أو المؤسسات الاجتماعية الأخرى. كما أنها (التنشئة الاجتماعية) تسهم فى استمرارية وجود المجتمع والحياة الجمعية وبقائها، كما تعمل على توفير درجة كافية من التجانس Homogeneity بين الأفراد والجماعات التى تكون المجتمع ذاته. هذا بالإضافة الى أن التنشئة الاجتماعية تتم من خلال عملية التربية، وتؤدى الى التنوع، والتجانس، والتفاعل والتعاون بين الأفراد والجماعات من أجل تحقيق مكونات التضامن الاجتماعى Social Solidarity بين الأفراد والجماعات وتحقيق الوظائف والأهداف إضافة للنظم والمؤسسات الاجتماعية المختلفة.

هكذا، يمكن أن نلاحظ من خلال تصور "دور كايم" لكل من قضيتى التربية، والتنشئة الاجتماعية، أنهما تركزا على تحقيق وحدة أو وجود المجتمع ككل Society Whole، كما أنهما تعملان على خلق نوع من التنوع والتخصص والمماثلة والانسجام والتكامل وأيضاً التضامن الاجتماعى. كما نجد أيضاً، أن "دور كايم" سعى لربط هذه الأفكار فى إطار نظريته الشهيرة عن

التضامن الاجتماعي Social Solidarity، التي تعد لب وجوهر تصوّراته في علم الاجتماع وعلم اجتماع التربية أو نظريته العامة عن الأخلاق الاجتماعية Social Moral. وهذا ما يظهر بوضوح، من خلال تحليلاته للتربية والنظام التعليمي وأهداف عملية التنشئة الاجتماعية ككل، كما جاءت تحليلات "دور كايم" أيضاً لتؤكد على أهمية المدخل السوسيولوجي في دراسة هذه القضايا، ولاسيما أنه سعى لتحديد نوعية الوظيفة التي تقوم بها التربية والتنشئة الاجتماعية سواء بالنسبة للأفراد والجماعات أو المؤسسات أو المجتمع ككل، وهذا ما يتسم عموماً بالنظرة الشاملة لقضية التربية وربطها في السياق المجتمعي ككل.

أما من ناحية القضايا التربوية ذات الوحدات الميكروسكوبية التحليلية الصغرى التي اهتم بها "دور كايم" وهي ما يعرف بموسولوجيا المنهج Sociology of Pedagogue، والتي ظهرت في كتابه "تطور المنهج في فرنسا" Sociology of Pedagogue en France والتي تبرز بوضوح إسهامات هذا العالم في مجال علم اجتماع التربية الجديد على وجه الخصوص. حيث اهتم "دور كايم" بدراسة مشكلات التربية والتعليم في فرنسا ولاسيما قضية المنهج، ونوعية المقررات الدراسية التي تعطى للتلاميذ والطلاب سواء في المدارس أو الجامعات. وعالج "دور كايم" من خلال اهتماماته بتحليل نوعية العلاقة المتبادلة بين المدرسة والمجتمع والمقررات والتلاميذ، ونوعية المكاسب الفردية التي يحصل عليها التلاميذ من خلال دراسة المقررات والمناهج الدراسية، وما هي نوعية الاستفادة بالنسبة للمجتمع من دراسة التلاميذ أو الطلاب لمقررات معينة. ولقد ساعد "دور كايم" على هذا التحليل السوسيولوجي المميز النادر أنه استطاع استخدام في الواقع المدخل التحليلي المقارن Comparative Analysis Approach ليتناول تاريخ التعليم في فرنسا، ونوعية المقررات التي ظهرت خلال فترة العصر الحديث، ومقارنته بالفترات التاريخية الوسطى.

وفي إطار اهتمامنا بدراسة قضية موسولوجيا المناهج والمقررات الدراسية، واستخدمه للمدخل التحليلي المقارن لدراسة تاريخ التعليم الفرنسي،

حرص أيضاً على دراسة أنماط ومناهج ومقررات التدريس في ألمانيا خلال نفس الفترة. واستطاع على سبيل المثال، أن يحلل العديد من المواد الدراسية مثل تدريس اللغة اللاتينية، والمواد الاجتماعية القديمة ومنها التاريخ. ووجد على سبيل المثال، أن دراسة التلاميذ لمادة التاريخ في ألمانيا تتفوق من حيث مهمته والوظيفة الفعلية أو الغاية المنشودة لها، بالمقارنة بتدريس مادة التاريخ في فرنسا. ولاسيما، أن مقررات التاريخ في ألمانيا تهتم بإبراز دور القادة والعظماء وإبطال ألمانيا، مما يحفز التلاميذ الألمان على الاعتزاز بقادتهم وبوطنهم وبأمجاد أبطالهم العظماء. وهذا ما أكد عليه "دور كايم" وبضرورة إعادة صياغة مقررات التاريخ في فرنسا للتأكيد على أهمية إعطاء التلاميذ جرعة كبيرة من دراسة أبطالهم وقادتهم الذين أسهموا في قيام الدولة الفرنسية، حتى يمكن تحقيق الدافع من المنهج أو مقررات التاريخ وهو الاعتزاز بالوطن وحبهم لأبطالهم وقادتهم وزيادة مقومات وعناصر الولاء والانتماء لديهم.

من ثم، نجد أن "دور كايم" قد ركز على قضايا تربوية هامة مثل قضية المنهج Curriculums تلك القضية التي شغلت اهتمام العديد من المهتمين بسوسيولوجيا التربية في الوقت الراهن. أو ما يظهر حديثاً في إطار سوسيولوجيا المنهج، وسوسيولوجيا التدريس، وتحليل نظم للتربية المقارنة ووجع ذلك من تخصصات فرعية متعددة. في نفس الوقت، قد ناقش "دور كايم" العلاقة المتبادلة بين تحديد المناهج والمقررات الدراسية، وطبيعة التخصص، وتقسيم العمل ولاسيما أنه ناقش القضايا الفرعية المرتبطة بقضية التربية، وكيفية انتقال المجتمعات من الطابع التقليدي إلى المجتمعات الحديثة، والتي تتم تكوينها ونشأتها عن طريق التخصص وزيادة الاهتمام بالعلم، وظهور المؤسسات الاجتماعية وخاصة مؤسسات التنشئة الاجتماعية والتربوية.

### ٣- النظام السياسي.

تكشف تحليلات "دور كايم" في النظرية السوسيولوجية عن اهتمامه بتحليل النظام السياسي ودور الدولة في المجتمع وعلاقتها بالأفراد والجماعات، باعتبار أن الدولة هي التنظيم الرسمي الأكبر التي تؤثر بصورة مباشرة وغير مباشرة في نمط الحياة العامة داخل المجتمع. ولقد ركز دور

كايم" اهتمامه وحرصه الشديد بضرورة زوال التقسيم الطبقي في المجتمع ولكن هذا لا يمكن أن يتم عن طريق الثورة الطبقيّة طبقاً للمفهوم الماركسي. ورأى أن أحد العوامل الهامة التي تؤثر على زيادة وحدة الصراع الطبقي في المجتمع هي حقوق ميراث الثروة والملكية التي تؤدي بالضرورة الى تكديس الثروة والسيطرة عليها بواسطة مجموعة قليلة من الأفراد أو طبقة معينة في المجتمع. ولقد أكد "دور كايم" على ضرورة تبني برامج شاملة للرعاية الاجتماعية The Welfare Programmes وغيرها من الإجراءات الأخرى الكفيلة بخفيف ظروف الحياة المادية والاجتماعية لطبقة الفقراء، ويتم ذلك عن طريق إعادة تنظيم الاقتصاد، ولا يمكن أن يتم ذلك بواسطة وضع الاقتصاد تحت سيطرة الدولة بمفردها.

ويتصور "دور كايم" أن كلاً من تطبيق النظام الاشتراكي أو النظام السياسي الأرثوذكسي، لم يتلائما مع طبيعة المشاكل والأزمات التي تواجه المجتمع الصناعي الحديث، فلقد جاءت كثير من محاولات حل هذه المشاكل بعيدة كل البعد عن فهم الواقع الاجتماعي الذي تطبق فيه كل من نظرياتهم المنفصلة عن هذا الواقع. فالسبب يرجع بالضرورة الى تركيزهما على العوامل الاقتصادية فقط دون العوامل الاجتماعية. ومن ناحية أخرى، أن تصورهما (الإشتراكية والنظام الاقتصادي الحر) يتركز على تقديم الحلول الملائمة للمشاكل المجتمعية وذلك عن طريق تقليص دور الدولة الى أدنى الدرجات. فعلى سبيل المثال- يرى علماء الاقتصاد الحر أن تطبيق فكرة السوق الحر يجب أن تعطى له الأولوية في سياسة الإصلاح مع ضرورة تقييد حدود الدولة وسلطاتها الى أبعد الحدود، بينما يرى الإشتراكيون، ضرورة تقييد حدود الدولة (أو الحكومة) من أجل التحكم في السوق عن طريق مركزية السيطرة على الإنتاج. على أية حال، أن كل منهما ينكر أهمية وجود العوامل الاجتماعية التي تسهم في حل كثير من مشاكل المجتمع بالإضافة الى العوامل الاقتصادية التي لا يمكن أن تعتبر الطريق الوحيد لعلاج هذه المشاكل.

إن تحليل "دور كايم" للعلاقة بين الفرد والدولة، وطبيعة الإنحراف والإنحلال في جميع العلاقات الاجتماعية والخلاقية تعكس بالطبع مدى

الإنهيار الأخلاقي، والاجتماعي، والسياسي في المجتمع الحديث. وتؤكد على عدم ملاءمة التنظيمات التقليدية لحاجات ومشاكل المجتمع الحديث، ويلزم لمواجهة هذه المشاكل ضرورة خلق وبناء تنظيمات جديد تساعد على تقوية العلاقة بين الفرد والدولة من ناحية، وزيادة روح التضامن الاجتماعي الذي ينتج عن تقوية روح الانتماء الفردي الى الجماعة، أو التنظيم الذي ينتمي إليه من ناحية أخرى. ولقد عبر "دور كايم" عن حقيقة العلاقة بين الفرد والتنظيم على أنها علاقة تعاقدية نفعية متبادلية، ورأى ضرورة تنظيم هذه العلاقة عن طريق إنشاء الاتحادات والجماعات أو التنظيمات القانونية Secondary Associations التي من شأنها أن تنظم العلاقة بين الفرد والدولة وتزيد من قواعد الضبط والمعايير وحرصاً على تحقيق الحريات والحقوق الطبيعية للأفراد في المجتمع.

وعلى أية حال، إن "دور كايم" أراد أن يعبر عن حقيقة وجود التفتك والانحلال الأخلاقي والاجتماعي في المجتمع الذي يعتبر نتيجة طبيعية للفراغ التنظيمي The Oeganizational Vocation في الفترة التي عاصرها "دور كايم" بنفسه في المجتمع الغربي، هذا الفراغ الذي يعبر عن فقدان روح التضامن أو الشعور الجمعي والانتماء للتنظيم الاجتماعي القائم. وإن كان "دور كايم" يؤكد على أن هناك كثيراً من العوامل التي ساعدت على ذلك أيضاً بالإضافة الى ضعف القواعد المعيارية والنظامية مثل زيادة تقسيم العمل، وزيادة السكان والحركات الاجتماعية السريعة مثل الهجرة، والحراك الاجتماعي وغيرها.

وتظهر أهمية كتابات "دور كايم" للدولة والتنظيمات الاجتماعية بصفة عامة، عند مناقشته لفكرة المشاركة السياسية The Political Participation في الدولة الديمقراطية The Democratic State والتطورات التي حدثت على طبيعة التنظيمات السياسية، والاقتصادية والدينية، والنظامية. فلقد وضع "دور كايم" فكرة سياسية Political عند محاولته للتمييز بين الحكومة والمحكومين، تلك المحاولة التي حاول عن طريقها دراسة التطور الذي حدث على السلطة الإدارية The Administrative Authority في المجتمعات



البسيطة، حيث كانت تقوم حسب طبيعة البناء الاجتماعى الموجود والقائم على نسق القرابة Kinship system ولم تكن توجد السلطة الإدارية المختصة حسب معايير التنظيم السياسى الحديث، فكانت قائمة على أسس السلطة الأبوية و مجلس كبار السن، ومن ثم لم يكن موجوداً المجتمع السياسى الحقيقى كما تشير مفاهيم العصر الحديث.

ومن أهم التحليلات التى تناولت آراء "دور كايم" حول الدولة خصائصها هى تحليلات "روبرت نسبت" R. Nisbt ، حيث يشير الى رأى "دور كايم" وتحليله لفكرة مفهوم السلطة Authority والذى يظهر فى كتاباته ونظريته عن المجتمع ككل. تلك الفكرة التى تعتبر أساس علم الاجتماع، ذلك العلم الذى يدرس المجتمع عامة. ونجد على سبيل المثال، كثيراً من أفكار "دور كايم" تشير الى مضمون السلطة ووظيفتها مثل تصوراته حول التضامن الاجتماعى، وعن القواعد المعيارية والأخلاقية التى لاجود لها إلا عن طريق توافق نسق مميز للسلطة والسيطرة على العقل الفردى وسلوكه فى المجتمع. ومن ثم ترتبط فكرة السلطة عند "دور كايم" باهتمامه بتحليل العلاقة بين النظام Discipline، والشخصية Personality - وعلى حد تعبير "دور كايم" وتصوراته - إن فائدة النظام تظهر فقط عن طريق اهتمامه بالشخصية والسلوك الفردى ونتائجهما فى المجتمع.

ومن ثم تظهر تحليلات "دور كايم" للسلطة والتى تشكل جزءاً كبيراً من فكره السياسى، والتى لايمكن تحديدها فقط عن طريق تحليله سواء لكل من القانون The Law أو الدولة The State، تلك الأخيرة التى ميز بينها وبين المجتمع The Society جيداً، ذلك التمييز الذى يشاركه فيه كثير من علماء السياسة الذين اهتموا بحكم الأغلبية. بل تظهر تحليلاته عن حقيقة هامة مؤداها: أن العلاقة بين السلطة والمكانة السياسية علاقة قوية وذات مدلولات مشتركة، فالسلطة تكمن فى حقيقة وجود القيم الأخلاقية. ويعتبر مفهوم الشرعية، من المفاهيم الهامة التى تساعد على تحليل ومعرفة وجود حقيقة السلطة وشرعيتها التى تستمد من الجماعة أو المجتمع، هذه الشرعية التى توضح طبيعتها العادات والتقاليد، والقواعد والمعايير الأخلاقية واحترام الأغلبية لها.



وفى كتابه عن تقسيم العمل فى المجتمع" يعرض دور كايم تحليل رائع يوضح فيه مفهوم الدولة الحديثة، ووظائفها المختلفة، مع عقد مقارنة هامة بين وجهة نظره ورأى "هربرت سبنسر"، عن الدولة وما أسماه بالسلطة أو النسق النظامى، والذى واجهه برفض شديد من "دور كايم" لأن آراء "سبنسر" ومعالجته لموضوع السلطة والدولة يقوم فى كثير من جوانبه على فكرة المعاملة البيولوجية تلك الفكرة التى سيطرت على أعمال "سبنسر". حيث يشير "دور كايم" الى أن الدولة لها سلطات متعددة مثل السلطة الإدارية Administrative، والتشريعية Legislative، والقضائية Juridical، تلك السلطات التى تقوم عن طريق الأجهزة التنظيمية للدولة والتى تودى وظائفها المختلفة، والتى يتحدد فيها نمط العلاقة بين الفرد والدولة، وأشكال العقاب والجزاء.

موجز القول، أن آراء "دور كايم" توضح نزعه الليبرالية السياسية ذات الطابع المحافظ حول تحليلاته للدولة، ووظائف السلطة، تلك التحليلات التى تظهر من شأيا كتاباته عموماً حول المجتمع وفكرته عن التضامن الاجتماعى، وضرورة إحترام النظام الأخلاقى والاجتماعى الموجود. ولقد عكست اهتماماته حول فكرة الديمقراطية والحرية مدى حرصه الشديد على وجود علاقة التوازن بين الفرد والدولة تلك العلاقة التى تظهر فى صورة تبادلية نفعية من أجل تحقيق الصالح العام للمجتمع، والحفاظ على الحريات الطبيعية للأفراد. ولقد برزت فكرته حول الجماعات الثانوية أو النقابات والإتحادات المهنية كبناءات تنظيمية أو صمام أمن وحائل وسيط للحرص على علاقات التوازن بين حقوق وواجبات كل من الأفراد والدولة والعلاقة التى تربط بينهما، والتى تعد من أهم التحليلات فى علم الاجتماع السياسى والتنظيمى والتى تبرز إسهاماته فى النظرية السوسولوجية ككل.

### مناقشة وتعقيب.

تكمن أهمية إسهامات "دور كايم" فى النظرية السوسولوجية خاصة وعلم الاجتماع عامة، لأنها أضفت أولاً على هذا العلم طابع الشرعية الأكاديمية. وأصطبغت تحليلاته بالأفكار العلمية وتناوله لكثير من المشكلات والقضايا الوظيفية، وهذا ما تمثل فى منهجيته الوضعية التى ركز عليها

"دوركاييم" عند تحديده لقواعد المنهج لعلم الاجتماع. وإن كان "دوركاييم" عزز النزعة الوضعية التى أرسى قواعدها "كونت"، إلا أنه وضع الجذور العلمية الأولى للاتجاه البنائى الوظيفى الذى حدد وبصورة مميزة، ما ينبغى أن تكون عليه عملية دراسة وتحليل الظواهر الاجتماعية، وكيفية معالجتها باعتبارها حقائق واقعية وملموسة. وتظهر لنا من خلال تحليلنا للتراث العلمى للنظرية السوسيولوجية التقليدية وكيفية تطويرها عن طريق أفكار "دوركاييم" بصورة عامة، والنظرية السوسيولوجية بصورة خاصة، والتى لم يتجاهلها أى باحث أو متخصص فى الوقت الراهن على الإطلاق. والسبب يرجع بالطبع، إلى أهمية الأثر العلمى والأكاديمى الذى أسهم به "دوركاييم" ونوعية الموضوعات والقضايا التى تناولها كعالم اجتماع متخصص وله أسلوبه العلمى والأكاديمى المتميز.

كما يستطيع الباحث أو القارئ المهتم بالنظرية السوسيولوجية حالياً، أن يتعرف بوضوح على نوعية الاتجاهات، وخاصة التى طرحها "دوركاييم" ذاته على مستوى معالجة الظواهر الاجتماعية، وكيفية دراستها ومعالجتها على المستويين النظرى والمنهجى والبحثى فى نفس الوقت. ومن ثم، يمكن القول، لقد أسهم "دوركاييم" بتحليلاته المميزة أن يضع له دراسة سوسيولوجية واضحة المعالم والأفكار، وهذا ما ظهر بالفعل فى العالم الغربى، ولاسيما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث ظهرت مجموعة من العلماء البارزين الذين تبنا نفس المنهج الدوركايمى، فى التحليل والدراسة وسعوا أيضاً لتبنى تصوراتهم وأفكاره العلمية والنظرية، ومن أهم هؤلاء العلماء "مارسيل موس" M.Mauss، و"جورج دافى" G.Davy، و"بول فوكنت" P.Fouccommet و"موريس هالفاتس" M. Halwachis و"روبرت ميرتون" R.Merton، وغيرهم آخرون من علماء النظرية السوسيولوجية المعاصرين فى الوقت الحاضر.

وبالرغم من أهمية الاسهام الدوركايمى فى النظرية السوسيولوجية - التى نشأت من تحليل تراث النظرى يبرز مجموعة من الانتقادات التى توجه إلى تحليلات "دوركاييم"، والتى نسعى حالياً لوضعها بصورة موجزة كما يلى:

١- رأى "لويس كوزر" L.Coser، أن الانتقاد الأول الذى وجه إلى "دوركهايم"، يرجع إلى نزعه المحافظة التى تتصف بها المدرسة السوسيولوجية التقليدية، وتركيز أفكارها حول طبيعة الحياة الاجتماعية ومشكلاتها الواقعية، ومحاولته الوصول إلى قوانين أو تعميمات يمكن أن تطبق على كافة المجتمعات أو دراسة الظواهر والقضايا والمشكلات الاجتماعية، دون الأخذ فى الاعتبار طبيعة المتغيرات التاريخية والاجتماعية المتغيرة.

٢- جاءت تحليلات "دوركهايم"، ولاسيما كتاباته حول الظاهرة الاجتماعية، والتركيز على دراستها من الجانب الاجتماعى فقط، أو التأكيد على التفسير السوسيولوجى عند دراسة الظواهر الاجتماعية، والعمل على تجنب التفسيرات السيكولوجية والاقتصادية والبيولوجية، يعتبر أمراً بجانبه الكثير من الصواب، والواقعية والموضوعية التى أكد عليها "دوركهايم" عند دراسته للظواهر والقضايا الاجتماعية، فبالرغم من تأكيدات السابقة، إلا أنه لم يفلح فى هذا على الإطلاق، وهذا ما ظهر فى تحليلاته على الانتحار على سبيل المثال.

٣- تكتف تحليلات "دوركهايم" بعض الغموض، ولاسيما فى تصورات حول التضامن الاجتماعى وخاصة فى المجتمعات التقليدية، حيث جعل من الفرد مجرد آلة تقوم بعملية التضامن الآلى، دون الإشارة إلى كيفية حدوث هذا التضامن الذى يتم بصورة تلقائية وجبرية، كما لم يشر على الإطلاق إلى طبيعة المصالح التى تربط الأفراد فى مجتمعاتهم وطبيعة رغبتهم فى الحياة والعيش داخل الجماعة، التى تغطى لهم كل حاجاتهم الأساسية وتقوم باسباعها بصورة مرضية. وهذا ما يعكس فى الوقت ذاته، طبيعة تناقض "دوركهايم" وخاصة عندما مجد المجتمع وجعله شبه آلة على الفرد، دون الأخذ فى الاعتبار كيفية تكوين المجتمعات أولاً من الأفراد والجماعات، كما لم تنشئ المجتمعات بصورة تلقائية أو عفوية ولكن برغبة الأفراد ذاتها فى العيش معاً.

٤- يتصور "ريمون أرون" R.Aron، أن معالجة "دوركهايم" للظواهر الاجتماعية واعتبارها من أسى أهداف علم الاجتماع ووظائفه، لم تحدد ماهية هذه المعالجات، هل هى وضعية لم برجماتية، أم نفعية؟. كما جاءت مبالغة "دوركهايم" فى وصفه دراسة الظواهر، كأنها أشياء خارجة عن الفرد، تصنف من تصورات المنهجية

التي تركز على الوصف والدراسة الكمية والوصفية فقط، دون التركيز على التحليلات الكيفية والتحليلية المقارنة. وهذا ما ينقد رؤية "دوركهايم" للمشكلات والظواهر والأحداث، التي توجد في صورة من التجانس والتكامل والتعاون، دون الإشارة إلى ما يكتنفها أيضاً من الصراع، والتغير، والثورة.

٥- أكد "دوركهايم" في إطار نزعه المحافظة على أهمية الضبط الاجتماعي، والتنشئة الاجتماعية والأخلاقية والنظام التربوي في حل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية. وهذا ما جاء أيضاً في تصورات حول الاشتراكية والشيوعية، وعلاقة الفرد بالدولة، حيث جاءت أفكاره متسمة بالطابع (اليوتوبى) كما رفض أيضاً فكرة الصراع، كأسلوب للتغيير والحل الجذرى للمشكلات، وأعتبره (الصراع) مجرد نوع من فقدان اللامعيارية (الأئوسى)، ومن ثم يجب أن يوظف الصراع كدافع للتغيير وليس محركاً أو قوة إلزامية لحدوث التغيير والإصلاح. وهذا ما أثر عموماً في النظرية البنائية الوظيفية السوسيولوجية المعاصر أيضاً، وبالأخص عند الجيل الثانى من رواد هذه النظرية.

على أية حال، إن تلك الانتقادات السابقة، والتي تم إيجازها، لا يمكن أن تقلل من أهمية إسهامات "دوركهايم" في النظرية السوسيولوجية أو في علم الاجتماع ككل. وخاصة، أن "دوركهايم" كان يهدف إلى أن يجعل من علم الاجتماع علماً لدراسة الظواهر، والنظم الاجتماعية في نفس الوقت. كما حرص كل الحرص على أن يحدد منهجية هذا العلم بصورة علمية متميزة، وهذا ما تمثل في القضايا المنهجية والبحثية، التي أثارها وخاصة تركيزه على الملاحظة، والتجريب، والتحليل المقارن. وضرورة أن يتبنى الباحث الموضوعية ودراسة الظواهر بصورة واقعية وملموسة، واعتبارها حقائق قائمة بذاتها. علاوة على ذلك لقد طرح "دوركهايم" أفكاره في إطار نظريته عن التضامن الاجتماعي، التي كانت تهدف أساساً للمحافظة على النظام والبناءات الاجتماعية والاهتمام بالقيم، والتربية، والأخلاق، وجعلها وسيلة للضبط الاجتماعي، الذي يجب أن يمثل له الأفراد أو الجماعات من أجل المحافظة على المجتمع، واستمراره وتماسكه، تلك الفكرة التي لازمت جميع رواد النظرية البنائية الوظيفية التقليدية.

## أهم المراجع المستخدمة:

### أولاً: المراجع العربية:

١. اميل دور كايم، قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ترجمة : محمود قاسم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٠.
٢. جراهام كينلوش، النظرية السوسولوجية، ترجمة سعيد فرح، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠.
٣. سمير نعيم، النظرية فى علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة سعيد رافت، ١٩٧٧.
٤. السيد بدوى، أرمان كوفلية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦١.
٥. عبدالباسط عبدالمعطى، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥.
٦. عبدالله عبدالرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.
٧. عبدالله عبدالرحمن، علم اجتماع التنظيم، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨.
٨. محمد على محمد، تاريخ الفكر الاجتماعى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣.
- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، ترجمة : محمود عودة وآخرون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Aron, R, Main Currents in Sociological Thought vol (2) N.Y:1976.
2. Baldridge, J, Sociology, N.Y: J.Wiley. 1975.
3. Bottomore, T& R.Nisbet. (ed s), History of Sociological Analysis, London: 1978.
4. Collins, R, Four Sociological Traditions N.Y: Oxford Univ. 1994.
5. Connell, R, Why Is Classical Theory Classical, American J.of Sociology, vo.102 N.Y 6 May 1997.
6. Coser, L. Masters of Sociological Thought, N.Y, 1977.
7. Fletsher, R. The Macking of Sociology, vol. (2),London: 1972.
8. Giddens, A, Sociology, Cambridge, Policy Press, 1989.
9. Giddens, A,Capitalism and Modern Social Theory London, Combridge univ Press, 1981.
- 10.Haralambos, M, Sociology, Slough, 1980.
- 11.Johnson, P, Sociological Theory, N.Y, 1990.
- 12.Rebertson, T, Sociology ,N.Y: Worth, 1987.
- 13.Thio, A, Sociology, N.Y: Harber & Row,1992.
- 14.Thompson, E, Durkeim, Chichester, 1982.
- 15.Turn J., Classical Sociological Theory, Chicago, 1993.
- 16.Wolff,K, (ed) Emile Durkheim, Columbus, 1960.

### الباب الثالث

النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية (الوظيفية المبكرة)

الفصل السابع: "ماكس فيبر" ونظرية الفعل الاجتماعي.

الفصل الثامن: "جورج سيمل" ونظرية التفاعل الاجتماعي.

الفصل التاسع: "فلفريد باريتو" ونظرية التوازن الاجتماعي.





## الفصل السابع

### "ماكس فيبر" ونظرية الفعل الاجتماعي

تمهيد:

- (١) الاتجاه الأيديولوجي والفكري.
  - (٢) مقولة الفهم والمنهج العلمي.
  - (٣) علم الاجتماع ودراسة الفعل الاجتماعي.
  - (٤) البيروقراطية والعقلانية.
  - (٥) الأخلاق البروتستانتية ونشأة الرأسمالية.
  - (٦) قضية التغير والتنظيم الاجتماعي.
- مناقشة وتعليق.



## تمهيد:

توضح عملية تحليل التراث للنظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، أن هناك عدد من الرواد البارزين في علم الاجتماع، الذين أسهموا بصورة كبيرة في تطوير ليس فقط النظرية الاجتماعية، بل أيضاً المناهج وطرق البحث العلمى الاجتماعى التى تميز كتاباتهم وتحليلاتهم عن غيرهم من علماء الاجتماع بصورة عامة. وهذا ما ينطبق كلية على اسهامات "ماكس فيبر" M Weber، الذى تنسب اليه كتابات وتحليلات العديد من القواعد المنهجية والبحثية فى علم الاجتماع، وأيضاً أفكاره النظرية التى لا تزال تثرى تطور النظرية السوسيولوجية المعاصرة. ولاسيما، أن كتابات "فيبر" النظرية لم تأت من فراغ، بقدر ما عبرت عن المشكلات الواقعية والظواهر الاجتماعية التى عاصرها بالفعل، وحاول أن يختبرها بصورة مستمرة، وذلك عن طريق اجراء العديد من الدراسات والأبحاث الأمبيريقية (الميدانية)، التى عززت من طرق البحث العلمى من ناحية، وتطوير النظرية السوسيولوجية من ناحية أخرى.

وبدون شك، إن معظم كتابات علماء النظرية السوسيولوجية تعطى اهتماماً ملحوظاً الى اسهامات "ماكس فيبر"، وخاصة أن هذه للكتابات تعكس اهتمامات المدرسة الألمانية، التى يمتد فكرها الى بداية العصر الحديث، والتى اسهمت فى تطور الفكر الانسانى وأيديولوجياته وتصورات ومشكلاته وقضاياها فى الوقت الراهن. فهناك من يرى أن آراء "فيبر" السوسيولوجية والعلمية المتنوعة، قد اعطت دفعة قوية لتطوير علم الاجتماع وارساء قواعده المنهجية على أسس علمية وأكاديمية متخصصة، وعملت أيضاً على إثراء الفروع المختلفة لعلم الاجتماع، والتى لم تكن قد تبلورت كلية من خلال الاسهامات السوسيولوجية للمدرسة البريطانية عند "هربرت سبنسر" H. Spencer، أو المدرسة الفرنسية كما جاءت فى كتابات كل من "كونت" Comte، و"دور كايم" Durkheim. فلقد جاءت كتابات "فيبر" لتعلن صراحة عن النشأة العلمية الأكاديمية الأولى لبعض فروع علم الاجتماع المتخصصة، مثل علم الاجتماع الاقتصادى، والسياسى، والتربوى، والقانونى، والتنظيمى، والدينى، والعائلى،

والصناعي، والتاريخي، والمعرفي، وغير ذلك من فروع متخصصة، اهتم بها "فيبر" من خلال مجموعة متخصصة من الكتابات المتميزة ذات الطابع النظري، وأيضاً نتائج الدراسات الميدانية التي قام بإجرائها في المجتمع الألماني بصورة خاصة.

كما جاءت أفكار "فيبر" في النظرية السوسيولوجية خاصة، وعلم الاجتماع وقضايا ومشكلاته ومجالاته عامة، لتكون بمثابة رد فعل لكثير من التحليلات والكتابات السوسيولوجية والاجتماعية التي ظهرت خلال أواخر القرن التاسع عشر، والتي جاءت نسبة كبيرة منها في تحليلات المدرسة الألمانية، وخاصة التي تمثلت في أفكار "كارل ماركس" K. Marx، والتي حمنت الفكر الإنساني إلى مرحلة جديدة لم تشهدا المجتمعات البشرية من قبل. فلقد ركزت كتابات "فيبر" النظرية والمنهجية في علم الاجتماع على تحليل أفكار "ماركس" ونظريته المعروفة عن المادية التاريخية أو الجدلية، والتي لاتزال موضع اهتمام الكثير من المحللين للنظريات السوسيولوجية المعاصرة وكيفية تطورها خلال القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرين. وعلى أية حال، لقد جاءت إسهامات "فيبر" في النظرية السوسيولوجية كامتداد حقيقي لتطور النظريات البنائية الوظيفية في علم الاجتماع، والتي اهتم بها مجموعة من العلماء الأوروبيين التقليديين، الذين أشرنا إلى أهميتهم، كما جاءت في كتابات "كونت" الوضعية، و"دور كايم" عن التضامن الاجتماعي، و"سبنسر" عن الوضعية، وجميعها نظريات بنائية وظيفية تنتمي إلى النظرية البنائية الوظيفية التقليدية.

وانطلاقاً من اهتماماتنا الأساسية، نيتم حالياً بدراسة إسهامات "فيبر" في النظرية السوسيولوجية المعروفة التي تسمى بنظرية الفعل الاجتماعي Theory of Social Action، التي تنتمي إلى النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية (البنائية الوظيفية)، وخاصة أن المهتم بقضايا التنظيم في علم الاجتماع حتى الوقت الحاضر، يشهد اهتماماً ملحوظاً من جانب علماء النظرية السوسيولوجية المعاصرين الذين يبنوا نظرية الفعل الاجتماعي عند "فيبر"، محاولين تطوير هذه النظرية نظراً لأهميتها على المستويين النظري

والميداني، ودراسة الظواهر والقضايا والمشكلات المتعددة التي توجد في المجتمع المعاصر. على أية حال، سنعالج بصورة مختصرة، طبيعة اسهامات "فيبر" في النظرية السوسيولوجية من خلال تركيزها على الخطوط العامة والقضايا الجوهرية التي أثارها "فيبر" في كتاباته المتنوعة، التي يصعب علينا حالياً، أن نقوم بسردها كاملة، باعتبارها من الكتابات الموسوعية والشاملة في علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى، والتي لاتزال تثرى هذه العلوم، وفروعها المختلفة حتى الوقت الحاضر.

### (١) الاتجاه الأيديولوجي والفكري.

تعكس طبيعة الحياة الاجتماعية والأسرية لماكس فيبر "الكثير عن نوعية كتابات وأفكار هذا العالم، الذي ولد في إبريل عام ١٨٦٤ وتوفي عام ١٩٢٠، عاش معظم حياته في بلده الأصلي ألمانيا، ولكنه تنقل الى العديد من الدول الأوروبية والولايات المتحدة، ليتعرف بوضوح على طبيعة المشكلات والقضايا والموضوعات، التي تناولها بالفعل في كتاباته التي تعتبر من الكتابات السوسيولوجية المتميزة، وكانت حياته الأسرية الأولى مليئة بالأحداث، حيث ينتمي "فيبر" الى أسرة ميسورة من الطبقات المتوسطة العليا، حيث كان يعمل والده قاضياً ومستشاراً كبيراً في منطقة سالزبورج بألمانيا. أما والدته فتتنتمي الى أسرة كبيرة وغنية من الطبقات الأرستقراطية، وكان خاله المؤرخ الألماني المشهور، "هيرلمان بيماجرثين" H. Baumgarten. وجاء تطلع "فيبر" بالعمل السياسي من أهم الدوافع التي جعلته يتناول القضايا السياسية حيث كان يحلم أن يكون رجل سياسة مثل والده الذي كان عضواً بارزاً في الحزب القومي الليبرالي الألماني. كما كان "فيبر" صديقاً حميماً لكثير من رجال السياسة والدولة في ألمانيا، وقدم المشورة والنصح السياسي، لكثير منهم وخاصة في القضايا السياسية والاجتماعية التي انشغلت بها ألمانيا ولاسيما خلال عصر بسمارك.

كما جاءت مرحلة تنشئته العلمية والأكاديمية والمهنية لتعكس طبيعة البناء والاتجاه الفكري والأيديولوجي الذي اعتنقه "فيبر" خلال كتاباته وتحليلاته المتعددة. فخلال مرحلة التعليم والدراسة تعرف على الكثير من رجال السياسة

البارزين وعلماء التاريخ من أمثال "تروتشكى" Treitschke، و"سابيل" Sybel، و"ديلتى" Dilthey، و"موسن" Mommsen وغيرهم آخرون كما للتحق "قيبر" بأعرق الجامعات الألمانية وحصل على الدكتوراة عن موضوع "تاريخ الشركات التجارية فى العصور الوسطى"، حيث يعتبر هذا الموضوع مجرد انعكاس لاهتمامات "قيبر" المتنوعة فى مجالات هامة مثل الاقتصاد، والاجتماع، والسياسة، والتاريخ، ويترى بصورة عامة للكثير من التحليلات التى خططت بعد ذلك لنشأة الكثير من الفروع العلمية المتخصصة فى هذه العلوم بدون استثناء وهذا ما ظهر خلال اسهاماته لظهور علم الاجتماع التنظيمى، والسياسى، والاقتصادى. كما كانت كتاباته فى علم الاجتماع الدينى انعكاساً لنشأته الدينية المحافظة من ناحية، واهتمامه بدراسة الظواهر والأديان السماوية من ناحية أخرى.

فى نفس الوقت، جاءت حياة "قيبر" المهنية والأكاديمية لتعكس اهتماماته العلمية، حيث عمل "قيبر" فى مجال المحاماة لعد سنوات فمارس المهنة وكتب عن القانون، والمحاكم والقضاء والعدالة، وغير ذلك من التحليلات التى أثرت علماء الاجتماع القانونى وخاصة كتاباته التى تميزت عن غيره نظراً لاهتمامه بالطابع التحليلى المقارن، ودراساته المتعمقة، وهذا ما جاء فى تحليلاته للنظم القضائية عبر العصور التاريخية. كما عمل "قيبر" أيضاً فى الجامعات الألمانية -كأستاذ أكاديمياً- انشغل بقضايا التعليم عامة، والجامعى خاصة، وله مؤلفات مميزة فى مجال علم الاجتماع التربوى، وسوسيولوجيا التعليم العالى. حيث تناول فيبر بوضوح قضايا تربوية وجامعية لا تزال تشغل المهتمين بعلم الاجتماع، والتربية، والسياسة الاجتماعية، مثل الأخلاق المهنية والأكاديمية فى الجامعات والعلاقة المتبادلة بين الجامعة والمجتمع المحلى والقومى، وعلاقة الطلاب بالهيئة العلمية والأكاديمية، وما ينبغى أن تكون عليه وظيفة العمل الجامعى، والدور البنائى والوظيفى للجامعات كمؤسسات علمية وأكاديمية فى العصر الحديث.

من ناحية أخرى، تظهر قيمة اسهامات "قيبر" فى النظرية السوسيولوجية، ولاسيما أنه سعى لدراسة العديد من المشكلات والظواهر

الاقتصادية والاجتماعية التي عاصرها بالفعل، وخاصة المشكلات التي وجدت في المجتمع الألماني. حيث عهد الى "فيبر" من قبل الحكومة الألمانية للمشاركة في اللجان العلمية العليا التي تقوم بتقويم المشكلات والقضايا والمؤسسات والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وهذا ما جاء من خلال تأسيسه لمؤسسة السياسة الاجتماعية Social Policy، التي كانت تهتم بدراسة قضايا المجتمع الواقعية. واستطاع أن يجرى العديد من الدراسات الميدانية التي عالجت نتائجها بالفعل المشكلات الاقتصادية التي كانت تواجه المشروعات الصناعية والإنتاجية في ألمانيا مثل شركات النسيج والكتان، واهتم أيضاً بدراسة مشكلات العلاقة بين الملاك والمستأجرين في ألمانيا، وبعض المشكلات المرضية والسلوكية، مثل ظاهرة الإضراب أو التباطؤ في العمل، والإقبال على إقتناء السلع وقت الأزمات، وغير ذلك من الدراسات الميدانية، التي أثرت بدورها في النظرية السوسيولوجية التي كان يسعى "فيبر" لمعالجتها وتطويرها على المستوى المنهجي والبحثي الأميريقي.

ومن ثم، يمكن القول، أن كتابات "فيبر" جاءت انعكاساً للمناخ الاقتصادي والسياسي والظروف التاريخية التي كانت موجودة بالفعل في ألمانيا خاصة، وأوروبا عامة. وهذا ما جعله ينشغل بقضايا متعددة مثل دراسته لنشأة وتطور الرأسمالية الغربية، ونمو وظهور التنظيمات والمؤسسات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية في العديد من الدول الأوروبية مثل بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة أيضاً. هذا بالإضافة الى موطنه الأصلي ألمانيا، وهذا بالفعل ما أشار اليه أحد شراح "فيبر" البارزين وهو "روبرت بندكس". R. Bendix حيث أشار الى أن تحليلات "فيبر" وكتاباته تميزت بالكثير من الواقعية والمنهجية العلمية، كما كانت هذه الكتابات تهتم أيضاً بعملية الإصلاح أو التطوير والتحديث لواقع المجتمع الألماني السياسي والاقتصادي خاصة. وهذا ما جاء في محاولة "فيبر" لدراسة العديد من النظم والبناءات السياسية الألمانية ومحاولة خلق مناخ سياسي وفكري متميز، مع تحديده أيضاً للواقع الفعلي لهذا المناخ وخاصة الظروف التاريخية والثقافية عامة.

أما من الناحية الفكرية والأيدولوجية، فلقد تأثر "فيبر" بالكتابات

السياسية والاقتصادية والتاريخية التي كانت في ألمانيا، بصورة عامة. فنجد على سبيل المثال، في المدرسة الألمانية، كما جاءت في تحليلات كل من "كانط" Kant، و"هيجل" Hegel، ولاسيما تصوراتهما عن العلاقة بين المعرفة والعقل والفعل، أو ما يندرج عموماً تحت الإطار الأستمولوجي (المعرفي) للمدرسة الألمانية. كما جاءت تحليلاته أيضاً تتقاطع مع يد الكثير من القضايا ودراساتها وتحليلها، والموافقة والمعارضة للبعض منها، وهذا ما جاء في اهتماماته بكتابات "هيجل"، وخاصة كتاباته حول الدولة والمجتمع والسياسة والسلطة. في نفس الوقت لقد سعى "فيبر" للتعرف بوضوح على كتابات المدرسة النفعية الاقتصادية سواء في ألمانيا، أو غيرها من الدول الأوروبية. كما حرص على التعرف على كتابات القانون والإجرام، ولاسيما أن "فيبر" قد عمل على تحليلاته النظرية في هذه المجالات، عندما مارس العمل بالقانون والتدريس الجامعي كأستاذ للقانون في الجامعات الألمانية أو لشغله ثمانى سنوات كاملة بمهنة المحاماة.

بالإضافة الى ذلك، اهتم "فيبر" بتحليل الإطار العلمى والفكرى للنظريات العلمية والفلسفية والسياسية، وخاصة نظرية المادية التاريخية، كما جاءت في كتابات "ماركس"، و"انجلز" واتخذ منها "فيبر" موقفاً عدائياً وناقداً راديكالياً في معظم الوقت، ومحاولاً أن يفند الكثير من القضايا والأسس والمبادئ العامة التي تقوم عليها هذه النظرية. ولاسيما، كتابات "ماركس" حول الصراع الطبقي، والرأسمالية، والدين، والديموقراطية، والإشتراكية، والشيوعية، والإغتراب، والتغير والتحضر الاجتماعى وغيرها من الموضوعات التي أصقلت بالفعل الرؤى النظرية والأفكار التصورية التي انطلق منها "فيبر" بعد ذلك. وهذا ما جعل الكثير ينظر الى كتابات "فيبر" واعتباره "ماركس" البرجوازي، نظراً لأنه كان دائماً على نقيض آراء "ماركس" الشيوعية وتصوراته، التي جاءت الكثير منها بعيداً عن الواقعية. كما جاء ذلك في تحليلات "ماركس" لـ الرأسمالية وتطورها وـ الشيوعية وانتشارها، أو تصوراته حول الدين وأهميته في تفسير وتشكيل الظواهر الاجتماعية الأخرى.



من ناحية أخرى، لقد اتخذ "قيبر" موقفاً علمياً وتحليلياً من المذاهب والتيارات الفكرية والعلمية الأخرى، التي ظهرت في عصره، وخاصة النظريات التطورية التي طورت آراء "دارون" من الناحية الاجتماعية. وأيضاً النظريات التي تبنت مدخل الصراع ولاسيما عند معالجتها للأنماط المثالية، التي يقوم عليها الصراع البشري، وسعى للتعرف بوضوح على مدى واقعية هذه الأنماط ومحاولة إختبارها من الناحية العقلية. كما جاء ذلك في كتابات "قيبر" المنهجية المميزة، حول الاستخدام المنهجي السليم للأنماط المثالية. وهذا ما سنشير إليه لاحقاً، عند الإشارة إلى كتاباته حول مقولة الفهم والتفسير المسببي للظواهر الاجتماعية والمنهج العلمي ككل. على أية حال، إن الإطار النظري الموسيولوجي عند "قيبر"، كان محاطاً بنوعية من التيارات الفكرية، التي تم انتقادها مع الاستفادة في نفس الوقت من هذه البناءات وهي: أولاً التيار الراديكالي الذاتي والتيار النفعي التقليدي، وثانياً التيارات غير العلمية. ولقد شُرننا إلى بعض التيارات الأولى، أما التيارات لثانية (غير العلمية) فلقد انتقدها "قيبر" بشدة من خلال عرضه لمقولة الفهم والموضوعية والمنهج العلمي، الذي يجب أن يستخدم في الكتابات النظرية والعلمية الحديثة.

كما تكمن أهمية تحليلات "قيبر" في الإطار الأيديولوجي والفكري الذي تبناه بالفعل منذ البداية، حيث أعلن صراحة، لنقده لشديد للفكر الماركسي وتصوراته حول الصراع الطبقي، وأهمية الطبقة العمالية (البروليتاريا)، ونقده للنظام الرأسمالي الغربي أو البرجوازي بصورة عامة. فلقد اهتم "قيبر" بالدفاع عن البرجوازية الألمانية، التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من البرجوازية العالمية. وهذا ما تبلور في كتابات "قيبر" السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والتي كانت موجهاً عاماً للقائمين على وضع السياسات المجتمعية في ألمانيا خاصة وأوروبا عامة. ومن ثم يمكن القول، أن ساهمت "قيبر" في علم الاجتماع والسياسة والاقتصاد، تبلور في مجملها نظرية موسيولوجية أو مجتمعية عامة تنور فحواها إلى أهمية تحديد معالم النظام الرأسمالي البرجوازي ودفعه إلى تحقيق سياسات الإصلاح والتغيير والتحديث الشامل، مع مراعاة المصالح القومي العلم، وخلق نوع من الحياة الاجتماعية التي تنشد إلى الرفاهية بصورة مستمرة.

وهذا ما تمثل بالفعل فى آراء "قيبر" عن الرأسمالية كنظام اجتماعى وسياسى واقتصادى، يحترم الملكية الخاصة ويقوم بتحديد المبادئ والأسس والقواعد العامة، التى تحدد العلاقة المتبادلة بين الفرد والدولة والمجتمع، وتقوم أيضاً على ميكانيزمات السوق والمنافسة وتحسين وسائل الإنتاج وظروف العمل، والحياة والطبقات الاجتماعية. هذا بالإضافة الى، دفاع "قيبر" المستمر عن الرأسمالية، التى مجدها كثيراً وجعلها أفضل النظم الاجتماعية، التى ظهرت خلال مراحل تطور المجتمعات البشرية، كما جاء دفاع "قيبر" عن الرأسمالية، ولاسيما تحليلاته عن أسباب ظهورها وتطورها وخاصة فى أوروبا الغربية. وبالرغم من الانتقادات الكلاسيكية والحديثة، التى توجه الى كتابات "قيبر" فى هذا المجال، إلا أن وضوح الخط الفكرى والأيدىولوجى لنظريته السوسيولوجية، تجعل الكثير من المحللين للنظرية السوسيولوجية المعاصرة، يؤكدون على أن أفكار "قيبر" جاءت من منطلق رؤيته النظرية والواقعية، والتحليلات المستقبلية للرأسمالية، وخاصة عندما قارن "قيبر" بينها وبين النظم الاجتماعية المتصارعة، وخاصة النظام الإشتراكي والشيوعى، كما جاء ذلك فى إنتقاداته المستمرة للماركسيين وغيرها من النظم الاجتماعية الأخرى.

فلقد حرص "قيبر" على أن يوضح الإطار الفكرى والأيدىولوجى لنظريته السوسيولوجية المحافظة، التى رأت فى الرأسمالية قضية أساسية انشغل بها "قيبر" طيلة حياته، ومدافعاً عنها بكل قوة. فالرأسمالية لم تكن حسب تصورات "قيبر" نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً فحسب، بقدر ما كانت أيضاً نظاماً عقلانياً Rational، يقوم على أسس علمية، ويحترم العلم كأساس للتقدم والتطور والإصلاح البشرى والمجتمعى والبيئى فى نفس الوقت. فلقد حدد "قيبر" بوضوح أن الرأسمالية، كنظام اجتماعى وفكرى وأيدىولوجى، يخطط لتطور البشرية والانسان على سطح الأرض. كما أكد "قيبر" على ضرورة احترام الرأسمالية كنظام فكرى وأيدىولوجى، لأنه أفضل من النظم الاجتماعية التى تتبنى مدخل الثورة أو التغيير الجذرى فى المجتمع، أو سواء هذه النظم شيوعية متطرفة أو إشتراكية. ولقد انتقد "قيبر" هذه النظم عندما حلل نوعية المؤسسات والتنظيمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، التى توجد

فى المجتمعات الرأسمالية الإشتراكية والشيوعية، إلا أن "فيبر" فى نفس الوقت، كان حريصاً على إظهار مخاوفه من سيطرة التنظيمات الحديثة على الحرية الفردية والاجتماعية، وهذا ما سعالجه فى تحليلاته عن البيروقراطية فى إطار المسهاماتها للنظرية السوسيولوجية.

من ناحية أخرى، لقد بلور "فيبر" أفكاره الأيديولوجية والفكرية، ولم يتقبل كلية التيارات الأيديولوجية السائدة، دون أن يقوم بدراساتها وتحليلها، مستخدماً للكثير من المناهج العلمية المتميزة، التى ارتبطت أساساً بكتاباتة وتحليلاته. ولاسيما، أن "فيبر" كان بارعاً فى استخدام المناهج التحليلية المقارنة، فى دراسته للظواهر الاجتماعية التى عاصرها، أو لعديد من الأحداث والقضايا الاجتماعية التى تمتد جذورها عبر العصور التاريخية. ولذا، كما يرى الكثير من المحللين للنظرية السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة، أن الأساليب المنهجية والبحثية، عند "فيبر" ساعدته كثيراً فى بلورة أفكاره وتصويراته النظرية والفكرية، وجعلته دائماً يقف على أسس علمية ومنهجية متميزة. وهذا ما ظهر بوضوح فى اهتماماته بإجراء الدراسات الميدانية فى ألمانيا، ومناقشته للكثير من القضايا والتصورات النظرية والمنهجية. وهذا ماجاء على سبيل المثال فى دراسته عن المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية التى عاصرها بالفعل فى المجتمع الألماني، وساعدت كثيراً فى بلورة أفكاره النظرية والمنهجية فى نفس الوقت.

## (٢) مقولة الفهم والمنهج العلمى.

يصعب على دارسى النظرية السوسيولوجية سواء أكانت كلاسيكية أم معاصرة، أن يفصلوا فى تحليلاتهم لنوعية كتابات رواد علم الاجتماع وتمييزها بين كل من النظرية والمنهج، لأن هذا الفصل قد يؤدى بنتائج تحليلاتهم الى أفاق بعيدة كل البعد عن الواقع، الذى لا يؤدى فى النهاية الى تحقيق أهدافهم فى معرفة الأسس النظرية والبحثية والمنهجية التى أقام عليها العلماء أفكارهم ومناقشاتهم للقضايا والظواهر الاجتماعية التى وجهوا بالفعل نظرياتهم نحو دراستها وتحليلها فى الحياة الاجتماعية الواقعية. وهذا ما ينطبق على دراسة النظرية البنائية الوظيفية الكلاسيكية، والتى أشرنا الى تحليلات

عديد من روادها من أمثال "كونت"، و"سبنسر"، و"دور كايم"، وكما سنشير حالياً إلى أفكار "فيبر" التي تتصف بصورة منهجية مميزة، وإن كانت تماثل من الناحية المنهجية تحليلات بعض هؤلاء الرواد وخاصة كتابات "إميل دور كايم" إلى حد كبير.

ومن هذا المنطلق، نجد أيضاً أن الإطار الفكرى والأيدولوجى للنظرية السوسيولوجية، يرتبط إلى حد كبير بنوعية المناهج التي تستخدم فى دراستها وتحليلها. وهذا ما ظهر بوضوح من خلال كشفنا للنقاب عن مدى قبول أو رفض علماء النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، لنوعية المناهج وطرق الدراسة والتحليل التي كانت تستخدم بالفعل خلال عصرهم. فلقد لاحظنا بوضوح مدى رفض "كونت" Comte كثيراً من التحليلات الفلسفية الغيبية فى تفسير الواقع، وركز على أهمية التحليل الوضعى، أو مايسمى بالمذهب الوضعى فى تفسير الظواهر الاجتماعية. كما نجد أيضاً أن "سبنسر" Spencer أراد أن يرقى بمستوى النظرية العلمية والمنهج السوسيولوجى عن طريق عقد نوع من المماثلة البيولوجية، كأسلوب للتحليل والدراسة يجمع بين دراسة كل من الظواهر الطبيعية (البيولوجية) والاجتماعية فى نفس الوقت. وإقتراح ضرورة أن يطور علم الاجتماع مناهجه حتى يرقى بنظرياته وقدراته التحليلية والتفسيرية للظواهر الاجتماعية التي تقوم بها. أما "دور كايم" فلقد سعى بجدية بأن يجعل من دراسة الظاهرة الاجتماعية دراسة متميزة وبنوع من الموضوعية والبعد عن الذاتية، وتحليلها باعتبارها حقائق واقعية. وهذا ما حدده بالفعل فى قواعد المنهج لعلم الاجتماع، الذى يعد من أهم المؤلفات المنهجية الاجتماعية الكلاسيكية.

أما "فيبر" Weber، فبالرغم من تبنيه كثيراً من الأفكار السوسيولوجية النظرية والمنهجية، لدى رواد البنائية الوظيفية الاجتماعية، إلا أنه كان أكثر انفتاحاً على العلوم الطبيعية الاجتماعية الأخرى، ولم يأخذ منها موقفاً غذائياً، كما فعل "دور كايم" بعلم النفس على سبيل المثال، وأصبحت نقطة ضعف فى تحليلاته أو نوع من الإنتقادات التي وجهت إلى نظريته عن التضامن الاجتماعى. فلقد حرص "فيبر" على دراسة وتقييم كافة المناهج العلمية

التي تستخدم بواسطة العلوم الطبيعية والاجتماعية محاولاً أن يستفيد بالفعل من مدى ما حققته هذه العلوم من تقدم في دراسة الظواهر التي تقوم بدراستها وتحليلها. وهذا ما ينسب الى "فيبر" وتبنيه المدخل التحليلي المقارن، الذي ساعده الى حد كبير في الكشف عن دراسة الظواهر والمشكلات التي يقوم بدراستها، كما ساعده أيضاً طرح التساؤلات والفروض المسبقة التي لا بد من استخدامها عند دراسة المشكلات الاجتماعية.

وفي هذا الإطار، نجد أن بعض محلي كتابات "فيبر" من أمثال "بندكس" Bendix، و"بارسونز" Parsons، يؤكدان على أن "فيبر" قد بذل جهداً عظيماً لكي يوضح مدى الإتفاق والإختلاف حول دراسة الظواهر الاجتماعية والطبيعية، ويتغلب على ما أسماه بالتعارض القائم بين العلم الطبيعي والعلم الروحي، وذلك من أجل أن يقيم منهجاً سوسيولوجياً، والذي أسماه بمقولة الفهم أو التفسير النسبي (العلمي)، عند دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية. كما حرص "فيبر" على أن يؤكد مراراً على ضرورة الاهتمام بدراسة القيم، والمعايير، والموجهات التي عن طريقها تمكن الباحث من تبني مناهج علمية تساعد على دراسة السلوك الواقعي، أو بمعنى أدق الفعل الاجتماعي Social Action. وهذا ما جعل نظريته عن الفعل الاجتماعي، نظرية متميزة تقوم على مجموعة متكاملة من الأسس النظرية والمنهجية البحثية في نفس الوقت. بالإضافة الى ذلك جاءت تحليلات "فيبر" مؤكدة على أهمية تبني الأسس المنهجية في دراسة الظواهر الاجتماعية وأنها ليست موجهة الى علماء الاجتماع، ولكن أيضاً الى علماء السياسة، والتاريخ، وعلم النفس، وضرورة تحريرهم من القيم، والتركيز على دراسة الظواهر بصورة موضوعية وواقعية حتى يمكن تطوير العلم الاجتماعي (العلوم الاجتماعية)، وتصبح علوم أمبيريقية تركز على دراسة الواقع الفعلي.

ومن ثم، فلقد سعى "فيبر" لأن يحدد منهجية العلم الاجتماعي، ومنقذاً الكثير من العلماء ومنهجية علومهم التي تسعى بالدرجة الأولى للوصول الى القوانين وصياغتها صياغة جوفاء بعيداً عن دراسة الواقع، أو محاولة اختبارها مرة أخرى. ولقد، سعى "فيبر" بأن يحدد النماذج المثالية Ideal

Types، التي تعتبر ركناً أساسياً من أركان مساهماته المنهجية والتي يعتبرها محاولة لتحديد أهمية البناءات التصورية والفكرية (النظرية المحددة)، والتي تساعد على دراسة واختبار الواقع الفعلي. فالنماذج المثالية، ما هي إلا تصورات عقلية خالصة، يطرحها الباحث لتكون بمثابة مرشد له وللباحثين الاجتماعيين عموماً، الذين يسعون لفهم الواقع، ومعرفة العلاقات السببية التي تؤدي إلى حدوث الظواهر وتكرارها. كما أن النماذج المثالية، ما هي إلا محاولات تفسيرية تستخدم كأداة تحليلية ومنهجية في نفس الوقت، يسعى الباحث لاختبارها، لأنها بمثابة أيضاً تشييد عقلي Mental Construction، يؤدي في النهاية للتوصل لمجموعة من القوانين العامة، التي تعتمد على الواقع الفعلي. وإن كان "قيبر" أكد على أنه ليس بالضرورة أن تكون هذه الأنماط المثالية، التي يشيدها الباحث لاختبار فروضه وتساؤلاته ونظريته عموماً، مطابقة للواقع الفعلي، فقد تشابه مع الواقع الفعلي أو قد تختلف عنه أيضاً.

على أية حال، لقد حرص "قيبر" على أن يحدد مقولة الفهم والتفسير السببي، كأسس منهجي تساعد على تطوير أفكاره السوسيولوجية والاجتماعية عامة. وخاصة، أن "قيبر" كغيره من أنصار هذه النظرية السوسيولوجية التقليدية، كان يحرص كل الحرص على تطوير النظرية والمنهج معاً لأنه لا يمكن أن ترقى واحدة بدون الأخرى، وكليهما يساعدان في إقامة العلم الاجتماعي، ذلك العلم الذي يقترح "قيبر" بأنه العلم الذي يقوم بدراسة الواقع الاجتماعي، أو ما أسماه (العلم بالواقع)، والذي من خلاله نستطيع أن نفهم واقع الحياة الاجتماعية التي تحيط بنا ونجد فيها أنفسنا. كما أن فهم هذا الواقع يجعلنا نطور حياتنا الاجتماعية والثقافية، والتعرف جيداً على أسباب تطورها وتغيرها، ولماذا ظهرت بهذا الشكل أو النمط، دون غيره من الأنماط أو الأشكال الأخرى.

وفي الواقع، يرى الكثير من المحللين لنظرية "قيبر" السوسيولوجية أنه من الصعب الفصل بين كتابات "قيبر" المنهجية والنظرية في نفس الوقت، ويجب فهم الهدف الحقيقي الذي سعى إليه "قيبر" منذ البداية، لأن يوضح العلاقة المتداخلة بين نظرية العلم الاجتماعي ومنهجه. وهذا، ما ظهر في

مقاله المتميز عن المنهج، وبعض مؤلفاته التي حددها حول "نظرية العلم"، والتي ترتبط جميعاً في إطار ما يسمى (بنظرية المعرفة عند فيبر). فلقد أبدى "فيبر" في تحليلاته النظرية والمنهجية كثيراً من الشكوك حول الاتجاه النفسي الذي كان يتبناه كثيراً من رواد علم الاقتصاد السياسي وتفسيرهم المنهجي والنظري للواقع الاجتماعي. وحرص "فيبر" على أن يقوم بعملية الفهم السببي والمنطقي، والتي حددها "فيبر" في بعض المؤلفات الأخرى مثل (نظرية المقولات الخاصة بعلم الاجتماع)، التي أعدها لتكون الجزء الأول من كتابه (الاقتصاد والمجتمع). فلقد نفى "فيبر" نفياً قطعياً تحديد القيمة العملية والنظرية من منهجية العلم الاجتماعي، مؤكداً على الفكرة التالية: وهي ضرورة أن يهتم العالم، والمؤرخ، والاقتصادي، أو عالم الاجتماع، وأن يكون متأكداً من القواعد أو الأسس التي ينتهجها قبل الشروع في دراسة الظاهرة الاجتماعية.

ومن هذا المنطلق، نستطيع القول بأن "فيبر" كان مناهضاً للأفكار المنهجية الاقتصادية النفعية، بالرغم من عدم اختلافه معها حول أهمية دراسة الظواهر الاقتصادية، باعتبارها ظواهر اجتماعية. كما كان "فيبر" أيضاً مناهضاً للمذهب الديكارتي، الذي يحرص على ضرورة الأخذ بمنهج مسبق كشرط ضروري للعمل المنهجي والبحثي السليم، لأن ذلك الشرط -حسب رأي "فيبر"- يكون موجهاً لقلب الحقائق وجعل الأشياء معكوسة تماماً. ويقصد بها الأسس المنهجية التي يجب أن يطرحها الباحث عند إجراء دراساته النظرية والمنهجية، لأن "فيبر" كان يركز على الموضوعية والتحرر من القيمة والبعد عن الذاتية. ويعتبر تلك الأسس من أهم القواعد والقواعد المنهجية والعلمية التي يجب أن يتبناها العلماء عند دراسة الظواهر الاجتماعية. وهذا ما أكد عليه "فيبر"، عندما رأى ضرورة مراجعة الأشكال المنطقية، ورفض القيود والفروض المسبقة التي تقبل أو تؤدي إلى طرح أحكام قيمية حول الظواهر المدروسة، لأن ذلك المنهج يعتبر منهجاً قديماً وأصبح لاقيمة له. ومن ثم، يجب الالتزام بالموضوعية من أجل إكتشاف القوانين بصورة علمية وواقعية.

في نفس الوقت، لم يأخذ "فيبر" موقفاً عدائياً من منهجية العلوم الاجتماعية، بل أصر على أهمية التفاعل المستمر بين هذه العلوم، وضرورة



تبنى ما يعرف اليوم بين علماء المناهج، بأهمية تبني المدخل المتعدد بين العلوم Inter-Disciplinary Approach مع ضرورة اعطاء خصوصية منهجية لكل علم، أو حسب مفهوم "قيير"، الاستقلال الذاتى لكل علم، حتى يجعله قادراً على إكتشاف ظواهره وتفسيره بصورة واقعية. ويؤكد ذلك "قيير"، عندما حرص على تحديد ماهية المجتمع أو (الواقع الاجتماعى)، فهو ليس شيئاً خالصاً بذاته، بل إنه مركب من العلاقات و التغيرات والصراعات الناتجة عن اختلاف وتباين المجتمعات البشرية وأفرادها وجماعاتها. وهذا ما ينطبق أيضاً على نتائج هذه المجتمعات المتمثلة فى السياسة، والاقتصاد، والدين، والقضاء، والفن.. وغيرها. ولذا. يؤكد "قيير" على ضرورة أن نهتم بتحديد ماهية علوم اجتماعية جديدة، مثل علم الاجتماع السياسى، وعلم الاجتماع الاقتصادى، وعلم الاجتماع الفنى، والقضائى، كما أن ذلك لا يفسر على الإطلاق إلغاء علوم السياسة والاقتصاد والفن والقانون.

ولكن كما يتصور "قيير" ضرورة أن يبنى للفهم العلمى على أساس وجود وجهة نظر سوسيولوجية تقوم بتفسير طبيعة الظواهر الاقتصادية والسياسية والدينية والفنية، ومعرفة مدى دلالة ومعنى هذه الظواهر والأفعال والسلوكيات والعلاقات، التى تنتج عنها فى الواقع الاجتماعى. والعمل على توجيه هذه العلاقات والأفعال والسلوكيات البشرية الى أنماط جديدة متطورة وتتواءم مع التغير الاجتماعى الذى يحدث على مستوى البناءات والنظم الاجتماعية ككل. ومن ثم، يمكن القول، بأن علم الاجتماع السياسى والاقتصادى على سبيل المثال، لا يكونان نظامين أو علمين مستقلين ذاتياً، ولكن يرتبطان بما أسماه "قيير" بعملية التقسيم للعمل السوسيولوجى، وهذا ما يحدد أهداف علم الاجتماع من الناحية النظرية والمنهجية، الذى يوجه تملأ دراسة الواقع الاجتماعى المتغير والمتطور. ومن هذا المنطلق، رأى "قيير" أهمية تحديد هوية علم الاجتماع كعلم علم متميز، يهتم بدراسة الواقع، ويجب أن يكون موضوعياً، وأن يفهم عن طريق التفسير السببى، ومعرفة للعلل والفعل الاجتماعى. وبايجاز، ركز "قيير" على مقولة الفهم، والفعل الاجتماعى، كمقولتان أساسيتان تحددان منهجية علم الاجتماع بصورة عامة.



ونظراً لأهمية مقول الفهم، والفاعلية الاجتماعية باعتبارهما مقولتان منهجيتان أساسيتان في المنهج العام "قيير"، نقوم حالياً بشرح كل منها بصورة موجزة، لأهميتها في دراسة الأفكار والقضايا النظرية السوسيولوجية التي عبر عنها "قيير" بوضوح، والتي ترجمت في نظريته عن الفعل الاجتماعي. وكما يتصور بعض شراح كتابات "قيير" من أمثال "فروند" Fround، و"بندكس" Bendix، و"بارسونز" Parsons، و"جدينز" Giddins وغيرهم آخرون، أن "قيير" أكد أولاً على مقولة الفهم، باعتبارها شيئاً مرادفاً لعملية التفسير في العلمى عند دراسة الظواهر وتفسير الواقع الاجتماعي. أو بمعنى آخر، لقد أكد "قيير" على أن عملية الفهم، ما هي إلا الطريق التفسيري لمعرفة العوامل التي تلعب دوراً أساسياً في تشكيل الظواهر الاجتماعية وتكرار الأحداث. ومن ثم، نجد أن "قيير" يؤكد على (نظرية السببية)، و(نظرية التفسير)، ولدى ذلك إلى الكثير من الخلط والمرادفة عند معرفة وتحليل المنهج العلمى عند "قيير" والسبب الأساسى الذى كان "قيير" يؤكد عليه فى تحليلاته، أن الاهتمام بالمنهج الطبيعى الخالص، لا يمكن أن يكفى وحده لتفسير السلوك الإنسانى المعقد، ولكن يجب أن نهتم أيضاً بمعرفة الأسباب، التى أدت إلى إصدار هذا السلوك، وفهم الدوافع الحقيقية المصاحبة له بصورة عامة.

كما حرص "قيير" خلال تأكيده على الفهم السببى مع المنهج الطبيعى الخالص، على ضرورة أن يتجاوز الباحث بموضوعية مطلقة، الذاتية الفردية والحياد العلمى. وهذا ما جعل "قيير" يرى أيضاً ضرورة أن يكون الباحث الاجتماعى على دراية كافة بموضوعية المناهج العلمية التقليدية والمعاصرة. لاسيما أن سلامة المنهج العلمى الاجتماعى لابد وأن تقتزن بمعرفة التطورات العلمية والمنهجية البحثية التى قد قطت شوطاً مسبقاً، بشرى أن لا تكون هذه المناهج العلمية الأخرى، تصدر أحكاماً قيمية أو فروضاً مسبقة، تؤدى إلى نتائج مضللة وبعيدة عن الواقع. ولذا، تصور "قيير" بأن منهج الفهم يعتبر أسلوباً علمياً وواقعياً ويسهم فى إقامة علم الاجتماع، ويهتم بدراسة الحقائق العلمية والواقعية، والتفسير العلمى والسببى القائم على الفهم لمعنى الأشياء والظواهر والعلاقات والسلوك البشرى فى المجتمع ككل.

بالإضافة الى ذلك، لقد حذر "فيبر" من عملية تفسير أو فهم السلوك الانساني أو الظواهر الاجتماعية، تفسيراً ذاتياً أو نفسياً قد يؤدي في النهاية الى تقديرات خاطئة، لأن موضوع علم الاجتماع ومنهجيته ليس قائماً على الفهم الذاتي أو المرتبط بالعناصر أو التفسيرات السيكلوجية أو الطبيعية، التي قد ترافق السلوك أو القضايا المدروسة أو التي ينتج عنها. ولكن يتم تحديد موضوع علم الاجتماع عن طريق عملية الفهم الشامل، القادر على إدراك الأشياء بصورة عقلية وسببية. ومن ثم، فإن عملية الفهم كعملية منهجية تفسيرية- ما هي إلا منهجاً مساعداً نافعاً، ويقوم بعملية تسهيل مهمة عالم الاجتماع في إدراك وتفسير القضايا والموضوعات. وبإيجاز، فإن مهمة عملية الفهم تقوم على مستويين أساسيين وهما: أولاً، إقامة نماذج مثالية عقلية تساعد في عملية التفسير العقلي والعملية والعلمي، وثانياً، إن منهج البحث سيساعد على احترام الباحث لقواعد المنهج العلمي العام وخاصة الموضوعية، والبعد عن الذاتية.

أما المقولة المنهجية الثانية التي حددها فيبر كأساس للمنهج العلمي، وهي مقولة الفعل الاجتماعي، الذي اعتبره "فيبر": أساس لمهمة علم الاجتماع، حيث يتصور ذلك عندما يحدد أننا نفهم الفعل الاجتماعي Social Action، على أنه سلوكاً بشرياً، ويقوم كل من الفعل أو الفاعلين Actors بإضفاء معنى ذاتياً على هذا الفعل. كما أن هذا الفعل أو السلوك البشري، متجدد أيضاً من خلال تفسير وفهم سلوك الأفراد الآخرين تجاه هذا الفعل ومعناه. إذن لا يمكن فهم السلوك البشري أو الفعل الاجتماعي، على أنه فعل أو سلوك ذاتي مجرد، دون أن نأخذ في الاعتبار ما يضاف على هذا السلوك أو الفعل (الفردى) بعداً اجتماعياً وفهماً دافعياً من خلال معرفة رد الفعل الاجتماعي الذي يترجم في سلوك الأفراد الآخرين، الذين يوجه اليهم أولاً طبيعة السلوك الفردى وفحواه بصورة عامة. ومن هذا المنطلق، حدد "فيبر" بأن عملية فهم وتفسير الفعل الاجتماعي هي فهم واقعي لا تتم إلا من خلال معرفة السلوك أو الفعل الفردى في ضوء علاقته بسلوك وأفعال الآخرين. أو بمعنى آخر ضرورة تفسير السلوك الفردى تفسيراً اجتماعياً أو سوسيلوجياً. في نفس الوقت، حرص "فيبر"، على أن يؤكد ضرورة فهم الفعل الاجتماعي الفردى، في ضوء الواقع أو النظم أو

البناءات الاجتماعية، وما تتيحه لإشباع وتحقيق الفرص والغايات للسلوك  
الفردى والاجتماعى، ويشمل ذلك فهم التنظيمات المؤسسات الاقتصادية  
والدينية والسياسية والثقافية، وهذا ما سنعالجه فى إطار تحديده لماهية علم  
الاجتماع والفعل الاجتماعى.

### (٣) علم الاجتماع ودراسة الفعل الاجتماعى.

تظهر أهمية اسهامات "فيبر" فى النظرية السوسيولوجية من خلال  
تحليلنا للكتابات المنهجية والبحثية التى أشار إليها فى إطار مقولة الفهم  
أو التفسير السببى، كما حدد ذلك بالفعل، تلك المقولة التى حرص "فيبر" على  
توضيحها. ولاسيما، أنه كان يؤمن بتطبيق القواعد والمبادئ المنهجية التى  
يجب أن يهتم بها عالم الاجتماع، عند دراسته للظواهر والقضايا والمشكلات  
الاجتماعية. ولقد لاحظنا من خلال تحليلنا لاسهامات المدرسة البنائية الوظيفية  
الكلاسيكية فى النظرية السوسيولوجية، مدى حرص عدد من روادها الأوائل  
بضرورة تحديد منهج متميز لعلم الاجتماع، وهذا ما يتمثل بصورة أكبر فى  
كتابات كل من "دور كايم" و"ماكس فيبر". فلقد حرص الأول على تحديد  
مجموعة من قواعد المنهج فى علم الاجتماع، وأسمى بهذا العلم لكى يكون  
على مستوى العلوم الطبيعية، وضرورة دراسة الظاهرة الاجتماعية باعتبارها  
حقائق واقعية. ونجد نفس المنهج "الفير" يؤكد أيضاً على ضرورة تبنى مقولة  
الفهم أو مايسمى بالنظرية السببية للتفسير والتى حرص "فيبر" فيها على  
الموضوعية، والبعد عن الذاتية، ومحاولة دراسة الظواهر الاجتماعية،  
باعتبارها حقائق صحيحة. وبإيجاز، لقد حرصت المدرسة البنائية الوظيفية  
الكلاسيكية على ضرورة تحديد معالم علم الاجتماع على المستوى النظرى  
والمستوى المنهجى والبحثى فى نفس الوقت، وهذا ما أرسى القواعد العلمية  
لعلم الاجتماع منذ نشأته الأولى.

وفى إطار تحليلنا لاهتمامات "فيبر" فى النظرية السوسيولوجية، نجد أنه  
اهتم منذ البداية بضرورة توضيح المنهج العلمى الذى حدده من خلال مقولة  
الفهم، وتبنيه للنماذج المثالية، وتركيزه على المنهج التاريخى والتجريبى معاً  
فى دراسة الظوار والقضايا والأحداث الاجتماعية التى توجد فى الواقع، والتى

يجب أن يتبناها عالم الاجتماع بصورة عامة. وهذا ما تبلور بالفعل في تحديده لعلاقة علم الاجتماع ودراسة الفعل الاجتماعي أو السلوك البشري، حيث عرف مهمة هذا العلم، بأنه العلم الذي يحاول أن يفهم ويفسر السلوك الاجتماعي من أجل الوصول الى تفسير أسباب هذا السلوك ونتائجه. وبالطبع نجد أن هذا التعريف السابق، يتضمن عدد من العناصر الجوهرية والأساسية التي من أهمها، محاولة الفهم أولاً والتفسير ثانياً عند دراسة الفعل الاجتماعي. وعلى أية حال، نسعى حالياً، لطرح عدد من القضايا والأفكار الأساسية التي تبرز عموماً أهمية علم الاجتماع وعلاقته بدراسة الفعل الاجتماعي والتي تحدد بصورة عامة الاسهامات النظرية السوسيولوجية لفيبر التي تبلورت في نظرية الفعل الاجتماعي:

١- تركز مهمة علم الاجتماع عند "فيبر" في دراسة مجموعة من القيم الأساسية، التي تحدد السلوك الاجتماعي خلال مراحل معينة من التطور الاجتماعي، كما يسعى هذا العلم الى الفهم الموضوعي للتقسيم الاجتماعي وتفسيرها في ضوء السياق التاريخي، والاجتماعي، والثقافي التي ظهرت فيه، ولا سيما أن هذه القيم لها مؤشرات سوسيولوجية في عدد من الدراسات عن الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، وأنماط السلطة، والبيروقراطية والعقلانية والحرية، والاقتصاد والسياسة والدولة وغير ذلك من موضوعات توضح أساساً مدى اهتمام "فيبر" بدراسة الفعل الاجتماعي والسلوك البشري الذي يظهر خلال ثنياه هذه الظواهر والقضايا.

٢- حلل "فيبر" مكونات الفعل الاجتماعي، باعتباره وحدة الدراسة الأساسية التي يقوم عليها علم الاجتماع، واعتبر للفعل معنى عند الفاعل Actor، وخاصة عندما يسعى الفاعل لإضفاء معنى ذاتي على الفعل، ومراعياً سلوك الآخرين. وخاصة أن الفعل الفردي (للفاعل) موجهاً أساساً الى الأفراد الفاعلين (Actors) الآخرين. وفي هذا الإطار نجد أن "فيبر" يحاول أن يحدد طبيعة السلوك الفردي، وكيفية حدوثه وذلك لأنه نوع من السلوك الانساني الذي لا يحدد معناه إلا الفرد ذاته. كما أن الفعل الفردي لا يتحدد من خلال الجماعة الذين يوجه اليهم الفعل ذاته، وهذا ما يعكس عموماً توضيح "فيبر" للعلاقة

المتبادلة بين الفرد والجماعة التى يرتبط إليها، أو مجموعة الفاعلين كما أسماها بالفعل.

٣- سعى "قيبر" خلال تحديده لمهام علم الاجتماع والوظيفة التى يقوم بها فى دراسة الظواهر الاجتماعية، والفعل، والسلوك الاجتماعى، لطرح عدد من الأنماط المختلفة لمعنى الفعل الاجتماعى، وهى أولاً المعنى الحقيقى للفعل الفردى المحسوس (المعنى الذاتى)، وهناك، ثانياً، المعنى المقصود الحقيقى، المعنى الذى يتحدد على مستوى الجماعة أو ما يعرف (بالمستوى المعيارى). كما يوجد أخيراً النوع الثالث، وهو المعنى المناسب، الذى يصاغ صياغة علمية مجردة (النموذج النظرى المجرد). وحاول "قيبر" أن يؤكد على أن الأنماط الثلاث السابقة لمعنى الفعل الاجتماعى، التى تساعد الباحث فى فهم وتفسير الفعل والسلوك الفردى والجماعى، بصورة علمية وموضوعية كاملة.

٤- حاول "قيبر" أن يحدد قيمة الفعل الاجتماعى، من خلال إعتباره للفرد وحدة للتحليل الأساسية للمجتمع، وكرس وظيفة علم الاجتماع التفسيرى (المنهجى)، على إعتبار أن الفرد وفعله يمثلان الوحدة الأساسية. فالفرد هو الشئ الوحيد الذى لديه سلوك له معنى. وهذا ما يميز المفهوم الفردى أو الفعل الاجتماعى عن غيره من المفاهيم الأخرى مثل الدولة، أو الرابطة، أو الإقطاع، فجميعها تشير الى فئات معينة من الفاعل البشرى. ومن ثم، يكرس وظيفة علم الاجتماع، فى اختزال هذه المفاهيم، الى فعل يمكن فهمه، وتفسيره، والى مجموعة من الأفراد المشتركين فى النشاط البشرى داخل الدولة، أو الرابطة (الجماعة) أو مجموعة الإقطاع وغيرهم من المجموعات الاجتماعية الأخرى.

٥- حدد "قيبر" نظريته عن الفعل الاجتماعى، بإعتباره فعلاً تتباين فيه مستوى عقلانيه للفرد، ومن هذا المنطلق سعى "قيبر" للتمييز بين أنماط أربعة من الفعل الاجتماعى فى ضوء مفهوم العقلانية Rational ولشكالتها وهى بصورة موجزة:

(١) الفعل الاجتماعى التقليدى، ويظهر هذا النوع من الفعل الاجتماعى من خلال ما تحدده العادات والتقاليد والأهداف.

(٢) الفعل الاجتماعي الوجداني، ويظهر هذا النوع من الفعل، خلال معرفة السلوك الوجداني العاطفي للأفراد في المجتمع.

(٣) الفعل العقلاني الموجه نحو قيمة مطلقة، ويظهر هذا النوع من الأفعال الاجتماعية خلال ما تحدده مجموعة القيم والأخلاق السائدة في المجتمع الذي تظهر فيه هذه الأفعال بصورة أساسية.

(٤) الفعل العقلاني الموجه نحو هدف معين، ويمكن فهم هذا النوع من الأفعال عن طريق تفسير الغاية والوسائل والنتائج النهائية، التي يسعى إلى تحقيقها أصحاب هذه الأفعال.

٦- تكشف التحليلات التصنيفية السابقة لأنماط الفعل الاجتماعي عند "فيبر"، مدى حرصه لإستخدام النماذج المثالية Ideal Types، كأسلوب أو طريقة منهجية تساعد على التصنيف Classification، لطبيعة الأشكال التي تظهر عند دراسة الفعل الاجتماعي. ويقصد بالنماذج المثالية، التي طرحها "فيبر"، أنه ليس بالضرورة أن تظهر هذه الأنماط العامة للفعل الاجتماعي كما هي كلية في الواقع، ولكنها أنماط الفعل الاجتماعي-كأنماط مثالية- ما هي إلا تصورات عقلية مستمدة من الواقع بالفعل، ولكنها قد لا توجد بهذه الكيفية أو الخصائص التي طرحها في النماذج المثالية. وفي الواقع، لقد استخدم "فيبر" تصنيفه للأنماط المثالية للفعل الاجتماعي-كتصور عقلي مثالي-لدراسة وتصنيف كافة الظواهر الاجتماعية، التي قام بدراستها وتحليلها. وهذا ما تبلور بصورة خاصة في دراسته لنماذج السلطة الثلاث السائدة التقليدية، والكاريزمية، والعقلانية، التي تعتبر من أهم إسهاماته في علم الاجتماع العام، وعلم الاجتماع السياسي بصورة خاصة.

٧- في إطار إسهامات "فيبر" في النظرية السوسيولوجية، نجد أنه كرائد من رواد البنائية الوظيفية الكلاسيكية، حدد طبيعة العلاقة المتداخلة بين أنماط الفعل الاجتماعي ونوعية السلطة، وأنماط الشرعية، وطبيعة العلاقات والروابط الاجتماعية، وصور الجماعات المتضامنة أو المترابطة، وتشكيل طبيعة الضبط الاجتماعي، الذي يوجد في المجتمع والحياة الواقعية. ويظهر

ذلك عندما تمر المجتمعات من المرحلة التقليدية الى مرحلة الوجدانية (الكاريزمية)، الى مرحلة العقلانية التى تحددها مجموعة من القيم المطلقة وهى القيم العقلانية Rational Values، التى تقوم بدورها لتحقيق كل من الغايات الفردية والجمعية والاجتماعية. فى نفس الوقت، حرص "قيبر" لأن يفسر عملية تصنيف الفعل الاجتماعى حسب طبيعة عقلانيته، ونوعية الطابع الشرعى التى تفسر عمليات الضبط الاجتماعى وأساليب السلطة الشرعية التى تحدد نوعية الأفعال والسلوك البشرى. كما حرص "قيبر" لأن يوضح حدوث نوع من الصراعات بين العلاقات والأفعال والروابط الاجتماعية، وهذا ما يعرف بظهور المصالح الذاتية (الفردية) والجماعية، والجمعية وبالطبع لكل منها غايات، وأهداف، وقيم محددة.

٨- كما أكد "قيبر" فى ضوء الإطار السوسيولوجى العام للنظريات البنائية الوظيفية والكلاسيكية على عدد من المتغيرات والميكانيزمات العامة التى تقوم عليها هذه النظرية مثل التعاون، والانسجام، والتكامل، والتنافس (السلمى). وهذا المتغير الأخير (التنافس) قد استخدمه "قيبر" كغيره من رواد البنائية الوظيفية التى تنشد الى تفسير التنافس على أنه نوع من الصراع البسيط الذى يجب أن يوظف سوسيولوجياً فى المجتمع، من أجل المحافظة على النسق أو البناء أو النظام الاجتماعى. وهذا ما تبلور فى أفكار "قيبر"، عن تحليله لأنماط الفعل أو السلوك الاجتماعى الأكثر عقلانية More Rational، حيث يحدث فى الغالب أنماط من التنافس بين الأفعال الاجتماعية، والتى بدورها يمكن انتقاء الأفراد الفاعلين القائمين بهذا السلوك، والذين يمتلكون مجموعة من الخصائص والسمات الفردية والشخصية، ويكون لديهم زمام المبادرة والقيادة فى المجتمع. وهذا، ماسعى "قيبر" لترجمته عند دراسة السلطة التقليدية، والكاريزمية، والعقلانية على وجه الخصوص.

٩- ركز "قيبر" على خاصية التنافس، التى تتسم بالطابع السلمى فى مراحلها الأولى، ثم تصبح بصورة أكثر عنفاً عند عملية تغير القيم وانتقالها من المرحلة التقليدية الى الكاريزمية الى العقلانية. ووجد فى المرحلة الأخيرة والعقلانية بأنها نوع من المراحل والتاريخية التى تظهر فيها نمط معين من



البيروقراطية، التي تساعد على ظهور مجموعة متميزة من البناءات والنظم والأدوار والأنساق والمعايير والجزئات، كل من الفعل والسلوك الفردي والاجتماعي. وعندما يصل المجتمع الى مرحلة البيروقراطية العقلانية-حسب رأى "فيبر"- يكون قد وصل بالفعل الى مرحلة متقدمة من التطور، التي تظهر فيه فرص أكبر من الضبط الاجتماعي، والسيطرة، وأنماط معينة من التنظيم، وتسوده العلاقات اللاشخصية، وهذا ماظهر بالفعل خلال مرحلة التحول نحو التصنيع، ثم الى مرحلة الصناعة أو التصنيع الشامل.

١٠- عموماً، سعى "فيبر" من خلال تحليله للوظيفة أو المهن الأساسية لعلم الاجتماع في دراسة الفعل الاجتماعي لفهم وتفسير هذا الفعل، الذي يكشف بدوره عن نمط السلوك البشري المتغير. كما حرص "فيبر" بأن يطرح عدد من النماذج المثالية التي تساعد في عملية الفهم والتفسير السببي، والتي عن طريقها يمكن تحديد العلاقة المتبادلة بين أنماط الفعل الاجتماعي، وأنماط البناءات والنظم الاجتماعية، التي تسودها الأفعال الاجتماعية وتتطور بصورة مستمرة، وتكشف عن مقدار التطور، الذي يحدث في المجتمعات وتحولها من الحالة التقليدية الى العقلانية، متأثرة بمجموعة من الأخلاق والمبادئ البروتستانتية، وتسمو فيها عدد من الميكنزمات التي تترجم في صورة عدد من الدوافع، كما يظهر ذلك في التنافس الفردي والجماعي والمجتمعي، ويترجم عموماً في ظهور المجتمع الأكثر عقلانية، والذي وصل الى مرحلة عليا من التصنيع والبيروقراطية الحديثة.

#### (٤) البيروقراطية والعقلانية.

جاءت أفكار "فيبر" وإسهاماته في النظرية السوسيولوجية من خلال مجموعة كبيرة من الكتابات والتحليلات، التي لا تزال تعد اهتماماً ملحوظاً ليس فقط لدى المهتمين بدراسة النظرية السوسيولوجية، ولكن أيضاً من جانب "المصنفين" في العديد من الفروع المتخصصة في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى. وهذا ماينطبق بالضبط على دراسة "فيبر" عن البيروقراطية، التي تعتبر من أهم إسهاماته والتي تنسب اليه مفهوماً ونظرية واضحة المعالم، ترتبط بكتاباته وبأفكاره التصورية، التي أسهم بفضلها في



وضع أسس أحد فروع علم الاجتماع المتخصصة وهى علم اجتماع التنظيم Sociology of Organization. كما تكمن أهمية تحليلات "قيبر" عند وضعه نظرية البيروقراطية من خلال استخدامه المنهج التحليلي المقارن من ناحية، ومقولة الفهم السببي من ناحية أخرى فى دراسة تطور النظم الاجتماعية عبر العصور التاريخية. ولقد طرح ذلك "قيبر" فى إطار تحليلاته للتنظيمات التقليدية ثم التنظيمات الكاريزمية وأخيراً العقلانية التى تظهر بفضل ظهور البيروقراطية، والتى اعتبرها "قيبر" أعلى مراحل التطور العقلانى للفعل والسلوك والتنظيمات والمجتمعات البشرية.

ويتميز مصطلح النموذج المثالى للبيروقراطية لدى "قيبر" كنوع من التنظيم التسلسلى والبعد العقلانى الذى يتضمن قطاعات كبيرة وخاصة فى المجالات الإدارية الكبرى، أما استعمال هذا المفهوم ليعبر به نوع من البناء، وبصفة خاصة التنظيم العقلانى باعتباره الشريط الأحمر أو الخط الفاصل، بمعرفة العناصر البعيدة عن الكفاءة والفعالية، ولرفضه للتعريفات الشائعة عن البيروقراطية التى ظهرت فى العديد من الكتابات المختلفة. "قيبر" يرمى لتكوين نمط مثالى خالص للتنظيم العقلانى للبيروقراطية، كصفة مجردة لها محاكاة ومقاييس معينة، تستخدم من قبل الباحثين والدارسين فى مجال التنظيمات البيروقراطية، وبعيداً كل البعد عن تلك التعريفات الشائعة لها، والتى ظهرت قبل "قيبر"، والتى تختلف عنها كمفهوم علمى متميز. ولقد تطور المفهوم البيروقراطى مثل المفاهيم التى ظهرت قبله وبعده مثل الطبقة الأيديولوجية، والأرستقراطية وغيرها، ولكن التحليل الفيبري ذات المستوى الميكروسكوبى، ميز البيروقراطية باعتبارها أفضل نظام تحت حكم القانون، والتى تعمل على حل المشكلات بصورة أفضل.

ويعرض "قيبر" الخصائص أو العناصر العامة التى يتميز بها نموذج المثالى للبيروقراطية كما يلى:

يرتبط التنظيم بالقواعد الوظيفية وبمستوى خاص أو معين من الكفاءة الإدارية، كما أنه يقوم على مبدأ أو أسلوب تقسيم العمل وهذا بالضرورة يحتاج إلى إجراءات وقواعد لخضوع الأعضاء وامثالهم، فى جميع الحالات

والظروف التى تحيط بظروف العمل الوظيفية والمهنية. كما يتألف من خلال أعضاء الجهاز الإدارى أو هيئة التسلسل التى يتم إختيارهم وفقاً لنظام التعيين والانتخاب. ويخضع هؤلاء الأعضاء فى التنظيم جميعاً لمبدأ التسلسل Principle of Hierarchy. حيث يخضع كل عضو من أعضاء التنظيم، إدارياً ووظيفياً للفرد الذى يعلوه ويفوقه فى المرتبة الوظيفية. وهذا التسلسل بالطبع يأخذ طابعاً أو شكلاً هرمياً. والقواعد والاجراءات الوظيفية، تقوم على أسلوب رتيب خاص، حيث توجد القواعد التكنيكية المعيارية ووجود الخبرة التخصصية القائمة على نوع خاص ومعين من الترشيح Rationalization. بالإضافة الى أن وضع أفراد أو أعضاء التنظيم باعدين كل البعد عن امتلاك وسائل السيطرة والإنتاج. أما القواعد بصفة عامة، فهى صارمة جامدة، وتكون مسجلة أو مكتوبة حتى فى الحالات التى تكون فيها المناقشات بين الأعضاء شفوية، فيكون لها طابع الإلزام أو صفة الجبرية، مثل القواعد أو الوثائق المكتوبة.

يؤكد "قيبر" أنه يمكن الاسترشاد بهذا النموذج المثالى للتنظيم البيروقراطى فى دراسة العديد من المجالات الكبرى، والتنظيمات المعقدة أو التنظيمات الخاصة مثل الأحزاب والكنائس والمدارس. فالنموذج المثالى قادر على التطبيق بسهولة فى التنظيمات بأنواعها، فى المجتمع الحديث. كما يظهر أيضاً فى التنظيمات الخاصة والمستشفيات، وأنظمة الجيش وغيرها. ويتضح من هذه الرؤية الداخلية للتنظيم البيروقراطى المثالى، وطبيعة العلاقات والمعاملات بين أفراد التنظيم أنفسهم، أو بين الأفراد وتنظيماتهم. ولأهمية وجود الجهاز الإدارى الذى يقوم على خصائص معينة مثل، الترشيح والتخصص والعقلانية، والطابع اللاشخصى، وأهمية الخبرة الفنية، والقواعد المكتوبة، كل ذلك يجعله قادراً على التطبيق فى أى نوع من التنظيمات. ويتناول "قيبر" بعض القضايا الهامة التى تربط بالبيروقراطية عموماً، فيوضح أن للبيروقراطية نوع من المظاهر أو الأشكال التى تظهر من خلالها -وهما- حكم الفرد، والبناءات الكلية (وهى تنظيمات بيروقراطية تميل للأخذ بالديموقراطية والتعاون فى ممارسة الحكم، وتظهر كبناءات أو تنظيمات فى مراحل التغير أو التحول الروتينى، ولكن لها خصائصها البيروقراطية

العقلانية) وكليهما يخضعان للتغير والتعديل. فالنوع الأول، يكون مفتوحاً للتغير، والثاني، يظهر من خلال عمليات فصل القوة وتحييدها، وتظهر كبناءات غير مستقرة.

ويتبادر لأذهاننا لأول وهلة عدة قضايا هامة، نستطيع بوضوح أن نصوغها في تساؤلات مميزة هي: ماهو مفهوم العقلانية لدى "فيبر"، وماذا يقصد به؟ وماهى طبيعة العلاقة بين التنظيم البيروقراطى وبين العقلانية الرأسمالية ككل؟. هل ثمة إرتباط وثيق بين الإثنين؟ أم أن هناك تلازماً لظهورهما فى كتابات "فيبر"؟. وإن كانت هناك علاقة فماهى طبيعتها، هل هى إيجابية أو سلبية أو إثنان معاً؟ وهل توجد عوامل أو ظروف مشتركة ساعدت على ظهورهما فى العالم الغربى بالذات دون غيره من المجتمعات الأخرى فى العالم؟. وحسب اهتمامنا حالياً، يجب أن نحلل هذه القضايا الهامة من خلال تحليلات "فيبر" وكتابات التى طرحها فى نظريته عن البيروقراطية التى تعتبر من أهم إسهاماته للسوسيولوجية العامة.

يوضح "فيبر" أن مفهوم العقلانية أو الترشيذ Rationalization يحمل معان عديدة- فهو أسلوب معين من التفكير، وتخييل العالم الواقعى بمزيد من الرؤية النظرية للمفاهيم المجردة، بل يتضمن مزيداً من الإنجازات الدقيقة المتخصصة، وأسلوب معين فى الحياة ذو أسلوب رتيب ومنظم. ويرى "بارسونز" أن هذه العملية العقلانية، تشير إلى عدة أفكار أساسية هي:

أولاً: الوضوح الفكرى، والتخصص وتنسيق الأفكار.

ثانياً: التحكم المعيارى للقواعد ونظام الموافقة.

ثالثاً: تصور معين لحالة الواقعية. فالأفكار ليست مجردة ولكن لها أهداف اجتماعية وسلوكية، وحتى يكون لها طابع من الاعتقاد والشرعية.

وضح "فيبر" علاقة البيروقراطية بالرأسمالية، فالنظام الرأسمالى له أسلوبه المميز العقلانى، ويعمل على نمو البيروقراطية وإزدهارها بواسطة العديد من الطرق والوسائل، لزيادة سيطرتها، فى جميع مجالات الحياة

الحديثة، لما لها من نظام صارم مجدد، ينهض على المعرفة العلمية المتخصصة، فالمعرفة التكنولوجية لها دور بارز فى تقدم التنظيم البيروقراطى، واستخدام أحدث طرق العمل وأساليب الإنتاج، فهى مرتبطة بالنسق الاقتصادى والصناعى حيث تودى لزيادة الكفاءة الإنتاجية، وأكبر قدر من الإنجاز، الذى يرجع لزيادة التخصص القائم على الخبرة العلمية والفنية. وهذا يظهر أهمية الأفراد المتخصصين ذو الخبرة العلمية التكنولوجية، حيث يعملون على تقوية مراكزهم بواسطة معرفتهم للأساليب الفنية فى العمل، أو احتكارهم لما يطلق عليه بالأفكار الوظيفية (فى مجال العمل الداخلى بالتتظيمات).

والواقع أنه توجد علاقة وثيقة تربط ظهور البيروقراطية الحديثة وتطورها، بازدهار الرأسمالية العقلانية. وتعتبر (الطبقات الوسطى) خير استيعاب لتلك الخصائص الجديدة للرأسمالية، لما لها من امتيازات اجتماعية، واقتصادية، ولارتباطها بطابع أخلاقى دينى مميز. وتشير جميع الدلائل بوضوح لطبيعة التطورات التى حدثت فى العالم الغربى وصاحبت نمو الرأسمالية الغربية وترجع لإرتباطها بأنساق العمل المعقدة. فالرأسمالية كنظام تعمل على تقوية نفوذها بالامكانيات العملية والفنية وإن كان يحتاج الى تشريع اقتصادى قوى. ولكن تلك الاعتبارات لم تخلق النظام الحالى، بل أن هناك قوى أخرى تعمل على زيادة هذا التقدم فيتساءل "فيلبر"، لماذا لم تظهر الرأسمالية فى الهند والصين؟ ولماذا ظهرت تلك الفنون والعلوم وأخذت النظام الرأسمالى العقلانى مسكاً لها؟ فيجيب على تلك التساؤلات، متخذاً العقلانية مخرجاً وحلاً فى نفس الوقت. ونظراً لتداخل تلك العملية المعقدة فى كل الأجزاء البنائية والثقافية فى المجتمع وفى ضوئها تفسر العلاقات السائدة فى العالم الغربى الحديث. وبالإضافة الى ذلك النمو والتطور، الاقتصادى والعلمى لا يكتفى وحده لهذا النمو والتطور، نظراً لوجود ما يعرف (بالعقبات الروحية)، وهى بمثابة مقاومة خطيرة مثل القوى الدينية والسحرية، والأفكار غير العقلانية. وهذا ماحدث فى الصين والهند، بخلاف ماحدث فى العالم الغربى، وظهور ما يعرف (بالزهد البروتستانتى) وتعاليم المذهب الكالفنى الأخلاقى، الذى له علاقة سببية بين العقلانية الرأسمالية وروحها الممثلة فى الأخلاق البروتستانتية.

وأخيراً، فإن توضيح "قيبر" لأثر الأخلاق البروتستانتية والمبادئ الكاليفينية الدينية في نمو ازدهار الرأسمالية كتنظيم بيروقراطي معقد يشمل أساليب الحياة الغربية، حيث يحلل "قيبر" ذلك الأثر بطريقتين أو أسلوبين:

أولاً: تحليل المصادر أو الأصول الأولى، لازدهار العقلانية في جميع تنظيمات المجتمع سواء اقتصادية أم فنية أم قانونية أم سياسية.

ثانياً: البحث عن الطرق والوسائل، التي من خلالها يستطيع توضيح أثر الأخلاق البروتستانتية وعلاقتها بالقوى الاجتماعية والاقتصادية ككل.

ولعل التحليل الفيبري لهذه القضية بالذات كرد معارض وواضح على التحليلات المادية الماركسية، التي رفضها بصفة مستمرة مؤكداً على أن الظاهرة الاجتماعية معقدة ومتشابهة لها جوانبها، الاقتصادية والسياسية، والدينية.

كما ركز "قيبر" بصورة أساسية على معرفة العلاقة بين البيروقراطية بالديموقراطية، والحرية الفردية. فالتنظيم البيروقراطي بناء اجتماعي اقتصادي له نتائج التي تنعكس على التنظيم ذاته، سواء كانت هذه النتائج اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية، ومن ناحية أخرى العلاقات التي تربط بين الأفراد، وخاصة علاقة القوة، ثم التحول الميكانيكي لهذه العلاقة، والتي تصبح بدورها مجرد أداة ووسيلة يقوم بتوزيعها والتحكم فيها من ممارسي السلطة وقادة التنظيم أنفسهم، حيث يحدث نوع من الصراع بينهما وبين ما يتمتعون بامتيازات مجتمعية سواء كانوا أمراء أقطاعيين أو قادة لهم اهتماماتهم ووضعهم داخل التنظيمات الرسمية الرأسمالية.

وغالباً ما تصاحب عملية التحول نحو البيروقراطية، نتائج عكسية عدل على هدم ودمار الديموقراطية نفسها داخل التنظيمات البيروقراطية وخارجها. نتيجة لوجود الصراعات من أجل القوة والاحتفاظ بها من قبل القادة السياسيين أو التنظيميين، والعمل على تكوين جماعات ذات قوة اجتماعية، تساعد على زيادة نفوذهم، فالبيروقراطية وخاصة في فترة التحول إليها، لها نتائج عكسية على نقبض القواعد البيروقراطية، التي ينهض عليها التنظيم - فعلى المستوى

الداخلي، تكون النتائج عكسية لأنها تنظيمات تحتاج لخبرة تكنولوجية عليا متطورة، وارتباطها بوسائل القوة التي تكون تحت سلطات القيادة العليا. ومن ناحية أخرى، لظهور الطبقة من الموظفين تعمل بدورها على زيادة نفوذها، فيظهر هناك نوع من حركات البروليتاريا ذات الصبغة الرسمية، ولجوء هذه الطبقة ومحاولتها بصفة مستمرة زيادة وضعها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي معاً. هذا فضلاً عن ظهور الصراع بين أصحاب القيادة التنظيمية والإدارية، وبين أصحاب الخبرة الفنية (الهيئة الإدارية-والهيئة الفنية) فالكمل يعمل على إمتلاك القوة والسيطرة على حساب الفئات الأخرى. فمن الناحية الإدارية، تعمل هذه القيادات على عقد جلساتها الدورية بصفة سرية، وتتخذ القرارات بحجة الصالح التنظيمي العام. ومن الناحية الفنية، يحاول أصحابها الاحتفاظ بأسرارهم الوظيفية الفنية. ولكل من الفئتين وضعهم الخاص داخل التنظيم نفسه، وهنا تصبح أزمة تنظيمية واضحة من خلال الصراع بين الهيئات الثلاث، كما عبر عنها "ميرتون" باختبار العلاقات للداخلية للبناءات التنظيمية، وبين العناصر التنظيمية الأساسية وسياسات الصراع على السلطة. كما ظهرت أيضاً في تأكيدات كل من "بارسونز" و"فريدريك" حيث يكون الصراع بين الهيئة التشريعية والإدارية الإشرافية حول تحديد السياسات الداخلية للتنظيمات. وهذا ما أشار إليه بالفعل "فيبر"، في تحليله للتنظيمات البيروقراطية السياسية ذات الطابع البرلماني، حيث يظهر الصراع السياسي حول العديد من المشكلات مثل إتخاذ القرارات وغيرها.

ويرتبط التنظيم البيروقراطي بالعملية العقلانية ونظامها المعقد، وما تتضمنه من معان متعددة دخل التنظيمات البيروقراطية، فيتطلب الأمر الأخذ بالنظام التعليمي وضرورة الحصول على الشهادات العلمية، وأهمية عقد امتحانات خاصة بالموظفين قبل تعيينهم وكشرط أساسي للاكتحاق بوظائفهم، فتظهر معالم مشكلة الديمقراطية، داخل التنظيمات فلتلك الشروط المسبقة <sup>٢٠٢</sup> من بمثابة اتجاهات مضادة للديموقراطية البيروقراطية، ولأنها بعيدة عن مبدأ تكافؤ الفرص لأنه لا يحصل على تلك الشروط إلا من يتمتعون بامتيازات مجتمعية خاصة، فتصبح فئة الحاصلين على الشهادات العلمية فئة طبقية ذات امتيازات كبيرة، وتظهر خطورة هذه الطبقة، وما يعرف بأسم الصفوة

المتعلمة، وفي هذا الصدد يشير "ديفيري"، أن حقيقة الفساد البيروقراطي في الأقطار النامية يرجع بالضرورة للصفوة الحديثة المتعلمة من الموظفين، والمسؤولين عن شئون الدولة وجميع عمليات تحديثها، لأتجاههم لتكوين أجهزة إدارية بيروقراطية غير ذات طابع متكافئ ومتسارع، وهذا ما تؤيده أيضاً نتائج الدراسات الحديثة في هذه الأقطار على التنظيمات البيروقراطية وارتباط الفساد البيروقراطي بالتنظيمي بالفساد السياسي أيضاً.

ويوضح "قيير" العلاقة بين العقلانية والحرية الفردية، مشيراً لطبيعة تلك العملية العقلانية وارتباطها بالقواعد المعيارية، التي تؤدي إلى اندماج صورة الفرد العادي داخل التنظيم البيروقراطي، حتى تصبح مجرد أداة وترس في حلقة من سلسلة للميكانيزمات المعيارية اللاشخصية التي تعمل على أنعدام الحرية الفردية داخل التنظيم البيروقراطي. ويرى كل من (جيرث وميلز) بأن العقلانية تؤدي بدورها إلى الآلية، والطمس الروتيني للحرية الشخصية، باتباعها الأساليب العقلانية والعلمية والأداء الروتيني، فهذا النوع من الآلية يخلق النقص البطولي أو التلقائية والابداع الإنساني، فتمتد التناقضات بين تحليلات "قيير" و"ماركس" حول مفهوم الاغتراب وإن كان الثاني، يركز السبب إلى فصل العامل عن إنتاجه، ولكن "قيير" يرى أن هذا الاغتراب لإنسان التنظيم البيروقراطي يرجع للعلاقة المتبادلة للتكنولوجيا والديموقراطية والنتائج المصاحبة للتحويل البيروقراطي.

## (٥) الأخلاق البروتستانتية ونشأة الرأسمالية

تظهر تحليلات "قيير" في كتابه المشهور (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية)، مدى إسهاماته في النظرية السوسيولوجية عامة، وعلم الاجتماع الاقتصادي خاصة، ولا سيما أن هذه الإسهامات اتخذت أبعاداً سوسيو-تاريخية اقتصادية كما ظهر واضحاً في تحليلاته عن (تاريخ الاقتصاد العام). ويعد ذلك اتجاهًا واضحًا ومميزًا كان سائدًا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من جانب علماء الاجتماع التقليديين، الذين ركزوا على ما يسمى بالاقتصاد الاجتماعي Social Economics، ذلك الاتجاه الذي ظهر بعد ذلك في السنوات الأخيرة في الولايات المتحدة ضمن اهتمامات علماء الاجتماع



الاقتصادي، بأن ذلك الاتجاه (الاقتصادي الاجتماعي) يتزعمه حالياً عالم اجتماع التنظيمات الشهير "اميتاي ليزيوني" الذي شارك بصورة فعالة في تطوير وتحديث علم الاجتماع الاقتصادي.

كما عالج "قيبر" الكثير من القضايا والمشكلات الاقتصادية في إطارها السوسيو-تاريخي، حيث ركز على معالجة تطور النظام الاقتصادي الزراعي كأحد النظم المميزة والسابقة لمرحلة الرأسمالية الصناعية. كما تناول الأصول الأولى للرأسمالية وعلاقتها بالتجارة والملكية، والسياسات الاستعمارية، والتغيير التكنولوجي، وتطور مفهوم المواطنة وعلاقتها بالدولة. كما أفرد بصورة تحليلية واضحة للكثير من المتغيرات والظروف التي سبقت النشأة الأولى لمجتمع الرأسمالية مثل الأسواق الحرة، والعمل لتكوين مآسماه رأس المال العقلاني، ونظم العمل الرسمي الحر، وترشيد التكنولوجيا وعمليات التحول نحو التجارة والحياة الاقتصادية عموماً. علاوة على ذلك، نلاحظ أن "قيبر" عرض للعديد من الصناعات وتطور نشأتها وخاصة صناعة القطن في إنجلترا، وعلاقتها بعمليات التوطين الصناعي، وطبيعة وسائل المواصلات ودورها في في تنشيط كل من الحركة للصناعية والتجارية. كما لخصت "قيبر" تحليلاته في (تاريخ الاقتصاد العام) بتحليل دور الدين في ظهور المجتمع الحديث الرأسمالي.

كما نلاحظ أن "قيبر" تابع تحليل أثر العوامل الدينية في تشكيل السلوك الانساني Human Behaviour في (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) حيث عارض بوضوح الأفكار الماركسية وتركيزها على العامل المادي فقط وإنكاره لكافة العوامل الدينية والمجتمعية الأخرى. كما جعل اهتمامه الرئيسي في ذلك الكتاب للإجابة على تساؤل واحد فقط مؤداه: لماذا لم تنشأ الرأسمالية في أي مكان أو مجتمع آخر غير المجتمعات الأوروبية الغربية؟. كما جعل "قيبر" من ذلك التساؤل في العديد من كتاباته الدينية عن الصين، والهند وما يعرف بعلم الاجتماع الديني Sociology of Religion. عموماً إن مجمل الأفكار الهامة لتحليلات "قيبر" من خلال كتاب (روح الرأسمالية) أو (علم الاجتماع الديني)، ركزت على تحليل العلاقة بين الاقتصاد والدين



والمظاهر الثقافية الأخرى التى توجد فى المجتمع، مستخدماً فى ذلك العديد من  
المداخل السوسيولوجية التى اتسمت بها كتاباته وتحليلاته.

فلقد سعى "قيبر" ليبرهن على أن الرأسمالية تعد نظاماً اجتماعياً  
واقتصادياً فى العصر الحديث، وهى فى مجملها نتاجاً طبيعياً للدين  
البروتستانتي وما يقوم عليه من مبادئ، وقيم، ومعتقدات، وتصورات دينية  
ومجتمعية، خاصة لأنها تتوجه بفضل الأخلاق الكاليفينية Calvinist Ethics.  
علاوة على ذلك، أن كل من الأخلاق الكاليفينية وروح البروتستانتية توجه  
الحياة اليومية العادية، لاسيما نحو الأنشطة الاقتصادية المنتجة مثال ذلك  
الإدخار، والاستثمار، والعمل، والإنتاج، واحترام المهن وقديستها. كما تنظم  
مجموعة من الواجبات والحقوق والسلوك الاقتصادي Economic  
Behaviour، وتذمر من عواقب الكسل والخمول والانتكالية. كما تحبب الفرد  
فى تنمية علاقاته مع جماعات العمل عن طريق قيم علمية ودينية فى نفس  
الوقت و لاسيما قيم الأمانة، والصدق وضرورة اكتساب الخبرة.

من هذا المنطلق، نجد أن "قيبر" قد ركز بوضوح على توجيه تحليلاته  
الدينية وظاهرة الرأسمالية لمعرفة العلاقة بينهما، وقدرة تلك الظاهرة على  
تنظيم العلاقات المهنية والاجتماعية. كما كان لتبنى "قيبر" أسلوبه التحليلي  
والمنهجي السوسيولوجي المميز، من اضافة روح الباحث العلمى المتعمق فى  
دراسة الظواهر الدينية والاقتصادية والاجتماعية. كما وجهت معظم تحليلاته  
للبرهنة على أفكاره ونحضر التصورات الماركسية، الى ركزت على فكرة  
الأبعاد الأحادية فى تفسير الظواهر المجتمعية، والاعتماد فقط على العوامل  
المادية فى فهم الواقع الاجتماعى المتغير ومنتقداً العوامل المؤثرة فى تشكيله  
بصورة عامة.

يؤكد على ذلك بعض تحليلات الميتمين باسيامات "قيبر" سواء فى علم  
الاجتماع الاقتصادى أو الدينى على وجه الخصوص. أن "قيبر" حاول أن يلقى  
بمزيد من الضوء على دور الدين فى تحديد وتشكيل طبيعة الأنشطة والنظام  
الاقتصادى ككل. فلقد اعترف بالكثير من العلاقات الاقتصادية والانتاجية التى  
تتحكم فى طبيعة النشاط الاقتصادى، والتى عبر عنها "ماركس" مثل ذلك

العلاقة بين (الأجور والعمل) Wages and labour وتأثير كل منهما في الآخر من الناحية الواقعية. إلا أن "قيبر" لم يتقبل وجهة النظر الماركسية دون التعمق فيها من الجوانب الدينية والمجتمعية الأخرى، التي تسهم في زيادة العلاقة بين الأجور والعمل على سبيل المثال، ومنها الدافعية، وحب المهنة، والخبرة، واحترام علاقات العمل والأخلاق الدينية، وغير ذلك من المتغيرات المتعددة التي تجاهلتها النظريات الماركسية. علاوة على ذلك، اهتم "قيبر" في إحدى كتبه الهامة (الاقتصاد والمجتمع) بمعالجة أيضاً تأثير الدين والأخلاق البروتستانتية والتي ركز عليها في كتاباته التي أشرنا إليها سابقاً، وذلك بصورة عامة على الدافعية الفردية Individual Motivation خاصة وأن السلوك البشري العقلاني، هو ذلك السلوك الذي يهتم بالقواعد والأخلاق الدينية، في عمليات الكسب والعمل وتحقيق الربح والثروة. ولهذا السبب انتقد "قيبر" العمليات وسبب تغييرها في مراحل الحياة الاقتصادية في عصر الاقطاع أو في الحياة الدينية في الصين على سبيل المثال. فالبروتستانتية كمصدر أساسي لظهور نوع من التكامل بين النظم الاقتصادية والمهنية، أو بين الأخلاق والمهنة Ethics and Vocation بصورة خاصة ونظراً لأن البروتستانتية تعد من خلق الله God's Creation، توجه الفرد نحو العمل والكسب كما يضيف "قيبر" أيضاً، أن البروتستانتية تسعى للاهتمام بالعوامل الإدارية والمهنية والتنظيمية وتوجيه السلوك البشري ككل.

كما كان لاستخدام "قيبر" (المدخل التحليلي المقارن) أثراً إيجابية كبيرة تعزز من إسهاماته في علم الاجتماع الاقتصادي خاصة، والنظرية السوسيولوجية عامة، حيث لم يهتم فقط بالعلاقة بين الدين والعمليات الاقتصادية وأنشطتها المختلفة، بقدر ما نلاحظ أيضاً اهتمامه بدراسة العلاقة بين النظم الدينية والاقتصادية والسياسية والتربوية والإدارية التنظيمية سواء في المجتمع الحديث الغربي والمراحل التطورية له في العصور القديمة والوسطى أو في المجتمعات التقليدية التي عرفتها مجتمعات الشرق القديمة. فعلى سبيل المثال، عالج "قيبر" في كتابه (الديانة الصينية) نوعية النظم السياسية والاقتصادية القطاعية وطبيعة البناء الاجتماعي في الصين، وعلاقة ذلك بنوعية النظم القانونية والمدنية (الحكومية). كما عرض بوضوح لأهم

أفكار النسق الدينى الكنفوشى ومدى تأثيرها على النظم المجتمعية الأخرى. وعقد الكثير من المقارنات بين أوجه الدين المسيحى والعديد من الديانات الأخرى كما أشرنا الى ذلك من قبل، فلقد جعل هدف كتاب (روح الرأسمالية)، للإجابة على الأسباب التى أدت الى ظهور الرأسمالية فى المجتمعات الغربية. وبالرغم من بعض الشطحات التى تميز بها "فيبر" واهتماماته بالدين المسيحى وخاصة تميز (البروتستانتية) عن غيرها من المذاهب المسيحية الأخرى، أو عن الديانات المختلفة، إلا أنه بصورة عامة، لم يتجاهل طبيعة تأثير الدين الاسلامى على سبيل المثال، فى تغيير نمط الحياة الاجتماعية والنظم الاقتصادية التى كانت موجودة فى العصر الجاهلى، وأعطى بعض الأمثلة على ذلك مثل دور الصلاة والزكاة فى توجيه النشاط الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمعات الاسلامية.

وتعتبر تحليلات عالم الاجتماع المعاصر "نيل سملسر" N. Smelser، إحدى التحليلات السوسولوجية الهامة، لأفكار "فيبر" واسهاماته ومنهجيته فى دراسة للظواهر الاقتصادية وكيفية ربطها بالسياقات المجتمعية والواقعية، وجعلها متميزة عن غيره من تحليلات علماء الاجتماع التقليديين الذين اهتموا بقضايا التغيير الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمعات الحديثة ولاسيما "ثور كايم"، و"سبنسر" على سبيل المثال. فبالإضافة الى اهتمامات "فيبر" بالمدخل التحليلى المقارن، إلا أنه استخدم أيضاً بعض الأساليب المنهجية المجردة التى ساعدته على تحليل الظواهر الاجتماعية، مثل استخدامه لفكرة النموذج المثالى Ideal Type، تلك الفكرة التى هدف "فيبر" عن طريقها تحليل المجتمعات الحديثة المعقدة، كما يمكن اعتبارها أداة تصورية يستخدمها الباحث الاجتماعى فى دراسته لتلك المجتمعات، واختبار مدى واقعيتها. ومن بين تلك النماذج المثالية، الرأسمالية البرجوازية العقلانية Rational Bourgeois Capitalism والنظور التاريخى للرأسمالية Historical Evolution of Capitalism. فلقد اهتم فيبر بدراسة الظروف التى أدت الى ظهور الرأسمالية الصناعية فى المجتمع الحديث، كما سعى لتحليل (الرأسمالية المالية الصناعية) كنموذج مثالى أولاً، ثم تميزه عن الأشكال الأخرى للرأسمالية المالية Financial Capitalism. ويطلق على النوع الأول، الرأسمالية العليا أو الرأسمالية البرجوازية العقلانية، وتصنيفها حسب

النظم العقلانية التي تشهدها في عمليات الإنتاج.

ومن ثم، فلقد اهتم "قيبر" بدراسة الرأسمالية الصناعية، وحاول أن يتعرف على ظروف نشأتها التاريخية وأسباب انتشارها واستمراريتها، كما أنه رفض بعض التحليلات التي ترجع ظهور هذا النوع من الرأسمالية لأسباب تتعلق بزيادة السكان، لتدفع المعادن النفيسة (الذهب، والفضة) إلى المجتمعات الغربية الأوروبية، مشيراً إلى أن هناك الكثير من أجزاء العالم الأخرى ظهرت فيها هذه الأسباب بوضوح ولكنها لم تنشأ أو تتطور فيها الرأسمالية عامة. لذا يؤكد "قيبر" على أن السبب الأساسي وراء ظهور الرأسمالية كنظام اقتصادي واجتماعي في المجتمعات الأوروبية الغربية، يرجع إلى ظهور الديانة البروتستانتية وخاصة المذهب الكالفني، الذي أسهم في تأسيس الظروف السيكولوجية والسوسيولوجية، التي لعبت دوراً في تبنى الرأسمالية. كما أنه يضيف (قيبر) أن ذلك المذهب اهتم أيضاً بالنواحي الإدارية والبيروقراطية، كأسلوب عقائلي في تنظيم علاقات العمل والإنتاج في النظم الرأسمالية.

## (٦) التغيير والتنظيم الاجتماعي.

مامن شك في أن إسهامات "قيبر" في النظرية السوسيولوجية لعلم الاجتماع تعتبر من الإسهامات المميزة، التي لا تزال تجد لها قبولاً علمياً وأكاديمياً واسع النطاق، والسبب يرجع بالطبع إلى كتابات "قيبر" في النظرية السوسيولوجية وربطها بإطار منهجي وعلمي محدد. وبلور كثير من هذه الكتابات بمجموعة من الدراسات الميدانية (الأمبيريقية)، التي صقل بها تصورات الفكرية والنظرية، والتي ظهرت على سبيل المثال، فيم يعرف بالنماذج المثالية التي طرحها "قيبر" في معظم كتاباته وتحليلاته النظرية وتعد من الإسهامات النظرية السوسيولوجية التي حدد "قيبر" أهدافها منذ البداية، لتكون بمثابة تصورات عقلية يهتم بها الباحثين لاختبار الواقع الاجتماعي المتغير الذي يعيشون فيه. وفي حقيقة الأمر، نجد أن "قيبر" كرائد من رواد البنائية الوظيفية الكلاسيكية، اهتم بوضع الخطوط العامة لنظرية التغيير الاجتماعي Social Change Theory، التي تعتبر من أهم النظريات السوسيولوجية المعاصرة ويهتم بها جميع علماء الاجتماع في تخصصاتهم

الفرعية أو المجالات العامة لعلم الاجتماع، وسعى كثير من هؤلاء العلماء سواء على المستوى النظرى أو الميدانى (الأمبيريقى) أن يحددوا طبيعة الجهود التى بذلها "قيبر" فى كتاباته لإبراز مشكلة التغير الاجتماعى كقضية سوسيولوجية خاصة ومتميزة.

ويستطيع الباحث المتخصص فى كتابات "قيبر"، أن يلاحظ بوضوح أن اهتمامات هذا العالم، جاءت انعكاساً لظروف العصر الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والثقافى الذى عاش فيه، كما يظهر ذلك فى كتابه عن التغير والتطور فى التنظيم الاجتماعى Social Organization، الذى ظل شاغله الأول منذ بداية تحليلاته حتى المقالات الأخيرة التى وضعها قبل رحيله. كما جاءت معظم تحليلات "قيبر" لتعكس عمليات التحول الاجتماعى والتطور المستمر الذى يحدث على مستوى الفعل والسلوك البشرى، وأيضاً الجماعات والمجتمعات الانسانية. وهذا ماظهر على سبيل المثال فى دراسته للتحول نحو البيروقراطية Beaurcatization، أو التحول نحو التصنيع Industrialization، والتحديث Modernization، أو غير ذلك من المفاهيم الأخرى التى استخدمها "قيبر" لتعكس لنا عمليات التحول والتطور والتغير وكيفية انتقال المجتمعات من المرحلة التقليدية حتى المرحلة الكاريزمية، وأخيراً المرحلة العقلانية. فى نفس الوقت، حرص "قيبر" على عملية تصنيف عمليات التطور خلال كل مرحلة من مراحل التغير والتطور. وهذا ماوضع "قيبر" عندما أشار إلى مجموعة الخصائص العامة التى تتصف بها مرحلة البيروقراطية الأكثر عقلانية وهى مرحلة المجتمعات للصناعية الحديثة.

كما جاءت عملية التغير الاجتماعى فى العصر الحديث، إحدى القضايا السوسيولوجية الهامة التى شغلت "قيبر" وتعتبر من أهم مساهماته السوسيولوجية، وهى مشكلة الأخلاق البروتستانتية وعلاقتها بنمو وتطوير الرأسمالية. فلقد حرص كل الحرص على أن يوضح فى تحليلاته للعلاقة القوية بين الدين المسيحى ولاسيما المذهب البروتستانتى ومايتصف به من مجموعة من الخصائص دون غيره من المذاهب المسيحية الأخرى، فى الهام وتوجيه الحركة الاقتصادية والرأسمالية التى ظهرت فى أوروبا الغربية على

وجه الخصوص. وإن كان "فبير" قد ركز على العامل السببي الرئيسي في ظهور الرأسمالية الغربية في نقطة معينة من أوروبا (أوروبا الغربية)، إلا أنه كعالم اجتماع متخصص حرص أيضاً على أن يوضح مجموعة العوامل الأخرى التي كانت سبب في ازدهار الرأسمالية كنظام اجتماعي واقتصادي وسياسي في هذه المناطق التقليدية التي ظهرت فيها. من أهم هذه العوامل، وهي الرغبة في العمل، والدافعية، والأخلاق والتقاليد والقيم والأعراف السائدة، أو ما يسمى عموماً بمجموعة العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية التي ساعدت على انتشار وظهور الرأسمالية في منتصف غرب أوروبا على وجه الخصوص.

وبالرغم من بعض الانتقادات التي توجه إلى أفكار "فبير" ونظريته عن التغير الاجتماعي والاقتصادي (الرأسمالي) والسياسي في أوروبا، إلا أننا نجد أن "فبير" ركز على توضيح كيفية حدوث التغير الاجتماعي بصورة مستمرة، وكيفية وجود مجموعة من العوامل المسببة لحدوث الظواهر والمشكلات الاجتماعية. وهذا ماظهر في دراسات أخرى، مثل دراسته عن الدين والقانون على سبيل المثال، فلقد وضع "فبير" مؤلفات كاملة في هذه التخصصات العلمية التي تعتبر من أهم الاسهامات التي أسست عدد من فروع علم الاجتماع ونظرياتها مثل علم الاجتماع الديني، وعلم الاجتماع للقانوني. فلقد حرص "فبير" في دراسته للدين عن كيفية اعتبار الدين كعامل رئيسي لجميع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، وهذا ماحلله بالفعل عندما اهتم بدراسة تطور الأديان عبر العصور التاريخية، واهتم بمعالجة ودراسة الديانات الأرضية مثل الهندوسية أو البوذية وغيرها من الديانات التي لا تزال توجد في قطاعات كبيرة من الكرة الأرضية حتى الآن. كما اهتم "فبير" أيضاً، بأن يركز على دراسة الأديان السماوية، فبدأ بالديانة اليهودية، ثم الديانة المسيحية ثم الدين الإسلامي. كما عالج مهمة أو رسالة الأنبياء، ودورهم الوظيفي في نشر الأديان السماوية. وهذا ماأشار إليه في دراسته لسيدنا {موسى}، و {عيسى} وسيدنا {محمد} عليه الصلاة والسلام، وكيف استمد كل منهم شرعيته وخصائصه السماوية من {الله} سبحانه وتعالى. كما حاول "فبير" على أن يؤكد على دور الأديان في تحديد الأنشطة والعلاقات بين الأفراد والجماعات،

واعتبارها عامل أساسى للتغير (الدين). وهذا ماأشار اليه فى دراسته للدين الاسلامى، واعتباره الأساس الأول للشرعية الاسلامية. وهذا مايميز كتابات "ماكس فيبر"، عن "ماركس" الذى وقف موقفاً عدائياً للدين واعتبره من العوامل التى تقف دون التغير أو التحديث أو التطور.

بالإضافة الى ذلك تظهر اسهامات "فيبر" فى النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، ووضعها الأسس العامة لبعض فروع علم الاجتماع وقضاياها النظرية والفكرية، وهذا ما يظهر فى كتابات "فيبر" المميزة عن علم الاجتماع القانونى والثقافى. حيث نجد أن تحليلات "فيبر" للقانون، توضح كيف تطور القانون فى المجتمعات القديمة، من خلال مجتمعات أو حضارات العصور الوسطى، وأيضاً خلال عصر النهضة الى أن تبلورت ملامحه الحديثة فى العصر الحديث، وهذا ماظهر واضحاً من خلال تحليلاته لتطور القانون الطبيعى The Natural law، وعلاقته بالديانة المسيحية على وجه الخصوص خلال العصور الوسطى. فلقد تصور أن الأخلاق المسيحية سعت لإقامة علاقة قوية بين أخلاقياتها ومثلها العليا، وبين المعايير والأعراف التى كانت موجودة خلال نفس الفترة من العصور الوسطى. كما اهتم "فيبر" بتحليل تطور القانون الطبيعى، ونوعية شرعية القانون The Legitimacy of Law، تلك الشرعية التى استمدت من القانون الإلهى الذى استحوذ على الفكر المسيحى خلال نفس الفترة. كما نلاحظ أيضاً، أن "فيبر" خلال تحليلاته لعملية تطور القانون، وربطها بنظريته المعروفة عن التغير الاجتماعى، حاول أيضاً أن يعطى صورة واضحة للمكونات الأساسية التى تدخل فى عملية تكوين القانون، وتساعد على تطوره مثل الأعراف والقيم، والعادات والتقاليد والأخلاق والدين، وكيف أن هذه المكونات فى تغير مستمر. الأمر الذى أدى الى تغير عموماً مايعرف بالقانون العرفى Customary Law، الى القانون الوضعى The Positive Law.

علاوة على ذلك، فلقد اهتم "فيبر" فى تحليلاته عن تطور القانون، لأن يعتقد هذه التحليلات بمنهجه المتميز، وهو المنهج التحليلى التاريخى المقارن، وخاصة عندما ميز طبيعة تطور القانون خلال عصور الامبراطورية



الرومانية. ثم حل أيضاً كيف تنتقل القانون وملامحه المختلفة إلى العديد من الدول القومية The National Nations، ولا سيما خلال مرحلة التحول. وهذا ما اهتم به عندما تناول طبيعة تطور النظام القانوني في العديد من الدول الأوروبية الحديثة، والتي ربطها بطبيعة النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتغيرة، ونوعية تطور التشريعات الاجتماعية The Social Legislation. من ناحية أخرى، نجد أن "فيبر" اهتم بتحليل تطور القانون وعلاقته بنسق الأيديولوجيا Ideology Sestem، ونوعية الطبقات الاجتماعية، ونمط الحرية، والعقلانية، والحقوق الشرعية، التي مهدت لظهور دول الرفاهية، وعموماً لقد أثرت هذه التحليلات في نظرية علم الاجتماع والنظريات المتخصصة في علم الاجتماع القانوني أو القضائي.

كما تكمن أهمية إسهامات "فيبر" في النظرية السوسيولوجية في طرحه العديد من القضايا الأخرى، التي ترتبط بنظرية التغيير الاجتماعي، وكيفية تحليلها عملية تطور النظم والبناءات أو التنظيمات الاجتماعية المختلفة. وخاصة، أن تصورات "فيبر" كانت انعكاساً حقيقياً لهذه التحولات التنظيمية والمؤسسية التي شهدتها ألمانيا وأوروبا الغربية خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن الماضي (العشرين). فلم يحرص "فيبر" على مناقشة التنظيمات الليبروفراطيه (المؤسسية) التي كرس لها جزءاً كبيراً من تصورات حول نظرية الليبروفراطية، بقدر ما سعى أيضاً ليوضح كيفية نمو الليبروفراطية أو المؤسسية. وخاصة أن عوامل التغيير الاجتماعي تعتبر عوامل اجبارية وقهرية، ويجب أن تصاحب النمو التنظيمي والمؤسسي نمواً موازياً في كافة النظم الاجتماعية الأخرى مثل النظم القانونية والتشريعية، والاقتصادية، والتربوية والأخلاقية، والدينية، والسياسية. وهذا ما يعكس عموماً، طبيعة النزعة البنائية الوظيفية التي تتسم بها كتابات "فيبر" كغيره من الرواد التقليديين لعلم الاجتماع.

ففي إطار تحليلاته عن نظرية التغيير الاجتماعي، حرص "فيبر" على سبيل المثال، على أن يوضح لنا كيفية تطور النظم والمؤسسات والقيم التربوية عبر العصور التاريخية، إلى أن وصلت إلى ما هو عليه في العصر



الحديث الذى يعتمد على العلم والشهادات، والخبرة، والتخصص، وتقسيم العمل، لخصائص عامة لظهور المرحلة العلمية العقلانية، والتى أفرده "فيبر" تحليلات موسعة عندما ناقش قضية تطور الرأسمالية كنظام اجتماعى عام وشامل. فلقد حرص "فيبر" بأسلوبه ومنهجه التحليلى التاريخى المقارن، على أن يناقش قضية تغير التنظيم والمؤسسات التربوية، ومحاولاً أن يوضح الخصائص والسمات العامة التى تقوم عليها مقومات الإنتاج البيروقراطى الصناعى، وخاصة العناصر أو القوى البشرية، وكيفية تأهيلها بصورة عقلانية، حتى تواكب عمليات التغير والتحديث، والحاجة الماسة الى تطور واستحداث مؤسسات وتنظيمات بيروقراطية لتواكب العصر الصناعى الحديث. علاوة على ذلك، لقد استخدم "فيبر" المنهج الميكروسكوبى أو الوحدات التحليلية الصغرى والمتوسطة أيضاً فى مناقشة العديد من القضايا التربوية والتعليمية، مثل طبيعة الشهادات العلمية، والأخلاق المهنية والتربوية، والاختبارات الخاصة، والفرص التربوية وارتباطها بظروف الحياة، والتدريب المستمر للقدرات والكفاءات، وغير ذلك من قضايا متعددة طورت كثيراً من نظريات علم الاجتماع، وفروعه المتعددة مثل علم الاجتماع التربوى على سبيل المثال.

### مناقشة وتعقيب.

توضح معظم كتابات علماء النظرية السوسيولوجية المعاصرة عند تقييمها للتحليلات النظرية فى علم الاجتماع سواء أكانت كلاسيكية أم حديثة معاصرة، أن قيمة المساهم النظرى لعلماء الاجتماع تكمن فى وضوح خطوطهم الأيديولوجية والفكرية، التى تحدد للقواعد الأساسية التى تقوم عليها بالفعل نظرياتهم والموجهات والمبادئ والقضايا العلمية، التى ينطلقون منها، ويتبنونها بالفعل عند دراسة الواقع الاجتماعى الذى يعيشون فيه وهذا ماوضح من خلال تحليلنا لمساهمات النظرية السوسيولوجية كواحد من أبرز علماء القرن العشرين، ألا وهو "ماكس فيبر" الذى يعتبر من أهم العلماء الذين وضعوا للجنور الأساسية للنظرية السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة فى نفس الوقت. كما نجد أيضاً، أن طبيعة الموضوع الفكرى والأيديولوجى الذى تبناه

"فيبر" على وجه الخصوص، كان له الفضل الأول في تبنى نظرياته السوسيولوجية العامة، ولاسيما من جانب علماء النظرية السوسيولوجية المعاصرة وخاصة تأكيدهم على أهمية نظرية الفعل الاجتماعى عند "فيبر" فى إعادة تقييم التراث، النظرى والمنهجى الذى وصلت اليه النظرية السوسيولوجية العامة والمداخل والمنظورات المتعددة التى ترتبط بها فى الوقت الراهن.

وكما يرى الكثير من المحللين لأعمال "فيبر" واسهاماته فى النظرية السوسيولوجية، أن هناك مجموعة من الأسباب التى تجعل من "فيبر" وكتاباتة موضع اهتمام وتقدير من جانب المهتمين عموماً بجانب النظرية والتتظير فى علم الاجتماع من ناحية، والمناهج وطرق البحث من ناحية أخرى. ومن أبرز هذه الأسباب التى طرحها بعض المحللين مايلى:

١- حرص "فيبر" على أن يقدم مجموعة من الدراسات السوسيولوجية المتعمقة، التى تكشف عن الكثير من المواقف والعمليات والقضايا الاجتماعية والواقعية، والتى قد تتضافر جميعا فى تشكيل نظرية سوسيولوجية ملائمة، قد تؤدى بالفعل الى وجود نظرية سوسيولوجية عامة فى المستقبل لعلم الاجتماع.

٢- تكمن أهمية اسهامات "فيبر" فى النظرية السوسيولوجية من خلال طرحه عدد من القواعد البحثية والمنهجية التى لا تزال تعتبر موضع اهتمام متزايد من جانب المهتمين عموماً فى مجال النظرية السوسيولوجية أو المناهج العامة لعلم الاجتماع، وخاصة عندما حرص "فيبر" على ضرورة إيجاد علم اجتماع متحرر من القيمة، والبعد عن الذاتية، والالتزام بالموضوعية .

٣- لا تزال قضية النماذج المثالية التى طرحها "فيبر" موضع اهتمام كبير من الناحية النظرية والمنهجية لعلم الاجتماع، وخاصة أن "فيبر" كان حريص كل الحرص على كيفية تطوير الأبحاث النظرية والواقعية (الميدانية) لعلم الاجتماع، ومعالج أهداف البناءات والنماذج المثالية، باعتبارها موجهات عامة، للباحثين وبحوثهم نحو دراسة الواقع، مع الاعتماد على بعض المعايير والتصورات والتحليلات العقلية، والتى تخدم البحث وترقى بمستويات الدراسة

## والتحليل والتعميق العلمى.

٤- رفض "فيبر" كلية طبيعة المناهج التقليدية وغير العلمية، التى تطرح عدداً من الفروض والأفكار العامة التى لا ترتبط بقضايا البحث وأفكاره، وتؤدى إلى اصدار أحكام تقييمية بعيدة عن الواقع الفعلى الذى توجد فيه الظاهرة المدروسة. وإن كان "فيبر" فى نفس الوقت، أكد على أهمية الاستعانة بالمناهج وطرق البحث والتجارب العلمية التى توصلت إليها بعض العلوم الاجتماعية والطبيعية، ولاسيما تلك العلوم التى تؤكد على فكرة السببية والفهم الذاتى والمعنى للموضوعات والسلوك الإنسانى.

٥- تبلورت تحليلات "فيبر" فى النظرية السوسيولوجية وأستمدت مكانتها العلمية فى الوقت الحالى، نظراً لتنوع هذه التحليلات لتشمل ليس فقط مجال النظرية السوسيولوجية العامة الذى يعد من اهم مجالات علم الاجتماع، ولكن أيضاً بلورة الأسس المنهجية العامة التى يقوم عليها هذا العلم وفروعه المختلفة. بالطبع شارك فى هذا الاسهام كتابات "اميل دوركايم" بالاضافة إلى ذلك، ان اسهامات "فيبر" فى النظرية السوسيولوجية قد وضعت الأفكار والأسس العامة للعديد من فروع علم الاجتماع المتخصصة فى الوقت الراهن، مثل علم الاجتماع التنظيمى، والدينى، والقانونى، والتربوى، والصناعى، والتاريخى، والسياسى وغيرها من الفروع الأخرى.

٦- تنوعت اسهامات "فيبر" السوسيولوجية سواء أكانت نظرية أم امبيريقية واقعية، والتى عززت عموماً النظرية السوسيولوجية المعاصرة ومدخلها المختلفة، لاسيما ما يسمى بمدخل الفعل الاجتماعى إلى نظرية "فيبر" التقليدية. كما كانت لهذه الاسهامات الجانب الأكبر فى اصفاء صفة الشرعية العلمية الأكاديمية المتميزة على كثير من شراحه والمحللين لقضاياها وأفكاره العامة ومنهم على سبيل المثال، عالم الاجتماع الأمريكى الشهير "تالكوت بارسونز" T.Parsons، الذى يرى كثير من المحللين لعلم الاجتماع عامة، والنظرية السوسيولوجية خاصة، أن "بارسونز" لم تكتب له الشهرة العلمية والمكانة الأكاديمية التى حصل عليها، إلا من خلال تناوله بالدراسة والتحليل والنمط الفكرى البنائى الوظيفى الذى تبناه رائد المدرسة الوظيفية "ماكس فيبر".

حقيقة، يصعب علينا حالياً، أن نقوم بعملية تقييم إسهامات "فيبر" بصورة يرضى عنها أى باحث اهتم بدراسة هذا العالم وتتبع إسهاماته خلال الربع الأخير من القرن الماضى (العشرين)، وتعرف على الكثير من دراساته المتنوعة، التى لاتزال تتوالى فى الظهور والنشر. ولاسيما، أن كتابات "فيبر" كانت متعددة المجالات والتخصصات، ولم يظهر منها الكثير حتى الآن لأسباب متعددة. وكان "فيبر" يحلم قبل وفاته أن يعيد تصنيف كتاباته، ولكن لم يفلح حيث توفى عام ١٩٢٠، تاركاً وراثته ثروة علمية كبيرة، قام بتصنيفها العديد من شراحه ومفسرى أفكاره من علماء الاجتماع المتخصصين. وعموماً، أن "فيبر" كغيره من علماء البنائية الوظيفية، الذين تعرضوا لعدد من الانتقادات التى من الواجب علينا أن نشير إليها بإيجاز شديد كما يلى:

١- لا يزال تعريف "فيبر" لعلم الاجتماع يتضمن الكثير من اللبس والغموض، وهذا ما يظهر فى تعريفه له بأنه دراسة للفعل الاجتماعى الذاتى، أو المعنى المفسر للسلوك البشرى.

٢- بالرغم من اعتبار "فيبر" (الفرد) وحدة الدراسة الأساسية لعلم الاجتماع، إلا أنه لم يحدد بوضوح العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع أو الجماعة الاجتماعية، حيث أعتقد فى النهاية إلى أهمية طاعة الفرد للمجتمع، وامتناله له بصورة عامة.

٣- جاءت تحليلات "فيبر" حول النماذج المثالية، ومقولة الفهم ممترجة بالكثير من الغموض وصعوبة تفسيرها من الناحية العلمية، وهذا ما ظهر على سبيل المثال فى تحليله للمعنى الذاتى للفعل والسلوك الجمعى.

٤- هناك من يدعى من العلماء أن إسهامات "فيبر" للسوسيولوجية، قد تنطبق فقط على كتاباته فى الدين، والبيروقراطية، والقانون، كما نجى معظم تحليلاته الأخرى فى إطار الثقافة العامة، والعلوم الاجتماعية الأخرى.

٥- تحيز "فيبر" كثيراً من ناحية تركيزه على عوامل ظهور وتطور الرأسمالية الغربية، وخاصة فى مناطق معينة فى أوروبا كما تبنى مذاهب مسيحية محددة دون غيرها، ولقد ظهرت الرأسمالية فى أواخر القرن العشرين فى مناطق

أخرى مسلمة أو غير مسيحية مثل مناطق شرق (جنوب شرق آسيا)، وهذا ما يفقد تصورات "قيبر" حول قضية الرأسمالية كثيراً من مصداقيتها الواقعية.

عموماً، إن تلك الانتقادات السابقة لا تقل كثيراً من اتهامات "قيبر" في النظرية الموسيولوجية الكلاسيكية والمعاصرة، ولكن هذه الانتقادات تكشف بوضوح عن مدى تباین أو معارضة بعض الأفكار الخاصة لدى أصحابها من آراء "قيبر"، التي ظهرت في فترات تاريخية وثقافية، تختلف كثيراً عن نوعية البناءات والنظم والقضايا العامة، التي توجد في نهاية القرن العشرين، ولذا نجد كثيراً من أفكار "قيبر" ونصواته النظرية والواقعية، تناولت طبيعة الحياة الاجتماعية المعاصرة، وهذا ما يفسر عموماً قيمة الاسهام الفيزي في مجال علم الاجتماع وفروعه المتخصصة وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى.

## أهم المراجع المستخدمة

### أولاً: المراجع العربية:

١. سمير نعيم ، النظرية فى علم الاجتماع، القاهرة: مكتبة سعيد رافت، ١٩٧٧.
٢. عبدالله عبدالرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعى، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.
٣. عبدالله عبدالرحمن، علم اجتماع التنظيم، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨.
٤. عبدالله عبدالرحمن، علم الاجتماع الاقتصادى، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣.
٥. عبدالله عبدالرحمن، علم الاجتماع التربوى، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧.
٦. كاترين تيلين، ماكس فيبر والتاريخ، ترجمة جورج كتورة: بيروت، المؤسسة الجامعية، ١٩٩٤.
٧. نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، ترجمة: محمود عودة وآخرون، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢.

### ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Aron,R, Main Currents in Sociological Thought vol.(2) London: Penguin Book, 1977.
2. Bendix,R. Max Weber. An Intellectual Portraut, London: Heinemann, 1960.
3. Bottomore, T, & R.Nisbet, (eds), History of Sociological Analysis, London, 1974.

4. Collins, R. Four Sociological Traditions, N.Y: Oxford Univ. Press, 1994.
5. Coser, L, Masters of Sociological Thought, N.Y: Marcourt Brace INC, 1977.
6. Fletsher, R, The Macking of Sociology, vol (1), London: Thomus Nelson & San Ltd, 1972.
7. Freund, J, The Sociology of Max Weber, London: Penguin Book 1972.
8. LeVire, D, Visions of The Sociological Tradition, Chicago: Chicago Univ Press, 1995.
7. Max Weber, Economy and Society (ed. by G.Roth Bedminster) Press, 1968.
8. Max Weber, Essays in Sociology (ed. & Trans, by Gerth & Mills) N.Y. Oxford Univ. Press, 1958.
9. Max Weber, The General Economic History, (Trans. by F.G. Knight) F.G. Knight) N.Y, 1981.
10. Max Weber, The Protestant Ethic and The Spirit of Capitalism (Trans. by Parsons) London: Unwin Univ. Press, 1974.
11. Max Weber, The Sociology of Religion (Trans by Fischhoff. E.) Boston: Becon Press, 1964.
12. Max Weber, The Theory of Social and Economic Organization (Trans. by Henderson Parsons). N.Y: Gleone Univ. Press, 1949.
13. Ritzer, G, Sociological Theory, N.Y: Mcorawll . Hill, 1988.
14. Wallace, W, Weberian Theory of Human Society N.Y, Rutgers 1994.
15. Zeitlin, I, Ideology and The Development of Sociological Theory, N.J, 1968.





## الفصل الثامن

### "جورج سيمل" ونظرية التفاعل الاجتماعي

تمهيد:

(١) الاتجاه الأيديولوجي والفكري.

(٢) قضايا علم الاجتماع والمدرسة الشكلية.

(٣) المنهج العلمي والنماذج المثالية.

(٤) التفاعل الاجتماعي والثقافي.

(٥) فلسفة النقود.

مناقشة وتعقيب.



## تمهيد:

لاتزال المدرسة السوسيولوجية الألمانية فى علم الاجتماع، تمثل مكانة مرموقة بين المهتمين عموماً بالنظرية السوسيولوجية سواء أكانت تقليدية أم حديثة معاصرة، وهذا ما نلاحظه من خلال تحليلنا للتراث السوسيولوجى لنظرية علم الاجتماع الكلاسيكية، والتي ظهرت معالمها الأولى فى أوروبا الغربية. وإن كانت الجذور التاريخية للمدرسة السوسيولوجية التقليدية الألمانية لم تأت من فراغ بقدر ما ترجع أصولها النظرية الأولى، إلى علماء وفلاسفة ومفكرى عصر النهضة والاصلاح الأوروبى، والتي عبرت عنها كتابات كل من "كانط" Kant و"هيجل" Hegel، وغيرهم آخرون ممن أثروا فى الفكر الاجتماعى بالعديد من الأفكار والتصورات الهامة، التى غيرت الكثير من ملامح الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية خلال العصر الحديث. ومن ثم، لا يمكن للباحث المبتدئ أو المتخصص فى علم الاجتماع عامة، ونظرياته خاصة، أن يتجاهل طبيعة اسهام المدرسة الألمانية السوسيولوجية، التى أمدت هذا العلم ونظرياته بالكثير من القواعد المنهجية والقضايا التصورية المتنوعة حتى الوقت الراهن.

ولعل اهتمامنا الحالى، بأحدى رواد المدرسة السوسيولوجية الألمانية الكلاسيكية وهو "جورج سيمل" G.Simmel، يعد دليلاً هاماً لتمتع هذه المدرسة بمكانة متميزة، وظهر ذلك فى أعمال العديد من روادها، الذين نهتم بدراساتهم واسهاماتهم فى إثراء النظرية السوسيولوجية التقليدية من أمثال "ماكس فيبر" M.Weber و"كارل ماركس" K.Marx، وأصحاب مدرسة فرانكفورت وخاصة "ماركيوز" H.Marcuse، و"هوركهايمر" m.Horkheimer و"أدرنو" T.Adorno، و"هابرماس" J.Habermas، وغيرهم آخرون سوف نتاح لنا الفرصة للإشارة إلى أعمالهم خلال هذا الـرابـع عن النظرية السوسيولوجية التقليدية، وإن كانت إسهامات هذه المدرسة الألمانية لا تزال تثرى أفكارها فى تطوير النظرية السوسيولوجية المعاصرة على نحو ما سنعالجه خلال (الجزء الثانى) من مؤلفنا نظرية علم الاجتماع. على أية حال، سنركز اهتمامنا حالياً، لتقديم عرض تحليلى موجز لاسهامات عالم

الاجتماع الألماني "جورج سيمل"، في اطار دراستنا لرواد النظرية البنائية الوظيفية التقليدية، والتي تم تصنيفها فيما يعرف بالنظرية الوظيفية المبكرة، كما سنركز هذا الفصل لمعالجة أهم الاتجاهات الفكرية والأيدولوجية التي وجهت الاطار العلمي والمنهجي لكتابات "سيمل": ونظريته عن التفاعل الاجتماعي، وأهم القضايا السوسيولوجية للمدرسة الشكلية (الصورية)، وطبيعة المنهج العلمي والنماذج المثالية، وأهم اسهاماته حول دراسة الجماعة الاجتماعية، والتفاعل الاجتماعي والثقافي، وأخيراً الاشارة لكتابه المميزة حول فلسفة النفود، ثم نختم هذا الفصل بتحليل موجز يتناول تقييم شامل لاسهامات "سيمل" السوسيولوجية.

### (١) الاتجاه الأيدولوجي والفكري.

عكست طبيعة الحياة الاجتماعية والمهنية والثقافية التي عاشها "سيمل"، نوعية اهتماماته السوسيولوجية التي أهتم بتحليلها ودراستها بصورة عامة. فلقد عاش في الفترة ما بين (١٨٥٨ - ١٩١٨)، وحرصت أسرته لليهودية التي سكنت مدينة برلين بألمانيا، التي أن توهله لدراسة الفلسفة، والاجتماع، والتاريخ، والدين، وغير ذلك من العلوم الإنسانية الأخرى، ولاسيما علم النفس، والاقتصاد. وجاءت فترة الطفولة "سيمل"، لتعكس أيضاً نوعية الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لأسرته، التي كان عقلها رجل أعمال ناجح مثل غيره من اليهود الألمان خلال هذه الفترة، والذي تحول بعد ذلك الى الديانة المسيحية، وذلك خلال السنوات الأولى لحياة "سيمل". ولقد تعلم "سيمل" العلوم الأساسية، على أيدي الكثير من العلماء الذين تعرف على علمهم عن قرب بعد ذلك من أمثال المؤرخين "ميمسون" Mommsen، "تروتشكي" Treitschke، و"سيابل" Sybel، والفلاسفة من أمثال "هارمس" Harms، و"زيلر" Zeller، وعن الأنثروبولوجيين مثل "لازاربوس" Lazarus، وعلماء النفس من أمثال "باستيان" Bastian، وغيرهم آخرون من الذين كانوا يعملون في جامعة برلين وغيرها من الجامعات الألمانية.

وفي عام ١٨٨١ حصل "سيمل" على رسالة الدكتوراة في الفلسفة وكان موضوع الرسالة حول فلسفة "كانط" الطبيعية، والتي أفادته كثيراً في التعرف

على العديد من القضايا الاجتماعية (الإنسانية) والطبيعية والميتافيزيقية في نفس الوقت. ولقد شغل "سيمل" وظيفة محاضر في نفس الجامعة التي تخرج منها (برلين)، لتتيح له فرص أكثر في التعرف على طبيعة التيارات الفكرية والعلمية والأيدولوجية التي كانت سائدة في ألمانيا وغيرها من الدول الأوروبية. ولقد عمل في الجامعة لعدة سنوات، لتدريس علم الاجتماع، والفلسفة، والمنطق، والتاريخ، وعلم النفس الاجتماعي، والأخلاق. ولقد ساعدت هذه المقررات التدريسية التي كان يقوم بها "سيمل"، في التعرف على طبيعة الموضوعات والمجالات وآراء العلماء والمفكرين الذين ينتمى أفكارهم ونظرياتهم حسب طبيعة هذه العلوم، ولكنه حرص بعد ذلك، للتركيز على علم الاجتماع ليتخصص فيه، بالإضافة إلى اهتمامه أيضاً بالميتافيزيقا، وأصبحت محاضراته موضع إحترام وتقدير سواء من طلابه أو العديد من المتقنين من خارج الجامعة ذاتها.

وبعد مرور خمسة عشر عاماً قضاها محاضراً في جامعة برلين، تم شغله لوظيفة أستاذ، بعد أن ذاع صيته العلمي ليس فقط في ألمانيا ولكن أوروبا والولايات المتحدة . واستطاع أن يؤلف ست مؤلفات رئيسية، وأكثر من سبعون مقالة ثم ترجمة جزء كبير منها إلى العديد من اللغات العالمية. ومن أهم هذه المؤلفات التمايز الاجتماعي On Social Differentiation والذي نشر عام ١٨٩٠، والذي كرس فيها لدراسة المشكلات الاجتماعية، ثم بعد ذلك مؤلفاً عن مشاكل فلسفة التاريخ، Philosophy of History Problems ، ومؤلفاً آخر عن مقدمة في علم الأخلاق، Introduction of The Science of Ethics، اللذان نشر في الفترة ما بين (١٨٩٢-١٨٩٣). وجاء أهم مؤلف اجتماعي له هو فلسفة النقود The Philosophy of Money الذي يدور بين علم الفلسفة، والاجتماع، والاقتصاد والذي نشر عام ١٩٠٠. وبعد نشره مجموعة من المؤلفات والمقالات، استطاع "سيمل" أن ينشر أحد أعماله السوسيولوجية المميزة في علم الاجتماع وهي البحث عن روابط اجتماعية Investigations on The forms of Sociation، والذي نشر عام ١٩٠٨، وفي عام ١٩١٧ أي قبل وفاته بعام نشر أحد مساهماته السوسيولوجية المميزة عن القضايا الرئيسية لعلم الاجتماع The Fundamental Questions of Sociology.

لقد ساعدت هذه المؤلفات على زيادة شهرته العلمية والأكاديمية، والتعرف بوضوح على طبيعة النشاط المعرفي الذي كان موجوداً في الدول الأوروبية. وجاءت تحليلاته لوضع اهتمام من جانب الكثير من العلماء الألمان من أمثال "ماكس فيبر" M. weber، و"هيزل ريكتر" H. Rickert، و"أيديمون هوسرل" E. Husserl، و"أربول فون" A..Von، وأيضاً عالم الاجتماع "توينز" Toennies، كما كانت له صداقات حميمة مع المفكرين والعلماء الذين تميزت أعمالهم من مجموعة الصفوة الألمانية وخاصة، في مرحلة انتقالها إلى جامعة ستراسبورج Starassburg، التي تقع على الحدود بين ألمانيا وفرنسا وذلك عام ١٩١٤. كما استطاع أيضاً أن ينشر مجموعة من المقالات والمجلات العلمية والصحفية الأخرى التي أكسبته شهرة بين صفوف المثقفين والأفراد العاديين أيضاً، الذين كانوا ينشغلون بالثقافة العامة ولاسيما علم الاجتماع الذي أخذ مكانة عالية في ألمانيا خلال العقود الأولى من القرن الماضي (العشرين).

كما تتبلور أهمية تحليلات "سيمل" واهتماماته العلمية، لأنه لم يتقبل كلية الاتجاهات الفكرية والعلمية التي كانت سائدة في ألمانيا، فبعد دراسته للأفكار السوسيولوجية الوضعية الفرنسية والبريطانية، استطاع أن ينتقد بشدة النظريات العضوية The Organicist Theories وخاصة نظريات "أوجست كونت" A.Comte، و"هربرت سبنسر" H. Spencer. كما اتخذ أيضاً موقفاً نقدياً من أصحاب النظرية التاريخية الوصفية Historical Description Theories، وخاصة آراء المدرسة الألمانية. لهذا، نجد اهتمامات "سيمل" تتركز على دراسة علم الاجتماع بصورة خاصة، حيث كانت اهتماماته الأولى تنتمي إلى الفلسفة، والأخلاق، وعلم النفس الاجتماعي. إذ مكنت "سيمل" من عقد نوع من الحوار العلمي والأكاديمي بين طبيعة ووظيفة العلوم الاجتماعية، وخاصة علم الاجتماع من ناحية والعلوم الطبيعية من ناحية أخرى. وهذا ما تبلور بعد نشره لعدد من المؤلفات السوسيولوجية التي تركز حول نظريات علم الاجتماع وقضاياها العامة ومجالاته ونوعية المناهج، وطرق البحث الاجتماعي، التي يجب أن يعطى لها الاهتمام عند دراسة المشكلات والقضايا الواقعية.

ومن ثم، يمكن القول، أن رؤية "سيمل" التحليلية للنظريات والأفكار التي كانت تسود الكتابات السوسيولوجية والفلسفية والسيكولوجية، جعلته يتخذ مواقف نقدية لمعظم هذه النظريات والأفكار. كما جاءت رؤيته التحليلية لتركز أيضاً على الشكل وصور العلاقات، وهذا ما جعل كتاباته تنتمي إلى المدرسة الشكلية أو الصورية في علم الاجتماع Formslistic School. ولاسيما، أن "سيمل" انطلق أساساً من كتابات الفيلسوف الألماني "كانط" Kant، وهذا ما جاء في رسالته للدكتوراة من جامعة برلين عام ١٨٨١. واهتم "سيمل" بدراسة أنماط وأشكال وصور التفاعل الاجتماعي، والروابط والعلاقات التي تحدث بين الجماعات والأفراد والمجتمع ككل مثل: الطاعة، والخضوع، والتنافس، والسيطرة، وتقسيم العمل، وتكوين الأحزاب، والطبقات، والفئات أو الجماعات العرقية، وجماعات الأحداث أو الجناس، والزملاء وجماعات الأصدقاء، وغيرها من الجماعات الاجتماعية الأخرى والتي سنعالجها بنوع من التفصيل بعد ذلك خلال عرضنا إلى أهم أفكاره حول نظرية التفاعل الاجتماعي. وعلى أية حال، لقد كرس "سيمل" جهوده لتوظيف أعماله وأفكاره حول بلورة نظرية عن التفاعل الاجتماعي، بعد رفضه للنظريات العضوية، وأكد على أهمية تبني مدخل التفاعل الاجتماعي في التعرف على دراسة المجتمع وعلم الاجتماع بصورة شاملة وواقعية.

وكما يحدثنا لويس كوزر "L.Cozer"، عن طبيعة الاتجاه الفكري والأيديولوجي، الذي أثر على نمط الأفكار والقضايا النظرية التي طرحها "سيمل" للمناقشة والدراسة والتحليل، وكيف رفض وانتقد وعدل الكثير من تحليلات المدرسة الألمانية بصورة عامة، إلا أننا نلاحظ أيضاً، أن إسهامات "سيمل" يمكن إدراكها في الكثير من تحليلات العلماء المنظرين عموماً في علم الاجتماع. ومنهم على سبيل المثال: عالم الاجتماع الأمريكي روبرت ماركز R. Park، وأيضاً العديد من الفلاسفة الماركسيين من أمثال "جورج لوكاتش" G. Lukacs، و"أرنست بلوخ" E. Bloch، والفلاسفة اللاهوتيين من أمثال "مارتن بوبر" M. Buber، والفيلسوف الاجتماعي الألماني الشهير "ماكس شيلر" M. Sheler، والمؤرخ الاجتماعي "برنارد جرويتسيون" B.Grothuysen. بالإضافة إلى علماء المدرسة الألمانية السوسيولوجية

البارزين من أمثال "كارل مانهايم" K.Manhiem، و"فير كنحت" Vier Kandt، و"ويس" Wiese. كما تأثرت كثيراً آراء مدرسة فرانكفورت بآراء "سيمل"، وخاصة كتابات "أدرونو" Adrono، و"هوركايمر" Horkheimer. بالإضافة الى العديد من علماء الاجتماع المعاصرين الذين تبَنوا كثيراً من الأفكار والآراء السوسيولوجية "لجورج سيمل".

## (٢) قضايا علم الاجتماع والمدرسة الشكلية

تميزت اسهامات "سيمل" في النظرية السوسيولوجية من خلال تقديمه رؤية جديدة لعلم الاجتماع، تختلف كثيراً عن تصورات أنصار المدرسة البنائية الوظيفية التقليدية. ويمكن القول، أن "سيمل" ركز على قضية التفاعل الاجتماعي، باعتباره الوحدة الأساسية، التي يمكن عن طريقها دراسة المجتمع والحياة الاجتماعية. كما جاءت كتاباته لتكشف عن مدى تعمق رؤيته السوسيولوجية، ومحاولته إثراء النظرية السوسيولوجية عن طريق الاهتمام بالمدخل والتحليلات الفلسفية، والميتافيزيقية والأخلاقية والميكولوجية في نفس الوقت. وهذا ما تبلور في اهتماماته وكتاباته وتركيزه على دراسة صور العلاقات وأشكالها، ووضع الأسس الأولى للمدرسة السوسيولوجية الشكلية، التي تميزت بها آراء علماء علم الاجتماع الألمان، واصطبغت عموماً بكتابات "جورج سيمل" على وجه الخصوص. وعلى أية حال، يمكن طرح عدد من القضايا العامة لعلم الاجتماع، كما جاءت في أفكاره "سيمل" وتحليلاته المميزة عن المدرسة السوسيولوجية الشكلية كما يلي:

١- أكد "سيمل" على أن عملية فهم المجتمع ودراسته وتحليله، باعتباره وحدة سوسيولوجية مستقلة عن عقول الأفراد، تعد عملية صعبة وعسيرة وبعيدة أيضاً عن الواقع. ولاسيما، أن أفكار الأفراد وعقولهم لا يمكن تشكيلها إلا من خلال طبيعة ذرات اجتماعية Social Atoms، أو مادة عضوية أو بيولوجية لوطبيعية يتكون منها المجتمع، أو اجراء وحدات مجردة ترتبط بالكل الأكبر الذي توجد فيه . حيث أنها لا تستطيع اكتشاف المادة، باعتبارها أجزاء منفصلة أو أشياء واقعية محسوسة فقط، لكن نتعرف على هذه المادة من خلال ما تكسبه من أشكال أو صور عامة، نترجم في أنماط متعددة من العلاقات



والتفاعل والبناءات الاجتماعية. ولهذا جعل الكثير من رواد النظرية السوسيولوجية المعاصرة يصفون كتابات "سيمل" مؤسس المدرسة الهندسية الاجتماعية The Social Geometry school.

٢- ركز "سيمل" على أهمية تبني مدخل دراسة العلاقات الاجتماعية بين الناس، وخاصة التركيز على قضايا سيكولوجية محددة مثل الدوافع، والغرائز، والغايات الانسانية أو البشرية مثل الدافع للعب والحب أو الدفاع. حيث لا تنشأ العلاقات الاجتماعية، إلا عن طريق وجود مثل هذه الدوافع وتحقيق أو اشباع الحاجات والغايات الأفراد والجماعات والشعوب أيضاً. ولقد كرس "سيمل" جزءاً كبيراً من تحليلاته، لدراسة أنماط متعددة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، واعتبرها نماذج مثالية Ideal Types، وإن كان قد ركز طاقته على دراسة العلاقات السياسية والاقتصادية والسياسية. كما أفرد أيضاً لنماذج العلاقات الاجتماعية اليومية والحياتية، مثل عادات اللبس والأزياء أو تناول الطعام، والمراسلات، ومساعدة المحتاجين.

٣- جعل "سيمل" موضوع علم الاجتماع، يتركز أساساً حول دراسة أنماط التفاعل وأشكال الروابط والعلاقات الاجتماعية وهذا ما حدده بالفعل في تعريفه لموضوع علم الاجتماع، وميزه عن غيره من العلوم الاجتماعية الأخرى. وإن كان تصوره حول نمط العلاقات الاجتماعية أنها متغيرة حسب الزمن، وتظهر في مواقف منتظمة، مثل ظهور الدولة، والكنيسة، أو عصابات المجرمين، أو المدرسة، أو التنظيمات الاقتصادية. وإن كان لم يحدد "سيمل"، ما هي أنماط العلاقات الاجتماعية التي تأخذ في الزوال أو الانحلال بسرعة. بالرغم من تأكيده على وجود عدد من السمات والخصائص العامة التي تميز أشكال العلاقات الاجتماعية وأنماطها، وإن كان هذا التحديد أخذ أبعاداً مجردة ونظرية.

٤- اعتبر "سيمل" أن صورة أو شكل المجتمع، هي المفهوم الرئيسي أو القضية الأساسية التي يركز عليها علم الاجتماع وعلمائه في دراساتهم وتحليلاتهم، ويحدد طبيعة هذه الصورة، ذلك العنصر الذي يتحقق في الحياة الاجتماعية، وله خاصية الاستمرار أو الاستقرار النسبي وتتحدد أشكاله

بصورة نمطية، وإن كان هذا المضمون أو المحتوى لهذا العنصر يخضع للتغيير والتعديل المستمر. ومن ثم، يمكن القول، بأن تصور "سيمل" وتحليله للأشكال وأنماط العلاقات، تعتبر هي جوهر الدراسة العلمية لعلم الاجتماع، والذي يؤدي أيضاً إلى دراسة البناء الواقعي للمجتمع. كما قد تظهر صور التنظيمات أو المؤسسات أو العلاقات، متصارعة من حيث المصالح والتوجهات، التي توجد بالفعل في الواقع، والتي تعيد تشكيل الأنماط المختلفة للتنظيمات والمؤسسات الاجتماعية.

٥- من هذا المنطلق، تصور "سيمل"، أن طبيعة التنظيمات الاجتماعية تظهر فيها أشكالاً متعددة من العلاقات الاجتماعية مثل التعاون، والتنافس، والسمو، وتقسيم العمل، وتكوين الأحزاب وغيرها. وجميع هذه العلاقات -حسب تصور "سيمل"- تكون متشابهة أو متماثلة في صورها، هذا بالرغم من وجود تباين شديد في مضمونها أو محتواها. ولذا، يجب أن تستخدم مناهج علمية أكثر واقعية في دراسة الظواهر الاجتماعية، وتختلف عن العديد من المناهج الأخرى. ويقترح "سيمل" ضرورة تبنى ما يعرف بالمنهج التحليلي الهندسي Geometrical Analytical Method الذي يستخدم في دراسة الظواهر الطبيعية، ولا سيما أن الصور الاجتماعية (العلاقات والتنظيمات)، تأخذ أشكالاً هندسية من حيث صورها وأشكالها وتختلف من حيث المضمون أو الجوهر المادي.

٦- وفي إطار تحديد "سيمل" لأفكاره النظرية، والقضايا والموضوعات الرئيسية، التي يجب أن يهتم بها علم الاجتماع، والتي وصلت إلى درجة عالية من التحديد الشكلي والصورى، الذي تميزت به أعمال المدرسة الصورية أو الشكلية، التي ظهرت في ألمانيا على وجه الخصوص. كما نجده يطرح عدد من المقدمات أو الأفكار أو الأمثلة التوضيحية، ليكشف الفروق بين استخدام المداخل أو المناهج السوسيولوجية، والاقتصادية، والسيكولوجية. مثال ذلك، عندما يضرب بعض العمال عن العمل، فيحلل ذلك عالم النفس، أن سبب الإضراب مجموعة من الدوافع والمواقف التي تجعلهم يقومون بالإضراب، بينما يحلل ذلك عالم الاقتصاد أن سبب الإضراب يرجع إلى قرار نقابة العمال أنفسهم، أما تفسير عالم الاجتماع، يفسر ذلك نظراً لوجود أنماط مختلفة من

الصراع بين صورتين أو أكثر من صور العلاقات. بإيجاز، بالرغم من تحليلات "سيمل" السابقة البعيدة جزئياً عن الواقعية، إلا أنه كان يحرص على تحديد مهمة علم الاجتماع، وبلورتها بأنها تتركز في دراسة للصور الخاصة للمجتمع، بعيداً عن محتواها أو مضمونها المادى. كما يجب أن يهتم علم الاجتماع أيضاً، بدراسة كيفية تغير واختلاف أنماط الصور الاجتماعية، حيث توصل فى النهاية للوصول للقوانين التى تحكم طبيعة عملية التفاعل بين الأعضاء أو أفراد الجماعات فى المجتمع.

٧- بالإضافة الى تقديم "سيمل" تفسيرات حول الصور والأشكال العامة للعلاقات الاجتماعية، وجعلها محور اهتمام علم الاجتماع، إلا أنه سعى أيضاً الى تحليل ما أسماه بالمضمون أو المحتوى Content، ويقصد به، المضمون المادى للمجتمع، الذى تمتلئ به الحياة، ونوعية الدوافع والعواطف والغرائز، والتى تقوم بعملية استمرارية العلاقات. فدوافع أو غرائز الجوع أو الحب، أو العمل، أو التدين، لا يمكن أن تكون اجتماعية، إلا عندما تقوم بدور اجتماعى وإيجابى، وذلك عن طريق تحريكها للأفراد المعزولين، وتوجيههم الى أنماط مختلفة من العلاقات تتم عن طريق أشكالاً متعددة من أنماط التفاعل، والتى تقوم أيضاً بإشباع حاجاتهم ومصالحهم (الأفراد)، فى شكل أو صورة معينة من البناءات أو التنظيمات أو المجتمعات البشرية.

٨- عموماً، وحسب تصور "سيمل"، إن مهمة علم الاجتماع تتحصر أساساً فى تحديده لأنماط الخالصة للأشكال الاجتماعية أو المجتمع البشرى. والاهتمام أيضاً بدراسة المجتمع باعتباره نتاج للنشاط البشرى، وتظهر فيه العديد من صور وأشكال العلاقات الفردية والجمعية، كما يحدث خلال الحياة اليومية العادية، وإن كانت هذه الصور والأشكال، لا يمكن فهمها بعيداً عن محتواها أو مضمونها، أو اعتبارها حقائق مستقلة، بعيدة عن محتواها وعن مضمونها. أو المجتمع الذى تظهر فيه. وعموماً أكد "سيمل" على أن الوجود الانسانى هو جوهر اهتمام علم الاجتماع، الذى يجب أن يقتصر على دراسة الأنماط والتكوينات الاجتماعية الكبرى، كما أن موضوع هذا العلم هو دراسة أنماط التفاعل التى تحدث بين ذرات المجتمع (الأفراد).

### (٣) المنهج العلمى والنماذج المثالية

اتسمت تحليلات "سيمل" بأنه سعى لاتخاذ خط فكري مجرد يبعد الى حد ما عن النظريات السوسولوجية التى كانت سائدة خلال القرن للتاسع عشر ولاسيما النظريات العضوية Organic Theories عند كل من "سبنسر" و"كونت"، أو النظريات التاريخية Historical Theories ذات الطابع الوصفى للأحداث التاريخية، والتى انتشرت آنذاك فى ألمانيا ولهذا السبب، حاول "سيمل" أن يحدد طبيعة المجتمع الحديث وتكوينه من مجموعة معقدة من أنماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية، التى يجب أن يكرس لها علم الاجتماع اهتماماته، ومعرفة العوامل والمؤثرات الاجتماعية والتاريخية التى تغيرها بصورة مستمرة.

فلقد كرس "سيمل" توجيه أفكاره لجعل علم الاجتماع يبعد الى حد ما عن المدخل العضوية التقليدية، ويركز على تحليل العلاقة بين الطبيعة والمجتمع. ودراسة العمليات الاجتماعية باعتبارها عمليات معقدة عن العمليات البيولوجية Biological Processes. فالحياة الاجتماعية عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات وغير بسيطة مثل الظاهرة البيولوجية، نظراً لتعدد طبيعة الكائن الاجتماعى ذاته. من أجل هذا السبب، حاول "سيمل" أن يغير من المداخل الميتودولوجية التى ينتهجها علم الاجتماع، وأن يبنى المناهج التى تنتهجها العلوم الطبيعية من أجل دراسة الجنس البشرى وعلاقاته وسلوكه المعقد. وهذا مايجعل علم الاجتماع أحد العلوم الاجتماعية المميزة، التى يجب أن تركز على دراسة القوانين التى تحكم جميع التطورات والتغيرات الاجتماعية.

وفى هذا الإطار اهتم "سيمل" بمعالجة مفهوم علم الاجتماع موضعاً العوامل التى تؤدى لتحديد خصائص هذا العلم وموضوعاته ومجالاته وخاصة ضرورة بنى المناهج العلمية فى دراسة قضاياها والظواهر التى يهتم بمعالجتها، وتحديد ماهيته عن غيره من العلوم الاجتماعية الأخرى. كما حاول "سيمل" أن يعطى بعض الأمثلة على ذلك وخاصة العلوم التى سبقت نشأتها التاريخية ظهور علم الاجتماع ذاته، ولاسيما علم السياسة والاقتصاد كما أكد

على أن مفهوم (المجتمع) ككل يعد المفهوم الرئيسى فى علم الاجتماع والذى يجب أن يركز اهتمامه لدراسته بصورة أكثر تحليلاً وواقعية. لو بمعنى آخر ، يجب أن يهتم علم الاجتماع بتحليل البناء الاجتماعى الواقعى وما يتضمنه من تنظيمات اجتماعية ومصالح عامة وفردية متضاربة، والعديد من العلاقات الاجتماعية مثل السمو والدونية، والمنافسة، وتقسيم العمل، وغيرها من العلاقات الاجتماعية المتغيرة. كما يجب أن يكرس علم الاجتماع جهوده، لمعرفة الأسباب التى تؤدى الى التغير فى البناء الاجتماعى الواقعى ونمط العلاقات والتنظيمات الاجتماعية، والظروف التى تؤدى الى التغير أو اعاقته. ومن ثم، يصعب على علم الاجتماع من الناحية المنهجية، أن يتبنى منهجاً معيناً بقدر ما يجب أن يتبنى مجموعة من المناهج المشتركة لدراسة الظواهر الاجتماعية، مثل استخدام مدخل التحليل الهندسى فى دراسة الظواهر الطبيعية.

وفى ضوء تصور "سيمل" لمنهجية علم الاجتماع، عقد الكثير من التحليلات بين علم الاجتماع والعديد من العلوم الاجتماعية الأخرى ولاسيما علم النفس، والفلسفة، والتاريخ، ليؤكد على أهمية علم الاجتماع ودوره فى الكشف عن القوانين الاجتماعية وتأثيرها وتغير أنماط التنظيم الأخرى، وعلاقاته وصوره المختلفة حسب الزمان والمكان. علاوة على ذلك، ركز "سيمل" للتمييز بين المداخل السوسولوجية، والسيكولوجية، والاقتصادية عند دراسة بعض الظواهر الاجتماعية موضحاً عمق تصورات المداخل السوسولوجية، التى يهتم بها عالم الاجتماع عن عالم الاقتصاد ومدخله الاقتصادية المجردة، خاصة وأن المداخل الأولى (السوسولوجية) تهتم بمعالجة القضايا والظواهر بصورة أكثر واقعية وفى إطارها المجتمعى الخارجى. وبإيجاز، رأى "سيمل"، أن أفضل المناهج العلمية التى يمكن استخدامها فى دراسة تلك القضايا والظواهر هى المناهج المقارنة، وإن كانت قد تختلف تلك المناهج عما استخدمها بالفعل بعض العلماء لتطريزين من أمثال "سينسر".

وإن كانت تصورات "سيمل" حول منهجية علم الاجتماع ترتبط بالطبع بأفكاره النظرية السوسولوجية وتحديده للقضايا والموضوعات، التى يجب أن

يهتم بها هذا العلم وعلمائه. ومن هذا المنطلق حرص "سيمل" على توضيح بعض الطرق أو الوسائل التي عن طريقها يحدد خصائص هذا العلم، والذي يتبلور في ضرورة أن يعين علم الاجتماع موضوعاً محدداً ويطبق عليه المناهج العلمية، كما يجب أيضاً أن يحدد مفاهيمه أو لغته المتخصصة. كما يسعى في الوقت ذاته، لأن يوضح كيفية حدوث ما يعرف بتقسيم العمل بين العلوم الاجتماعية والطبيعية، وذلك حسب طبيعة المفاهيم، التي تقيم نوعاً من التمايز أو التفاضل بين هذه العلوم. فيفضل هذه المفاهيم، أمكن إقامة القواعد التصورية لإقامة علوم مثل السياسة، والاقتصاد، والعلوم الأخرى التي تخصصت في دراسة الثقافة الإنسانية. ومن هذا المنطلق، تصور "سيمل" أن أفكار بعض العلماء هي التي تميز علوماً عن علوم أخرى، كما حدد ذلك "كونت" في وضعه علم الاجتماع على قائمة العلوم أو تصدرها لها جميعاً، حيث يعد ذلك أمراً غير منطقياً أو تعديلاً من الناحية العلمية، لأنه لا يوجد علماً اجتماعياً فريداً عن العلوم الأخرى، حيث تتكامل جميعها في دراسة الواقع الفعلي للحياة البشرية.

ويحدثنا في هذا العدد "لويس كوزر" L. Coser، عندما يعرض طبيعة المنهج الديالكتيكي The Dialectical Method، خاصة الطرق والمناهج العلمية التي تميزت بها تحليلات النظرية السوسيولوجية عند "سيمل"، ذلك (المنهج) الذي تميزت به الكثير من تحليلات المدرسة الألمانية السوسيولوجية، والتي ظهرت في تحليلات "كارل ماركس" K. Marx واثقنها "سيمل" من خلال دراسته للنظريات الكانطية وغيره من رواد الفكر الفلسفي المثالي الألماني. فلقد سنعلم "سيمل" هذا المنهج في دراسة العلاقات الديناميكية المتداخلة، التي يجب استخدامها عند تحليل الظواهر الاجتماعية، ومعرفة أنماط الصراع التي توجد بين الوحدات الاجتماعية. كما تظهر أهمية هذا المنهج عندما يقوم العلم الاجتماعي بدراسة العلاقة المتداخلة بين الأفراد (كذرات اجتماعية) وبين المجتمع، ولا سيما إذا اعتبرنا أن الفرد أو الأفراد ما هم إلا إنتاج لهذا المجتمع، وهم أيضاً العنصر الذي يشكل ما أسماه العملية الاجتماعية The Social Process.

بالإضافة الى ذلك طرح "سيمل"، النماذج المثالية Ideal Types، كغيره من رواد المدرسة الالمانية السوسيولوجية الكلاسيكية من أمثال "تونيز" Tonnies و"ماكس فيبر" M. Weber وغيرهم آخرون من الذين استعانوا بالنماذج المثالية - كأداة تحليلية - عموماً فى دراسة الظواهر والوقائع الاجتماعية. وهذا بالفعل ما حددته "سيمل" عندما أهتم بدراسة النماذج المثالية، خاصة عند تفسيره للصور والأشكال الاجتماعية، وأيضاً معرفة وتحليل المعنى أو المضمون. وهذا ما ظهر فى معظم تحليلاته ومناقشته للعديد من الأشكال الاجتماعية، مثل أشكال وأنماط الجماعة الاجتماعية، والعملية الاجتماعية Sociation، والاحتفاظ بالأسرار Secretes، والموضة Fashion وغير ذلك من القضايا التى سعى لتحليلها ومعرفة المعانى والأفعال المرتبطة بها، ولأسيما، أنه تصور أن معانى الأفعال هى التى تحدد البناء الاجتماعى Social Structure. هذا بالإضافة إلى تأكيده على أهمية استخدام الأنماط المثالية، فى فهم طبيعة الذات الفردية والجمعية والاجتماعية معاً، أو معرفة العلاقات المتداخلة بين الفرد والمجتمع. بإيجاز، تعتبر الأنماط المثالية، بمثابة الاطار التصورى الذى يوجه الباحثين والعلماء عند تفسيرهم للواقع والحقائق الاجتماعية، وذلك عندما يقومون باختبار ما لديهم من أنماط مثالية حولها وما يجدونه فعلاً فى الواقع.

#### (٤) التفاعل الاجتماعى والثقافى.

فى اطار تحليلنا لاسهامات "جورج سيمل" فى النظرية السوسيولوجية، وخاصة كتابه المميز حول "نظرية التفاعل الاجتماعى"، التى تعتبر جزءاً أساسياً من مكونات النظريات السوسيولوجية الفرعية، التى تتدرج تحت اطار النظرية البنائية الوظيفية الكلاسيكية فى علم الاجتماع. نجد أن أفكار "سيمل" التى أمتزجت بين التاريخ، والفلسفة، والأخلاق، والميتافيزيقا، وعلم النفس، والاقتصاد وايضاً علم الاجتماع، قد ركزت على دراسة العلم الأخير، بعد قيامه بوضع عدد من الأفكار السوسيولوجية المميزة والتى طرحها بالفعل فى مجموعة من المؤلفات المتخصصة فى علم الاجتماع، ولم تتناولها اهتمامات عدة من جانب المفسرين للنظرية السوسيولوجية الكلاسيكية أو المعاصرة،



كغيرها من مؤلفات علماء الاجتماع التقليديين. وهذا بالفعل ما لاحظناه من خلال تفسيرنا للإسهامات السوسيولوجية النظرية والمنهجية معاً، التي طرحها "سيمل" وحاول تحليلها من منظور علم النفس الاجتماعي، كعلم متخصص يجمع بين علم الاجتماع والنفس، ويحاول أن يطور منهجية هذا العلم بعيداً عن المداخل السوسيولوجية التقليدية المسيطرة على الفكر الاجتماعي في الفترة التي عاصرها بالفعل وهذا ما تمثل في استخدامه للمنهج التحليلي الهندسي.

كما نبلور استخدامات هذا المنهج عند "سيمل" عندما درس الجماعة الاجتماعية Social Group، وأنماط التفاعل الاجتماعي الثقافي، وتحديد عدد من أنماط الجماعة والتفاعل والعلاقات الاجتماعية، والتي بلورها في إطار تصوراتها العامة حول الأشكال الاجتماعية والصورية التي توجد في الواقع. ولقد طرح "سيمل" مجموعة معينة من أنماط الجماعة والعلاقات الاجتماعية التي تصاحبها، وهذا ما ظهر في تحديده لما يعرف بالجماعات الثنائية Dyad، والتي تتكون من شخصين فقط، والجماعة الثلاثية Triad، والتي تتحدد من ثلاثة أشخاص. وتصور أن الشخص الثالث في الجماعة (الثلاثية) يكون أكثر فاعلية في أنماط العلاقات والتفاعل داخل الجماعة، ومكونات عملية التفاعل بها، واعتبر أن الشخص الثالث، هو صاحب التغيير السببي والراديكالي والجوهري داخل بناءات الجماعة وصور علاقاتها وأنماط أشكالها. كما حاول "سيمل" أيضاً، أن يؤكد على أن الزيادة العددية للجماعة هي التي تعكس تعدد نمط العلاقات وتفسير طبيعة أشكالها ومضمون ومحتوى أفعالها وبناءاتها ككل.

كما ناقش "سيمل"، طبيعة الجماعة وبناءاتها في ضوء استخدام مفاهيم ومداخل علم النفس الاجتماعي، وما يعرف أيضاً بالمدخل أو المنهج التحليلي الهندسي الاجتماعي Social Geometry Method، وهذا ما ظهر عندما حلل طبيعة التفاعل بين الجماعة الاجتماعية. وخاصة الجماعة ثلاثية الأشخاص، Traid، والدور الاجتماعي Social Role، الذي يمكن أن يقوم به هذا الشخص داخل بناءات الجماعة ووعية النسقات التي يعقدها داخل الجماعة، ويقصدها بها جماعة الشخصين والتي تحدث بينها أنماط من الصراع Conflict، وأيضاً



التنافس Competition أو التعاون Cooperation. كما قد يسعى الفرد الثالث بلعب دور المحكم أو المنسق أو الذى يسعى لتحقيق السيادة Superiority. ولقد استخدم "سيمل" بعض المفاهيم السوسيولوجية المميزة فى تحليله للدور الوظيفى والتفاعلى للشخص الثالث فى الجماعة الثلاثية. عندما أشار إلى طبيعة هذا الدور الذى يؤدي إلى ما يعرف بنظام الحراك أو التنقل الاجتماعى Stratification System، أو النظام التسلطى Authoritarian الذى يحدث داخل بناءات الجماعة. فى نفس الوقت، أن ميمه هذا الدور تتبلور فى اعتباره من الأدوار الوظيفية والتفاعلية داخل بناءات الجماعة، ويعمل على تطوير وتحديث هذه البناءات وأنماط التفاعل والعلاقات التى لا يمكن أن توجد داخل الجماعات الثنائية الأشخاص.

من ناحية أخرى، يطور "سيمل" نمط الجماعات الثنائية أو الثلاثية الأشخاص فى إطار تحليله لتطور البناءات الاجتماعية، وهذا ما حله فى تصورات حول أنواع الجماعات الاجتماعية (الصغيرة)، التى تتكون من أربعة أشخاص، والجماعات الكبيرة التى تتكون من خمس أشخاص فأكثر، والتى تتطور حسب تطور المعايير والأعراف والقوانين الاجتماعية، والتى تختلف عن الجماعات الثنائية والثلاثية. وإن كان "سيمل" يستخدم النماذج المثالية فى تحديده للعلاقة التطورية والتفاعلية بين مكونات أو بناءات الجماعة ونوعية تغيير الحجم وشكل العلاقات والتفاعل الاجتماعى ونمط الارتباط والتضامن، الذى يتغير من الجماعات الصغيرة إلى الكبيرة التى يتكون منها المجتمع الأكبر. كما ناقش أيضاً، تغيير العلاقات وأنماط السلطة Authority، والحرية Freedom، التى يتمتع بها الأفراد داخل الجماعات الصغيرة والكبيرة، وهذا ما يظهر خلال الشكل التالى حول الأنماط المثالية للجماعة أو الجماعات الاجتماعية عند "سيمل".

### نمط الجماعة والتفاعل الاجتماعي عند 'سيمل'

| - البدو<br>الرحل                                   | - علاقات<br>ثنائية                                   | - علاقات<br>تبادلية                          | - جماعة<br>صغيرة                                          | - جماعة<br>كبيرة                                                              |
|----------------------------------------------------|------------------------------------------------------|----------------------------------------------|-----------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------------------------|
| - فرد وحيد<br>له أكبر قدر<br>من الحرية<br>والسلطة. | - تتكون من<br>شخصين<br>بينهما علاقة<br>اعتماد متبادل | - ثلاثة<br>أشخاص<br>بينهم أنماط<br>من السلطة | - أربعة<br>أشخاص<br>تظهر بينهم<br>معايير وتكون<br>وامتصاص | - تتكون من<br>خمس<br>أشخاص<br>أكثر شكية،<br>وتظهر<br>القوانين التي<br>تحكمهم. |
|                                                    | مكثف<br>للفردين.                                     | بينها<br>والتوفيق<br>بينهم.                  | اجتماعية<br>معينة.                                        |                                                                               |

- المصدر جراهام كينلوش، النظرية السوسولوجية - مصدر سابق، ص ١٨١.

كما ناقش 'سيمل' قضية الثقافة أو التفاعل الثقافي Cultural Interaction، وذلك في إطار تحليله للثقافة الذاتية الفردية Individual (Subjective) Culture، وما أسماه بالثقافة الموضوعية Objective Culture. فلقد تصور 'سيمل' أن الأفراد أو الناس يتأثرون ويتهددون ليس فقط بواسطة البناءات الاجتماعية، ولكن أيضاً بمنتجاتهم الثقافية ذاتها. وهذا ما جعله يميز بين الثقافة الفردية أو ثقافة الفرد، والثقافة الموضوعية. فالثقافة الموضوعية، هي ذلك النوع من الثقافة التي يقوم الإنسان أو الفرد بمنتجاتها مثل، الفنون والفلسفة، والعلم وغيرها. ولذا، فإن هذا النوع من الثقافة هو الذي يحدد الثقافة (الدائرية) للفرد: رتبتي ستمس مقدار قدره أو الكفاءة التي يستطيع بها (الفرد) أو الفاعل في إنتاجها، وامتصاصها، أو تمثيلها أو السيطرة على عناصر الثقافة الموضوعية، وهذا النوع من الثقافة هي التي تعطى للحياة طابعاً مميزاً محدداً.

وبالإضافة إلى ذلك، ناقش "سيمل" أيضاً طبيعة الحياة البشرية، عندما حلل من منظور ديالكتيكي، كما يرى بعض المفسرين للنظرية السوسيولوجية عامة بأن هذا التحليل يعكس فلسفة "سيمل" السوسيولوجية، أو بمعنى أدق بعلم الاجتماع الفلسفي Philosophical Sociology عند "سيمل"، والتي ناقش فيها طبيعة نشأة البناءات الثقافية والاجتماعية، والتي اتخذ منها "سيمل" موقفاً تحليلياً ومعرفياً قريباً جداً من تصورات "كارل ماركس" K.Marx. وخاصة كيفية نشأة البناءات الاجتماعية والثقافية الرأسمالية الحديثة. وهذا ما ظهر في تحليلات "سيمل" واستخدامه لمفاهيم حياة أكثر More Life، والتي يقصد بها أن الناس بأفكارهم وأفعالهم ينتمون إلى الحياة الاجتماعية Social Life، وخلال هذه العملية يقومون بإنتاج أنفسهم. كما أن خلال حدوث العملية، يقوم الأفراد بإنتاج مجموعة من الأشياء والأهداف والغايات، والتي أطلق عليها مصطلح أكثر من الحياة More Than Life، والتي توصل إليها "سيمل" ولاسيما أن الناس ينتجون في حياتهم مجموعة من أنماط الحياة الثقافية والاجتماعية ويعتبرون (عبداً) لها. وهذا التصور لدى "سيمل" قد يأخذ تصوراً آخر عن تصورات "ماركس" حول الاغتراب، أو أفكاره عامة عن الثقافة والبناءات القومية والتحديث، ويقترب من تصورات "ماكس فيبر" عن سيطرة الحياة المعاصرة على الأفراد والجماعات، عندما أشار إلى أن الناس يعيشون في القفص الحديدي للثقافة الموضوعية The Iron Cage of Objective Culture، ويظهر ذلك في العديد من التصورات التي حللها "سيمل" حول الوعي الفردي Individual Consciousness، والإنتاج الثقافي والمعرفي، الذي يوجد في المجتمعات الحديثة، والتي تعكس عموماً مدى إسهامات "سيمل" في النظرية السوسيولوجية وهذا ما سنناقشه في دراسته المميزة عن فلسفه النقود.

#### (٥) فلسفة النقود.

يعد كتاب "سيمل" النقود The Philosophy of Money أحد الكتب السوسيو - اقتصادية الهامة، التي لم يعط لها اهتماماً ملحوظاً من جانب التحليلات الاقتصادية الاجتماعية، وربما يرجع السبب إلى ذلك، عنوان هذا

الكتاب ذاته على حد تعبير - لويس كوزر- وبعض التصورات الميتافيزيقية التي كانت تكتنف تحليلات "سيمل" ذاتها، كما إلى تأخر ترجمة كتاباته من الألمانية إلى الإنجليزية لبعض الوقت. إلا أن أهمية الكتاب تكمن في احتوائه على العديد من الأفكار والتصورات الهامة التي ينتمى إلى ما يسمى بعلم الاجتماع الثقافي Sociology Cultural، وتحليلاته المتعددة لكثير من الظواهر والمشكلات الاقتصادية وارتباطها بالواقع المجتمعي.

فلقد ناقش "سيمل" قضية التبادل الاقتصادي Economic Exchange في أحد أشكال التفاعل الاجتماعي Social Interaction، ويدلل على ذلك بأن العمليات والأساليب المالية الحالية قد حلت الكثير من أنماط المقايضة Barter Types التقليدية، كما ترتب عليها العديد من أنماط التفاعل بين الفاعلين الاجتماعيين Social Actors (الأفراد) في الوقت الحاضر. ومن ثم فإن النقود أصبحت أحد المقاييس العامة التي على أساسها تصنف العلاقات، وصور التفاعل الاجتماعي بين الأفراد في المجتمع، خاصة وأنها تتسم بالعلاقات غير الشخصية، والتي تختلف بالطبع عن أنماط التكامل والمقايضة في مجتمعات ما قبل الحديثة. ومن هذا المنطلق فلقد أدت عملية التعامل والتبادل الاقتصادي بواسطة النقود إلى تغيير الكثير من جوانب العلاقات والعمليات الاجتماعية المختلفة، كما عكست أنماط التفاعل والتحول نحو العقلانية، التي تعد من أهم سمات المجتمع الصناعي الحديث. فالنقود باعتبارها وسيلة للتبادل والتفاعل بين الأفراد، قد أخلت العلاقات الشخصية التي تتسم بالمشاعر والعواطف الفردية، بالعلاقات اللاشخصية. وهذا ما ظهر بوضوح على العديد من العلاقات الاجتماعية الشخصية، التي كانت موجودة في المجتمعات التقليدية التي كانت تقوم على علاقات القرابة Kinship Relations على سبيل المثال.

من ناحية أخرى، يحلل "سيمل" الآثار الناتجة عن عملية النقود كوسيلة للتبادل والمعاملات الاقتصادية في العصر الحديث، فلقد أحدثت كل من النقود وظروف العصر زيادة كبيرة في الحرية الشخصية Personal Freedom، وأسهمت في عملية التباين الاجتماعي Social Differentiation

كما أدت إلى إحلال الجماعات الاجتماعية الطبيعية بالاتحادات الاختيارية Voluntry Associations، التي أقيمت من أجل تحقيق أغراض وأهداف عقلانية، كما قد تغيرت طبيعة العلاقات الاجتماعية، التي كانت تقوم حسب علاقات القرابة أو الدم أو الولاء Loyalty. وهكذا، يمكن القول، بأن النقود توصف بأنها أكثر من مجرد مستوى للقيمة Standard of Value وسيلة للتبادل، ولها العديد من الوظائف الاقتصادية، كما تعد رمزاً للعديد من أنماط وروح العقلانية التي تتجسد في الحياة الاجتماعية الحديثة. فالنقود يمكن استخدامها لمعرفة الاختلافات النوعية ليس فقط بين قيم الأشياء أو البضائع، ولكن أيضاً بين الناس أنفسهم. فهي (النقود) تعتبر ميكانيزم للتعرف على عملية تحول المجتمع من المرحلة التقليدية إلى المرحلة الحديثة.

في الواقع، إن تصورات "سيمل" الاقتصادية تتسم بالطابع الليبرالي التقدمي، الذي كرس أساساً لتحليل العلاقة بين الفرد والمجتمع من ناحية، والثقافة والمجتمع من ناحية أخرى. وهذا ما يظهر بوضوح في استخدام "سيمل" لفكرة "الثانية" التي كانت تستخدم بصورة واسعة بين العديد من كتابات علماء الاجتماع من أمثال "فيبر"، و"توركايم"، و"سبنسر"، و"توينز" وغيرهم من علماء الاجتماع التقليديين. فلقد تصور "سيمل" نمطاً من أنماط المجتمعات، الأولى تسمى ما قبل الحديث Pre Modern Societies، حيث كانت تتسم بعلاقات الاجتماعية والاقتصادية بالعلاقات الشخصية وروابط القرابة والدم والولاء كما كانت تنتمي الشخصية الفردية إلى العديد من الجماعات والعلاقات الأولية. وبايجاز، كان طبيعة التنظيم الاجتماعي في العصور الوسطى يقوم على التضامن الاجتماعي والولاء التام للمجتمع والجماعات التي ينتمي إليها الفرد. أما الثانية، فهي المجتمعات الحديثة، فالأمر يختلف تماماً، فأصبح الفرد ينتمي إلى الجماعات والاتحادات المهنية والاجتماعية المختلفة، وأصبح مصدر الولاء بعيداً عن دائرة العلاقات القرابية الأولية والسلطة التقليدية والدينية. كما أصبح الفرد يتمتع بالعديد من الحريات الاجتماعية والاقتصادية. علاوة على ذلك، إن طبيعة الاحتياجات والرغبات التي يسعى لتحقيقها الفرد أصبحت متعددة ومتنوعة، وهذا ما ظهر واضحاً في نوعية الأنشطة الاقتصادية وسعى الفرد لتحقيق المصالح الذاتية.

علاوة على ذلك، ركز "سيمل" إلى تحليل التكنولوجيا Technology ومدى تأثيرها على نوعية المنتجات المادية والاقتصادية، وتنويع رغبات واهتمامات واحتياجات الفرد في المجتمعات الحديثة. وكيف أدت التكنولوجيا إلى إنتاج منتجات غير ضرورية Unnecessary Products لكى تلبي احتياجات زائفة Artificial كما أسهمت العلوم فى ظهور معرفة غير ضرورية Unnecessary Knowledge ، تلك المعرفة التى لم تعد تميز بقيمة معينة، ولكنها ببساطة ظهرت باعتبارها نوع من الإنتاج الآلى (التكنولوجيا)، الذى ازداد بفضل التوسع فى الأنشطة العلمية. ونتيجة إلى تلك التغيرات، وجد الإنسان الحديث ذاته متورطاً فى كثير من المشاكل الموقفية والعناصر الثقافية المتعددة، التى قد لاتعد ذات معنى له أولاًخرين. من ناحية أخرى، سعى "سيمل" لمناقشة "تقسيم العمل" فى المجتمع الحديث وعلاقاته بالتكنولوجيا وظهور الآلية وزيادة الإنتاج المادى وغير المادى (الثقافى)، وحدث الصراع بين اهتمامات ورغبات واحتياجات كل من المستهلكين والمنتجين، ذلك الصراع الناتج عن الاختلافات الاجتماعية والثقافية. حقيقة، إن "سيمل" كانت لديه اهتمامات متعددة حول مفهوم الثقافة وما يسمى بتراجيديا الرؤية الثقافية، تلك النزعة التى ظهرت لدى عدد من الكتاب والمفكرين والتى تمتد جذورها عند كل من "كوندرسيه" Condorcet و"شيلر" Schiller، و"نيتشه" Nietzsche.

فى الواقع، لقد ظهرت فى السنوات الأخيرة مجموعة من التحليلات فى علم الاجتماع الاقتصادى، والتى سعت لدراسة مساهمات "سيمل" فى هذا المجال. حيث يرى البعض، أن كتاب "فلسفة النقود" لم يلق اهتماماً كبيراً من جانب علماء الاجتماع والاقتصاد معاً. نظراً للأسباب التى أشرنا إليها مسبقاً ولصعوبة تصنيف هذا الكتاب فى واحد من العلوم الاجتماعية، وعدم التركيز بصورة أساسية على القضايا الاقتصادية وكيفية دراستها، وهذا ما عبر عنه بوضوح كل من "توركليم"، و"قيبر" فى وجهة نظريهما على كتاب "سيمل" السابق. فلقد رأى "قيبر" بأن اهتمامات "سيمل" لم تشر إلى محتوى للنظرية الاقتصادية وربما كان "سيمل" يهدف لإبراز وجهة نظره حول التحليل الاقتصادى والكلاسيكى فى دراسة الظاهرة الاقتصادية، حيث عبر بوضوح عن أهمية علم الاقتصاد فى دراسة الحقائق الاقتصادية Economic Facts وهذا ما أشار إليه فى كتاب فلسفة النقود.

بالرغم من وجهة نظر "قيبر" السابقة وتعقيبه على كتاب فلسفة النقود، إلا أنه تصور أن آراء "سيمل" كانت خليطاً من الأفكار الفلسفية والسوسيولوجية والفنية، والتاريخية وكان العنصر السوسيولوجي في التحليل هو الغالب، وبعد كتاب "فلسفة النقود" أهم الأعمال السوسيولوجية من وجهة نظر "قيبر" خاصة في مرحلة من المراحل التي كانت فيها التحليلات السوسيولوجية لها طابع مميز، والتي اهتمت بمعالجة النقود على أنها ظاهرة سوسيولوجية، وكشكل من أشكال التفاعل البشري. وفي الواقع - كما يتصور "سويدبرج" Swedberg - أن اسهام كتاب "فلسفة النقود" في علم الاجتماع الاقتصادي من الصعب تحديده، نظراً لأن ذلك الكتاب قد أحتوى على العديد من الملاحظات السوسيولوجية للكثير من الموضوعات الاقتصادية مثل التضخم، والرشوة، والديون، والمجوهرات، والعملات النقدية، وأوراق أو سندات الليانصيب وغيرها من الموضوعات الأخرى. وكثير من هذه الموضوعات قد ناقشها "سيمل" في إطار فكرته عن "التبادل" التي كانت الفكرة الرئيسية في التحليل. ومن ثم، فإن تصورات "سيمل" في هذا الصدد تعد من التحليلات السوسيولوجية الأولى في هذا المجال والتي أظهرت دور النقود في الحياة الاقتصادية.

وفي الواقع، لقد ربط "سيمل" في تحليلاته للنظرية السوسيولوجية وخاصة تصوراته عن الثقافة الموضوعية، بين فروع علم الاجتماع، حيث تصور "سيمل" أنها من أهم مكونات الثقافة والمنتجات العلمية، والتكنولوجية، والفنون، واللغة، والمجال الفكري، والنظم والمبادئ الدينية، والنظم الفلسفية، والأعراف والمثل العليا، وغيرها من أنماط هذه الثقافة التي ظهرت في تحليلات "سيمل"، والتي تتطور وتتغير وذلك بفضل زيادة عملية التحديث Modernization Process ، والتطلع إلى تطوير الثقافة أو ما يسمى بـ "مؤشر الواقع أو العالم الثقافي المتغير". كما حرص "سيمل" في تحليلاته بصورة خاصة في فلسفة النقود على أن يوضح كيفية سيطرة الثقافة الموضوعية، على الثقافة الذاتية للأفراد، وذلك بسبب سيطرة الثقافة المادية والتي أصبحت تسيطر على جميع أنماط الحياة والبناءات الاجتماعية والثقافية في العالم الحديث. كما ناقش ذلك "سيمل" في تصورات سوسيولوجية معقدة وهذا ما حلله



عن التفاعل الاجتماعي والثقافي الذي يحدث خلال العصر الحالي. وهذا ما ظهر في مقالته عن الميثربولس والحياة العقلية The Metropolis and Mental Life، أو ما يحدث عموماً داخل المدن الحديثة Modern Cities وتأثيرها على الحياة العقلية والفكرية والثقافية، والتي باتت تسيطر عليها النزعات الفردية والمادية، أو ما يسمى حديثاً بسيطرة لقتصاد النقود The Money Economy، وتدهور الحياة العقلية والعاطفية والعلاقات الانسانية بين الأفراد والجماعات داخل هذه المدن الحديثة.

### مناقشة وتعقيب.

يعكس تحليل إسهامات "سيمل" في مجال علم الاجتماع عامة، والنظرية السوسيولوجية على وجه الخصوص، مدى تأثير هذه الاسهامات على تطور أولاً النظريات السوسيولوجية المعاصرة، وتحديثها لأساليبها البحثية والمنهجية وتطويرها الاطار التصوري العام الذي ينطلق منه، وهذا ما تجسد بالفعل في رؤيته المتعمقة للعديد من الأفكار والقضايا والموضوعات التي تناولها بالدراسة والتحليل. ولاسيما، أن هذه الرؤى شملت مجالات متنوعة اهتم بها "سيمل" بصورة معينة، فلقد جاءت تحليلاته لنتضمن مجال علم النفس، والفلسفة والميتافيزيقا، والأخلاق، والتاريخ، والاقتصاد، وأيضاً علم الاجتماع. كما كانت هذه التحليلات أيضاً، لها أبعاداً تحليلية ومنهجية مميزة بحيث شملت ما يعرف في الوقت الراهن، ما يعرف بالمدخل المتعدد بين العلوم الاجتماعية من ناحية والعلوم الطبيعية من ناحية أخرى. وهذا ما ركز عليه "سيمل" في تحليلاته أو استخدامه المنهج التحليلي الهندسي الاجتماعي، الذي يعكس بصورة عامة مدى اهتمام "سيمل" بالأشكال والأنماط للعلاقات والبناءات والتنظيمات الاجتماعية، أو التركيز على الصور الشكلية العامة، التي تميزت بها المدرسة الألمانية التحليلية أو التركيبية الصورية، التي ظهرت خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، والعقود الأولى من القرن العشرين.

وكما يرى الكثير من المحللين لطبيعة التراث السوسيولوجي لنظرية علم الاجتماع المعاصرين من امثال "كوزر" Coser و"جورج ريتزر" G. Ritzer، إن إسهامات "سيمل" في النظرية السوسيولوجية التقليدية أثرت كثيراً



فى النظرىة السوسىولوجىة الأمريكية المعاصرة لفررة طوىلة. ولاسىما، بعد أن ساعدت تحلىلات هذا العالم على تغىير الاهتمامات من المدخل المىكروسكوبى فى علم الاجتماع إلى النظرىة السوسىولوجىة العامة. ولقد تجسد هذا المدخل الأولى لسىمل فى نظرىته الدىالكىكىة العامة التى أرتبطت على وجه الخصوص بتحلىلاته للعلاقات المنداخلة بىن المستوىات الفردىة والثقافىة، تلك التحلىلات (الدىالكىكىة) التى تختلف بصورة كبىرة عن كتابات "كارل ماركس" K.Marx المعروفة، ذلك لعدة اعتبارات واضحة. وهى:

أولاً: طبىعة تحلىلات "سىمل" خاصة عن التفاعل الاجتماعى Social Interaction وصورة المتعددة، وطبىعة التغير الذى يحدث على البىئات وأشكال العلاقات الاجتماعية عندما تتغير من حسب الحجم والمحتوى أو المضمون فى العلاقات وصورها المختلفة.

ثانياً: تعكس تحلىلات "سىمل" خاصة عن البىئات الاجتماعية الكبرى Large Scale of Social Structures، طبىعة التباين والاختلاف الذى يحدث فى صور العلاقات الاجتماعية الفردىة، وظهور الأنماط (العلاقات الاجتماعية) الأكثر سيطرة أو ظهوراً أو انتشاراً فى هذه البىئات.

ثالثاً: تكمن أهمية كتابات "سىمل" واسهاماته فى النظرىة السوسىولوجىة من خلال تحلىلة للصراع، الذى يحدث بىن البىئات الفردىة والاجتماعىة، أو ما يظهر فىما يعرف بالثقافة الذاتىة الفردىة، الثقافة الموضوعىة، وكىففة تطور وازدهار الثقافة الموضوعىة، بعد أن تقلصت الثقافات الفردىة وأصبحت فى أدنى مستوى لها.

رابعاً: بالاضافة إلى رؤىة "سىمل" السوسىولوجىة لطبىعة الصراع الثقافى Cultural Conflict، الذى حدث فى المجتمع الحديث نىجة لمجموعة من عوامل التحديث والتغير والتطور، حرص أيضاً على مزج هذه التحلىلات برؤىة فلسفىة وسوسىولوجىة، وهو ما وضع فى اهتمامه بنوعىة وأنماط الحىاة الفردىة والجمعىة خلال العصر الحديث، ولاسىما تركىزه على وجود نوع من الصراع بىن ما يعرف بحىاة أكثر More - Life، وأكثر من الحىاة More - Than Life.

خامساً: جاءت تحليلات "سيمل" عن العلاقات والتفاعل الاجتماعى لتتناول قضايا سوسيولوجية وسيكولوجية وسياسية ثقافية واجتماعية، أكثر تعقيداً وهذا ما ظهر فى استخداماته لمفاهيم مثل السيطرة، والقوة، والطاعة، والخضوع، والشرعية، وغير ذلك من مفاهيم وقضايا هامة كانت للشغل الشاغل للعديد من رواد المدرسة السوسيولوجية الألمانية وهذا ما ظهر فى تحليلات "فيبر" و"ماركس".

حقيقة، إن عملية تقييم الاسهامات العامة لسيمل فى النظرية السوسيولوجية التقليدية المعاصرة تعد من العمليات الهامة عند دراسة وتحليل اسهامات النظريات الكلاسيكية الكبرى، والتي ظهرت خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، وإن كان من الصعب علينا حالياً، أن نقوم بمسح شامل للتحليلات الحديثة فى مجال النظرية السوسيولوجية التى تناولت اسهامات سيمل فى نظريته المعروفة عن التفاعل الاجتماعى، إلا أننا نجد من الموضوعية العلمية أن نشير إلى عدد من الانتقادات التى وجهت إلى هذه الاسهامات ومن أهمها:

١- جاءت تصورات "سيمل" حول صور العلاقات والأشكال للبناءات والتظيمات الاجتماعية، مليئة بالفموض واللبس فى تفسيرها نوعية حدوث أو تكوين هذه الصور أو الأشكال، كما أن عملية استخدام وتبنى أفكار المدرسة الصورية والشكلية التى تعتبر "سيمل" من أهم روادها قد وجهها الكثير من النقد من جانب علماء الاجتماع التقليديين والمعاصرين أيضاً.

٢- سعى "سيمل" لتبنى المدخل التحليلى الهندسى لتفسير طبيعة الصور والأشكال الاجتماعية أو حقيقة التفاعل الاجتماعى، الذى يعتبر جوهر اهتماماته النظرية، إلا أن هذا المدخل لا يزال يواجه العديد من الصعوبات، وخاصة عندما يتناول إحدى العمليات الاجتماعية البشرية الصعبة، وهى عملية "التفاعل" التى تحتاج إلى مدخل أكثر تعمقاً من المدخل الهندسى الاجتماعى، الذى سعى سيمل لفرضه على علم الاجتماع.

٣- إن محاولة سيمل لعزل صور الاشكال الاجتماعية عن المحتوى أو

المضمون، الذى تظهر فيه هذه الأشكال يعد أمراً صعباً للغاية، وهذا ما جعل تفسيره لتحديد العلاقة بين الصور أو الشكل أو المادة والمحتوى غامضاً، ويصعب تفسيره بصورة كبيرة فى الدراسات السوسولوجية الواقعية.

٤- بالرغم من توضيح سيمل مهمة استخدام النماذج المثالية كغيره من رواد المدرسة الوظيفية التقليدية الألمانية خاصة، إلا أن هذه النماذج من الناحية المنهجية تواجه الكثير من النقد لغموضها وصعوبة استخدامها من الناحية التحليلية والواقعية.

٥- جاءت الكثير من أفكار سيمل على درجة كبيرة من التجريد النظرى وممتزجة بالعديد من التحليلات الفلسفية والميتافيزيقية للغامضة، كما جاءت كثيراً من هذه الأفكار فى إطار تأملى، وهذا لتأثر سيمل بأفكار "كانط" و"هيجل" وغيرهم من الفلاسفة المثاليين.

عموماً، أن هذه الانتقادات التى يمكن توجيهها إلى إسهامات سيمل فى النظرية السوسولوجية لايمكن أن تقلل من مكانة هذه الاسهامات التى كانت مصدراً للعديد من النظريات السوسولوجية المعاصرة مثل التفاعلية الرمزية، والفرينومينولوجية، ونظريات الصراع، والماركسية المحدثه، ونظرية التبادل، وغيرها من النظريات السوسولوجية التقليدية المعاصرة. كما كانت لإسهامات وتحليلات سيمل تأثيراً كبيراً فى أعمال عدد من علماء النظرية السوسولوجية عامة ومهم على سبيل المثال، "روبرت بارك" R.Park، و"كوزر" Coser، و"روس" Rose، و"بيكر" Becker، و"زنانيكى" Znaniecki، و"سمول" Smoll، و"نسبت" Nisbet وغيرهم آخرون.

## أهم المراجع المستخدمة:

### أولاً: المراجع العربية.

١. آلان سينجود، تاريخ النظرية في علم الاجتماع، ترجمة: السيد عبدالعاطى السيد، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩.
٢. جرهام كينلوش، النظرية السوسيولوجية، ترجمة: سعيد فرح، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩.
٣. عبدالله محمد عبدالرحمن، علم الاجتماع الاقتصادى، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠.
٤. نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، ترجمة: محمود عودة وآخرون، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٨.

### ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Bottomore, T & R.Nisbet, A history of Sociological Analysis, London: Heinemann, 1978.
2. Bottomore, T, & D.Frisby (ed. and Trans.) The Philosophy of Money, London: Routledge and Kegan Paud, 1978.
3. Cohen, P, Modern Social Theory, N.Y: Basic Book, 1968.
4. Collins, R, Four Sociological Tradition, N.Y: Oxford Univ. 1994.
5. Connell, R, Why Is Classical Theory Classical, American J. of Sociology, vol. 102 No.6 (May 1997).
6. Coser, L, Masters of Sociological Thought, N.Y: 1977.
7. Helle, H & Eisentadt N, (eds.) Micro - Sociological Theory A perspective on Sociological Theory vol.(e) London: S A F E, 1985.

8. Levine, D. (ed) G. Simmel, Chicago: Chicago univ. Press, 1971.
9. Levine, D, Visions of Sociological Tradition, Chicago: Chicago Univ. Press, 1995.
10. Maus, H, Ashort History of Sociology, London: Routledge, 1962.
11. Nisbet, R, The Sociological Tradition, London: Heinemann, 1967.
12. Ritzer, G, Sociological Theory, N.Y: Mc Graw- Hill, 1988.
13. Turner, A, Classical Sociological Theory, Chicago: Welson Hall 1993.
14. Wolffs, K. ed, The Sociology of G. Simmel, N.Y: Free Press, 1950.



## الفصل التاسع

### "فلوريد باريتو" ونظرية التوازن الاجتماعي

تمهيد

(١) الاتجاه الفكري والأيدولوجي.

(٢) علم الاجتماع ودراسة الظواهر الاجتماعية.

(٣) المنهج العلمي ودراسة الظواهر الاجتماعية.

(٤) اللاتجانس والتمايز الاجتماعي.

(٥) مشكلة القيمة والمنفعة الاقتصادية.

(٦) الصفوة والتغير الاجتماعي.

مناقشة وتعقيب.





## تمهيد:

تعتبر دراسة النظرية السوسيولوجية من الدراسات والمجالات المميزة في علم الاجتماع، نظراً لاعتبارها الاطار المرجعي العام الذي يوجه هذا العلم على المستوى النظري أو التصوري من ناحية، والمستوى المنهجي والبحثي من ناحية أخرى. في نفس الوقت، يجد العديد من المهتمين بدراسة مجال النظرية السوسيولوجية الكثير من الصعوبات التي تواجههم من الناحية الأكاديمية العلمية والبحثية لاعتبارات متعددة، أشرنا بالفعل للبعض منها خلال فصول هذا الكتاب. وإن كانت هذه الصعوبات لا تشكل عائقاً كبيراً أو حائلاً دون تطوير الدراسات النظرية السوسيولوجية وتحديثها بصورة مستمرة. وخاصة، أن إحدى الخصائص والسمات العامة للنظرية السوسيولوجية - كنظرية علمية - يجب أن تكون قابلة للتعديل والتطور. وهذا بالفعل ما نلاحظه عند اهتمامنا بدراسة النظريات السوسيولوجية التقليدية، وكيفية خضوع هذه النظريات للكثير من التعديل والتطور، وهذا ما نشاهده بالفعل خلال تحليلنا للمراحل التطورية للنظريات الكلاسيكية، كما جاء في دراستنا للنظرية البنائية الوظيفية بصورة عامة.

فلقد تطورت دراسة النظرية البنائية الوظيفية الكلاسيكية على عدة مراحل، واندرجت تحتها بعض النظريات السوسيولوجية الفرعية، التي حاولنا تصنيفها بغرض الدراسة والتحليل، كما جاءت أيضاً طبيعة اسهامات العلماء والمنظرين في علم الاجتماع (التقليديين)، أو من يسمون برواد علم الاجتماع الأوائل، لتندرج تحت مجموعة من الدراسات السوسيولوجية. التي ظهرت بصورة خاصة في عدد من دول أوروبا الغربية. وهذا ما كشفت عنه عملية تحليل تطوير النظرية السوسيولوجية الوظيفية المبكرة، عند "لوجست كومت" Comte، و"ميل دور كايم" E. Durkheim في فرنسا، ومعرفة طبيعة النظرية الوظيفية العضوية، كما حدث في تحليلات "هربرت سبنسر" H. Spencer في بريطانيا. ودراسة أيضاً الفعل الاجتماعي عند "ماكس فيبر" M. Weber، واسهامات "جورج سيمل" G. Simmel عن التفاعل الاجتماعي، كنماذج لتطور النظرية السوسيولوجية الوظيفية، كما ظهرت في ألمانيا، وكما سنشير

بعد ذلك الى اسهامات "كارل ماركس" K. Marx، ومدرسة فرانكفورت Frankfurt School فى ألمانيا أيضاً، ممثلين للنظريات السوسيولوجية الكلاسيكية وما يسمى بنموذج الصراع، والنقدى الراديكالى.

وفى هذا الفصل، نركز بصورة متعمقة على اسهامات أحد علماء النظرية السوسيولوجية الوظيفية (المبكرة) التقليديين، وهو "فلريدو باريتو" V. Pareto، كممثل لاسهامات المدرسة السوسيولوجية الأيطالية، حتى نتعرف بوضوح على الدور العلمى والاسهام الفعلى الذى أثرت به هذه المدرسة فى تطور النظريات السوسيولوجية التقليدية خاصة. وبالطبع، إن هناك امتداد فكري متواصل لاسهامات هذه المدرسة فى تحديث النظرية السوسيولوجية المعاصرة. كما سنعالج ذلك خلال تقديمنا للجزء الثانى من مؤلفنا عن "النظرية السوسيولوجية المعاصرة". على أية حال، يوضح تحليلنا للتراث النظرى لتطور النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، إن اسهامات "باريتو"، لم يختلف حول أهميتها معظم المفسرين المحللين والمنظرين أيضاً فى مجال النظرية السوسيولوجية. ولأسيما، أننا نلاحظ أن معظم اهتمامات هؤلاء العلماء ركزت على عدد من القضايا والموضوعات، التى تناولها بالفعل رائد المدرسة السوسيولوجية الكلاسيكية الايطالية "باريتو"، والتى اضطبغت بمجموعة من الخصائص والسمات العلمية والتى تعكس عموماً الرؤية التصورية المتعمقة، لهذا العالم الايطالى، ونوعية المنهج العلمى الذى استخدمه فى دراسة وتحليل الظواهر والقضايا التى نعالجها بالفعل.

عموماً، وفى إطار تحليلنا لاسهامات النظرية السوسيولوجية التقليدية، والتى ظهرت بالتحديد فى مجموعة دول غرب أوروبا، نطرح أفكار "باريتو" كممثل للفكر السوسيولوجى الايطالى، الذى ظهر خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن (الماضى) العشرين. وبالطبع، يجب أن نحلل طبيعة هذا الاسهام فى اطار دراسة مجموعة الظروف الفكرية والأيدولوجية والاجتماعية، التى حددت معالم أفكار وتصورات "باريتو" للقضايا والمشكلات، التى يتم معالجتها من منظور سوسيولوجى مميز. وماهى أهم المفاهيم والتصورات التى حددها لدراسة علم الاجتماع والظواهر

الاجتماعية ؟ ونوعية تحليله للأفعال الانسانية، أو التى اسمها بالأفعال المنطقية وغير المنطقية. كما ستهتم أيضاً، بدراسة قضية التغير الاجتماعى، باعتبارها محوراً لاهتماماته السوسيولوجية عامة، والتى أدت الى تنوع أفكاره السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية عامة.

## (١) الاتجاه الفكرى والأيدولوجى.

عاصرت فترة حياة "باريتو" الكثير من رواد علم الاجتماع الأوروبيين من أمثال "ماكس فيبر"، "واميل دور كايم"، و"جورج سيمل" وغيرهم آخرون، حيث عاش "باريتو" فى الفترة من (١٨٤٨-١٩٢٣) وولد فى باريس، وكان أبوه ايطالياً ينتمى الى أسرة أرستقراطية هاجرت الى فرنسا لأسباب سياسية، وهناك تزوج والده من سيدة فرنسية، أنجبت "باريتو" وشقيقته، وعمل والده بالسكك الحديدية كمهندس، وحرص على تعليم ابنه "باريتو" ليشغل نفس المهنة بعد تخرجه من معهد للهندسة فى مدينة تورين الفرنسية. وعمل بهذه المهنة لعدة سنوات، ولكن مالبت أن عاد الى ايطاليا عام ١٨٥٥، وبعد وفاة والده عام ١٨٨٢، حرص "باريتو" على أن يغير مهنته فحصل على الدكتوراة فى عام ١٨٨٩، وترك العمل المهنى، وجاءت رسالته للدكتوراة عن (العناصر الأساسية لتوازن الأجسام الصلبة). وبعد ذلك استطاع أن يرسل أحد أساتذة وعلماء الاقتصاد البارزين وهو "بونتاينو" Pantalino صديق "والارم" Walars الذى كان يشغل رئيس مدرسة (لوزان) فى علم الاقتصاد. وطلب منه أن يتعلم هذا العلم (الاقتصاد) وجاء فى رسالته (أنه مهندس متلك، واقتصادى ولكن ليس متلك ويريد المساعدة)، وبالفعل انتقل "باريتو" الى جامعة لوزان Lausanne وعمل أستاذاً بها فى الاقتصاد السياسى Political Economy.

وعموماً توضح طبيعة الحياة الاجتماعية والمهنية والأكاديمية لـ "باريتو" مجموعة من المتغيرات التى شكلت الخط الفكرى والعلمى لهذا العالم، الذى يعد أحد عظماء الجيل الثانى من العلماء التقليديين. فلقد اهتم "باريتو" بالاقتصاد وبعد عشرين عاماً عمل خلالها مهندساً بعد دراسته للرياضة والعلوم الطبيعية. كما أثرت ظروف العصر الاقتصادية والأحداث الجارية، بأن يهتم بالواقع الاقتصادى ودراسة المشكلات والظواهر الاقتصادية بصورة واقعية، مع

الاهتمام بالتحليل النظري المجرد الذى اكتسبه من خلال دراسته للرياضيات بصورة خاصة. فلقد اهتم بمعالجة الطرق والأساليب المنهجية الاقتصادية، وذلك عن طريق تطبيق خبرته العلمية والنظرية فى مجال الرياضيات، علاوة على استخدامه الأساليب الإحصائية فى الدراسات التجريبية. الأمر الذى جعل أحد أقطاب علماء الاقتصاد البارزين وهو "والراس" Walras ينبهر بمنهجه التحليلي الرياضى فى دراسة الظواهر الاقتصادية، ويختارده من بعده رئيساً لمدرسة لوزان الاقتصادية الشهيرة وذلك فى عام ١٨٩٣. حيث تفرغ تماماً لمعالجة القضايا الاقتصادية حتى عام ١٩١٢، ثم بعد ذلك تفرغ كلية لعلم الاجتماع، وانتج العديد من المؤلفات الشهيرة فى كل من علمى الاقتصاد والاجتماع، التى مازالت لها أهميتها العلمية فى النشاط الأكاديمى حتى وقتنا هذا.

وقبل أن نتناول أهم إسهامات "باريتو" فى علم الاجتماع، نود أن نشير بإيجاز الى الإطار النظري السوسيولوجى للعام، الذى اتخذته "باريتو" فى معالجة كل من القضايا السوسيولوجية أو السوسيو-اقتصادية، ونوعية الميثودولوجيا العامة التى حلل بها كل من هذه القضايا والظواهر المجتمعية. فى الواقع، يشير "كوزر" فى هذا الصدد الى أن "باريتو" وضع معظم أفكاره السوسيولوجية فى كتابه باللغة الإيطالية The Treatise on General Sociology عام (١٩٠٦) وترجم الى الإنجليزية عام (١٩٣٥) بعنوان العقل والمجتمع The Mind and Society. وحاول أن يعيد بناء علم الاجتماع مماثلته بمافعله "ولارد جيبس" W. Gibbs فى تبنى النظام للفزيو-كيميائى ومعالجة الظواهر الطبيعية. فلقد كان "باريتو" طموحاً فى تطبيق نفس الأسلوب المنهجى فى دراسة النسق أو النظام الاجتماعى، وتحليل علاقة الفرد بالمصالح، والعواطف، والمشاعر باعتبارها خليطاً أو مماثلة بالعناصر الكيميائية المتداخلة فى الطبيعة والنظام الاجتماعى على أنه مركباً من العديد من المتغيرات "تتدفق" التى تشكل الملوك البشرى.

كما تعكس أيضاً، طبيعة شغل "باريتو" أستاذ للاقتصاد السياسى، مدى اهتمامه بالشئون الاقتصادية التى عاصرها بالفعل، فعند وضع "باريتو" مؤلف

من جزئين بعنوان (دروس الاقتصاد السياسى) Cores d'Economic Politique، والتي اعتمد فيها على المحاضرات التي كان يقوم بتدريسها في جامعة (لوزان)، ظهرت بعد ثلاث سنوات فقط من وصوله اليها. ولقد أثرت فيه طبيعة حياته المهنية والأكاديمية كأستاذ للاقتصاد، وأن يأخذ مواقف أيديولوجية فكرية محددة، وأصبح يطلق عليه بأنه ممثل للليبرالية اليسارية Liberal lift لمدرسة لوزان الاقتصادية. وبعد عام ١٨٩٨ بدأ "باريتو" بغير اتجاهاته الفكرية عن الليبرالية اليسارية وخاصة بعد أن تطور وتغير الحياة الاقتصادية في إيطاليا، بدأ يأخذ مواقف نقدية ضد السياسات الديمقراطية التي كانت تقوم آنذاك.

وفي عام ١٩٠٢ نشر "باريتو" أحد مؤلفاته المتميزة عن النظم الاشتراكية Les Systems Socialistes، وحاول فيه أن ينتقد بشدة المبادئ الاشتراكية التي كانت تقوم على سياسات تدخل الدولة، واستطاع "باريتو" أن يكتب هذا المؤلف، الذي يمزج بين علوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع. ولا سيما، أنه قد نشر أيضاً مجموعة من الأنشطة الانسانية، والتي من الصعب السيطرة عليها بواسطة المعايير والقيم الاقتصادية فقط، ولكن بواسطة العواطف Sentiments والمشاعر Feeling، والخرافات Supersitition، وغير ذلك من الأفعال الغير منطقية Nonlogical Actions. وهذا ما جعله ينتقد كثير من الأفكار والسياسات الليبرالية الاقتصادية ويترجم هذه الأفكار السابقة ويضعها في كتابه (مقدمة عن علم الاجتماع) عام ١٩١٦ ونشر الى الانجليزية، بعنوان (العقل والمجتمع) ليضع "باريتو" على قائمة رواد علم الاجتماع الذين أسسوا المدرسة السوسيولوجية الإيطالية من ناحية، والمدرسة الأوروبية الغربية من ناحية أخرى. ولكن يبقى التساؤل الأساسى حول أهم المؤثرات الفكرية والأيدولوجية الأخرى، التي ساهمت في تحديد النظرة السوسيولوجية خاصة عند "باريتو"، وأفكاره في علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة بصورة عامة. فكما يرى بعض المنظرين في مجال علم الاجتماع وخاصة النظرية السوسيولوجية من أمثال "لويس كوزر" L. Coser، الذي يرى أن "باريتو" قد تأثر بكل من المدرسة الإيطالية الاجتماعية الميكافيلية نسبة الى "ميكافيللى" Machiavellian Social Theory، وأيضاً النظرية السوسيولوجية

الوضعية Positivist Theory الذى كان قد حدد "أوجست كونت" A. Comte. أسسها الأولى خلال القرن التاسع عشر، وأيضاً، تأثر "باريتو" بأفكار "سان سيمون" S. Simon رائد النظرية الاشتراكية Socialist Theory وما تعرف بنظرية الإصلاح الدارونى الاجتماعى.

وحاول "باريتو" أن لا يقف موقفاً سلبياً تجاه هذه التيارات الفكرية، بل استطاع أن يحللها ويغند الكثير من آراءها، وساعده فى ذلك إلمامه بالمنهج الطبيعى والعلمية والطرق التحليلية الرياضية، التى تعلمها قبل أن يصبح مهندساً مدنياً فى السكك الحديدية، أو شغله لوظيفة مديراً لشركات الفحم التابعة لها، وعلى أية حال، يمكن القول بأن اهتمامات "باريتو" العلمية والأكاديمية جاءت استجابة لطبيعة الحياة المهنية والعصرية والفكرية والأيدولوجية التى عاصرها بالفعل، وهذا ماظهر بصورة أساسية فى كتابه عن "مقدمة علم الاجتماع"، الذى يوضح وجود فكرتين جوهريتين سيطرتا على أفكار "باريتو" السوسيولوجية، وهما: فكرة النسق System وفكرة التوازن Equilibrium، اللتان تعكسان مدى استفادته من العلوم الطبيعية والرياضية، وجاء ذلك بالطبع نتيجة لتأثره بأفكار العديد من رواد مدرسة (لوزان) فى الاقتصاد.

ولكن يجب علينا أن نوضح أيضاً حقيقة هامة مؤداها: إن أفكار "باريتو" السوسيولوجية والاقتصادية والسياسية سواء فى فرنسا أو فى إيطاليا، كانت تعكس رؤية واقعية للواقع السياسى والاقتصادى الذى كان موجوداً بالفعل. ولا سيما، أنه كان يحرص على كتابة أفكاره ونشرها فى العديد من المجلات والصحف الإيطالية والفرنسية. فلقد عارض "باريتو" الديموقراطية، والشيوعية، والاشتراكية، كما رأى ذلك "زيانن" وكان يتجه أيضاً نحو الفاشية، وهذا ما جعل (موسيلينى) للزعيم الإيطالى الفاشى يقرب "باريتو" إليه، ويمنحه مقعداً فى مجلس الشيوخ الإيطالى. وبالطبع، كما يرى الكثيرون من أمثال "تيماشيف" Timasheff، إن من الصعب على "باريتو" أنذاك أن يرفض هذا العرض. كما كان "باريتو" منتقداً شديداً للماركسية، وأفكار ماركس خاصة، والذى اتخذ منها موقفاً عدائياً قوياً، ولذا أطلق عليه فى أوروبا والولايات المتحدة بأنه شبح "ماركس" الليبرالى. كما انتقد "باريتو" الأفكار والنظريات

الاشتراكية والديموقراطية وغيرها، واعتبرها جميعاً مجرد ديانات علمية Scientific Religion. خاصة، وأن معظم أفكارها غيبية وغير منطقية، وكلها موجه ضد بعضها الآخر، وسعى كل منها لتحقيق أغراض خاصة. كما انتقد أيضاً مفاهيم التقدم، والوطنية، والشرف، والفضيلة، واعتبرها مجرد مفاهيم لأساس لها من الناحية الموضوعية ولكنها تعبر عن عواطف ذاتية.

كما يرى البعض أن أفكار "باريتو" السياسية تعتبر المصدر الأول للفاشية، وهذا ماجعل "موسيليني" يقر به اليه، وحتى خلال فترة منفاه وصف أفكار "باريتو"، وخاصة نظرية الصفوة بأنها (أعظم النظريات السوسيولوجية في العصر الحديث). وعموماً لقد كانت تصورات وأفكار "باريتو" ذات مثخل نقدي للأيديولوجيات بصورة عامة. وهذا ماجعل بعض علماء الاجتماع من أمثال "ألن جولدنر" A. Gouldner، يوضح أن كثيراً من الأفكار الماركسية، قد انتشرت خلال الثلاثينات من القرن العشرين، وللتصدي لهذه الأفكار، أسست مجموعة من أساتذة جامعة هارفارد أطلقت على نفسها جماعة "باريتو" The Pareto Circle، وشملت "بارسونز" Parsons، و"هومانز" Humans، و"هندرسون" Hunderson، واتضم اليها آخرون من أمثال "ميرتون" Merton، لتقوم بتدريس ونشر أفكار "باريتو" وترويجها ضد النظرية الماركسية، و"ماركس" خاصة باعتبار أن "باريتو" آنذاك كان رائداً من رواد الفكر الأوروبي السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وكان يمثل واحداً من أكبر المدارس السوسيولوجية والاقتصادية مدرسة (لوزان).

## (٢) علم الاجتماع ودراسة النسق الاجتماعي.

تظهر قيمة أفكار "باريتو" في النظرية السوسيولوجية من خلال كتاباته عن علم الاجتماع، الذي عرف بأنه دراسة المجتمع الانساني بصورة علمية وكان يهدف بذلك التعريف وضع نظرية عامة عن المجتمع، أو بمعنى آخر، فإن تحليلات "باريتو" توضح مدى اهتمامه، بتحديد وصياغة نظرية علمية عن السلوك البشري، والتي عن طريقها يمكن اختيار المعايير والمقاييس التي يمكن استخدامها عند دراسة هذا السلوك، الذي سعى "باريتو" لتحديد كيفية دراسته على أسس علمية وواقعة، ومعرفة الى أي مدى يمكن اعتبار السلوك الانساني



سلوكاً عقلانياً Rational، أو غير عقلانياً Irrational. ولقد حرص "باريتو" على أن يعكس خبرته العملية والعلمية باعتباره أحد العلماء البارزين الذين درسوا كل من العلوم الطبيعية والرياضية والهندسية، ثم أيضاً العلوم الاقتصادية. وأن يحارل جاهداً أن يوضح كيفية دراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق تطوير علم الاجتماع على مستوى النظرية العلمية، والمناهج وطرق البحث، التي يجب أن تعتمد على الملاحظة، والخبرة، ومعرفة السببية والعقلانية، والتي ترتبط بدراسة المجتمع والظواهر التي توجد فيه.

من ناحية أخرى، نجد أن "باريتو" قد انتقد النزعة العضوية، دون أن يتخلى عن الكثير من مفاهيمها وأفكارها العامة، باعتباره أحد علماء النظرية السوسيولوجية البنائية الوظيفية الكلاسيكية، حيث تصور أن المجتمع ماهو إلا نسقاً System، يتكون من مجموعة من الأجزاء التي تعمل بصورة متسائدة، فإذا تغير أحد الأجزاء سوف يستلزم بالضرورة تغير من جانب الأجزاء أو العناصر الأخرى، لينتج عن ذلك تغير في الكل معاً. كما حرص "باريتو" على أن يحدد نوعية الأجزاء أو العناصر المادية، التي يتكون منها المجتمع، وهم الأفراد الذين يخضعون لقوى معينة ذات طابع اجتماعي، ولها نوع من السمات والخصائص العامة والمشاركة. كما أن طبيعة التغير الذي يحدث على النسق (المجتمع)، يكون نتيجة لمجموعة من العوامل أو الظروف الخارجية ومن أهمها، أولاً العوامل الخارجية التي تكون مصدرها البيئة المحيطة بالمجتمع، وهي عوامل أسماها "باريتو" بالعوامل الخارجة عن الإنسان. وثانياً العوامل الخارجية والبعيدة عن المجتمع ذاته، مثل حالة المجتمعات والشعوب التي تحيط أيضاً بالمجتمع، كما تشمل أيضاً الظروف الاجتماعية والتاريخية والثقافية التي ظهرت سابقاً في المجتمعات، فجميعها تدخل تحت نطاق هذه المجموعة من العوامل. ثالثاً وأخيراً، عناصر المجتمع الداخلية ويتضمن ذلك المصالح، والرواسب، والمشتقات، ونمط المعرفة، والعواطف والغرائز والمشاعر الإنسانية.

كما استخدم "باريتو" الكثير من المفاهيم والميكانيزمات السوسيولوجية للمدرسة البنائية الوظيفية التقليدية، وخاصة مفهوم التوازن Equilibrium،



واعتبره مفهوماً رئيسياً في دراسته وتحليله لطبيعة الظواهر الاجتماعية ودراسته للمجتمع ككل. حيث تصور أن طبيعة الحياة في المجتمع أو (النسق) تحدث بصورة متوازنة، وإن كان هذا التوازن يحمل في شكله وصوره نوع من التغير والديناميكية. وهذا التفسير يعكس مدى اختلاف وجهة نظر "باريتو" عن أنصار المدرسة الألمانية السوسيولوجية الشكلية، والتي تزعمها "جورج سيمل" عندما ركز على نمط الأشكال وصورة العلاقات، كوحدة أساسية يمكن استخدامها في دراسة وفهم الحياة الاجتماعية. إلا أننا نلاحظ أن "باريتو" حدد طبيعة نوعية الصورة والشكل، عن رؤيته المتعمقة لنوعية التغيرات المصاحبة، ولكن يسعى المجتمع دائماً للحفاظ على التوازن كسمة، وخاصية أساسية له كنسق As System، ويعمل على الحفاظ على ذاته وهويته واستمراريته وجوده بصورة عامة.

ومن منظور سوسيولوجي مميز سعى "باريتو" لتحديد عملية التوازن، داخل النسق الاجتماعي نتيجة لتوقعه للتغيرات الخارجية، وذلك عن طريق وجود مجموعة من العوامل الداخلية في النسق التي تدفع المجتمع إلى استعادة التوازن. ولقد أطلق على العوامل الداخلية التي تقوم بعملية دفع المجتمع إلى التوازن، مأسماه (بعاطفة الثورة)، أو العوامل التي تؤدي إلى حدوث التوازن الداخلي في النسق الاجتماعي وإعادة التوازن مرة أخرى. وبالطبع، كما يرى كثير من المحللين للنظرية السوسيولوجية كيفية استخدام الكثير من رواد النظرية السوسيولوجية المعاصرة، سواء من رواد الجيل الثاني أو الثالث من رواد علم الاجتماع، وقد استعاروا بالفعل آراء "باريتو".

وهذا ماظهر على سبيل المثال في تأثير مدرسة علم الاجتماع في جامعة هارفارد Harvard University بنظرية "باريتو" عن النسق الاجتماعي، وخاصة عالم الاجتماع الشهير "تالكوت بارسونز" T. Parsons، عنده اضع نظريته المعروفة عن النسق الاجتماعي Social System Theory وذلك نتيجة لتأثره بكتابات كل من "باريتو" الإيطالي و"فيبر" الألماني، ويعد "بارسونز" من أهم شراح لأعمالهم وكتاباتهم، كما لوحظ ذلك في عدد من المؤلفات التي قام بها هذا العالم لكل من كتابات "باريتو" و"فيبر".

وفى الواقع أن الاسهام العلمى للنظرية السوسيولوجية الذى تركه "باريتو" يظهر من خلال رؤيته للحقائق والشواهد التى عاصرها بالفعل. وهذا مظهر من خلال تحليله لفكرة اعادة التوازن للنسق الاجتماعية، وذلك من خلال دراسته وتقييمه للاستجابات الاجتماعية للجريمة التى تحدث فى المجتمع بصورة مستمرة، وأيضاً النتائج الاجتماعية والاقتصادية المترتبة على الثورات، وآثار الحروب الداخلية والخارجية على المجتمعات المعاصرة، وغير ذلك من العديد من التغيرات والتقلبات الاجتماعية والطبيعية الدائمة أو المستقرة أو المؤقتة. من ناحية أخرى، لقد حرص "باريتو" على توضيح فكرة التوازن الاجتماعى، وتفسيره أيضاً لمجموعة القوى الداخلية وطبيعة السلوك أو الأفعال البشرية، ومتى يكون هذا السلوك أو الأفعال عقلانية منطقية، ولا عقلانية وغير منطقية، ولم يقتصر على دراسة السلوك البشرى بصفة عامة، بل درس السلوك والأفعال لكثير من الفئات المهنية والاجتماعية والاقتصادية، مثل سلوك رجال الأعمال والاقتصاديين والمحامين، والأطباء، والقضاة. وتوصل على سبيل المثال، الى كيفية تفسير أحكام القضاء وارتباطها بدرجة ملحوظة بمجموعة (العواطف) التى يتميز بها القضاة (كفئة مهنية) لديها عواطف مشتركة تسود جميع أعضائها. أما الرجوع الى القانون المكتوب، ماهو إلا تفسير بعدى لقرار أو حكم أمكن اتخاذه بأسلوب آخر. ويشير الى ذلك الى القرارات التى تصدرها المحاكم، حيث تعتمد على حد كبير على المصالح والعواطف السائدة فى المجتمع فى وقت معين بالذات، كما تعتمد على الفرد وظروفه الطارئة، ولكنها تستند بالإضافة الى ذلك كله، الى النصوص أو القانون المكتوب، ولكن ذلك يكون بدرجة ضئيلة، قد لا تتحقق فى بعض الأحيان.

وعلى أية حال، لقد ركز "باريتو" على عرض نظريته السوسيولوجية عن المجتمع أو النسق، وبضرورة دراسة القوى الداخلية والخارجية التى تحدث التغير الاجتماعى الديناميكى المستمر من جهة، ومحاولة اعادة التوازن داخل النسق الاجتماعى من جهة أخرى. ونتم هذه المرحلة الأخيرة عن طريق ما أسماه بالعاطفة Sentiment، تلك القوى السيكولوجية التى تلعب دوراً أساسياً فى المحافظة على النسق، وليس القوى المادية التى يتصورها "ماركس" Marx

فى نظريته عن الصراع الطبقي. كما حدد "باريتو" مكونات العاطفة، باعتبارها مجموعة الغرائز والميول والمشاعر الانسانية الفطرية الثابتة. ولهذا السبب اطلق "باريتو" على العواطف، مفهوم آخر، وهو (الثوابت)، ولكن يمكن الاستدلال عليها من خلال مجموعة الأفعال Actions، التى يقوم بها الأفراد فى المجتمع وعملية تبريرهم للسلوك والفعل الذى يقومون به فى الواقع، والتى قد تختلف بصورة كبيرة عن السلوك الظاهري، وتعكس معتقداتهم وآرائهم وأفكارهم وأيديولوجياتهم وأحوالهم النفسية والسيكولوجية أيضاً.

وعموماً لقد اعطى "باريتو" اهتماماً ملحوظاً لتوضيح كيفية اهتمام علم الاجتماع بدراسة الظواهر الاجتماعية، وما ينبغى أن يقوم عليه هذا العلم وعلاقته بالعلوم الاجتماعية الأخرى مثل علم الاقتصاد، والسياسة، وعلم النفس، والتاريخ. وخاصة أن علم الاجتماع هو علم تعميمي، أى يدرس جميع الظواهر الاجتماعية، التى تشمل الظواهر الاقتصادية، والسياسية، والنفسية، والتاريخية، وذلك من منظور أو رؤية واقعية تختلف بالطبع عن اهتمامات العلماء الذين ينتمون الى هذه العلوم. ولقد أشار "باريتو" الى طبيعة الاختلاف بين علم الاجتماع وبين العلوم الاجتماعية الأخرى، وهو اختلاف من حيث الموضوع، ومن حيث المنهج. فعالم الاقتصاد ينظر الى الانسان على أنه انسان اقتصادي، وعالم السياسة، ينظر الى الانسان على أنه انسان سياسي، وهكذا وعالم الاجتماع ينظر الى الانسان باعتباره كائن اجتماعي يعيش فى مجتمع، له ظواهره المختلفة والتى تجمع كل من الظواهر الاقتصادية والسياسية والنفسية والدينية. هذا بالإضافة الى أن علم الاجتماع يختلف أيضاً عن هذه العلوم الاجتماعية من حيث المنهج الذى يستخدمه وهذا ما سنحلله فى الصفحات التالية.

### (٣) المنهج العلمى ودراسة الظواهر الاجتماعية:

تميزت تحليلات "باريتو" فى النظرية السوسيولوجية من خلال اعتماده على المنهج العلمى الرياضى والكمى ذات الطابع التحليلي، الذى أكتسبه من خبرته العملية لدراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية ومقدرته على استخدام هذه المناهج وتعميمها فى دراسة الظواهر الاجتماعية أو ما عرفه بالنسق

الاجتماعى (المجتمع). ولقد سعى "باريتو" لأن يعقد نوعاً من التمييز بين العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع، وكيفية استخدام الأخير مناهج علمية متميزة - تكون أقرب إلى العلوم الطبيعية. كما أن علم الاجتماع يختلف عن العلوم الاجتماعية، من حيث نوعية الموضوعات، والقضايا، والمجالات التى يتناولها هذا العلم بالدراسة والتحليل. وهذا ما أشار إليه عند توضيحه لطبيعة الظواهر الاقتصادية، والسياسية، والدينية، وكيفية إهتمام عالم الاجتماع بدراسة هذه الظواهر باعتبارها ظواهر مجتمعية. وفى الواقع، نجد أن هذا التمييز العلمى بين العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع، قد استعاره "باريتو" من كتابات رواد المدرسة السوسيولوجية الوضعية، وخاصة نظرية "أوجست كونت" الذى فرق بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية عند وضع علم الاجتماع على قائمة هذه العلوم نظراً لنفس الأسباب التى أشار إليها "باريتو".

ويبرر "باريتو" هذا التمايز المنهجى بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى، نظراً لأن علم الاجتماع وطبيعته تستلزم الاتفاق مع منهجيته، التى تعتمد بدورها على نتائج العلوم الاجتماعية، هذا بالإضافة إلى أن العلوم الاجتماعية تعتمد من ناحية أخرى، على طرق البحث الاجتماعى ومناهج البحث العلمية التى يستخدمها علم الاجتماع فى إجراء بحوثه ودراساته. ويشير إلى ذلك "باريتو" موضحاً بأن تاريخ البشرية وتطویر المجتمعات كما أهتمت بها العلوم الاجتماعية بدأت منذ العصور اليونانية القديمة، والتى تمثلت فى دراسات وأفكار ومناهج كمل من "أفلاطون"، و"أرسطو" حتى العصر الحديث. كما نجد أن علم الاجتماع اهتم بدراسة هذه المناهج، ولذا تلقى قبولاً واسع النطاق بين الأوساط العلمية الأكاديمية. وإن كان "باريتو" يؤكد فى نفس الوقت، على أن علم الاجتماع لا يمكن أن يعيش بمعزل عن بقية العلوم الاجتماعية الأخرى. كما أنه يسعى دائماً للاستفادة من النتائج التى توصلت إليها هذه العلوم مجتمعة. وهذا ما جعل "باريتو" يميز علم الاجتماع من حيث منهجه، بأنه علم تركيبى شامل، وهو الاطار العام الذى يشمل العلوم الاجتماعية بدون إستثناء.

ولهذا السبب سعى "باريتو" فى ضوء طرح نظريته السوسيولوجية

العامة إلى أنه يشير 'إلى منهجية علم الاجتماع (كعلم منطقي تجريبي)، وهذا ما أكد عليه في كتابه عن "مقدمة علم الاجتماع" أو مجموعة المقالات الموسيولوجية المنهجية المتعددة التي أكد فيها "باريتو"، على أن هدف علم الاجتماع، التركيز على استخدام مجموعة القواعد المنهجية العلمية التي تستخدمها العلوم الطبيعية وخاصة الاعتماد على الملاحظة، والتجربة، والتفسير السببي والعلى لتكرار الحوادث والظواهر الاجتماعية، كما يجب أن يوظف هذه القواعد المنهجية من أجل الوصول إلى تعميمات ترتبط بدراسة الحقائق التي تعتمد على الحس أو التجربة العلمية. في نفس الوقت، حرص "باريتو" على أن يوضح أن تلك القواعد المنهجية يجب أن تتبعها جميع العلوم الاجتماعية أيضاً، ولاسيما أن علم الاجتماع يعتمد ويستفيد كلية على نتائج هذه العلوم. بالإضافة إلى ذلك، أكد "باريتو" على ضرورة أن يوظف علم الاجتماع منهجيه في سبيل الوصول إلى معلومات تساعد على التنبؤ بالمستقبل، ويستلزم ذلك من جانب الباحثين ضرورة الالتزام بالموضوعية وعدم التحيز العلمي.

وما من شك، إن الخلفية العلمية لباريتو كعالم إقتصاد متميز اعتمد على المعاملات والتحليلات الرياضية، التي مكنته كثيراً من توضيح وجهة نظره نحو السعي لإقامة منهج علمي متميز ليس فقط لعلم الاجتماع، ولكن أيضاً للعديد من العلوم الاجتماعية الأخرى. لأننا نلاحظ، أن "باريتو" بالرغم من تحديده لمكانة علم الاجتماع، إلا أن دراساته وتحليلاته شملت علوم اجتماعية أخرى مثل السياسة، والاقتصاد، والتاريخ، وعلم النفس. وهذا ما تبلور في توضيحه لمفهوم (العلم) ذاته، بأنه لا بد وأن يكون منطقياً وتجريبي، ويستند على الملاحظة والتجريب، وإن يستبعد تماماً كل الأفكار التي لاتخضع للمنهج العلمي. ولهذا السبب، سعى "باريتو" لأن يناقش بعض النظريات والأفكار والمفاهيم، التي كانت كثيرة الانتشار مثل التقدم، والمساواة والديموقراطية، والحرية، وغيرها من النظريات التي كانت ترتبط بالكثير من المفكرين والفلاسفة وعلماء الاجتماع أيضاً، واعتبرها نظريات وأفكار غير علمية، ولهذا كانت هذه النظريات موضع انتقاد شديد من جانب "باريتو" وخاصة لفقدائها الخصائص المنهجية التي يجب أن تقوم عليها بصورة عامة.

وفى الواقع، إن الموقف النقدي الذى تبناه "باريتو" فى انتقاد النظريات والأفكار التى وصفها من حيث كونها نظريات غير علمية، لأنها لا تقوم على أسس منهجية وعلمية سليمة. كما أن "باريتو" كعالم اقتصاد، سيطرت على آراؤه النظرية النفعية Utility Theory، التى ساعدت على تقييم النظريات العلمية ونوعية المناهج التى استخدمها فى الدراسة والتحليل، وهذا ما جعله يميز بين القيمة العلمية لنظريته، وبين قيمتها العلمية أو الدافعية، ويشير الى أن هناك الكثير من النظريات العلمية التى تهدد العلاقات الاجتماعية أنماط متعددة من الخطر الفكرى والقيمى والأيدولوجى. لهذا السبب سعى الى ضرورة التمييز بين الحقيقة والمنفعة عند دراسة النظريات العلمية. وهذا ما جعله يصف جميع النظريات العلمية بأنها نظريات فاسدة، واعتبر معظمها ماهى إلا ديانات علمية Scientific Religions، صدرت عن اهتمامات أيدولوجية متصارعة، وسعى أصحابها لتحقيق أغراض ومكاسب نفعية مما يفقدها خصائصها الواقعية والاجتماعية وخدمة المجتمعات الانسانية. من ناحية أخرى، كان "باريتو" يؤكد على أهمية إخضاع النظريات الى التجربة والملاحظة للحكم عليها، من حيث وصفها بالنظريات العلمية وغير العلمية. وبالطبع، إن معظم النظريات التى أخضعها للدراسة والتجريب بعيدة عن المقاييس العلمية التى وضعها "باريتو".

بالإضافة الى ذلك، رفض "باريتو" جميع النظريات والمناهج التى تعتمد على دراسة الظواهر الاجتماعية وتفسير أسباب حدوثها من جانب واحد، أى التى تعتمد على تفسير الأحداث فى ضوء ما يسمى "بأحادية العامل" المسبب لحدوث الظواهر المتعددة الأسباب والعوامل. كما أن هناك مجموعة من الظواهر الرئيسية، التى يمكن أن تؤثر فى العديد من الظواهر الاجتماعية الأخرى. وخاصة، أن الظواهر الاجتماعية متساندة وظيفياً مع الأخرى، وهذا ما يفسر فى نفس الوقت، تعقد دراسة الظواهر الاجتماعية مقارنة بغيرها من الظواهر الطبيعية الأخرى، كما أكد "باريتو" بأن عدم فهم هذه الأشياء عند دراسة الظواهر الاجتماعية يسئ تفسيرها وتحليلها من الناحية العلمية والمنهجية. ولهذا السبب طرح خمس خطوات أساسية توضح منهجه وهى بإيجاز:

- ١- لا يندرج تحت نطاق البحث العلمى إلا كل ما يخضع للملاحظة والتجربة.
  - ٢- تعتبر الظواهر الاجتماعية متسائدة وظيفياً.
  - ٣- تستبعد نهائياً الظواهر المؤقتة من نطاق البحث العلمى، لأن العلم لايهتم إلا بالظواهر الدائمة.
  - ٤- ضرورة دراسة القضايا المشتركة والتي لها صفة العمومية بين المجتمعات، وضرورة وجود علم الاجتماع المقارن، الذى يمهّد الطريق لإقامة علم اجتماع عام.
  - ٥- يعتبر المنهج الوصفى الكمي، من أفضل المناهج العلمية لدراسة الحقائق الواقعية، والذى يسعى لإقامة معرفة يقينية بعيدة عن الخيال.
- وعموماً، لقد سعى "باريتو" لأن يطبق المنهج العلمى الوضعى الكمي، الذى الذى استمده من خلال خلفيته الرياضية ودراسته للعلوم الطبيعية وهذا ماأشّرنا إليه سابقاً. ولقد حاول "باريتو" أن يستخدم هذا المنهج أيضاً فى دراسة بعض القضايا التى تعتبر جزءاً هاماً من النظرية السوسيولوجية العامة واسهاماته الوضعية فى علم الاجتماع، ومن أهم هذه القضايا دراسته للفرائز أو العواطف (Sentiments)، والتي تعتبر جزء من الوقائع السيكولوجية، التى عن طريقها يمكن تفسير الواقع المادى الذى نعيش فيه. وبالطبع، هذه العواطف أو الفرائز أو الدوافع تمثل الجانب السيكولوجى، الذى اعطى له "باريتو" اهتماماً ملحوظاً لدراسة الظواهر الاجتماعية والسلوك الانسانى عامة، والتي طرحها لنقد الكثير من التفسيرات والنظريات المادية للتاريخية، (الماركسية) التى كانت ترجع كل شئ فى الواقع الى الجوانب المادية فقط، كما حاول "باريتو" أن يوضح طبيعة هذه العواطف، التى اعطى لها صفة (الثوابت)، التى يمكن عن طريقها معرفة السلوك والتصرفات والأفعال الانسانية باعتبارها الطابع الفكرى والأيدىولوجى الذى يوجه الكثير من الأنشطة والسلوك والأفعال الاجتماعية فى المجتمع الحديث.

وبالرغم من تأكيد "باريتو"، بأن هذه القضية (العواطف) تندرج تحت



موضوع علم النفس، إلا أن علم الاجتماع من الناحية المنهجية يهتم بدراسة الظواهر والقضايا السيكولوجية والنفسية بصورة مختلفة نسبياً عن عالم النفس. وهذا ما أشار إليه في طرحه لتفسير الأسباب التي تؤدي إلى الإلتحار، وتحليل الدوافع التي تؤدي إليه، وكيفية تفسيرها كظاهرة اجتماعية من جانب عالم الاجتماع، وليس كظاهرة سيكولوجية، باعتبار أن الجوانب السيكولوجية ما هي إلا جزء يندرج تحت الظواهر الاجتماعية ككل.

وعموماً، لقد أشار "باريتو" في إطار مساهماته للنظرية السوسولوجية التي طرحها عن قضية التوازن والتغير الاجتماعي، لدراسة مجموعة الأفعال والأنشطة التي يقوم بها الأفراد والجماعات في المجتمع، والتي تمثلت في العواطف الانسانية والتي تشمل ثلاث عناصر أساسية، تعتبر من أهم الموضوعات التي ركز عليها "باريتو" ويجب دراستها بواسطة علم الاجتماع، وتعتبر من أهم قضاياها الأساسية وهي كما يلي بصورة موجزة:

#### أولاً: الرواسب The Residues.

ويقصد بهذا النوع من العواطف، مجموعة الاتجاهات الثابتة نسبياً، والتي تقع في مركز متوسط بين العواطف والفعل الانساني، ولقد سميت بهذا المفهوم- حسب رأي باريتو- لأنها (الرواسب) أشياء ثابتة- وغير متغيرة- ويجب على علم الاجتماع أن يهتم بدراسة الرواسب لتساعدنا في فهم الأفعال الانسانية وكيفية حدوثها عند الأفراد والجماعات والشعوب، ويندرج تحت الرواسب ست فئات ترتبط بالغرائز الانسانية وهي:

١- رواسب للترابط، وهي عبارة عن الميل نحو إقامة علاقات بين الأفكار والأشياء، واستخلاص استنتاجات معينة والميل الى تفسيرها. ولقد أدى هذا النوع من الغرائز الى جعل الانسان قادراً على أن يكون لديه أفعالاً وتعبيرات متنوعة، وتبريرات، وتعتبر بصورة عامة (غريزة الترابط) سبباً في التقدم الفكري والذكاء للانسان وتطور حضارته.

٢- رواسب استمرارية الترابطات، ويقصد بهذا النوع من الرواسب أنها تجعل الانسان قادراً على مقاومة التغيير والمحافظة على الترابط الذي أقامه الانسان



بين الأشياء والأفكار، وتؤكد عموماً هذه الغريزة على الثبات وعدم التغير في المجتمع.

٣- رواسب التعبير عن الذات، فكثيراً من أفعال الإنسان وسلوكه العام يمكن التعبير عنها، عن طريق لجوئه للقيام ببعض التصرفات التي تعكس ذاته مثل، السرور، والغضب، والحزن، والتصفيق، والسحر وغير ذلك.

٤- رواسب تكوين الانتماء للمجتمعات وحب الجماعة، ويرتبط هذا النوع من الرواسب، بمدى حرص الإنسان على تعزيز انتمائه الى مجتمعه وجماعته الاجتماعية، باعتبار أن الإنسان لديه اتجاه فطري للعيش في نظام مستمر له عقيدة، ووطن، وقيم، وأخلاقيات معينة.

٥- راسب تكامل الشخصية، ويشير هذا النوع من الرواسب الى المحافظة على الذات الفردية وحمايتها، من أية اضرار خارجية أو داخلية سيكولوجية، حتى يستمر الفرد للمحافظة على مكانته ومركزه الاجتماعي والمهني.

٦- رواسب الجنس أو النوع، وبالطبع هي غريزة فطرية يسعى الإنسان دائماً للحفاظ عليها، من ناحية الأيديولوجيات والمعتقدات والديانات التي تدعو دائماً الى احترام الفضيلة الجنسية.

#### ثانياً: الأفعال المنطقية وغير المنطقية Logical & Nonlogical Actions

يعرف "باريتو" أولاً الأفعال المنطقية، تلك الأفعال التي تتبنى أساليب وطرق مناسبة من أجل تحقيق أهدافها، ويوجد بين كل من الأساليب والأهداف روابط منطقية تقوم عليها بصورة عامة، وتتصف جميع الأفعال العلمية والاقتصادية بأنها أفعالاً منطقية. أما بقية الأفعال الأخرى فمعظمها أفعال غير منطقية وذلك حسب تصور "باريتو". وأفعال الإنسان وتصرفاته غالباً ما تكون غير منطقية ولا عقلانية، نظراً لوجود مجموعة من القوى والدوافع التي تحركها، وسمى "باريتو" هذا النوع من الدوافع أو الغرائز بالدوافع غير المنطقية أو غير العقلانية.

فالأفعال غير المنطقية تنتج أساساً عن حالات سيكولوجية وعواطف ومشاعر لاشعورية، كما يجب أن يقوم كل من علم النفس وعلم الاجتماع بدراسة هذه الأفعال، وأكد على أهمية علم النفس في تحليله لهذه الأفعال، أما علم الاجتماع فيمكن تتبلور وظيفته في تصنيف الأفعال غير المنطقية، وربطها بالعواطف أو الرواسب الثابتة المؤدية اليها ومعرفة التبريرات الفكرية التي يقوم بها الانسان عند تفسيره لأفعاله غير المنطقية. في نفس الوقت، أكد "باريتو" أنه ليس من وظيفة علم الاجتماع، أن يهتم بدراسة الأفعال غير المنطقية. وهذا ماجعله بالفعل يؤكد على مهمة علم الاجتماع تتبلور في دراسة المجتمع الانساني بصورة عامة، ومحاولته لتقديم نظرية عن المجتمع ودراسة السلوك أو الفعل غير المنطقي، ودوافعه وتبريراته. وما ينتج عن ذلك من ظهور النسق الاجتماعي الذي يتكون من مجموعة كبيرة من الأنساق والتنظيمات الاجتماعية، التي تتساند مع بعضها بصورة وظيفية، وتؤدي الى استمرارية وجود النسق الأكبر (المجتمع)، وتجعله دائماً في حالة من التوازن الاجتماعي. وهذا ماجعل محور اهتمام "باريتو" فكرة التوازن الاجتماعي، أو التوازن بين الظواهر الاجتماعية التي تعتبر من أهم الموجهات للعامة التي انطلقت منها نظريته في علم الاجتماع.

### ثالثاً: المشتقات The Derivations.

تركزت تحليلات "باريتو" حول دراسة الأفعال أو السلوك الانساني، في ضوء نظرية التوازن الاجتماعي التي طرحها مسبقاً مثل العديد من علماء النظرية البنائية الوظيفية، هذا ماجاء في تصوراته حول التوازن، والنسق، الذي طرحهما لميكانيزمات أساسية، يجب أن يركز عليهما علم الاجتماع تحليلاته النظرية والمنهجية. ولقد ظهر ذلك واضحاً في تفسيره للمشتقات باعتبارها جزء من الغرائز والعواطف الى طرحها "باريتو" في ضوء فكرته عن التوازن في السلوك الفردي، وكيفية حدوث اللاتوازن بصورة مستمرة في افعال وسلوكيات الأفراد وميلهم دائماً الى ارتكاب الأفعال غير المنطقية أو اللاعقلانية. ولكن نجد في نفس الوقت أن "باريتو" سعى لتعليم الفرد العقلاني، كيفية اعادة توازنه الاجتماعي، عن طريق ممارساته وأنشطته وأفعاله والسعى

لجعلها تتوازن مع الحياة الاجتماعية العقلانية والمنطقية.

ولقد رأينا في دراسته (الرواسب) واعتبارها جزء من الغرائز أو العواطف الإنسانية، وأن لها جذور تمتد في أعماق الحياة الإنسانية، وهي المسنولة عن كل سلوك يتم داخل المجتمع، ونادراً ما تتغير لأن لها خاصية الثبات والاستمرار. أما المشتقات، فهي دائماً القابلة للتغير والتعديل عن طريق إعطائها أسماء وصوراً متغيرة ومتنوعة. ويقصد بالمشتقات، مجموعة لتبريرات التي تشمل الأديان والعقائد وأيديولوجيات والنظريات العلمية والمثل والقيم العليا، التي يكتسبها الإنسان في المجتمع، ويحاول عن طريقها تبرير ميقوم به من أنشطة وأفعال غير منطقية أو غير عقلانية. وكما يزعم "باريتو"، أن المشتقات لا يمكن أن تعتبر السبب الرئيسي وراء ارتكاب السلوك الحقيقي، لأن هذا السلوك تفسره مجموعة العواطف للرواسب، لكن المشتقات ما هي إلا تبريرات يطرحها الإنسان لكي يفسر بها الشكل الظاهر لسلوكه أو أرائه وأفكاره. ومن ثم، فإن هذا السلوك أو التبرير يختلف حسب الأفراد والمجتمعات والبعد الزمني والمكاني. وهذا ما يرتبط على سبيل المثال في عتاق الأفراد الأديان والأيديولوجيات وتأييدهم نظم سياسية معينة، ثم يعدلون دياناتهم وأيديولوجياتهم وتأييدهم لنظم سياسية دون تمييزها وهكذا.

ويطرح "باريتو" مجموعة كبيرة في إطار ما يعرف بنظريته عن المشتقات، محاولاً أن يعكس آرائه وتصورات العامة حول أفكار البنائية الوظيفية التي تؤكد على فكرة لتوازن الاجتماعي. وهذا ما أشار إليه في كتابه (مقدمة في علم الاجتماع)، حيث يوضح أن السبب الذي يتبنى نظرية سياسية معينة عن التماسك والتضامن الاجتماعي، ويفعل ذلك مقدماً للعديد من التبريرات الفكرية والأيدولوجية، وأسباب تبني هذه النظرية السياسية، ودون غيرها من النظريات. ومن ثم يحاول أن يتبنى فكرة المشتقات في شكلها الظاهري أو السطحي، ولكن السبب الحقيقي الذي يكمن وراء تبني هذا السياسي نظريته السياسية ويدافع عنها ببساطة، إنما يرجع إلى مجموعة للرواسب أو العواطف والغرائز والدوافع الحقيقية وراء سعيه للحصول على الثروة والجاه والمركز والقوة والامتيازات المتعددة. وبالطبع، لا يستطيع أن

يجهر بحقيقة هذه الأشياء الذاتية والنفعية، التى لو صرح عنها علانية، لا يمكن أن يجد أحداً يؤيده فى إعتناق هذه النظرية أو النظام السياسى، الذى يدافع عنه ببسالة شديدة.

ويطرح "باريتو" عدد من المشتقات التى غالباً ما يلجأ إليها الاتمان لتبرير أفعالهم وسلوكهم وهى:

١- التأكيد العام، وهى تعكس مجموعة من الحقائق الواقعية والخيالية التى يذكرها الفرد للتأكيد على صحة آرائه وتأكيد سلوكه تجاه موقف معين.

٢- اللجوء للسلطة، التفسير الكاذب للأحداث الموجودة فى الواقع عن طريق الاستعانة بالقوة، أو السحر، أو التمسك بالتقاليد أو العادات أو الإرادة الإلهية.

٣- الاتفاق مع العواطف والمبادئ، وتعكس هذه المشتقات طبيعة محاولة الفرد وتبريره لأفعاله غير المنطقية على أساس الحقيقة المفترضة، بأنها أساس موجه لخدمة مصالح الآخرين وبعيداً عن المصلحة الفردية.

٤- البراهين والحجج اللفظية، فغالباً ما يستخدم الفرد أنماط متعددة من الألفظ والحجج والأمثلة التى لا تتفق مع الواقع الفعلى. وغالباً، يستخدم الفرد البلاغة العظمى لكثير من التشبيهات التى تبهر الاتباع ومحاولة الفرد أن يقنع الجماهير بها.

بإيجاز، لقد سعى "باريتو" لأن يوضح أفكاره حول العواطف والغرائز والرواسب والأفعال الانسانية، والمشتقات فى إطار طرحه لكيفية دراسة السلوك البشرى من جانب علم الاجتماع، على أساس استخدام المنهج التحليلى العلمى الرياضى، ولينقد الكثير من النظريات العلمية والأيدىولوجية مثل الماركسية، والإشتراكية، التى كانت تسعى كل منها لتقديم تبريرات عقلانية وأيدىولوجية بعيدة تماماً عن الأسباب الحقيقية التى تتمثل فى الرواسب العامة لاسيما هذه النظريات، ونوعية المنفعة التى يسعون أساساً للحصول عليها.

#### (٤) اللاتجانس والتميز الاجتماعي.

بالرغم من تركيز أفكار "باريتو" السوسيولوجية على فكرتي النسق، والتوازن الاجتماعي اللتان تعتبران جوهر القضايا العامة التي يقوم عليها علم الاجتماع عامة، وسعى من خلالهما لنشر تصوراتهما حول ضرورة التوازن في المجتمع من أجل استمراره وبقائه. وهذا ما جعله ينتقد الأفكار والتصورات التي كانت سائدة في عصره، مثل الأفكار الماركسية، والداروينية، والإشتراكية وغيرها من النظريات. والسبب يرجع الى أن "باريتو" كان ينظر الى هذه النظريات، على أنها نوع من الرواسب التي طرحها أصحابها بهدف الدفاع عنها وتبرير مواقفهم وأيديولوجياتهم نحوها باستمرار. كما أن أصحاب هؤلاء النظريات كانت توجههم مجموعة من الدوافع والغرائز التي تجعلهم يكسبون المنافع المادية والمعنوية في المجتمع الذي يعيشون فيه. ووجد "باريتو" أن هناك العديد من النظريات والأفكار السائدة التي تعتبر من الناحية النفعية خطراً على الحياة الاجتماعية، واستقرار البناءات والنظم والأنساق الاجتماعية، ولذا يجب تغيير هذه النظريات حتى تؤكد على فكرة التوازن والمحافظة على النسق الأكبر. وهذا في حد ذاته يوضح مدى اعتناق "باريتو" نفسه الأفكار والأيديولوجيات والتصورات المحافظة، والتي تعكس عموماً رؤيته السوسيولوجية والنظرية في علم الاجتماع، والتي تتدرج عموماً تحت النظريات البنائية الوظيفية الكلاسيكية.

وتبرز أفكار "باريتو" الوظيفية من خلال إشارته الى فكرة اللاتجانس والتمايز الاجتماعي، والتي تمثل من الناحية الواقعية أهمية ومكانة فكرة الرواسب، ووجد أنها تؤثر كثيراً في النظام أو النسق الاجتماعي، ولقد تبنى "باريتو" هذه الفكرة انطلاقاً من توجهاته الفكرية والأيديولوجية التي هاجم فيها أفكار "كارل ماركس" K. Marx دائماً، كما هاجمه بشدة عندما جعل الغرائز والعواطف هي الأساس في التغيير والتطور، وليس العوامل المادية والاقتصادية بصورة عامة. وفي إطار تحليل "باريتو" لفكرة اللاتجانس والتمايز الاجتماعي، ركز على آراء وأفكار النظريات والأيديولوجيات السائدة التي نادى أصحابها بالمساواة، والحرية، والديموقراطية، وغير ذلك من

الأفكار التي لن تخفى حقيقة قائمة رواسب ثابتة محددة، تجعل بالفعل هناك أسباب لظهور هذه الأشياء في المجتمع والحياة البشرية عبر العصور التاريخية. فالسبب لوجود مشكلات اللامساواة، والحرية، والديموقراطية، تظهر من خلال وجود حقائق أخرى ثابتة أيضاً، وهي التي تفسر سبب وجود اختلافات بين الأفراد من حيث الجسم، والقدرات العقلية أو الذكاء، والخلقية، وهذه الخمائص والسمات الجسمانية والفيزيكية، ما هي إلا حقائق يتميز بها الجنس البشري عن بعضه البعض. وهذا ما يترتب عليه دائماً وجود تقسيم المجتمع الى طبقات اجتماعية، تحرص دائماً على تدعيم النظام الطبقي وفكرة اللامساواة، الاجتماعية بين الأفراد والطبقات بل بين الشعوب والمجتمعات أيضاً.

من هذا المنطلق، ركز "باريتو" عند مناقشته لفكرة اللاتجانس والتميز الاجتماعي، على مناقشة وتحليل فكرة الديمقراطية، وينتقدها بشدة بكل ما بها من أفكار ومعان وتطبيقات وأمثلة لوجودها في الحياة الاجتماعية ككل. كما هاجم بضراوة أصحاب نظريات المساواة، حيث أكد على أن سبب اللامساواة في المجتمع منذ القدم ترجع الى الاختلافات العقلية، والخلقية، والفسولوجية، والجسمانية التي توجد بين الجنس البشري. ومن ثم فإن هذا للتمييز واللامساواة في هذه الأشياء لا بد وان ينتج عنه نظم اجتماعية تقوم على اللامساواة واللاتجانس، والتميز، والتقسيم الطبقي، وغير ذلك من أمور بديهية يجب أن نلاحظها في المجتمع أو الحياة الاجتماعية أينما كانت ومتى ظهرت عبر الزمان والمكان. ولهذا، انتقد "باريتو" أصحاب نظريات المساواة، والديموقراطية، والدعوة الى الحرية ووجد، أن هؤلاء الناس يسعون الى تقديم تبريرات غير منطقية وغير عقلانية، خلال دعوتهم لنشر نظرياتهم، وخاصة أنهم يناقشون قضايا وحقائق أبدية وأزلية وثابتة لا تتغير على الإطلاق.

وفي الواقع جاء حرص "باريتو" وتأكيد على فكرة اللاتجانس والتميز، مستمداً من المدخل النقدي الشديد الذي تبناه بصورة مستمرة في أفكاره ضد أفكار "ماركس" على وجه الخصوص. وهذا ما لوحظ من خلال تحليل أعماله وهجومه على الفكر الماركسي وتفسيره المادي للتاريخ، ودعوته لقيام مأسماه

بالمجتمع اللاتطبقى، واعتبر هذه الأفكار، أفكاراً مجردة بعيدة عن الواقع. فلم ينظر ماركس الى كيفية وجود هذا المجتمع، وكيفية حدوث المساواة الاجتماعية، وأن الناس أنفسهم يوجد بينهم اختلافات جسمانية وعقلية وفيزيائية. وبالطبع أن "ماركس" كان يريد مجتمعاً لاتطبقياً، ويقوم على المساواة من وجهة النظر الاقتصادية (المادية) فقط، فسعى لإتاحة الفرص الاقتصادية بصورة متساوية أمام الجميع ولا يحدث نوع من الاستغلال أو القهر، أو التمييز، أو السلطة الجبرية وما الى ذلك. وهذا يعتبر بعيداً عن الحقيقة والواقع الفعلى الذى يوجد بين المجتمعات مهما ادعت أنها تقوم على المساواة، حيث لا يوجد أى نظام اجتماعى يقوم على المساواة التامة، حسب تصورات "باريتو"، ومناقشته لفكرة اللاتجانس والتمايز الاجتماعى.

وبالرغم من تأكيدات "باريتو" على هذه الآراء والأفكار، وأن المجتمع الطبقي أمر محتوم، لا بد من وجوده باعتباره يشكل نوع من الحقائق الواقعية الثابتة، ومن الأشياء والأفكار التى يتعذر مناقشتها وتحليلها، نظراً لبدايتها ووضوحها بصورة علمية. إلا أننا نلاحظ فى نفس الوقت، أن "باريتو" لكد على أهمية وجود المجتمع أو النسق الاجتماعى مفتوحاً Open Society أمام الطبقات الاجتماعية حتى يحدث نوع من الحراك الاجتماعى Social Mobility. أى يسمح بانتقال الأفراد من الطبقات الدنيا أو السفلى الى الطبقات العليا ومن وإلى كلا من الطبقتين، ويسمح بحصول أفراد الطبقات على الإمتيازات التى تحملها أفراد الطبقات الجديدة. وهذا بالفعل مناقشته "باريتو" فى دراسته لدائرة الصفوة والتغير الاجتماعى، كما سنناقش ذلك بصورة أكثر تحليلاً لاحقاً. فقد ركز "باريتو" على أهمية وشرط وجود المجتمع مفتوحاً، ليسمح بالحراك الاجتماعى بين الطبقات الاجتماعية، لأن ذلك شرطاً أساسياً من شروط التقدم والتطور الاجتماعى.

وعموماً، لقد طرح "باريتو" أفكاره حول اللاتجانس والتمايز الاجتماعى، باعتبارها من الأفكار الهامة التى يجب أن يؤكد على تحليلها علم الاجتماع عند دراسته لأسباب حدوث الظواهر الاجتماعية واعتبرها، أيضاً جزء من عملية التغير الاجتماعى. فالنظام الاجتماعى والتغير الذى يحدث فيه،



يظهر نتيجة مجموعة من العوامل السيكولوجية، والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المتعددة، ولا يمكن قصر حدوث عمليات التغير على بعض العوامل الأحادية السبب، وهذا ما رفضه "باريتو" بصورة قاطعة. كما حرص أيضاً، باعتباره عالماً اقتصادياً، أن يوضح كيفية ظهور اللانجائس والتعايز بين الأفراد والجماعات نتيجة لحصول كل منهما على العناصر المادية بصورة متفاوتة في ضوء الفرص المتاحة في الواقع. وفسر ذلك عموماً في إطار نظريته عن المنفعة والقيمة الاقتصادية، التي تدفع حركة دائرية للتغير الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وهذا ما سنعالجه خلال الصفحات التالية، حول مشكلة القيمة والمنفعة الاقتصادية، التي تعتبر جزءاً أساسياً من الاسهامات النظرية للسوسيولوجية "باريتو" بصورة عامة.

#### (٥) مشكلة القيمة والمنفعة الاقتصادية.

حاول "باريتو"، البحث عن علاقة كل من المظاهر العقلانية وغير العقلانية، التي تفسر طبيعة السلوك البشري، ولم يحاول أن يقدم استخدام النظرية الاقتصادية في معالجة المظاهر غير العقلانية أو غير المنطقية، وهذا المنهج يختلف عن أسلوب "ثورستين فيلن"، في تحليل مثل هذه الظواهر. ولكن "باريتو" تصور أن تلك المظاهر (غير العقلانية) يمكن استخدام الأفكار والمتغيرات السوسيولوجية والسيكولوجية. خاصة، وأن تلك التفسيرات والمفاهيم لديها القدرة على تحليل وفهم هذه المظاهر المكونة للسلوك البشري، والتي من الصعب فهمها عن طريق التحليل الاقتصادي. ومن هذا المنطلق نجد أن "باريتو" قد ميز بوضوح بين عناصر الفعل العقلانية، وغير العقلانية، والذي بنى عليه تصورات في فهم كل من علم الاقتصاد والاجتماع بعد ذلك، واستخدامه للعديد من الأفكار والتصورات التحليلية التي اشتهر بها في كتاباته السوسيولوجية مثل الرواسب Residues والمشتقات Derivations والتي تعكس وجهة نظره عن العناصر العقلانية وغير العقلانية ودراسته للظواهر السوسيولوجية وفهم السلوك البشري.

كما يعد كتاب "باريتو" (منهج الاقتصاد السياسي) الذي نشر عام ١٨٩٦، أحد الاسهامات الهامة في مجال علم الاجتماع الاقتصادي، والذي



ضمن فيه مجموعة من خبراته فى (لوزان) وعرض أفكار هذه المدرسة الاقتصادية التى تؤكد فكرة (التوازن العام) واستخدام المناهج الرياضية والإحصائية، لتوضيح أفكار التوازن الاقتصادى فى المجتمع الحديث، ويشير الى صعوبة عدم استخدام تلك المناهج فى فهم الظواهر والمشكلات الاقتصادية. كما سعى "باريتو"، لاستخدام الأساليب الرياضية التكاملية والإحصائية المعروفة فى العلوم الرياضية والطبيعية، واستخدام الأساليب الكمية بصورة أساسية. وفى الواقع، لقد سعى "باريتو" لمعالجة الكثير من القضايا الاقتصادية، ومن أهم القضايا التى عالجها "باريتو" مشكلة تحديد القيمة على أساس المنفعة، حيث حاول أن يعالج مشكلة القيمة باعتبارها مشكلة ذاتية وترجع الى طبيعة كل من (أنواق) للفرد و(العقبات) التى تواجه النشاط الاقتصادى. وتفسير عملية الشراء واقتناء المنتجات أو السلع التى ترجع الى عنصرين أساسيين وهما: أولاً عملية التفضيل من جانب الفرد، وثانياً الى المستوى الذاتى للسلعة ذاتها، تلك العناصر التى وجدت مكاناً هاماً فى تحليلات المدارس الاقتصادية الحديثة أو ماسمى (بالقيمة الانتقالية).

وحسب تصورات "ريك رول" أن كتاب منهج الاقتصاد السياسى عند "باريتو" يجذب لفتباه العديد من علماء الاقتصاد والاجتماع، لاهتمامه بمعالجة المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. كما سعى "باريتو" بأن يتخذ فهماً تحليلياً مميزاً، لطبيعة الأفعال الانسانية العقلانية وغير العقلانية. كما اتخذ التاريخ بعداً أساسياً فى تفسير الظواهر الاقتصادية والاجتماعية التى تم معالجتها بصورة تحليلية مقارنة بالواقع الاجتماعى المتغير عند دراسة هذه الظواهر فى المجتمع.

كما حاول "باريتو" أن يجعل من التقدم الانسانى Human Progress أحد العناصر الأساسية التى عالج فيها مشكلات الاقتصاد السياسى وكيفية تنظيم الشؤون الاجتماعية عن طريق الاجراءات والنظم والقواعد الاجتماعية. وبعيداً عن أساليب القمع والقهر. ومن هذا المنطلق سعى "باريتو" لتوضيح أفكاره السياسية وتصورات العقلانية بين الفرد، والمجتمع، والدولة. كما نبذ تماماً فكرة الإشتراكية Socialism، ليس بسبب عدم قدرتها على تحقيق التقدم والنجاح الاقتصادى فقط من الناحية النظرية، ولكن أيضاً من الناحية الواقعية

وانشاء اقتصاد رأسمالى يقوم على مبدأ الحرية الاقتصادية. كما أن الاشتراكية تمثل أحد العناصر الأساسية التى تقوم عليها سياسات القمع والقهر، والبعد عن تنفى القوانين الشرعية، كما أنها تزيد من سيطرة السلطة السياسية الحكومية فى شئون الأفراد ومصالحهم الاجتماعية والاقتصادية.

بالإضافة الى ذلك، تناول "باريتو" مشكلة توزيع الدخل Income Distribution بالإضافة الى معالجته (لقضية القيمة) و(التقدم الانسانى)، والاشتراكية وعلاقتها بالاقتصاد والحرىات الاجتماعية والسياسية. فلقد استخدم "باريتو" الدراسات الاحصائية التى تميزت بها تحليلاته فى دراسة مشكلة توزيع الدخل، ووضع قانوناً مميزاً له ومفسراً للأسباب التى تؤدى الى تفاوته بين الأفراد والطبقات الاجتماعية. ومن أهم الأسباب التى تؤدى الى هذا التفاوت، استند "باريتو" الى الواقع السوسىولوجى، من ناحية، والتفاوت حسب القدرات البشرية أو الكفاءات الطبيعية والسيكولوجية من ناحية أخرى. أى أن "باريتو" ربط بين تفاوت القدرات البشرية وبين عملية كسب الدخل. وفى الواقع أن تحليلات "باريتو" عن توزيع الدخل، تعكس وجهة نظره الليبرالية واهتماماته بضرورة زيادة الإنتاج، والحرية الاقتصادية التامة، وغيرها من الأفكار الاقتصادية الليبرالية الخاصة مما جعل هذه الأفكار تتعرض للمزيد من الانتقادات خاصة من جانب أصحاب الإصلاح الاجتماعى، ولعدم طرحه للوسائل التى تؤدى للتخفيف من هذا التفاوت فى مستوى الدخل.

على أية حال، إن تصورات "باريتو" حول كل من (توزيع الدخل)، و(الحرية الاقتصادية) القائمة على مذهب المنفعة، سعى الى تبريرها عن طريق ما أسماه باستخدام الحد الأعلى أو الأقصى من (القيمة) والإنتاجية). وهذا ما جعله يحل أيضاً مشكلة أو نظرية (التجارة الدولية)، وتصور بأن علم الاقتصاد علماً (حيادياً) أو بحثاً، يعالج الظواهر الاقتصادية دون الالمام بواقع المجتمع الاجتماعية الواقعية التى تحدد نوعية المشكلات التى توجد بالفعل فى المجتمع ذاته. وهذا ما جعل "باريتو" يطرح كتابه الضخم عن (رسالة علم الاجتماع العام) ليكمل وجهة نظره حول التحليل الاقتصادى المتوازن باستخدام نظريات منطقية، وسوسىولوجية، وسيكولوجية فى نفس الوقت.

حقيقة، بالرغم من اسهامات "باريتو" فى علم الاجتماع الاقتصادى قد تركزت بعض الشئ فى التمييز بين كل من اهتمامات علم الاقتصاد والاجتماع، ذلك التمييز الذى أوضحه "باريتو" فى دراسة كل من المظاهر العقلانية وغير العقلانية. إلا أننا نلاحظ مدى سعى "باريتو" لبيان وجهة نظره هذه سواء فى تحليل مشكلة (القيمة) أو (المصالح) على سبيل المثال، مستخدماً فى ذلك أفكاره التصورية التحليلية عن كل من (الرواسب) والمشتقات تلك الأفكار التى جعلته يهتم مسبقاً بتحليل كل منها عن طريق ملاحظاته الواقعية واعتبار (الرواسب) تعبيراً أساسياً عن مجموعة من العواطف Sentiments، التى تحدد حسب العوامل الخارجية كما يحدث فى الطبيعة المادية. وربما وجهة نظر "باريتو" هذه قد تأثرت تأثراً شديداً بما يسمى بالداروينية الاجتماعية Social Darwinism - على حد رأى ريموند أرون R. Aron - حيث تصور "باريتو"، وجود نموذجين من المجتمعات الأول يتحدد تماماً طبقاً لتأثير العواطف، كما يحدث بينها مماثلة كما فى المجتمعات الحيوانية ويلاحظ نفس السلوك الحيوانى الذى يتشكل وفق الغرائز Instincts والعواطف دون وجود أى أثر للعناصر الوظيفية أو العقلانية. أما النوع الثانى من المجتمعات الذى يوجد فى المجتمعات البشرية، والذى يتحدد وفق العناصر العقلانية.

كما عقد "باريتو" مماثلة بين طبيعة هذه المجتمعات ومناقشة السلوك الاقتصادى البشرى، الذى ينقسم بطبيعته الى مجموعة من السلوك أو المظاهر السلوكية الغير عقلانية أو المنطقية التى تعتمد على العواطف والغرائز من أجل تحقيق الأهداف أو الغايات Goals. أما تحقيق تلك الغايات عند دراسة أهداف السلوك البشرى الاقتصادى، فإنها تتركز على استخدام الأساليب العقلانية والمنطقية، وهى موضع اهتمام علم الاقتصاد ولن عملية اختيار الغايات The Choice of Goals تعتمد على المستوى العقلانى لدى الفرد، وطبيعة الإنجاز، ومستويات القيمة، والمنفعة، والأساليب المنطقية، وعقلانية اتخاذ القرار، وغير ذلك من قرارات يسعى علماء الاقتصاد لتحليلها عند دراسة الظواهر الاجتماعية وإعادة بناء السلوك العقلانى للمنطقى. وخلص "باريتو" من ذلك، بأن الانسان يسعى لتحقيق الحد الأقصى للاستيعاب Maximum Statistication من الموارد المتاحة لديه. فكل هدف انسانى أو

بشرى موجهها للحصول على حد أقصى من الاشباع من الموارد الموجودة، كما يمكن ملاحظة هذا الاشباع عن طريق الحقائق الواقعية وعملية الاختيار التى يقوم بها الفرد. وإن كان "باريتو"، ركز على أهمية وجود التحليلات والمداخل السوسيولوجية التى يهتم بها علماء الاجتماع، من أجل دراسة تلك المظاهر غير العقلانية والتى يصعب تحليلها بواسطة المداخل التحليلية الاقتصادية.

هكذا نبين لنا تلك التحليلات السابقة لـ "باريتو" وجهة نظره، حول مكانة النظرية الاقتصادية Economic Theory وكيفية معالجتها بالأساليب المنهجية التى تميز بها "باريتو" عن غيره من علماء الاقتصاد والاجتماع. حيث ركز على الأساليب المجردة فى معالجة القضايا والظواهر الاقتصادية والاجتماعية وذلك على غرار العديد من علماء الاقتصاد النيوكلاسيكيين، ومنهم على سبيل المثال "الفريد مارشال" A. Marchall، الذى ركز على تبنى وجهة نظر أمبيريقية واقعية لمناقشة القضايا والظواهر الاقتصادية حيث حدد مجال علم الاقتصاد فى اهتمامه بدراسة الأنشطة الاقتصادية للحياة اليومية، كما ظهر ذلك فى تحليله مثلاً لمشكلة العرض والطلب، وإن كان ذلك التحليل ارتبط بطبيعة نظرية المنفعة، من ناحية، وأيضاً الأنشطة الاقتصادية المختلفة من ناحية أخرى. أما تصورات "باريتو" جعلت من علم الاقتصاد علماً مجرداً أو مايسمى بالاقتصاد الخالص Pure Economic، الذى يعتمد فى تفسيره على التحليلات النظرية المجردة، ولهذا السبب لجأ "باريتو" الى تبنى التحليلات والمداخل السوسيولوجية الأخرى، لجعل (الاقتصاد) أكثر تطبيقاً وواقعية.

من هذا المنطلق، يمكن أن نتصور أن الإطار الفكرى والتصورى العام لتحليلات (مارشال) كانت تنتمى الى الفكرة الأخيرة التى هدف "باريتو"، منها ضرورة استخدام العناصر السوسيولوجية فى تحليل الظواهر والأنشطة الاقتصادية بصورة واقعية بما فى ذلك بالطبع فكرته حول (المظاهر غير العقلانية)، أو غير المنطقية. وبالفعل، لقد سعى "باريتو" الى تجنب الصعوبات الامبيريقية التى تظهر عند تحليل الظواهر الاقتصادية المجردة، عن طريق تركيزه على أهمية المداخل السوسيولوجية على النقيض من "مارشال" الذى

وجد بعض الصعوبات التحليلية عند تفسيره لنظرية القيمة أو اتجاهات القيمة عند الأفراد في المجتمع، وضرورة الالمام بالعناصر الاجتماعية والسياسية التي ترتبط بعملية الموقف الاقتصادي من ناحية أخرى. وهذا ما تفاداه "باريتو" عندما اعطى للعوامل الخارجية (الهامشية) والتي استخدمها في إطار مأسماه Ophelimity والتي تفسر أهمية معرفة البناءات السوسيولوجية للأنساق الاجتماعية. وعموماً، تلك بعض الآراء التي توضح أهمية تحليلات "باريتو" واستخدامه للعديد من التصورات والأفكار والمناهج التحليلية، وأن كانت قد جاء بعضها في إطار نظري مجرد، إلا أنها سعت للإمام بمختلف الظواهر المجتمعية والعوامل الخارجية، التي ترتبط بالظواهر والمشكلات الاقتصادية وإلى أي حد يمكن استخدام المداخل السوسيولوجية في دراستها بصورة واقعية، في حين يصعب على عالم الاقتصاد الاعتماد فقط على التحليلات الاقتصادية.

في الواقع، أن تصورات "باريتو" وإسهاماته في علم الاجتماع الاقتصادي، تكمن في حقيقة اهتماماته أولاً بعالم اقتصاد وثانياً بعالم اجتماع تناول العديد من الكتابات المتعددة في كلاً من العلمين في نفس الوقت. وهذا ما ظهر واضحاً في تحليل بعض القضايا والمشكلات السوسيو-اقتصادية، واستخدامه لمنهج العلمى المميز، الذي استعار معظم أفكاره من العلوم الطبيعية والرياضية، والذي يختلف بالطبع عن الأساليب المنهجية التقليدية الوضعية Positivism التي كانت سائدة عند العديد من علماء الاجتماع الكلاسيكيين في ذلك الوقت. كما أن تلك الأساليب المنهجية كانت مختلفة تماماً عن اهتمامات علماء الاقتصاد والكلاسيكيين أو النيوكلاسيكيين، كما أشرنا إلى ذلك من قبل عند "مارشل" وتركيز "باريتو" بصورة أساسية على أهمية الأساليب والمداخل السوسيولوجية، لمعالجة بعض الظواهر التي تهم بالقضايا والمشكلات الاقتصادية والمجتمعية. كما يتضح لنا أهمية تحليلات "باريتو" في علم الاجتماع الاقتصادي وعلاقتها بنظريته السوسيولوجية واهتمامه بدراسة الفعل العقلاني أو المنطقي للفرد وعلاقته عموماً ببناء أنساق الفعل الاجتماعي ككل واستخدامه أيضاً لتحليل نظرية المنفعة الاجتماعية Theory of Social Utility، تلك النظرية التي يصعب على عالم الاقتصاد

وحده تحليلها دون الرجوع لاهتمامات علماء الاجتماع ومدخلهم  
السوسيولوجية كدراسة الواقع الاجتماعي المعقد.

فلقد ميز "باريتو" بين نوعين من تحقيق الحد الأقصى من المنفعة،  
الأول الحد الأقصى من المنفعة (لصالح الجماعة) Maximum Utility of  
والثاني، المنفعة لأجل (المصالح الخاصة) Maximum Utility for. (ويشير  
الأخير إلى أن كل فرد يسعى لتحقيق أعلى حد من الاشباع الخاص Private  
Satisfaction. أما الأول، فيشير إلى تحقيق الحد الأقصى من المنفعة  
للجماعة أو المجتمع ككل وليس للأفراد). فالنوع الأول، يستطيع أن يحلله فقط  
عالم الاقتصاد حيث يمكن التعرف على رغبات الأفراد وطرق لشباعها، ولكنه  
لا يستطيع أن يقوم بتحليل أو قياس كيفية تحقيق الحد الأقصى لاشباع الجماعات  
والمجتمع كل. ويبرر "باريتو" على ذلك، أن علم الاقتصاد الخالص أو المجرد،  
لا يمكن أن يحل بصورة واقعية كيفية المماثلة بين رغبات الفرد والمجتمع،  
كما أنه لا يمكن أن ينظر للمجتمع على أنه فرداً. على النقيض من ذلك، يمكن  
تحقيق هذا عن طريق استخدام علم الاجتماع أو على الأقل يمكن أن ينظر إلى  
المجتمع ليس كمجرد فرد، ولكن كجماعة ووحدة اجتماعية واحدة. ومن ثم،  
يمكن تفسير نظرية الحد الأقصى للمنفعة للمجتمع عن طريق المداخل  
السوسيولوجية، تلك المنفعة التي ليس من الضروري اعتبارها مماثلة بصورة  
أو بأخرى لمنفعة واشباع رغبات الأفراد ذاتهم.

كما يرى عالم الاجتماع الاقتصادي "جوزيف شومبيتر"  
J. Schumpeter، أن اسهامات "باريتو" في هذا المجال وخاصة تصوراتته عن  
(نظرية القيمة) تعكس عدم رضا "باريتو" منذ البداية على تحليلات علماء  
الاقتصاد في مدرسة (الوزان) وخاصة نظرية "والراس" في القيمة. فلقد حاول  
"باريتو" أن يطور هذا التصور الاقتصادي الكلاسيكي، سواء ما يتعلق بالمنفعة  
أو المنفعة الحديثة، والدورة الزمنية لاستهلاك السلع، تلك الآراء التي وجدت  
أصداء واسعة لها عند أصحاب المدرسة الكلاسيكية والنيوكلاسيكية. كما  
استطاع "باريتو" أن يستخدم العديد من المناهج الرياضية والإحصائية لدراسة  
نظرية القيمة وعلاقتها بالثمن والأسعار، والمنافسة، والعوامل البيئية

والتكنولوجية التي تلعب دوراً في هذه النظرية.

علاوة على ذلك، أن نظرية القيمة عند "باريتو"، جعلت الكثير من علماء الاقتصاد، ينظرون الى "باريتو" بأنه مؤسس علم اقتصاد الرفاهية الجديد New Welfare Economic خاصة أن تحليلات "باريتو" استبعدت الأفكار المجردة المعزولة حول الرفاهية التي طرحها مسبقاً أصحاب مذهب المنفعة من أمثال "بكاريا" Beccaria و"بتنام" Betnam.. وناقش سياسات الرفاهية الاقتصادية، في ضوء الواقع الاقتصادي والاجتماعي، وخاصة علاقة تلك السياسات بالنظم الضريبية، وتحقيق الحد الأقصى من الاشباع. كما لاحظ طبيعة التغيرات والعوامل والظروف التي تفرض على نظام اقتصادي معين، وتزيد من مستويات الرفاهية والاشباع الجمعي، وعلاقة ذلك بأنماط العرض والطلب وأنماط الاستهلاك. كما حاول أن يعطي للإعتبارات الأخلاقية والاشباع وغير ذلك من قضايا متعددة، أهمية كبرى عند تفسير اقتصاد الرفاهية الجديد بصورة عامة.

وتعد (نظرية الإنتاج) من أهم تلك القضايا التي ترتبط باقتصاد الرفاهية الجديد، والتي اعطى "باريتو" ليا اهتماماً بالغاً، كما ربط بين نظرية الإنتاج Theory of Production ونظرية الاختيار Theory of Choise مستنداً في ذلك للكثير من النظريات الرياضية والتحليلية التي جعلت من أفكاره طابعاً متميزاً ومختلفاً عن علماء الاقتصاد الذين تعرضوا لهذه الفكرة ومنهم على سبيل المثال "الفريد مارشال". كما حرص "باريتو" على أن يناقش نظرية الإنتاج في حالتها المتغيرة وليست الإستاتيكية، موضحاً العديد من العوامل التي تؤثر في الإنتاج ولاسيما العلاقة بين التكنولوجيا ووحدات الإنتاج، والظروف الفيزيائية والنفسية، التي تؤدي الى تحسين العمل، تلك العلاقات التي لم تظهر بوضوح عند عالم الاقتصاد "الراس" أو غيره من الكثير من علماء الاقتصاد الكلاسيكيين. كما ناقش "باريتو"، العلاقة بين الإنتاج والاستهلاك والتوزيع وغيرها من المتغيرات الهامة التي يمكن عن طريقها فهم نظرية الإنتاج.



كما يؤكد "شومبيتر" بأن إسهامات "باريتو" في علم الاقتصاد قد توجهها إسهامات أخرى مميزة في علم الاجتماع ولا سيما في علم الاجتماع الاقتصادي. فبالرغم من أن "باريتو" كعالم اقتصاد تناول العديد من المشكلات الواقعية والعملية، إلا أن إسهاماته في مجال علم الاقتصاد تتسم بطابع عال من التجريد. حيث يسعى "باريتو" إلى حاجة هذا العلم إلى علم الاجتماع الاقتصادي لاختبار أفكاره مع الواقع، وضرورة مواءمة الأفكار النظرية المجردة بالواقع الملموس. ومن ثم، فقد جعل من بين اهتماماته كيفية دراسة النظريات الاقتصادية المجردة وجعلها أكثر نفعاً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية اليومية. كما كان لخبرة "باريتو" الطويلة بالعلوم الطبيعية والرياضية، الاستفادة من أساليبها المنهجية، مستخدماً في ذلك أسلوبين تحليليين مختلفين، أحدهما يمكن أن يطلق عليه (علم تكوين المجتمع) ويركز على استخدام الحقائق والأساليب الموجودة في كل من علمي التشريح والأحياء، والآخر، ينتمي إلى علم (النفس الاجتماعي). كما يسعى "باريتو" للاسترشاد بالكثير من الأمثلة التاريخية والمعاصرة لدراسة كل من (تكوين المجتمع) و(علم النفس الاجتماعي)، عن طريق الاستفادة من الداروينية الاجتماعية والتحليلات السيكولوجية الأخرى عند كل من "تارد"، و"دور كايم"، و"بروهل"، و"ريبنو" وغيرهم.

من ناحية أخرى، لقد سعى "باريتو" باستمرار للتأكيد على الأفكار الليبرالية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، الأمر الذي جعل البعض يطلقون عليه "كارل ماركس البرجوازي" بالرغم من انتقاداته المتعددة لديموقراطية الأغنياء، وهذا ماظهر بوضوح في اختياره ذات الطابع الاقتصادي السياسي مثل الصفوة، والأرستقراطيات، والأيدولوجية، وغيرها من الأفكار التي تعكس اهتماماته في كل من علمي الاجتماع السياسي والاقتصادي في نفس الوقت. كما سعى "باريتو"، لأن يحل العديد من الأفكار الماركسية وينتقدها بشدة ويحاول تعديل مسارها الفكري، بالرغم من أن "باريتو" لم يناقش قضية الملكية الخاصة بصورة واضحة ومميزة.



## (٦) الصفوة والتغير الاجتماعي.

تتركز تصورات "باريتو" في علم الاجتماع على نظريته عن التوازن الاجتماعي، التي جعلها موضع اهتمامه الأول، وخاصة عندما تناول قضايا المجتمع أو النسق الاجتماعي، ودراسة الظواهر الاجتماعية، إلا أن "باريتو" حرص أيضاً من خلال مدخله النقدي التحليلي المقارن، أن يركز في نفس الوقت على اللاتجانس الاجتماعي Social Heterogeneous أو التمايز الاجتماعي، باعتبارها من الأفكار الهامة التي طرحها عند مناقشته لقضية التطور والتغير الاجتماعي بصورة عامة. وهذا ماحدده بالفعل في دراسته لمجموعة السمات والخصائص الجسمانية والعقلية والفسيولوجية التي يتميز بها الأفراد عن غيرهم، والتي تعتبر جزء من الحقائق والثوابت والرواسب الثابتة التي لا تتغير، والتي على ضوئها يوجد التمايز والاختلاف بين الأفراد والجماعات، وتتكون الطبقات الاجتماعية كشيء طبيعي ومحتم. ولقد أكد "باريتو" على ضعف التصورات والنظريات التي تدعو إلى المساواة، والحرية والديموقراطية، واعتبر تلك النظريات بعيدة عن الواقع لأن اللامساواة، وعدم وجود حرية أو ديموقراطية تامة، يعد أمراً طبيعياً، لأنه يعكس مجموعة الحقائق الواقعية التي أكدها "باريتو" في تحليلاته السيكولوجية، عندما ركز على العواطف والغرائز والدوافع، أو اهتماماته الاقتصادية عندما ركز على حقيقة القيمة والمنفعة الاقتصادية، وتصوراته السياسية عندما ناقش بالفعل دائرة الصفوة وعلاقتها عموماً بعملية التطور والتغير الاجتماعي.

وبإطلاقاً من اهتماماتنا حول دراسة اسهامات "باريتو" عن النظرية السوسولوجية بصورة عامة، نطرح حالياً بشئ من الإيجاز، تحليلاته عن الصفوة وعلاقتها بالتغير الاجتماعي، التي تعتبر من الاسهامات التي عززت، بالفعل رؤية العلماء والباحثين في علم الاجتماع وخاصة علم الاجتماع السياسي، ومناقشتهم لمشكلة الصفوة في العصر الحديث، فلقد تأثر الكثير من هؤلاء العلماء وبأراء "باريتو" التي لاقت قبولاً واسع النطاق، لدى رجال السياسة والمهتمين عموماً بدراسة قضية الصفوة وتطورها وخاصة في المجتمعات الحديثة. وبالطبع، إن تصورات "باريتو" عن الصفوة إنما تعكس

جزءاً من آرائه حول دراسته للمجتمع أو ما أسماه بالنسق السياسى والاجتماعى، وصعوبة وجود مجتمع يسوده نوع من التجانس الاجتماعى التام، بقدر ما يلاحظ وجود نمة اختلافات وتمايز بين الأفراد والجماعات التى تشكل دورها نظم مختلفة من الحكم تدار بمجموعة من الأفراد أو الطبقة الحاكمة، والتى أطلق عليها "باريتو" بالصفوة، التى توجد فى كافة المجتمعات ووجدت عبر العصور التاريخية.

وفى الواقع لقد أسهمت دراسة "باريتو" للصفوة من خلال تأثره بكتابات "ميكافيللى" الإيطالى، ولاسيما تميزه بين الصفوات والجماهير. ومن ناحية أخرى، طرح "باريتو" تصورات حول الصفوة فى إطار نقده الشامل لنظرية "ماركس" حول الطبقات والصراع الطبقي. ولقد عرف "باريتو" الصفوة بمفهومها العام بأنها الصفوة الاجتماعية ككل. وما الصفوة بمفهومها الضيق، فأنها تشير إلى الصفوة الحاكمة. وبالطبع، ركز "باريتو" على تحليل الصفوة بمفهومها الأخير مشيراً على أنها القوة الحاكمة التى توجد فى كافة المجتمعات الانسانية، وتستحوذ على أكبر قدر من القوة، والهيمنة وفتعاج الجماهير بضرورة الخضوع والامتثال لأوامرها وسيادتها للسلطة، لأنها (الصفوة) تسعى لتحقيق مصالح الجماهير أساساً. وبالطبع، يلاحظ أن يستخدم مفهوم القوة، والامتثال هى نفس المفاهيم التى استخدمها "ميكافيللى" فى استخدامه وتميزه بين الأسود، والنعالب الذى استعارهما "باريتو" فى تحديده لدائرة الصفوة وتغييرها بين كل من الصفوات الاجتماعية والسياسية فى المجتمع الحديث.

من ناحية أخرى، حرص "باريتو" على أن يوضح نظريته أو فكرة الصفوة من خلال تحليلاته للأفكار العامة الرئيسية، التى يقوم عليها علم الاجتماع وأفكاره الجوهرية مثل: المصالح، والرواسب، والمشتقات، والأفعال المنطقية وغير المنطقية، واللاتجانس الاجتماعى. ومن ثم، يمكن القول، بأن افكار باريتو عن الصفوة تدور فى إطار تحليلاته للسوسيولوجية والسيكولوجية والاقتصادية أيضاً، كما أن عملية تحديد الصفوة تظهر من خلال عملية توزيع الرواسب واختلافاتها بين الأفراد الذين يتمتعون بالصفوة

ومراكزها دون غيرهم من الذين يعتبرون في فئة المحكومين. فكلًا من الأسود (أصحاب الصفوة الحاكمة)، والثعالب أفراد الفئة المحكومة، تتوزع قدراتهم وإمكاناتهم الفكرية والعقلية والجسمانية، حسب ما حصلوا عليه من مجموعة الرواسب والغرائز والعواطف والتي تجعل البعض منهم (أسوداً) والبعض الآخر (ثعالب)، وخاصة ما يتمتع به كل من المجموعتين من حصيلة الرواسب الأولى والثانية حسب تصنيفات "باريتو" لها. فالثعالب، تحصل على نسبة أكبر من الرواسب الأولى، وتكافح بقوة من أجل الحصول على الدعاية والقوة الاقتصادية والمالية والحيل السياسية، التي تجعلها تحصل على مكانة الصفوة الحاكمة في المراحل المستقبلية، عندما يتيح لها الوقت والفرصة لاحتلال الصفوة الأولى حتى تبدأ دورية الصفوة بين الفئة الحاكمة والمحكومة.

وفي الواقع، لقد ناقش "باريتو" دائرة الصفوة *Circulation of Elites*، في ضوء نظريته العامة عن التغير الاجتماعي، وحدث اللاتجاس والتمايز الاجتماعي المستمر بين الأفراد والطبقات والصفوات الحاكمة والمحكومة. كما أن طبيعة الظروف الاقتصادية والسياسية، والاجتماعية والدينية التي توجد في المجتمعات لا يمكن أن تظل كما هي في حالة من الاستقرار الاجتماعي المستمر، ويمكن أن تلعب هذه الظروف دوراً أساسياً في تشكيل الصفوة ودائريتها أو تغييرها بمرور الوقت. ومن هذا المنطلق، فإن كثيراً من عناصر الفئة الحاكمة أو الصفوة، لا تستطيع أن تسمح ظروفها الخاصة ورواسبها أو مشقاتها، أن تحتفظ بالقوة والسلطة والهيمنة والمكانة التي تجعلها في مكان الصفوة، وفي منزلة (الأسود). من ناحية أخرى، فإن وطبيعة الظروف والعوامل المجتمعية والبيئية لن تسمح أيضاً بجمود الحالة الاجتماعية واستقرارها كما هي عليه دائماً، نظراً لتغير هذه العوامل والتي تلعب دوراً في تغيير الصفوات، والسماح لفئة (الثعالب) لأن تسعى لتكون أسوداً عندما يحين الوقت والفرصة، وإلى حدوث ذلك لتشكل صفوة جديدة، ولكن قد يدوم ذلك كثيراً لدائرية عمليات التغير ذاتها، فسوف تكون الصفوة الجديدة، مصدراً من مصادر عدم الاستقرار الاجتماعي. كما أن الصفوة السابقة لا يمكن أن تظل كما هي، لأنها ستسعى لتعيد مكانتها وتضع نفسها في مكانة الصفوة الأولى في المجتمع أيضاً.

ومن ثم، يمكن القول، بأن "باريتو" عندما درس الصفوة حللها في ضوء نظريته عن التغير الاجتماعي، ولا سيما أنه وصف فئة الصفوة الحاكمة والتي أطلق عليها مفهوم "ميكافيللي" (بالأسود) بمفهوم آخر وهي فئة المفكرون Speculators التي تتمتع بغريزة التكامل أما فئة (الثعالب) تتمتع بغريزة استمراريه المحافظون Rentiers. وذلك عندما حلل الصفوة في ضوء مفهومها العام (الصفوة الاجتماعية)، التي تشكل وتشمل جميع أفراد طبقات المجتمع. برأى "باريتو"، أنه عندما يسيطر فيه المفكرون على الصفوة الحاكمة، يمر المجتمع بتغيرات سريعة نسبياً، فيما يكون معدل التغير بطيئاً عندما يسيطر عليه، الفئة الثانية (المحافظون). كما يوجد لدى الصفوة ميولاً طبيعية لتناوب السلطة وشغل المراكز السياسية العليا، وتسعى كل فئة لاصطياد أخطاء الطبقة الثانية حتى تحل مكانتها. وهذا ما حاول "باريتو" بأن يؤكد عليه في ضوء نظريته عن دورية التغير الاجتماعي، بحيث يكون للدور وجهان أساسيان الأول نقدي والثاني محافظ. وهذا ما جعله يؤكد، بأن التاريخ مقبرة للأرستقراطيات، ولذا تأثر بأفكار كل من النظريات السوسيولوجية والتطورية. مثل أفكار "سان سيمون" S.Simon، و"موسكا" Mosca وخاصة في كتابه الطبقة الحاكمة، كما قد أثر في تحليلات "هارولد لاسويل" H.Lasswell، و"رايت ميلز" R.Mills، و"بوتومور" Bottomore وغيرهم آخرون من العلماء المعاصرين والمحدثين.

### مناقشة وتعقيب:

حقيقة، لقد تناول "باريتو" عدداً من المتغيرات المكونة للنسق الاجتماعي والذي ضمنها في كتابه المميز مقدمة في علم الاجتماع، وأطلق عليها بالمظاهر غير العقلانية Non-rational Aspects للفعل البشري. فلقد استخدم أيضاً هذا المصطلح محاولاً أن يتبنى نفس المفاهيم والمتغيرات التي عالج بها "ترايزر الاقتصادية"، حيث يسعى الإنسان في المجتمع الحديث إلى أن يكون عقلانياً في تحديد سلوكه الاقتصادي والحرص على إمتلك الموارد النادرة ACquisition of Scarce Resources. ومن هذا المنطلق، حرص "باريتو" على أن يعالج القضايا والمتغيرات السوسيولوجية مستخدماً بعض المفاهيم التي

يمكن بها، فهم القضايا الإنسانية التي تعتبر خليطاً من الأفعال غير العقلانية، وغير المنطقية. في نفس، تلك المفاهيم التي يتم استبعادها ولا تدخل في اعتبارات علماء الاقتصاد عند تحليل الظواهر والقضايا الاقتصادية. ومن أجل هذا السبب، حاول "باريتو" في كتابه "العقل والمجتمع" أن يتفهم طبيعة المظاهر غير العقلانية في السلوك البشري، مستبعداً كل المظاهر العقلانية الأخرى التي يجب أن يعالجها علم الاجتماع، مبرراً أنه يمكن معالجتها بصورة أفضل من التحليلات الاقتصادية أو علم الاقتصاد. كما جاءت تحليلاته عن النسق الاجتماعي وتحديد لمفهوم المجتمع من أهم الاسهامات السوسيولوجية في نظرية علم الاجتماع، وسعيه لتطوير المنهج الذي يجب أن يتبناه العلماء عند دراستهم للظواهر الاجتماعية وتفسيرهم للسلوك البشري.

علاوة على ذلك، لقد أنطلقت الأفكار العامة لباريتو في إطار طرحه لمجموعة من التصورات والقضايا الأساسية، التي كانت تشغل اهتمامات القارة الأوروبية خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، والبدائيات الأولى من القرن العشرين. ولاسيما، بعد أن ظهرت مجموعة من النظريات والأيدولوجيات والأفكار، التي روج لها أصحابها بشدة، خلال هذه الفترة مقتنعين تماماً بأن نظرياتهم وأفكارهم تعتبر أفضل النظريات والأفكار، والتي يجب أن تعتقها الجماهير ونظم السياسة. وهذا ما ظهر في أفكار النظرية الماركسية، والاشتراكية والدارونية التطورية، وغير ذلك من النظريات التي بلورت أفكار ومفاهيم متنوعة مثل المساواة، والحرية، والديموقراطية، والتي كانت موضع اهتمام لتحليلات "باريتو" الذي اتخذ موقفاً نقدياً من هذه النظريات، وحاول تحليلها ووصفها بأنها مجموعة من النظريات التي جعلت من نفسها نظريات أو ديانات علمية مقدسة. ولكن ما هي إلا مجموعة من الأيدولوجيات والنظريات التي ترتبط قيمتها النفعية بمكاسب أصحابها والمروجين لها فقط، لأنها حسب تصورات "باريتو" أضرت كثيراً بالمجتمعات الحديثة وعملية استقرارها. وبالطبع، لقد وجه "باريتو" نقده أساساً إلى النظرية الماركسية وإلى "ماركس" خاصة حول الطبقات الاجتماعية.

وفي الواقع، إن آراء "باريتو" في مجملها ارتبطت من الناحية

الموسولوجية وبتركزها على بعض الميكانيزمات والمتغيرات التي سادت تحليلات النظرية البنائية الوظيفية الكلاسيكية، بالطبع ذات الطابع المحافظ: وخاصة، أن "باريتو" ركز على مفهوم التوازن، ومفهوم النسق، وجعلها محور نظريته الموسولوجية العامة، وهذا بالفعل ما حاول "باريتو" أن يؤكد عليه، حتى عندما سعى لدراسة اللاتجانس والتمايز الاجتماعي وأرائه حول الصفوة الاجتماعية والرواسب والمشقات والأفعال الانسانية والعواطف والغرائز ونظرية القيمة والمنفعة الاقتصادية. ومن ثم، كان يسعى من الدرجة الأولى ليؤكد على أهمية التوازن الاجتماعي، ومحاولة استعادة مرحلة التوازن أو اللاتجانس لحدوث التوازن والتجانس مرة أخرى. تلك الأفكار التي لاقت نجاحاً وقبولاً كبيراً لدى الكثير من رواد النظرية البنائية الوظيفية الكلاسيكية أو رواد جيلها الثاني، كما ظهر ذلك بصورة خاصة في كتابات أحد شراح "باريتو" البارزين من أمثال "تالكوت بارسونز" T.Parsons، التي جاءت أفكار "باريتو" الموجه الأول وضعه نظرية للنسق الاجتماعي Social System Theory، وهذا ما أكد عليه الكثير من المهتمين بقضايا تطور النظرية الموسولوجية التقليدية في علم الاجتماع.

بالإضافة إلى ذلك، ركز "باريتو" على أهمية مكانة علم الاجتماع وعلاقته بالعلوم الاجتماعية الأخرى، وأيضاً ما يجب أن يستفاده هذا العلم من العلوم الطبيعية، عند دراسته للظواهر والقضايا الاجتماعية، وهذا ما أكد عليه من حيث الثباين والاختلاف بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية، تلك الفكرة التي كانت سائدة عند عدد من رواد علم الاجتماع من أمثال "أوجست كونت" A.Comte و"هربرت سبنسر" H.Spencer و"ماكس فيبر" M.Weber، و"إميل دوركايم" E.Durkhiem وغيرهم آخرون من رواد المدرسة الموسولوجية الوظيفية الكلاسيكية. وإن كنا نلاحظ أن "باريتو" باعتباره عالم اقتصاد واجتماع متميز حرص كل الحرص على أهمية توجيه رواد النظرية الموسولوجية والمهتمين بها عموماً، نحو ضرورة التركيز على مجموعة العوامل السيكلوجية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، التي تلعب دوراً أساسياً في تشكيل كل من الظواهر الاجتماعية والمنسق الاجتماعي ككل. وبالطبع، أراد "باريتو" أن ينتقد أفكار "ماركس" ونظرياته الاجتماعية التي

تعتمد فقط على العامل المادى والاقتصادى، وجعله السبب الأول فى حدوث وتشكيل البناءات والنظم الاجتماعية.

بالطبع، أن أفكار "باريتو" كغيره من رواد النظرية البنائية الوظيفية التقليدية التى وجهت إليها مجموعة كبيرة من الانتقادات، والتى نستطيع أن نوجزها فى إطار تقييمنا الشامل لإسهامات "باريتو" فى النظرية السوسيولوجية كما يلى:

١- جاء علم الاجتماع عند "باريتو" عامة، ليأخذ الطابع المعارض والنقدى لكافة النظريات والأيدولوجيات السائدة آنذاك، ويسعى لإكتشاف الحقيقة والبدهييات الثابتة، دون أن يلتزم "باريتو" بالمنهج العلمى والموضوعية والحياد فى تحليلاته كلية.

٢- تعكس تصورات "باريتو" عن الرواسب والمشتقات والغرائز والدوافع والعواطف، لتتضمن نوعاً من الغموض واللبس فى المفاهيم والتحليل الذى أرتبط عموماً فى تحليلاته السيكولوجية لدراسة الظواهر الاجتماعية.

٣- جاءت تحليلات "باريتو" فى علم الاجتماع أو المنهج العلمى أو القضايا التى طرحها للمناقشة بمثابة مفكر إنسانى تتنازع تيارات فكرية متصارعة، الأمر الذى لم يستطع على ضوئه بلورة نظرية سوسيولوجية محددة تدرس بالفعل للمجتمع والسلوك البشرى بصورة علمية.

٤- أعطى "باريتو" اهتماماً ملحوظاً للعوامل السيكولوجية فى تفسيره للظواهر والمشكلات الاجتماعية، وأيضاً تحليلاته عن التوازن الاجتماعى ودائرية التغير، وإن كان لم يفلح "باريتو" فى تفسير العديد من القضايا السيكولوجية المعقدة مثل الغرائز والعاطفة، والتى جاءت كثير منها مبهمه وعامه.

٥- جاءت أفكار "باريتو" فى الكثير من تحليلاته على درجة كبيرة من التجريد والبعد عن الواقعية، وهذا ما جاء على سبيل المثال فى تحليله للرواسب والمشتقات، والمصلحة والمنفعة، والسلوك المنطقى وغير المنطقى.



عموماً، إن هذه الانتقادات السابقة حول تحليلات "باريتو" عن النظرية السوسيولوجية، واعتباره أحد رواد البنائية الوظيفية الكلاسيكية، لا يمكن أن تفقد القيمة العلمية التي حصلت عليها كتابات هذا العالم الإيطالي الذي مثلت آرائه تأسيساً قوياً لعلم الاجتماع الإيطالي، وليضيف أفكاراً وتصورات سوسيولوجية جديدة لاتزال تثري النظرية السوسيولوجية المعاصرة، ولعبت دوراً أساسياً في تطويرها. وهذا ما تبلور في أفكار عالم الاجتماع الأمريكي "الكوت بارسونز" T.Parsons و"الفن جولدنر" A.Gouldner، و"جورج هرمانز" G.Homans، و"هندرسون" Hunderson، و"روبرت ميرتون" R.Merton وغيرهم آخرون، الذين تبنوا آراء "باريتو" واعتبروه شبح "ماركس" الليبرالي، الذي أنتقد الماركسية في فترة ندرت حولها المواجهة العلمية، ولكنها ظهرت في أفكار "باريتو" التي تميزت بالطابع النقدي والتحليلي للنظريات التي عاصرها بالفعل ومنها النظرية الماركسية بالطبع.



## أهم المراجع المستخدمة:

### أولاً: المراجع العربية:

١. سمير نعيم، النظرية فى علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة سعيد رافت، ١٩٧٧.
٢. عبدالله محمد عبدالرحمن، علم الاجتماع الاقتصادى، (ج ١) الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤.
٣. محمد عاطف غيث، تاريخ النظرية فى علم الاجتماع، الاسكندرية، دار المعرفة، ١٩٨٤.
٤. محمد على محمد، أصول علم الاجتماع السياسى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦.
٥. محمد على محمد، تاريخ الفكر الاجتماعى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥.
٦. نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، ترجمة: محمود عودة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٨.

### ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Allais, M., V. Pareto. Contributions To Economics, International Encyclopedia of The Social Sciences N.Y, 1968.
2. Aron. R. Main Currents in Sociological Thought, London, 1977.
3. Bebbie, E., The Sociological Spirit, Belmont; Wadsworth, 1988.
4. Coser, L., Masters of Sociological Thought, N.Y, Mar Court Inc 1977.

5. Finer, S, ed, V.Pareto Sociological Writings, N.Y, 1966.
6. Fletsher, R, The Macking Sociology, London: Thomaus LTD, 1922.
7. Gouldner, A, for Sociology, London: Allen Lane,1973.
8. Henderson, L, Pareto: General Sociology, Cambridge, 1935.
9. Horowitz, D, (ed) Radical Sociology, San Fransico: 1971.
- 10.Hughes,s,Consciouenss and Society, N.Y: Vintage Book, 1961.
- 11.King, C.&M.Koller, Foundations of Sociology, Confransico, 1975.
- 12.L Verine, D, Visions of Sociological Tradition, Chicago Chicago Univ. Press,1995.
- 13.Livingston, A, The Mind and Society (V.Parito),1935.
- 14.Martindale,D, Nature and Types of Sociological Theory London: Rout Ledge, 1967.
- 15.Nisbet,R,The Sociological Tradition, London: Heinen, 1967.
- 16.Parsons,T, V.Pareto, The International Encyclopedia of Social Sciences, Vol. N.Y The Macmillan, 1968.
- 17.Parsons,T,The Structure of Social Action, N.Y: The Free Press, 1949.
- 18.Tarascio,V, Pareto,s Methodological Approach To Economics, Noth Carolina, Univ. of North Carolin Press, 1966.
- 19-Zeitlin, I, Ideology and The Development of Sociology Theory, N.Y,1968.

## الباب الرابع

النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية

(الماركسية والنظرية النقدية التقليدية)

الفصل العاشر: "كارل ماركس" ونظرية الصراع.

الفصل الحادى عشر: مدرسة فرانكفورت والنظرية النقدية التقليدية.



## الفصل العاشر

### كارل ماركس "ونظرية الصراع"

تمهيد:

- (١) الاتجاه الفكرى والأيدىولوجى.
  - (٢) علم الاجتماع ودراسة المادية التاريخية.
  - (٣) المنهج التاريخى ودراسة الظواهر الاجتماعية.
  - (٤) نظرية الصراع الطبقي.
  - (٥) الدولة والبيروقراطية والأيدىولوجية.
  - (٦) نظرية القيمة والتطور الاقتصادى.
  - (٧) للرأسمالية وتطور الإنتاج البشرى.
- مناقشة وتعقيب.



## تمهيد:

مع نهاية القرن العشرين شهدت النظرية السوسيولوجية تطورات ملحوظة، ولاسيما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي (سابقاً)، الذي كان يعتبر الجانب التطبيقي للنظرية الماركسية، التي طرحها "ماركس" خلال منتصف القرن التاسع عشر، تم تطبيقها عملياً مع أواخر العشرينات وبالتحديد بعد عام ١٩١٧ وقيام الثورة البلشفية ضد النظام الرأسمالي القيصري الروسي، وإعلان قيام الدولة الشيوعية السوفيتية. ولكن الفكر الانساني تطور بصورة سريعة جداً حاملاً معه أيديولوجيات ونظريات وأفكار، وفلسفات سياسية، واجتماعية، وثقافية متصارعة، تعكس (تباين وجهات النظر والاختلاف بين الفئات والطبقات والمجتمعات) الانسانية بصورة عامة. وبالمثل، إن النظرية السوسيولوجية لا يمكن أن تعيش بعيداً بمعزل عن هذا الصراع الفكري الأيديولوجي، الذي يبدأ أولاً بالتخطيط وقيام النظم السياسية والاجتماعية والحضارية. وهذا ما تبلور بالفعل في أفكار عالم الاجتماع والاقتصاد والسياسة "كارل ماركس" K.Marx وزميله "فريدريك انجلز" F.Engles اللذان وضعوا كتابهما الشهير رأس المال، The Capital وغيره من الكتب والمؤلفات التي غيرت ملامح الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في العالم الحديث، لمدة أكثر من ثلاثة أرباع قرن من الزمان.

وبالرغم من انهيار الاتحاد السوفيتي (روسيا حالياً) والكتلة الاشتراكية التي كانت متحالفة معه، لا يمكن أن نتغافل بقية التراث الماركسي، المتجدد الذي لازال يحكم أكبر دولة في العالم وهي الصين، التي تعيش حالياً في مرحلة التحول نحو الرأسمالية من منظورها وفلسفة قادتها الحاليين. وعموماً، وفي إطار تحليلنا لتطور النظريات السوسيولوجية التقليدية التي ظهرت مع منتصف القرن التاسع عشر، واستمرت حتى منتصف القرن الماضي (العشرين)، لا يمكن بحال من الأحوال، أن نتجاهل مائزته "كارل ماركس" في الفكر الانساني، والذي لا يقل كثيراً عن تراث الفكر اليوناني والإغريقي، نظراً لمجموعة القضايا والأفكار والظواهر التي تم معالجتها، وخاصة التي لاتزال تشغل اهتمام المفكرين والفلاسفة وعلماء العلوم الاجتماعية ورجال السياسة

والاقتصاد عامة. وتعتبر اسهاماً حقيقياً فى تطوير العقل البشرى وكيفية دراسته للمشكلات الواقعية التى توجد فى العصر الحديث، وهذا ما سنعالجه حالياً فى ضوء تحليلنا لأهم اسهامات "ماركس" فى تطوير النظرية السوسيولوجية التقليدية، وخاصة أنه وضع نظريته المعروفة عن الصراع الطبقي التى ترتبط به فى المجتمعات الحديثة، ومحاولين أن نعالج أيضاً رؤيته لعلم الاجتماع، ومنهجه العلمى والتاريخى المميز، وتصوره لقضايا التطور والتغير الاجتماعى الشامل.

### (١) الاتجاه الفكرى والأيدىولوجى

تُعكس طبيعة الحياة الاجتماعية والمهنية لكارل ماركس\* (١٨١٨-١٨٨٢)، مدى تأثيرها على نوعية أفكاره وتصوراته ونظرياته التى اعادت تشكيل الفكر الانسانى خلال القرن الماضى (العشرين). فلقد ولد "ماركس" بمدينة ترير بألمانيا عام ١٨١٨ من أسرة يهودية تنتمى للطبقة الوسطى، ولكن ما لبثت أن إرتدت أسرته عن الديانة اليهودية لتعتنق المسيحية. ولقد تلقى تعليمه الأساسى والجامعى فى جامعات ألمانيا وخاصة جامعتى بون وبرلين، وخلال فترة شبابه انضم لجماعة "هيجل" Hegal Group، التى كانت تشمل الشباب الألمانى المتقف، والذى يتبنى الفكر الثورى التقدمى والذى ينادى بالاصلاح والتغير الشامل، من أجل تقديم حياة اجتماعية واقتصادية أفضل، يتطلع إليها هؤلاء الشباب لأنفسهم ولمجتمعهم فى المراحل المستقبلية.

وخلال مرحلة انضمامه لجماعة "هيجل"، لم يقتنع كثيراً بأفكار هذه الجماعة، وفى عام ١٨٤٤، وضع مقالاً مطولاً لنقد المنهج عند "هيجل"، ولكن ما لبث أن ترك الحياة الأكاديمية للعمل بالصحافة لممارسة نشاطاته والتعبير عن آرائه بصورة أكثر. وترك "ماركس" ألمانيا ليعيش فى باريس بعد تضيق الخناق عليه من البوليس الألمانى، ونشر العديد من المقالات المعبرة عن نضاله الطبقي وأفكاره عن البروليتاريا واعتبارها أهم مقومات الثورة. وتم طرده من باريس الى بلجيكا عن طريق الحكومة الألمانية، وهناك بدأ الاهتمام بالاقتصاد السياسى وتعرف على صديق عمره "انجلز"، ولكن ما لبث أن نفى الى لندن ليعيش فيها بقية حياته. وفى عام ١٨٤٧ وضع مؤلفاته الاقتصادية



الهامة "قفر الفلسفة" رداً على كتاب "برودون" "فلسفة الفقر". ونشر كتاب "نقد الاقتصاد السياسى" عام ١٨٥٩ الذى يعد نواة كتابه الشهير "رأس المال"، الذى ظهر منه الجزء الأول فى حياته عام ١٨٦٧، وتوالى عمليات نشر الأجزاء الباقية حتى عام ١٩١٠ بواسطة كل من "انجلز" و"كارل كاوتسكى".

أما حياته الاجتماعية العائلية، فهى مليئة بالتغيرات والأحزان والفقر والبؤس، بالرغم من انتمائه لأسرة من الطبقة الوسطى، فلقد أثرت عليه كثيراً عمليات الطرد من ألمانيا ومتابعة حكومة بروسيا له فى العديد من الدول الأوروبية، التى عاش فيها حتى نفى تقريباً فى لندن عام ١٨٤٩ وعانى من مرض أليم لسنوات طويلة. وماتت زوجته عام ١٨٨١ قبل وفاته بعامين بعد أن تقدم به التعب والمرض والفقر، وأصبح غير قادر على المشاركة فى جنازتها. كما سبق وفاة زوجته، موت اثنين من أطفاله الخمسة من بينهما ابنه الوحيد. بايجاز، تعكس تلك الأحوال الاجتماعية عن مدى معاناة "ماركس" طيلة حياته الطريفة البائسة للفقيرة، التى تعد أحد الأسباب القوية لتكوين آرائه ونظرياته ضد الوضع القائم بصورة عامة. وإن كانت تلك الأحوال لم تمنع "ماركس" من قضاء حياته فى البحث والكتابة والعمل. مخلفاً وراءه ثروة علمية هائلة بالرغم من امتلائه بالمتناقضات الخيالية المتعددة.

كما جاءت حياته العلمية والأكاديمية لتعكس عموماً مجموعة الخطوط الفكرية والأيدولوجية التى اصطبغت بها نظرياته وأفكاره، وفى خلال مرحلة دراسته للقانون فى جامعة برلين تأثر بكتابات المؤرخ "كارل فون سافيني" Savigny، صاحب المذهب التاريخى فى الدراسات القانونية. وخلال تعلمه بنفس الجامعة تلقى دروساً فى فلسفة القانون التاريخى، من أحد أساتذة فلسفة التاريخ المشهورين وهو "جانز" Gans، الذى تعلم من خلاله طريقة النقد والتحليل التطورى وتفسير التاريخ من خلال رؤية سوسيولوجية، وهى. وإن كانت رسالته للدكتوراة فى الفلسفة بعنوان (الفرق بين فلسفة الطبيعة بين أبيقور وديمقريطس) ساعدته كثيراً فى تكوين فلسفة واضحة المعالم فى نظرياته وأفكاره حول قضايا الحياة الاجتماعية والمجتمع المعاصر. وإن كان "ماركس" لم يستطع العمل بالجامعة كأستاذ جامعى لفترة طويلة، نظراً لمنعه

لظروف سياسية من جانب الدولة (بروسيا)، فترك العمل الجامعي وتفرغ لدراسة بعض العلوم الهامة مثل علم اللاهوت، والتحق بالعمل الصحفي، في جريدة الراين، وذلك مع بداية عام ١٨٤٢، وشغل "ماركس" بعد ذلك سكرتير التحرير وطور الجريدة وجعلها تنشر الكثير من أفكاره اليسارية والكثيره من أفكار زملائه الذين لهم آراء ديمقراطية ثورية.

ومع منتصف عام ١٨٤٣، لم يقتنع "ماركس" كثيراً بالعمل الصحفي ورجع الى باريس، وهناك كانت التيارات الفكرية الاشتراكية قد وجدت انتشاراً واسعاً، فبدأ "ماركس" يحللها بعد أن درس الكثير من في مجال الاقتصاد السياسي Political Economy. وبدأ ينشر "ماركس" أفكاره في إحدى المجلات الألمانية الفرنسية، وانتقد الكثير من الطبقات والفئات والسلالات البشرية وخاصة (اليهود). وسعى لنقد المجتمع الألماني خلال وجوده في باريس، حيث سئحت له الفرصة للنقد السياسي بحرية، بعد أن نفى بالطبع من ألمانيا. وركز "ماركس" على أهمية وجود الطبقة العمالية (البروليتاريا) وأكد على أهمية وجودها بعد تحررها من جميع انماط الاحتكارات، والعمل على توفير المجتمع الحالي (المستقل)، وظهور المجتمع الجديد الذي يجب أن يسيطر عليه الطبقة العمالية الجديدة. وخلال هذه الفترة، اختلفت آراء "ماركس" عن الطبقة العمالية والصراع الطبقي مع رواد المدرسة الفرنسية الاشتراكية، التي تنتهج مديلاً مغايراً للتغيير الثوري الماركسي، ونرى في عمليات الإصلاح الاجتماعي السياسي التدريجي السلمي وسيلة للتطور والتقدم.

وفي فرنسا تعرف "ماركس" على أفكار المدرسة الفرنسية من أمثال برودون Prodon و"سان سيمون" S. Simon، وظهرت العديد من المقالات التي كان ينشرها كل من "سيمون" و"ماركس"، والتي وجد فيها ماركس تقارباً ملحوظاً بين آراء كل منهما. ولأسيما وجهات نظريهما حول العلاقة بين الدولة والمجتمع، والنظر الى الحقيقة الاجتماعية باعتبارها نتاج جمعي ومادي وروحي في نفس الوقت. ويجب أن يوجه علم المجتمع (الاجتماع) نحو دراسة جملة النشاط والأفعال والوظائف التي توجد في المجتمع بصورة كلية. ولكن بالطبع، آراء "سان سيمون" و"ماركس" لم تتفقا على الكثير من النقاط

الجمهورية، التي تبلورت في النظرية الاشتراكية الفرنسية، وتختلف كثيراً عن النظرية الماركسية الثورية، التي اتخذت من الثورة مدخلاً وحلاً اصلياً وجذرياً شاملاً. وظهر ذلك في نظرية البروليتاريا الثورية عند "ماركس"، والتي تختلف بالطبع، عن المذاهب أو الاشتراكية البرجوازية الفرنسية، التي كان رائداً لها آنذاك كل من "برودون" و"سان سيمون".

وخلال فترة وجوده في باريس، التقى "ماركس" بزميل عمره وكفاحه "فريدريك أنجلز" F. Engels، وذلك في عام ١٨٤٤، ولكن بعد فترة طويلة تم ترحيل "ماركس" من فرنسا إلى بلجيكا بعد مطاردة البوليس السياسي الألماني له هناك. وبعد رحيله إلى بروكسل إلتحق كل من "ماركس" و"أنجلز" بالحزب الشيوعي السري، الذي نشر أول مقال له عام ١٨٤٨، وأصبح بعد ذلك الدستور الرسمي للماركسية، وخطط بعد ذلك إلى نظرية الصراع الطبقي. ولكن لم يمكث ماركس كثيراً في بلجيكا حيث تم طرده مرة أخرى وعاد إلى فرنسا، ثم رحل إلى كولونيا ثم إلى فرنسا ثانية. ولكن سافر إلى إنجلترا عام ١٨٤٩ وظل بها حتى وفاته ١٨٨٢. وخلال وجوده بإنجلترا تأثر "ماركس" برواد الفكر الإنجليزي الاقتصادي من أمثال "ريكاردو" Ricardo، واهتم كثيراً بتحليل نظرياته حول المنفعة وتقسيم العمل. كما حرص "ماركس" على قراءة كتاب (ثروة الأمم) "لأدم سميث"، ليتعرف بوضوح على آراء هذا العالم الاقتصادي الحر، الذي خطط كتابه إلى ظهور الرأسمالية الغربية، حيث ظهر قبل نشر ماركس كتابه (رأس المال) بكثير من السنوات، حيث استفاد "ماركس" كثيراً من اعاده تقييم كتابه الأول عن رأس المال، ومؤلفاته عن الاقتصاد السياسي، الذي أحدث ضجة كبيرة في بريطانيا، وظهر الجزء الأول (لرأس المال) عام ١٨٦٧، وتوفي "ماركس" عام ١٨٨٢ وأكمل صديقه "أنجلز" نشر الجزء الثاني والأخير بعد وفاته ليترك للبشرية حصيلة القرن العشرين ثروة علمية ضخمة غيرت كثيراً من ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وعلى ضوء مؤلفه (رأس المال) تم قيام الاتحاد السوفيتي سابقاً، (روسيا حالياً) والتحالف الاشتراكي لها في أوروبا والعالم ككل.

وتظهر من خلال طبيعة الحياة المهنية والفكرية والعلمية والعملية والاجتماعية لماركس، أنه كان عالماً وباحثاً وثورياً نشيطاً، حتى خلال وجوده في إنجلترا ظل على نفس أسلوبه الثورى الذى تدفعه أيدولوجياته وأفكاره الثورية، وخاصة نحو رعاية الطبقة العمالية (البروليتاريا). وفى أواخر فترة حياته بإنجلترا، أصبح رئيساً للجمعية العمومية الدولية التى أنشئت عام ١٨٦٣، وهى بمثابة اتحاد دولى للعاملين، وكان يهدف لوضع نهاية للنظام الاقتصادى المادى الرأسمالى، والسعى الى تغييره واستبداله بنظام اجتماعى آخر يقوم على الملكية العامة بعد إلغاء الملكية الخاصة، التى اعتبرها "ماركس" من أكثر الشرور البشرية، والتى يجب إلغاؤها حتى يتخلص البشر من السبب الأول وراء مشكلاتهم ومشكلات الحياة العصرية والأبدية. وهذا ما يلوه "ماركس" فى مجموعة من نظرياته وأفكاره التى لاتزال تلقى اهتماماً ملحوظاً من المهتمين بدراسة علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية عامة.

عموماً، يرى الكثير من المحللين للنظرية السوسيولوجية التقليدية عامة، ونظرية "ماركس" خاصة، أن آراء "ماركس" لم تأت من فراغ، بقدر ما تكشف طبيعة الظروف الاجتماعية والمعيشية له ولأسرته من ناحية، والطبقات الفقيرة من ناحية أخرى. وهذا ما جعله يهتم عموماً، بالثورة من أجل الفقر والفقراء وفى محاولته للقضاء على الملكية الخاصة وسياسات الاحتكار والاستغلال من جانب الطبقات الغنية الرأسمالية. فى نفس الوقت، لعبت الظروف السياسية الأوروبية عامة، والألماني خاصة، دوراً سياسياً فى توجيه أفكار "ماركس"، نحو كيفية تطور النظم السياسية والاقتصادية ومحاولته اصلاحها بأساليب ثورية، وهذا ما جعله طريداً للسياسة الألمانية خاصة والأوروبية عامة. كما جاءت حياته العلمية والأكاديمية والمهنية المتنوعة لتعكس أيضاً كيفية امامه بالفلسفات المثالية والنقدية والاصلاحية والبرجوازية والإشتراكية، والتى لم يستسلم لآراء أصحابها ولكنه اتخذ منها موقفاً نقدياً معادياً، طالما أنها لا تلتقى مع مجموعة أفكاره ونظرياته الماركسية، التى لاتزال تغذى ونثرى العقل البشرى بالمزيد من الآراء والتصورات والأفكار والقضايا العصرية والمجتمعية.

## (٢) علم الاجتماع ودراسة المادية التاريخية

عكست الظروف الاجتماعية والفكرية والأيدولوجية والمهنية التى عاشها "ماركس" نوعية نظرياته واتجاهاته وآرائه، التى بلورها فى مجموعة من القضايا التى ارتبطت به وبالماركسية خلال القرن العشرين. ولقد أطلقت على نظرية "ماركس" مسميات متعددة توضح عموماً، مدى التنوع الفكرى والأيدولوجى، الى هذه النظرية التى تعتبر من أهم النظريات السوسيولوجية والاقتصادية والسياسية والمجتمعية عامة، واستقطبت الكثير من المفسرين والشراح والمعتنقين والمهتمين بها فى كافة التخصصات والعلوم الاجتماعية والانسانية. فالبعض أطلق على نظرية "ماركس"، النظرية الماركسية، أو نظرية الصراع، أو المادية التاريخية، أو المادية الجدلية، أو نظرية الشيوعية وغير ذلك من مسميات أخرى، ظهرت من خلال تحليلنا للتراث الماركسى ولساهماته فى النظرية السوسيولوجية، وخاصة خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن الماضى (العشرين). وبالطبع، لاتزال تؤثر هذه النظرية كما أثرت بالفعل فى تطور النظرية السوسيولوجية المعاصرة، وهذا ما ظهر بوضوح فيما يعرف بالماركسية المحدثـة New Marxisim، والاتجاهات النقدية الراديكالية المعاصرة، أو غيرها من المداخل والمنظورات السوسيولوجية التى تبنت المدخل الجذرى أو الثورى من أجل الإصلاح والتغير والتطور.

وقبل الإشارة الى اسهامات "ماركس" حول النظرية السوسيولوجية التقليدية والكلاسيكية، وتحليلاته المرتبطة عامة بعلم الاجتماع وقضاياها وأسسه الجوهرية. نود أن نشير بإيجاز، الى ما يعرف بالمادية التاريخية Historical Materialism، ومدى ارتباطها بالنظرية الماركسية عامة أو "ماركس" على وجه الخصوص. حقيقة، يرى بعض المحللين لهذه النظرية، أن الماركسية تنقسم الى قسمين متكاملين: القسم الأول، ويعرف بالمادية الجدلية Dialectical Materialism، نسبة الى مؤسسها الأول فى العصر الحديث المفكر الفيلسوف الألمانى "هيجل" Hegel، الذى أثر تأثيراً مباشراً فى أفكار "ماركس"، واستخدمه المادية الجدلية، كمنهج وأسلوب للتحليل والنقد والتفكير ولتشير

## عامة للأشياء والقضايا الجوهرية.

والقسم الثانى المادية التاريخية Historical Materialism، وهو يعتبر الموضوع الأساسى للمادية الجدلية، أو هو بمثابة القضية الفلسفية الأساسية التى تدور حولها علاقة الوعى بالموجود. ولقد تبنى "ماركس" هذه القضية وجعلها محورا أساسيا لنظريته العامة، حيث أقيمت الفلسفة الماركسية على هذه القضية (علاقة الوعى بالوجود)، وتأكيدا أساسا على البديهية التى تسلم عموما، بأن المادة أو الوجود هما الأساس أو القاعدة الرئيسية لظهور الوعى أو الفكر. فالمرجود يعتبر الشئ الأساسى أو الأولى والذى يسبق بالطبع الوعى، الذى يعتبر شيئا ثانويا ومرتبطا بالوجود ذاته. حيث لا وجود لوعى بدون الوجود ذاته أو نفسه. والماركسية كفلسفة أو نظرية أيديولوجية واضحة المعالم تسلم أساسا، بأن هناك امكانية فهم ومعرفة الأساس المادى والاقتصادى للعالم، ولاسيما أن هذا الأساس المادى دائما فى حركة وتطور مستمر على أساس جدلى أو دياكتيكى.

كما تقوم الجدلية كمنهج للتفكير والتحليل بالكشف عن القوانين التى تحكم عملية تطور العالم المادى، ولاسيما تلك القوانين التى تنسم بالعمومية، والتى يمكن عن طريقها فهم ودراسة الواقع الخارجى ككل. فجميع الظواهر والقضايا والمشكلات والحياة الاجتماعية بصورة عامة وطبيعية الوعى بهذا الواقع أو الوجود المادى، تتطور على أساس مجموعة من قوانين الجدل الرئيسية والتى يتمثل البعض من هذه القوانين، فيما يعرف بوحدة وصراع الازدواج، وقانون التحول الكمي وتغيره الى التغير الكيفى، وقانون نفى النفى، وغير ذلك من قوانين أخرى، تقوم المادية الجدلية بدراستها وتحليلها، مثل القوانين التى تحكم عملية المعرفة والتى تعكس عموما القوانين الطبيعية الموضوعية. أما المادية التاريخية، فيمكن تعريفها حسب النظرية الماركسية، بأنها بمثابة "علم القوانين" العامة التى تحكم تطور المجتمع، وذلك عن طريق استخدامها أو تبنيها للمنهج النقدي التحليلي، الذى يعرف بالمادية الجدلية، وذلك لدراسة عملية "التطور الاجتماعى الشامل". أو بمعنى آخر يمكن القول، بأن المادية التاريخية، هى "عبارة عن تطبيق القوانين المادية الجدلية، مماثلة

بدراسة واستخدام القوانين الكونية الطبيعية في دراسة قوانين التطور في الحياة الاجتماعية الواقعية".

وبإيجاز، فإن المادية التاريخية هي نظرية المجتمع الماركسية، وهي العلم الذي يبحث عن القوانين العامة والقوى الدافعة، لتطور وتغير المجتمع الانساني بصورة عامة. كما لا تقتصر موضوع المادية التاريخية-كنظرية ماركسية- على دراسة تاريخ المجتمعات والشعوب، وكيفية وسبل وتاريخ تطور وتغير النظم الاجتماعية والاقتصادية، التي ظهرت خلال التطور التاريخي للشعوب والمجتمعات. ولكن أيضاً تشمل المادية التاريخية، دراسة قوانين الحياة المعاصرة لمختلف الدول والنظم، سواء كانت رأسمالية أم اشتراكية أم متخلفة، ودراسة قوانين الحياة الاجتماعية والبشرية بصورة عامة. وحسب منظور وأفكار "ماركس"، وتحديد العلاقة بين المادية التاريخية - كنظرية عامة- وعلم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى، فالمادية التاريخية تختلف عن هذه العلوم مجتمعة، والتي تقوم بدراسة المظاهر والمشكلات وديناميكية الحياة الاجتماعية وأشكالها وأنماطها وعواملها وأسبابها ككل. ويمكن القول أن المادية التاريخية، تعتبر علماً يفسر كيفية تطور القوانين الاجتماعية، وهي بمثابة نظرية فلسفية، ومنهجية، وسوسيولوجية أيضاً.

ولقد استخدم "ماركس" المادية التاريخية كنظرية فلسفية، عامة تدرس المجتمع وتفسر جوانبه المادية وغير المادية، وتحليل طبيعة مظاهر الحياة المادية، ولاسيما قضية الانتاج الاقتصادي الذي يعتبر القضية الأساسية في الفكر الماركسي باعتبار أن عملية الانتاج تشكل أساساً للتفاعل بين جميع جوانب الحياة الاجتماعية، باعتبارها العملية الأساسية التي تشكل بعد ذلك الجانب الفكري والروحي وجميع الظواهر الاجتماعية الأخرى التي تظهر في المجتمعات البشرية. وعموماً، فإن المادية التاريخية، علم يبحث في القوانين والظواهر الاجتماعية، بل تعتبر في الوقت ذاته القوانين العامة، التي تفسر ديناميكية تغير الحياة الاجتماعية، والعلاقات المتبادلة بين جميع جوانبها سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ومعرفة التناقضات التي تحتويها بالتفاعل وأسبابها. ويتم ذلك بالطبع، عن طريق تحليل الموقف الجدلي (الديالكتيكي)،



كمنهج للدراسة والتحليل، ويعتبر هذا المنهج (الجدلى) منهج مهم فى دراسة الظواهر الاجتماعية، عندما يفسرها فى ضوء تطورها التاريخى، والتركيز عموماً على التاريخ فى فهم عملية التطور والتغير، الذى حدث فى طبيعة مكونات الظواهر والحياة الاجتماعية ككل.

وفى الواقع، أن تحليل اسهامات "ماركس" لم توضح تعريفاً محدوداً لعلم الاجتماع، بقدر ما رأى هذا العلم ووصفه بأنه علم المجتمع. وسعى عموماً "ماركس" إلى طرح المادية التاريخية كنظرية اجتماعية عامة، وتعتبر مرشداً ومرجعاً لدراسة المجتمع ذاته. فالمادية التاريخية، لم تكن بمثابة نظرية لوصف التاريخ، أو تساعد على تغير مجراه وديموجرافيته المكانية والزمانية، ولكنها تتبارر فى مهمتها الأساسية باعتبارها تقوم بدراسة للقوانين العامة لتطور المجتمع، تلك القوانين التى تجدد وتتشكل بألوان مختلفة حسب التاريخ والزمن ذاته. كما أن المادية التاريخية، تستطيع أن تقدم منهجاً علمياً متميزاً لدراسة قوانين التطور الاجتماعى، وظواهر ديناميكية واتجاهات للحياة الاجتماعية المعاصرة. كما أنها تساعد على فهم الحاضر والتنبؤ العلمى للمستقبل، والتعرف بوضوح على نوعية الأحداث المحتملة ونوعها فى المراحل القادمة.

وعلى أية لم تظهر للمادية التاريخية من فراغ-حسب التحليلات الماركسية-باعتبارها نظرية اجتماعية محدودة الأهداف والمعالم، ولكنها ظهرت نتيجة مجموعة من الظروف الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والأيدولوجية، والتى يجب أن نشير إليها بشئ من الإيجاز كما يلى:

أولاً: الظروف الاقتصادية والاجتماعية.

أدى تطور ونشأة النظام الرأسمالى فى المجتمعات الأوروبية الى إزالة العزلة بين المجتمعات والدول، وحدث نوع من التعاون المشترك بينهما، ويعكس فى نفس الوقت احساس مشترك بين شعوب هذه الدول، وهو أن المجتمعات البشرية كانت قبل ظهور الدولة والقوميات مجتمعاً انسانياً واحداً، كما أن تاريخ البشرية يعتبر تاريخاً واحداً مر بها كل شعب من الشعوب. ولكن مع تطور نظم الحياة الصناعية، أصبح هناك تطوراً فى سبل الانتاج المادى،



ذلك الإنتاج الذى لا يمكن أن ننظر إليه على أنه مجرد إنتاج مجرد وبعيد عن أنماط المعرفة والفكر الأيديولوجية. الذى أدى الى تطور الرأسمالية بأكملها. من هنا ظهرت الحاجة الى وجود علم اجتماعى، يهتم بدراسة التناقضات والتغيرات التى صاحبت عملية التطور الاقتصادى. ولقد نجحت العلوم الطبيعية فى تطوير مناهجها وأساليبها لدراسة التغيرات التى ظهرت فى الحياة الطبيعية وساهمت فى تطوير المجتمع الصناعى الحديث، وينبغى أن تساعد العلوم الطبيعية بدراسة هذه التغيرات ومعرفة أسباب التناقضات الاجتماعية والسعى لإلغائها أيضاً.

من ناحية أخرى، تصور "ماركس" أن للرأسمالية كنظام اجتماعى اقتصادى قد تطور بصورة سريعة، وبلغ الإنتاج الصناعى ذروته. ومن ثم يحتاج الى رقابته وتوجيهه بصورة واعية، خاصة وأنه موجه الى تحقيق رغبات الطبقات الرأسمالية المالكة، دون غيرها من الطبقات العاملة التى انتجته وتزیده قوة وتطوره بصورة مستمرة. ومن ثم، فإن الحاجة ماسة لظهور نظام اجتماعى جديد، يلغى هذا النظام للرأسمالى، وذلك عن طريق إلغاء الملكية الخاصة وإحلالها بالملكية العامة كوسائل الإنتاج. ومن ثم، يتطلب الأمر لقيام هذا النظام الاجتماعى الجديد والبديل للرأسمالية، وجود علم اجتماعى، يقوم على دراسة هذا النظام وتوجيهه بصورة نظرية وإدارية وعملية، ليعيد تشكيل كافة المؤسسات والنظم والأدارات الثقافية والمهنية والتربوية والتعليمية فى المجتمع. ويؤكد "ماركس"، أن مع ظهور النظام الاجتماعى الجديد يكون بالفعل قد تبلورت خصائص الطبقة العمالية الجديدة التى يجب أن تسيطر على زمام الأمور السياسية. لاسيما، أن هذه الطبقة العمالية، كما يعكس ذلك تاريخ الشعوب، هى الوحيدة القادرة على الكشف عن القوانين الموضوعية، التى تؤدى الى التطور الاجتماعى بصورة كاملة، وهى الطبقة التى لاتسمح بوجود نظام قائم على استغلال الاتمان للإنسان، وتركز جهودها على إلغاء هذا النظام الرأسمالى المستغل، وإقامة مجتمع جديد لا طبقي Classless Society.

ورأى ماركس أن كل من للنظام الرأسمالى والطبقة العمالية الجديدة لم

تكن موجودتا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولم يكن قد تبلور بعد نوع من الوعي السياسى، بحيث يسمح بتشكيل هذه الطبقة. ولكن مهدت الظروف السياسية والاقتصادية التى ظهرت خلال القرن التاسع عشر لظهور الطبقة العمالية الجديدة (البروليتاريا)، بعد أن تطور الوعي السياسى لديها فى مناسلتها ضد الرأسمالية وضد جميع أنواع الاستغلال الاقتصادى والسياسى والروحى والفكرى، وسعيها عموماً لبناء نظام اجتماعى بعيداً عن فكرة الطبقات. كما أشار "ماركس" الى أهم الظروف التى ساعدت على ذلك وهى حدوث الثورة الصناعية فى بريطانيا، وقيام الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر، وبدأت تظهر للعديد من الثورات المؤيدة للطبقات العمالية فى كل من ألمانيا وفرنسا والعديد من الدول الأوروبية، والتى يجب أن تمهد لظهور ثورة عالمية لتغير العلاقة الناتجة بين الطبقات الاجتماعية فى نطاق النظام الرأسمالى.

#### ثانياً: للظروف الفكرية والأيدولوجية.

كشفت مجموعة العوامل الفكرية والأيدولوجية التى عاصرها "ماركس" فى الواقع، عن مدى تأثير هذه العوامل مجتمعة على تشكيل الفكر الماركسى أو النظرية المادية التاريخية، التى لم تظهر من فراغ بقدر ما كانت إنتاجاً طبيعياً لطبيعة العصر والظروف التى كانت سائدة فيه. كما أن المادية التاريخية كنظرية اجتماعية، أو بما أسماها البعض علم الاجتماع الماركسى عامة، كانت تشكلت نتيجة وجود ثلاث تيارات أو فلسفات فكرية وهى:

١- الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، والتى طرحت أفكارها بصورة نقدية واعتمدت على العديد من الآراء المثالية، التى تنشد فيها الى إقامة حياة اجتماعية وسليمة وفكرية وثقافية جديدة. وهذا ملجاء بالفعل فى أفكار بعض فلاسفة التاريخ المثاليين من أمثال الفيلسوف المشير "كانط" Kant وبالطبع "هيجل" Hegal.

٢- الاقتصاد السياسى الكلاسيكى الانجليزى: جاءت الفترة التى عاشها "ماركس" فى انجلترا ليتعرف بوضوح على طبيعة الكتابات الاقتصادية عن

الاقتصاد السياسى، والذي ظهر أولاً فى كتاب (ثروة الأمم) عند "أدم سميث" A. Smith. وغيره من المفكرين من أمثال "مالتوس" Maltos "وريكاردو" Recardo، الذى درس أفكارهما "ماركس" بوضوح وخاصة تصوراتهما عن النظام الرأسمالى، وقيمة العمل والإنتاج والمنفعة الاقتصادية.

٣- الإشتراكية الفرنسية التقليدية: حقيقة، لقد أثرت التيارات والمذاهب السياسية الإشتراكية الفرنسية كثيراً فى بلورة أفكار "ماركس" سواء خلال مرحلة وجوده فى فرنسا أو خارجها عموماً. ولاسيما، ان هناك الكثير من النظريات الإشتراكية التى مهدت لقيام الثورة الفرنسية وتبنت المنظور الاصلاحى للتغيير والتطور. وهذا ما تمثل عموماً فى بعض رواد هذه المذاهب والفلسفات الإشتراكية التى جاءت قبل الثورة الفرنسية أو بعدها. ومن أهم هذه التحليلات التى تأثر بها "ماركس" كتابات كل من "برودون" Brodhein، و"سان سيمون" San Simon وغيرهم آخرون.

وعموماً، إن المادية التاريخية كنظرية اجتماعية، تتجسد فى علم الاجتماع الماركسى، الذى لم يأت من فراغ، ولكنها ظهرت نتيجة مجموعة الظروف والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التى ظهرت (المادية التاريخية) قبل ظهور الماركسية بأفكارها كنظرية وأيديولوجية بديلة، توضح عموماً عملية التتابع التاريخى والعلاقة بين ظهور النظم الاقتصادية والسياسية وطبيعة العلوم التى تقوم بدراستها وتحليلها. وهذا ما تجسد فى الواقع فى أهمية وجود وظهور للمادية التاريخية، كعلم اجتماعى يقوم بدراسة قوانين التطور فى الحياة الاجتماعية. فى نفس الوقت، إن المادية كمذهب أو نظرية سياسية واقتصادية واجتماعية، جاءت لتتوج المذاهب السياسية والاقتصادية والفلسفات الإشتراكية الطموحة للتغيير والتطور المستمر، بأفكار وآراء أكثر واقعية وتتبدد الاستغلال والقهر، وتقوم على العدل والمساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

### (٣) المنهج التاريخي ودراسة الظواهر الاجتماعية.

بعد تحليلنا للمادية التاريخية من وجهة نظر "ماركس" واستخدامها في دراسة الحياة الاجتماعية، واعتماده أيضاً على المادية الجدلية كأسلوب للتحليل والنقد والتفسير، لمجموعة القوانين الاجتماعية التي تتمثل في المادية التاريخية، نجد أن "ماركس" سعى لطرح علم اجتماعي يهتم بدراسة المجتمع الحديث على أساس الاعتماد على المادية التاريخية التي تعتبر بمثابة علم الاجتماع الماركسي، وسعى إلى تحقيق فهم علمي وواقعي للحياة الاجتماعية والمجتمع ككل. ولقد ركز "ماركس" على ضرورة فهم التاريخ من أجل تفسير عمليات التطور والتقدم ومسيرة عملية التغير الديناميكية المستمرة في المجتمعات المادية، وعلى أية حال، يمكن فيما يلي، أن نطرح عدد من الأسس المنهجية التي تقوم عليها المادية التاريخية وتبنيها عموماً المنهج التحليلي المقارن، الذي استخدمه "ماركس" في تحليلاته ومناقشته للقضايا النظرية التي تعرض لها بصورة عامة:

١- ضرورة الاعتماد على التفسير العلمي، عند دراسة الظواهر الاجتماعية وعدم الاقتصار على الوصف المجرد فقط.

٢- ضرورة استخدام التاريخ كمدخل مميز، للتعرف على الخصائص المشتركة، التي تتميز بها مختلف المجتمعات البشرية ولاسيما عند دراسة تاريخ البشرية، الذي يتضمن مجموعة كبيرة من هذه الخصائص والسمات التي يمكن الاستعانة بها عند دراسة وفهم واقع الحياة الاجتماعية للمعاصرة والمستقبلية.

٣- ركز "ماركس" على ضرورة استخدام نوعين من القوانين عند تفسير الواقع الاجتماعي المتغير وهما: أولاً، القوانين الاجتماعية العامة التي تحكم من التيارات الاجتماعية والاقتصادية، وثانياً، القوانين الخاصة التي تحكم كل بناء أو تنظيم اجتماعي واقتصادي بمفرده. كلا النوعين من القوانين تحكم دراسة الظواهر الاجتماعية بصورة عامة.

وعلى أية حال، لقد أكد "ماركس" على ضرورة استخدام المنهج التحليلي التاريخي المقارن، وهو نفس المنهج الذى استخدمه "ماكس فيبر" M Weber. عالم الاجتماع الألماني، وأيضاً كل من العالم الإيطالى "باريتو" Pareto، وأيضاً "جورج سيميل" G. Simmel وغيرهم من رواد البنائية الوظيفية. كما جاء ذلك، بالفعل فى تصورات "اميل دور كايم" E. Durkheim، واعتماده على المنهج التاريخي والوصفي فى دراسة الظواهر الاجتماعية. وبالرغم من هذا التشابه بين رواد البنائية الوظيفية عامة، إلا أننا نلاحظ أن "ماركس"، قد استند الى المنهج التاريخي، والمادية الجدلية فى نفس الوقت، والتي ساعدته فى طرح نظريته عن المادية التاريخية، وبلورها فى صورة مجموعة من القوانين العامة والخاصة والتي أسماها بقوانين التطور الاجتماعى، ولهذا السبب حرص "ماركس" على تحليل النظريات والتحليلات السوسيولوجية، التي كانت سابقة على وجوده، ولم يقتنع بأهميتها فى دراسة العمليات والبناءات الاجتماعية المتغيرة. فلقد رفض النظر الى المجتمع، باعتباره مجرد تجمع الى للأفراد، أو أنه يتغير بصورة عرضية، ورأى أن التطور الاجتماعى ما هو إلا عملية تحكمها مجموعة من قوانين معينة، وإن مهمة العلم الاجتماعى والمادية التاريخية، لكشف عن القوانين الأساسية للتاريخ الاجتماعى.

ومن هذا المنطلق، فنقد "ماركس" آراء الفلاسفة والمفكرين الذين كانوا يتبنوا بعض النظريات والأفكار والأيدولوجيات، التي تحلل المجتمع والحياة الاجتماعية بصورة مجردة، وهذا ما جعلهم يفشلون فى تحديد العديد من المفاهيم والتعريفات المميزة للظواهر أو القضايا التي كانوا يعالجونها، كما أنهم أيضاً أخفقوا فى التوصل الى مجموعة من القوانين الاجتماعية، التي تفسر عمليات التطور الاجتماعى، والتميز عموماً بين ماهو عرضي أو مؤقت أو ما بين ماهو دائم أو جوهري وحقيقى بصورة عامة. على أية حال، وبالرغم من اعتراف "ماركس" بأهمية وجود النظريات والفلسفات والأيدولوجيات، التي كانت موجودة قبل ظهوره أو خلال فترة ظهور أفكاره، إلا أن مجموعة هذه الأفكار كانت خاطئة وغير موفقة حسب تصورات "ماركس" وزميله "إنجلز"، وذلك للإعتبارات التالية:

أولاً: اتسمت المعالجات السوسيولوجية للمفكرين الاجتماعيين الذين ظهوروا قبل "ماركس" بنوع من التجريد والغموض، وعدم تبني المناهج العلمية، وركزوا على دراسة الأحداث التي تميزت بشئ من المثالية، دون النظر الى الدوافع التي كانت وراء هذه الأحداث. كما جاءت تحليلاتهم بصورة سطحية عند دراسة الظواهر الاجتماعية الواقعية، وهذا ما يتنافى تماماً مع أسس وقواعد المنهج العلمي، الذي يجب الاعتماد عليه عند دراسة الواقع الفعلي للحياة الاجتماعية.

ثانياً: جاءت التحليلات السوسيولوجية المثالية التي ظهرت قبل ظهور "ماركس"، وركزت الغالبية منها لبناء تحليلاتها للظواهر الاجتماعية، على أسس ميتافيزيقية وخيالية، نحو المجتمع والطبيعة والبنية الميتافيزيقية التي تحيط بهما. ولهذا جاءت أفكار "ماركس" لتركز على الإنسان، والمجتمع الإنساني باعتباره جزء من العالم المادي المحيط به، وله مجموعة من الخصائص والسمات التي تميزه بصورة عامة. وأن القوانين العامة للحياة الاجتماعية، ماهي إلا قوانين علمية، مثل القوانين الطبيعية الأخرى، ولها سماتها وخصوصياتها وصفاتها العامة.

ثالثاً: أوضحت الكثير من التحليلات السوسيولوجية المثالية، إمكانية استخدام المنهج العلمي في دراسة الظواهر الطبيعية والإعتراف بأهمية تفسير العلاقات السببية الشكلية لها، ولكنهم في نفس الوقت أنكروا بشدة إمكانية تطبيق ذات المنهج على دراسة الظواهر الاجتماعية وصعوبة معرفة العلاقات السببية، التي ترتبط بهذه الظواهر. ولاسيما أنها ترتبط بمجموعة من القيم الروحية، والأخلاقية والدوافع والسلوكيات البشرية المعقدة.

رابعاً: أنكرت التحليلات أو الأيديولوجيات الاجتماعية دور الجماهير وخاصة الطبقات الفقيرة التي تمثل الغالبية العظمى من الناس، بالرغم من أن التاريخ أو الاعتماد على المنهج التاريخي، يساعدنا في دراسة الدور القيادي لهذه الطبقات في تغيير، وتطوير تاريخ البشرية. وهذا مازكزت عليه المادية التاريخية، والاستعانة عموماً بالمنهج التاريخي، لفهم حركة التاريخ، ودور الطبقات الفقيرة العاملة، والمنتجة لصناعة التاريخ ذاته.

خامساً: تبنى الكثير من علماء الاقتصاد والاجتماع والمؤرخون، قبل ظهور "ماركس" ورواد البنائية الوظيفية أو علماء الاقتصاد السياسى، النظام الرأسمالى باعتباره أفضل النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولكن هذا النظام حسب تصور "ماركس" ملئ بالتناقضات التى تنذر بمحاولة انهياره، وقيام بعض النظم الاجتماعية الأخرى وذلك عن طريق الثورة والذى تمثل فى النظام الشيوعى.

على أية حال، لقد استخدم "ماركس" المنهج التاريخى فى دراسة الظواهر الاجتماعية، وفيه لعملية تقسيم العمل الاجتماعى وتطور المجتمع البشرى، الذى تم خلال مجموعة من المراحل التاريخية والاجتماعية، والتى بدأها منذ ظهور المجتمعات القبلية أو ما أسماها بالشيوعية البدائية، ماراً بمرحلة الاقطاع التى مهدت لظهور الرأسمالية، التى تحمل الكثير من التناقضات التى يجب تغييرها بواسطة الثورة وقيام الإشتراكية والمجتمع الشيوعى اللاتبقى، كما هو موضحاً فى الشكل التالى لطبيعة المنهج ودراسة نمو المجتمع كما تصوره "ماركس":

## المنتج النار يخى ودراسة تطور المجتمع البشرى ضد 'عازكنس'

| القبيلة               | الشيوعية البدائية       | الاقطاع          | تدهور الاقطاع         | الرسالية                         | الثورة                            | الاشتركية                         |
|-----------------------|-------------------------|------------------|-----------------------|----------------------------------|-----------------------------------|-----------------------------------|
| ١- صيد الحيوانات      | ١- بداية الملكية الخاصة | ١- أسكن الريف    | ١- عدم جدواه          | ١- العمل منظمة لملكية.           | ١- توحيد ضمن الاغتراب والفساد.    | ١- مجتمع لا ينفق                  |
| صيد الاسماك           | ٢- بداية تقسيم العمل    | ٢- أسكن الأرض    | ٢- ظهور لبرجوازية.    | ١- البناء بالملكية والعمال.      | ٢- تملوهم طبقه العمال.            | ٢- انتفاه الملكية الخاصة.         |
| الزراعة               | ٣- ظهور للموردية        | ٣- منطقة للتبلاء | ٣- التخصر.            | ٢- أيدولوجية لنافعه.             | ٣- تحول للقرى إلى شخصية اجتماعية. | ٣- تحول للقرى إلى شخصية اجتماعية. |
| ٢- تقسيم العمل        |                         |                  | ٤- نمو الرسالية       | ١- الترحه العالمية غير الطبيعية. | عودة التوجه إلى الطبيعة           |                                   |
| منطقة المائدة الممتدة |                         |                  | ٥- لاجبات لمتناعية    | ٥- الاغتراب والموردية.           |                                   |                                   |
| ٢- البناء الأوى       |                         |                  | ١- ظهور للفسد الانتاج |                                  |                                   |                                   |

- المصدر، جرحام كيلوش، النظرية السوسيولوجية، مرجع سابق، ص ١٢٥.



وعموماً، ساعد المنهج التاريخي الذي تبناه "ماركس" في دراسة مسيرة التاريخ وديمومة التغير والتطور الاجتماعي، وهذا ماظهر من خلال تأكيده على مبدأ وحتمية التغير المستمر، كمقولة أو بديهية أساسية، تفسر عموماً طبيعة ميكانزمات الحياة الاجتماعية. كما ساعد هذا المنهج التاريخي، اهتمام "ماركس" أيضاً بمسلمات وقوانين المادية الجدلية (الديالكتيكية)، وبوضع أهم أسس المادية التاريخية، ولتكوين نظرية اجتماعية واعتبارها بمثابة القوانين العامة والخاصة للتطور والتغير الاجتماعي المستمر. وتوصل "ماركس" عموماً من خلال منهجيته المميزة، ونظريته عن المادية التاريخية التي تعتبر جوهر علم الاجتماع الماركسي، إلى أن البشر يقيمون بينهم نوع من العلاقات الضرورية، والتي تعتبر أساساً لعملية الإنتاج الاجتماعي لحياتهم اليومية، تلك العلاقات التي تظهر في علاقات الإنتاج المادية التي تؤلف مجموعات البناءات الاقتصادية للمجتمع. وهي بمثابة القاعدة الأساسية لفهم مايسمى بالبناء التحتي، وتشكل عموماً الوعي الاجتماعي للأفراد والجماعات والمجتمعات عامة.

ومن ثم، فإن عملية وأسلوب الحياة الاجتماعية المادية (الاقتصادية) تستلزم ضرورة أن تكون هذه الحياة متغيرة ومتطورة بفضل هذه العوامل المتغيرة والمتطورة أيضاً، والتي ينتج عنها مجموعة العلاقات المياسية والفكرية والأيدولوجية، والتي تمثل في مجملها مايسمى بوعي الناس بوجودهم، ولكن بالطبع إن وجود الناس (الاجتماعي) هو الذي يحدد الوعي ذاته. وعندما تدخل علاقات الإنتاج المادية وتصل الى درجة معينة من التطور تعكس مجموعة كبيرة من العلاقات المتناقضة مثل علاقات الملكية وشرعيتها وما ينتج عنها من معاملات وحقوق، وتصبح هذه العلاقات نوع من القيود التي تفرضها قوى الإنتاج، بعد أن تشكل عملية التطور. ولذا، وجب تحديث الثورة الاجتماعية، حتى يتم تغيير هذه التناقضات وأنماط وعلاقات الإنتاج المادية، الذي ينتج عنه تغيير القاعدة الأساسية لدرجة الوعي، وتغير السياسات والأيدولوجيات، وما أسماه "ماركس" عموماً بالبناء الفوقي الذي يعتمد أساساً في بنائه وتطور وتشكيله على البناء التحتي. وبالطبع، بُنى "ماركس" مجموعة من المشكلات التي تنتج عموماً، عن عمليات التغير والتطور في بناءات

وعلاقات الإنتاج الاقتصادى المادى، والتي ينتج عنها تطور وتغير مصاحباً وملازماً فى العلاقات الاجتماعية. وهذا ما طرحه زميله "انجلز" فى مقولات مثل الصراع الطبقي، والوجود والوعى الاجتماعى، والبناءات التحتية والفوقية، وأنماط وأساليب الإنتاج وعلاقاته ونوعية العلاقة المتبادلة بين الدولة والأفراد والهيروكرراطية، والنظام الرأسمالى وقيمة العمل، والمنفعة الاقتصادية، وغير ذلك من قضايا وأفكار هامة، نهتم بتحليل البعض منها فى إطار مناقشتنا لاسهامات "ماركس" فى النظرية السوسيولوجية التقليدية، التى نعرف عموماً بنظرية الصراع الكلاسيكى.

#### (٤) الصراع الطبقي

ركز كل من "ماركس" و"انجلز" فى كثير من كتاباتهم ومنها على سبيل المثال The Communist Manifesto،<sup>(١)</sup> على قضية الصراع الطبقي بين طبقة البرجوازية وطبقة الرأسمالية فى المجتمعات الرأسمالية الحديثة، وذلك عن طريق تتبع الجذور التاريخية لفكرة الصراع منذ فترات بعيدة. ولقد أشار الى أن قضية الصراع قضية أزلية موجودة منذ القدم فى كل المجتمعات البشرية. حيث كانت تنقسم هذه المجتمعات بصفة مستمرة الى طبقة تملك وأخرى لا تملك. ومن ثم، لا تختلف طبيعة المجتمعات الرأسمالية الحديثة عن أى نوع من المجتمعات السابقة عليها. ولكن تتميز المجتمعات الرأسمالية الحديثة عن تلك المجتمعات بما تملكه طبقة البرجوازية الرأسمالية وسيطرتها على جميع وسائل الإنتاج. وعلى الرغم من ذلك، تصور "ماركس" أن هذه الطبقة لم تعد قادرة على احكام سيطرتها الاقتصادية والسياسية على أدوات وقوى الإنتاج، ولم تعد لديها الكفاءات اللازمة لتطور الإنتاج بالرغم من نشأتها لظاهرة السوق العالمى وخصائصه الإحتكارية. كل تلك العوامل سوف تعجل بإنهيار المجتمع الرأسمالى بالإضافة لعنم اهتمامها أساساً بقضية توزيع الدخل بين الطبقات الاجتماعية على أسس المساواة والعدالة الاجتماعية بين الجميع. وهكذا سوف يكون الطريق مفتوحاً لقيام الثورة العمالية، والتى تتميز

---

See, For More Details, Marx & Engles, The Communist Manifesto, (١)  
(Laski,s edition) N.Y., 1967.

عن غيرها من الثورات الماضية بأنها لا تعتبر ثورة أقلية ضد أخرى، بل هي ثورة أغلبية محرومة ضد أقلية مالكة مسيطرة على كل شئ في المجتمع.

وبشئ من الإيجاز، ولتفسير وجهة نظر "ماركس" حول تصورات المادية The Materialist Concepts، نعرض تلك التصورات التي استند إليها كثيراً لفهم التاريخ والتي تتكون من ستة افتراضات مستقلة هي:

١- تشير معظم أزمنة التاريخ الى أنه تاريخ صراع الطبقات.

٢- تتحدد الطبيعة الخاصة لبناء الطبقات الاجتماعية بواسطة نظم الإنتاج  
.The Mode of Production

٣- أن النظام البرجوازي مثله مثل جميع النظم الاجتماعية حيث يحمل في ثناياه تناقضات كثيرة تؤدي الى حله وتدميره ذاتياً.

٤- سوف تأخذ الطبقات العامة مبدء المبادرة وتكتسب ما يعرف بالسيطرة السياسية  
.The Political Hegenony

٥- سوف تتبنى الطبقة العاملة النظام الاشتراكي أولاً ثم تتحول الى النظام الشيوعي.

٦- ستعكس كل من الثقافة والعلم الجديدين لكل من الاشتراكية والشيوعية أعلى درجات الإنجاز للحرية الفردية.

لقد بنى "ماركس" تحليلاته على أهمية انتشار الشيوعية ليس فقط على المستوى المحلي للإتحاد السوفيتي (روسيا حالياً) بل يجب تصدير هذه الثورة لجميع أنحاء العالم حتى تصبح صورة الطبقة العاملة طبقة عالمية. ومن ناحية أخرى، لقد جعل "ماركس" قوة الدولة شيئاً ما فوق المجتمع ذاته، وذلك عن طريق تحويل الملكية الخاصة لملكية الدولة. ولقد استندت أفكار "ماركس" على دراسة وتحليل بعض وجهات نظر المجتمعات الغربية مثل بريطانيا وفرنسا كما أشار لذلك في عديد من كتاباته. ويشير أيضاً الى أنه يجب ان تقبل النشاطات الثورية The Revolutionary Activities، لابعد صورها وحدودها

حتى يحكم السيطرة على كل من الدولة والأجهزة البيروقراطية The Bureaucratic Apparatus، ويؤكد "ماركس" أن هذه السيطرة تعتبر مركزاً أساسياً لتلاشي قوة الدولة في المجتمع الشيوعي. وكما أكد ذلك في برنامج الحزب الشيوعي، أن دعوة الطبقة العاملة لكي تسيطر على الدولة شيء لازم وضروري، لأنه كما يحكى لنا التاريخ أن (الدولة) تعتبر السلاح التنظيمي الذي تسيطر به الطبقة الحاكمة على جميع الطبقات الأخرى ولجهزة الدولة.

ولكن توجد بعض التساؤلات الهامة التي تطرح نفسها الآن وهي: كيف يمكن تحت هذه التصورات أن تزداد قوة طبقة البروليتاريا؟. كيف يمكن للفرد أن يكون متأكداً أن ذلك يحدث تحت حكم البروليتاريا والتي تؤدي إلى ديكتاتورية حتى وإن كانت في مرحلة الإنتقال؟. وللإجابة على ذلك أن كتابات ماركس ذاتها تعتبر دليلاً لمناقشة تلك التساؤلات وتقديم إجابات متنوعة لها. وكما يشير على مسيل المثال "ليفيفري" Lefebvre في كتابه (سوسيولوجيا "كارل ماركس") The Sociology of K. Marx أنه توجد على الأقل ثلاث استراتيجيات ثورية ظهرت بوضوح في كتابات ماركس وتمثل إمعكاساً حقيقياً لظروف العصر الذي عاش فيه وهي:

أولاً-طبيعة الموقف في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا، أثناء كتابه ماركس وتكوين آراؤه والتي أوحى إليه إمكانية أن يحققوا أهدافهم بالوسائل السلمية عن طريق التنظيم السياسي والانتخابات.

ثانياً-طبيعة الموقف في ألمانيا، حينما كانت الحركة لديها مناصرة من غالبية القوة العاملة وحثها على الصراع مع الطبقة الحاكمة من أجل السيطرة على الدولة. وحينذاك كانت ألمانيا أثناء عهد "بسمارك" تتأيد بنفوذ كبير من قبل أصحاب الثروات وطبقة البرجوازية، ولم يكن من السهل أن تخلع قبضة يدها من على الدولة بدون أي نوع من الصراع.

ثالثاً-طبيعة الموقف في فرنسا ووجود الطريق الثوري محكماً في قبضة أقلية نشطة كانت لها الطاقة الفعالة، والتنظيم الجيد الذي يجعلها على أتم الاستعداد لخوض معارك وصراعات مع الطبقة الحاكمة، نيابة عن الطبقة العمالية.

وعموماً، ربط "ماركس" تصوراتيه حول دراسته للحركة المادية التاريخية لتطور المجتمعات بنوعية الاقتصاد والسياسة وفكرة الصراع الطبقي. وحاول أن يحدد العلاقات المتداخلة فيما بينها والتي يمكن توضيحها بشئ من التركيز كما يلي:

أولاً- تدل حركة التاريخ المستمرة الى أن كل من الانسان وأفكاره ونسق معتقداته تدخل في علاقات متداخلة ومعقدة، والتي يتم تشكيلها حسب نوعية البناءات الاجتماعية والاقتصادية الموجودة وخاصة علاقات وقوى الإنتاج، التي تلعب دوراً جوهرياً وأساسياً في تشكيل الأنساق الفكرية للفرد في المجتمع.

ثانياً- يوجد في كل مجتمع تمييز واضح للنوعين من البناءات أولهما، يسمى بالبناء التحتي أو الأساسي Infra-structure، الذي يشير الى قوى وعلاقات الإنتاج. والثاني يسمى بالبناء الفوقي Super-structure، والذي يشير الى البناءات التنظيمية والمؤسسات السياسية والقانونية والثقافية والتي تكون وتشكل الأنساق الفكرية والأيدولوجية والفلسفة العامة للمجتمع ككل.

ثالثاً- يشير ميكانيزم الحركات التاريخية الى نوع من التناقض في فترات تاريخية معينة من التطور بين قوى الإنتاج The Forces Of Production وعلاقات الإنتاج The Relation Of Production. وتعمل قوى الإنتاج على تحقيق وظيفة هامة في المجتمع وهي العمل على زيادة الإنتاج، تلك الوظيفة التي تقوم على أسس المعرفة العلمية والتكنولوجية وتنظيم القوى العاملة في المجتمع، أما علاقات الإنتاج فإنها تشير بالضرورة-كما تصورها "ماركس"- الى علاقات الملكية في المجتمع، وارتباطها بنظام العمل وتوزيع الدخل القومي Distribution of the National Income.

رابعاً- أن التناقض القائم بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج هو في حد ذاته السبب الأول الذي يظهر الصراع الطبقي في المجتمع الرأسمالي بين طبقتين رئيسيتين هما: طبقة البرجوازية الرأسمالية وطبقة البروليتاريا العمالية. فالأولى، تحاول بكل الطرق أن تحتفظ بالملكية الخاصة ووسائل الإنتاج،

ومقاييس توزيع الدخل القومي. والثانية، تكون فى حالة صراع مستمر مع الطبقة الأولى، ولكن تتميز طبقة البروليتاريا بأنها طبقة ثورية تقدمية تسعى إلى تشكيل التنظيم الاجتماعى الجديد فى المجتمع الشيوعى. ذلك المجتمع الذى يتميز بدوره عن المجتمع الرأسمالى لأنه يسعى بصفة مستمرة لتطوير علاقات الإنتاج من أجل الأغلبية من أفراد المجتمع، وتوزيع الدخل القومى بصورة عادلة على جميع الطبقات دون استثناء.

خامساً- أن الحركة الديالكتيكية بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج تتضمن فى حد ذاتها نظرية الثورة The Theory of Revolution، وكما توضح الحقائق التاريخية أن الثورة لا يمكن وصفها أو حدوثها مثل الأحداث السياسية الأخرى، لأنها لم تحدث من فراغ بل تسعى إلى تحقيق وظائف متعددة كانت بمثابة البواعث الأولى والذوابع الأساسية لقيامها. ومن ثم فالثورة نتاج تاريخى لتراكم ظروف وأحداث وتناقضات عديدة فى المجتمع أدت إلى ظهورها من أجل حل هذه التناقضات. وهذا ماحدث على سبيل المثال، عند قيام المجتمع الرأسمالى فى حد ذاته وثورته على علاقات الإنتاج فى المجتمع التقليدى الإقطاعى. وأخيراً يتصور "ماركس" أن نفس الشئ سوف يحدث للمجتمع الرأسمالى وسوف تقوم الثورة الاشتراكية من قبل طبقة البروليتاريا فى النظام الرأسمالى بأكمله والسعى من أجل تطوير كل من قوى وعلاقات الإنتاج.

سادساً- لقد حاول "ماركس" فى ضوء تفسيره للتاريخ أن يميز بين نوعين من البناء فى المجتمع هما: البناء التحتى، والبناء الفوقى الذى حدد عن طريقهما علاقة الاقتصاد بالمجتمع وبفكرته حول الصراع الطبقي. ومن ناحية أخرى، حلل "ماركس" العلاقة المتناقضة بين الواقع الاجتماعى وما لسماء بوجود الوعي Consciouness. فلقد رأى أن الشعور والوعي هو الذى يحدد الواقع الاجتماعى وليس العكس، لأن جميع تصورات الفرد وآراءه وأنساق معتقداته وأيديولوجيته وثقافته بصفة عامة تتحدد فى ضوء العلاقات الاجتماعية الموجودة فى المجتمع الذى يعيش فيه.

عموماً، نجد أن "ماركس" فى نظريته المعروفة عن الصراع الطبقي، حرص على أن يوضح أسباب حدوث هذا الصراع من خلال تأكيده على

ضرورة الاستعانة بالمنهج التاريخى المقارن، للتحرف بوضوح على طبيعة وجود هذا الصراع بصورة أزلية منذ القدم. كما أن مصدر هذا الصراع وأسبابه معروفة ولم تتغير على الإطلاق منذ الأزل البعيد، الذى يتجسد فى الصراع البشرى حول الملكية، التى اعتبرها من أكثر الشرور البشرية، التى يجب إلغاؤها وإحلال الملكية العامة بدلاً منها. خاصة بعد أن تكون قد تبلورت الملامح الأساسية والمقومات العامة لظهور الطبقة العمالية وفكرها الأيديولوجى، الذى يعزز من وجودها واعطاؤها الفرصة، لقيام النظام الشيوعى الذى يجب أن يلغى النظام الرأسمالى الذى يحمل بين طياته عوامل فئانه وهدمه. وهذا ما تصوره "ماركس" فى نظريته عموماً عن الصراع الطبقي وزوال الرأسمالية كنظام اجتماعى واقتصادى.

#### (٥) الدولة والبيروقراطية والأيديولوجية.

تعتبر كتابات "كارل ماركس" من أهم الكتابات التى ساهمت فى تحليل كثير من موضوعات وقضايا علم اجتماع التنظيم ونثرى عموماً النظرية السوسيولوجية المعاصرة، ولربما تظهر أهمية "ماركس" عموماً من خلال ما تعالجه كتاباته لطبيعة الصراع الطبقي فى المجتمعات الرأسمالية، وجدير بالذكر، أن دراسة هذه الكتابات يؤدى بالضرورة الى فهم العديد من أنواع التنظيمات المختلفة والموجودة فى المجتمعات المعاصرة والتى تسيطر عليها كل من أجهزة الدولة والطبقات الحاكمة فى هذه المجتمعات من أجل استغلال عامة الشعب أو ما يعرف بالطبقات العاملة والكادحة. ومن ناحية أخرى، أيضاً أن الاهتمام بتحليل كتابات "ماركس" تساعد على التعمق لفهم طبيعة واتجاهات وأهداف التنظيمات البروليتارية.

ولفهم المنظور الماركسى Marx's Perspective بمسألة مركزية يتضح عند تحليل كتابات "ماركس" لكل من الدولة والبيروقراطية The State and Bureaucracy تلك الكتابات التى يمكن استنتاجها من خلال تحليلاته النظرية والتاريخية. ويعرض "ماركس"، على سبيل المثال فى إحدى كتاباته المعروفة تحت عنوان Critique of Hegel's Philosophy of Right عن تصوره لمفهوم الدولة الحديثة، بأنها شئ أعلى يسمو فوق كل الصراعات



الجزئية، والتي تمثل المصالح العامة تتجسد فيها الملكية النظامية والدستورية. وتعتبر الدولة مصدر الحرية الفردية Individual Freedom وهي الأفكار التي تحدث بداخلها الصراع من أجل تحقيق مصالح المجتمع المدني، ذلك المجتمع الذي لا يستفيد على الإطلاق من نتائج هذه الصراعات. فالدولة، في الواقع، هي الإدارة ووسيلة السيطرة والتحكم من قبل الطبقة الحاكمة وهي الفئاع الذي يختبئ وراءه مصالح هذه الطبقة من أجل تحقيق أهدافها وتحت شعار ما يعرف بالديمقراطية.

وتعتمد الدولة، بالطبع، على الأجهزة الإدارية لتحقيق أهدافها-وذلك طبقاً لآراء وتحليلات هيجل-وبواسطة الطبقات التي تتمتع بدرجة عالية من الذكاء والشعور بالوعي. ومن ثم فالبيروقراطية كما رآها "هيجل" تعتبر فنطنة بين كل من الدولة والمجتمع المدني The Civil Society. ولكن إذا تغافلنا هذا الافتراض الذي يدعى أن الدولة تكون ممثلة للمصالح العامة The Common Good وباعتبار الديمقراطية خاتمها، فهذا يعيد تعريفها في إطار المصالح الخاصة. وحينئذ تعكس الرؤية الهيجلية للدولة نوعاً من الغموض كما يكشف عن ذلك تحليلات "ماركس" وبصفة خاصة في تحليله لمفهوم الإغتراب Alienation. وفي الواقع أن كل من الدولة والملكية، ومصالح الطبقة الحاكمة أشياء متماثلة ومتداخلة، ومن أجل قبول ذلك الادعاء، فإن الدولة لم تعد ببساطة حالة يمكن قبولها في ضوء فكرة التحول نحو العقلانية Rationalization ونوع من التجاهل وإهمال ما يعرف باسم الواقعية المادية The Material Reality، ويمكن أن نلاحظ حسب وجهة نظر "هيجل" وتصوره لكل من الدولة ولأجهزتها البيروقراطية والطبقة العمالية والتي تصبح بعد ذلك طبقة عالمية Universal class تلك الطبقة التي تمثل من قبل "جسع ككل". تكون على عكس آراء "ماركس" حيث يجد أن الطبقة العاملة هي الطبقة العالمية والتي يجب أن تظهر عن طريق تكون النشاطات الثورية وأن كل من الملكية الخاصة والطبقات سوف تختفي بالفعل.

ويشير "ماركس" في إحدى كتاباته الأيديولوجية الألمانية The Germany Idology الى الخطوات التي تطور فيها الطبقة العمالية نفسها منذ



البداية الى أن تصبح طبقة عالمية. حيث تبدأ هذه المراحل منذ الوهلة الأولى عند فهمنا لطبيعة النظم الاجتماعية الموجودة فى الواقع، حيث توجد روابط قوية بين كل البناءات الاجتماعية والسياسية مع وسائل الإنتاج. وأن كل من هذه البناءات فى الدولة تتداخل مع بعضها بصورة مباشرة مسيطرة على جميع حياة الأفراد الذين يعملون بفاعلية وينتجون الواقع المادى ذاته، بل يعملون أيضاً تحت طابع مادى مميز. تلك الحقائق جميعها تكشف النقاب عن طبيعة جوهر إنتاج الأفكار The Production of Ideas. والنصورات العديدة الأخرى وأهمها تكوين الوعي Consciouness، والتي توجه جميعها تجاه النشاطات المادية وتؤثر مباشرة فى حياة الناس، والتي تعتبر بمثابة لغة الحياة الحقيقية The Language Of Real Life وهكذا يظهر كل من التخيل والتفكير والنشاط الذهنى والعقلى للناس فى هذه المرحلة والذي يعتبر بمثابة التدفق المباشر نحو سلوكهم المادى.

ويظهر لنا بوضوح من تحليل آراء "ماركس" السابقة حول أفكاره المادية، وما أسماه بالعلاقة الوظيفية بين كل من البناء الفوقى والبناء التحتى فى المجتمع، الى أى حد يمكن للبناء الاقتصادى أن يحدد طابع البناءات الاجتماعية والثقافية والفكرية والمتمثلة فى نوعية السياسة، والقانون، والأخلاق، والدين باعتبارهم أهم مكونات الإنتاج الفكرى لأفراد المجتمع. ومن ناحية أخرى، حاول "ماركس" أن يحدد بصفة خاصة كيفية تفسير نظام الدولة وأجهزتها البيروقراطية وذلك عن طريق تحليل مفاهيم كثيرة من أهمها مفهوم الإغتراب ومفهوم تقسيم العمل The Division of Labor، ذلك المفهوم الذى أعطى له "ماركس" اهتماماً كبيراً وبصفة خاصة عند تصوره للمجتمع الشيوعى. ذلك المجتمع الذى يعتمد أساساً على أن كل فرد فيه حراً وبعيداً عن القيود الأخرى التى توجد فى المجتمعات غير الشيوعية. وعلى أية حال، تصور "ماركس" أن مبدأ تقسيم العمل سوف يتلاشى بالفعل بما يصل المجتمع الى مرحلة الشيوعية الحقيقية، تلك المرحلة التى سوف تقضى تماماً على الإغتراب أيضاً، وتظهر الحياة الجديدة للناس والتى تتسم بطابع الحرية الفردية والديمقراطية الحقيقية.

## (٦) نظرية القيمة والتطور الاقتصادي.

أولاً: نظرية فاضل القيمة.

أشار "ماركس" إلى كبل من العمل والقيمة في تحليلاته الاقتصادية والاجتماعية، حيث جعل كل من الواقع الاجتماعي محوراً لأفكاره. فالعمل الإنساني هو أبسط مفهوم يوضح طبيعة النشاط الإنساني ونوعية إنتاجه وأشباع حاجاته الأساسية كما ينظر إلى العمل باعتباره نشاطاً هادفاً وموجهاً للحصول على الأشياء، ومن ثم، فالعمل شرط أساسي لبقاء الإنسان ووجوده. فالعمل بهذا المعنى، ينتج الأشياء ويشبع الحاجات وخاصة الأشياء التي لها قيمة استعمالية. وهكذا، فالقيمة الاستعمالية لاتنفصل عن الأشياء المادية (السلع) والتي تحقق عملية اشباعها في الاستهلاك. وعلى أية حال، يسعى "ماركس"، لجعل العمل منتج للقيمة الاستعمالية، ولكنه لا يعد المصدر الوحيد لها خاصة وأن عملية الإنتاج تحتاج إلى المادة المشكلة لها.

على ضوء ذلك، ميز "ماركس" بين العمل الخاص الفردي، وعمل المجموع الكلي لأفراد المجتمع والذي ينتج عنه المجموع الكلي للقيم الاستعمالية التي يتطلبها المجتمع. فالعمل الفردي يكتسب أهميته من خلال أهميته الاجتماعية لأنه جزء من المجموع الكلي في العمل الاجتماعي والذي يحدد حسب طبيعة التخصص وتقسيم العمل ونوعية التنظيم الاجتماعي الموجود. وعن طريق استخدام المنهج السوسيولوجي التحليلي التاريخي المقارن، يسعى "ماركس" لتوضيح عملية تحويل العمل الفردي إلى جزء مستمر في العمل الاجتماعي وذلك حسب نوعية العلاقات الاجتماعية والنظام الاجتماعي. كما طبق ذلك في تفسيره للنظام الرأسمالي الذي يقوم على الملكية الخاصة، والمشروع الفردي، واكتسب الخاص والتبادل وعملية توزيع العمل الاجتماعي الذي يحدد بدوره كل من القيم الاستعمالية والتبادلية.

كما حدد "ماركس" عملية قياس السلع وقيمتها التبادلية حسب العمل اللازم اجتماعياً والمكون لإنتاجها. ومن ثم، فالعمل في الإنتاج الرأسمالي ذو طابع مزدوج، فهو منتج لكل من القيم الاستعمالية والتبادلية في نفس الوقت.

وبعد هذا التحليل الماركسي لنظرية القيمة على أساس العمل خروجاً عن نظام تحليلات المدرسة الاقتصادية الكلاسيكية، حيث يحلل كيفية تحديد القيمة التبادلية لقوة العمل، شأنها شأن أى سلعة أخرى، تقاس بمقدار حجم العمل اللازم اجتماعياً والذي يتجسد فى وسائل معيشة العامل. ولكن الرأسمالى يعمل على شراء قوة العمل من العامل ليس طبقاً لقيمتها الحقيقية، ولكن حسب دفع أجر العامل القليل (الكفاف) بالرغم من أن قوة العمل الميذول تفوق أجر العامل الذى يحصل عليه. وهذا مايعبر عنه "ماركس" فى تحليله للفرق بين قيمة (الإنتاج والأجور) والذى ينتج عنها (فائض القيمة) الذى تحوز عليه الطبقة الرأسمالية وحدها، وعموماً رأى "ماركس" أن "فائض القيمة" يعد مؤشراً حقيقياً للاستغلال الرأسمالى للطبقات العاملة.

### ثانياً: التطور الاقتصادى

حل "ماركس" طبيعة النظام الرأسمالى، مشيراً لكيفية سيطرة الطبقة البرجوازية المالكة على وسائل الإنتاج وحرصاً على تراكم رأس المال، وسعيها الى إحكام عنصر المنافسة، حتى يحدث نوع من الاستمرار على سيطرة القوة المالية. ولقد وضع "ماركس" مخططاً لاعادة الإنتاج الموسع ليوضح عملية أو نظرية التطور استناداً الى تصوراته عن العلاقة بين الاستثمار والاستهلاك، وتكوين رأس المال أو ما أسماه بعملية التراكم الرأسمالى. تلك العملية التى يحركها عاملان أساسيان هما أولاً: الطبيعة أو السمة المميزة للنظام الرأسمالى، ومنافسة الطبقة الرأسمالية من أجل الحرص على استمرارية هذا النظام، وثانياً: التقدم التكنولوجى المستمر، الذى يؤدى الى زيادة الإنتاجية وانخفاض تكلفة السلعة وتحقيق فائض مستمر ومتزايد للقيمة وإضافته الى رأس المال. علاوة على ذلك، يحرص الرأسماليون على زيادة معدلات الربح وفائض العمل عن طريق إطالة ساعات العمل بخمس الأجور، وزيادة مدة استخدام قوة العمل.

وبضيف "ماركس" أن عملية التطور الاقتصادى للرأسمالية تكون فى اضطراب مستمر، بسبب حرصها أيضاً على تكوين ما أسماه (بالجيش الاحتياطى الصناعى) من القوى العاملة. حيث تحرص طبقة الرأسمالية على

وجود تضخم نسبي من العمالة يساعدها لمواجهة الأزمات الاقتصادية أو الثقلبات الدولية التجارية. فهذا الجيش من العمال، يعد بمثابة خزانة احتياطية لقوة العمل يدعى في أوقات الضرورة ويمنح لجوراً أقل. وعلى أية حال، حرص "ماركس" على الاستشهاد بالكثير من الأحداث الصناعية والتجارية التاريخية ليؤكد تصوراتَه على العلاقة بين درجة التطور الرأسمالي وزيادة ثروة رأس المال، وزيادة عدد الجيش الاحتياطي الصناعي، وتضخم حجم وسائل الإنتاج وقوتها الإنتاجية. ولكن بالرغم من ذلك، تتضاءل مستويات الأجور والمعيشة للطبقات العاملة واستغلالها بصورة مستمرة. إلا أن "ماركس" يخلص في النهاية، إلى أن عملية تطور الرأسمالية وتركيز رأس المال المستمر سوف يؤدي إلى تناقضات متعددة، الأمر الذي ينتج عنه زوال الرأسمالية ونزع الملكية الخاصة وإحلالها بالملكية الجماعية. وهذه هي فكرته الأساسية عن التغيير الاجتماعي أو نظرياته في علم الاجتماع التي جعلها إطاراً عاماً لتحليلاته وأفكاره الاقتصادية.

وفي هذا الصدد يشير أحد رواد علم الاجتماع الاقتصادي المعاصرين "نيل سملسر" N. Smlser، بأن تصورات "ماركس" ذات طابع معقد، حيث سعى إلى تفسير العلاقات المتداخلة بين القوى الاقتصادية والسياسية، وأشار إلى ضرورة فهمها في إطار المراحل التطورية أو التنمية للنظام الاقتصادي، خاصة وأن المظاهر السياسية تعتبر بمثابة انعكاس واقعي للواقع الاقتصادي الموجود في المجتمع. كما تتصارع تلك القوى السياسية والاقتصادية في المراحل المتقدمة من درجات التقدم والتطور للمجتمع، وتؤدي إلى تدمير كل من القوى السياسية والاقتصادية وتعتمد على مراحل التنمية الفعلية في المجتمع بصورة عامة.

## (٧) نظام الرأسمالية وتطور الإنتاج البشري.

الواقع أن فلسفة "ماركس" وتفسيره للعمليات جاءت نتيجة لاهتمامه الشديد، بتحليل طبيعة النظام الرأسمالي والتطورات التاريخية التي أدت إلى ظهور ونشأة هذا النظام، وأهم التغييرات الجوهرية التي حدثت على البناء الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الرأسمالي الحديث. وإن كان هذا الاهتمام

الماركسى لم يظهر من فراغ بل لقد تأثر "ماركس" كثيراً بكتابات رواد علم الاجتماع الأوائل، وخاصة تحليلات "أوجست كونت" وتفسيره للمراحل التاريخية لتطور المجتمعات ابتداءً من المجتمعات اللاهوتية، والمجتمعات الاقطاعية والعسكرية، وأخيراً المجتمعات الحديثة الصناعية. فلقى اعتنق "ماركس" النزعة التاريخية في كتاباته متأثراً بأراء من سبقوه وعاصروهم من المفكرين والفلاسفة الاجتماعيين، وإن كانت قد تميزت كتابات "ماركس" عن غيرها من هذه الكتابات لاهتمامه بدراسة التناقض بين الطبقات والصراع المستمر بين الجماعات الاجتماعية من أجل السيطرة على الموارد الاقتصادية أو كما أسماه بالبناء التحتي. ومن ثم، فلقد اتسمت تحليلات "ماركس" بالبعد عن النزعة المحافظة التي كانت تسود أوروبا والتي تميزت بها معظم الكتابات التي ظهرت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، واعتنق "ماركس" الأسلوب الثوري في التغيير والإصلاح كأساس لتحسين أوضاع الطبقات الفقيرة أو طبقة البروليتاريا.

وتتميز كتابات "ماركس" عن النزعة الليبرالية المحافظة التي تصورت على سبيل المثال، أن العلاقات الإدارية والتنظيمية بين طبقة العمال والمنيرين الرأسماليين أو أصحاب العمل على أنها ظاهرة هامشية Marginal Phenomena. وهذا يعكس مدى حرص أصحاب هذه النزعة المحافظة على رؤية العلاقات الاجتماعية - ليس فقط بين طبقة العمال وأصحاب العمل ولكن بين الطبقات الاجتماعية عموماً - على أنها علاقات يسودها طابع التجانس والتوازن المستمر دون الإشارة إلى التناقضات الاجتماعية الملوسة في الواقع الاجتماعي. وعلى العكس من ذلك، اهتم "ماركس" بتحليل عناصر الصراع بين العمال والإدارة ذلك الصراع الذي يشير إلى اهتمامات ومصالح الطبقات العمالية والطبقة الرأسمالية. ولقد تصور "ماركس" من ناحية أخرى، أن لهذا الصراع وظيفة حيوية باعتباره الدافع الأساسي والميكانيزم الأول لحركة التطور التاريخي الذي سوف يؤدي بالضرورة إلى انهيار المجتمع الرأسمالي وظهور المجتمع الانتقالي أو المؤقت، ثم أخيراً قيام المجتمع الشيوعي، الذي تظهر فيه الهيمنة الكاملة للطبقات العمالية، حتى يبلغ هذا المجتمع أعلى درجات تطوره عند انتشاره في جميع أنحاء العالم وقيام المجتمع الشيوعي العالمي.

وبالطبع، لقد استخدم "ماركس" المنهج التاريخى فى دراسة حركة تطور المجتمعات البشرية وكيف مرت بمراحل متعددة، واعتبرها (الحياة البشرية) انطلقت أولاً من مرحلة الشيوعية البدائية، التى كانت تقوم على الصيد والالتقاط، وتجسدت بعد ذلك الحياة المستقرة (القبلية)، ثم انتقلت الى مرحلة الاقطاع الزراعى، التى مهدت الى ظهور مرحلة الرأسمالية، ووضح "ماركس" بعد ذلك انهيار هذا النظام وظهور مرحلة جديدة نتيجة للثورة الاجتماعية وظهور الإشتراكية. ولكن نلاحظ فى آخر كتابات "ماركس" قبل وفاته، نجده يعطى تصنيفاً آخر لتطور المجتمعات البشرية، من حيث ربطه لهذا التطور بتطور أنماط الإنتاج ونماذجه المختلفة خلال تطور التاريخ ذاته.

وعموماً إن تحليلات "ماركس" وتصوراته لمراحل التاريخ البشرى وتفسيره لتطور المجتمعات تتشابه مع تحليلاته كثير من رواد علم الاجتماع وخاصة تحليلات "أوجست كونت". وإن كان ركز "ماركس" على تحديد المراحل التاريخية على أساس طبيعة النظام الاقتصادى القائم فى كل مجتمع من المجتمعات على حده. وفى ضوء ذلك وضع "ماركس" أربعة نماذج معينة من الإنتاج الاقتصادى التى تتميز بها المجتمعات البشرية. وهذه النماذج الذى وضعها "ماركس" هى:

١- الأسيرى The Asintic.

٢- القديم The Ancient.

٣- الاقطاعى The Feudal.

٤- البرجوازى The Bourgeois.

وأشار "ماركس" إلى أن نماذج الإنتاج تعبر فى حد ذاتها عن طبيعة الصراع الطبقي الذى يوجد فى كل مجتمع من المجتمعات على حده. فلقد عكس نموذج الإنتاج القديم طبيعة النموذج المستغل للإنسان وطاقاته فى عبود العبودية The Slavery وأيضاً النموذج الاقطاعى الذى يتصف بعبودية الأرض Serfodm أما نموذج البرجوازية فيشير إلى اكتساب الأجور Wage

Earning. وتوضح النماذج الثلاث مدى استقلال الانسان وخاصة النموذج البرجوازي الذي يعتبر أكثر النماذج سوءاً وسيطرة وتحكماً على الفرد وطاقاته. ومن ثم تساعد تلك العوامل على قيام النموذج الأمثل وهو النموذج الاشتراكي للإنتاج The Socialist Mode of Production الذي سيقضى على هذا الاستغلال ولا يهد لموجوداً بل يقضى على الطبقة البرجوازية للرأسمالية وملكيته لوسائل الإنتاج والملكية. وبينتها السوسيولوجية في المجتمع، أخيراً، يوضح "ماركس" النموذج الأمثلي للإنتاج، بأنه نموذج لم يظهر في الدول الغربية بل ظهر في مجتمعات أخرى لم يظهر فيها نماذج الإنتاج الثلاث السابقة، بل يتميز هذا النموذج لموضوع جميع أفراد الطبقة العاملة إلى الدولة أو الطبقة البروقراطية The Bureaucratic Class. وتعكس آراء "ماركس" لنموذج الإنتاج الأمثلي مدى انتماء بالعلاقة التي تربط الدولة البروقراطية ونموذج الإنتاج وربما ظهر في العديد من كتابات علماء الاجتماع وتعليقاتهم بوجود نوع من الاستغلال للإنسان داخل المجتمع السوفييتي نتيجة لسيطرة الدولة على الطبقة العاملة.

على أية حال، إن أفكار "ماركس" الاجتماعية والاقتصادية والصناعية، حاول أن يجسدها في نظريته العامة عن المادية التاريخية، التي اعتبرها الكثير من بين المفسرين والمحللين عموماً للنظريات السوسيولوجية التقليدية، بأنها تجسيد لعلم الاجتماع الماركسي، الذي وضع أسسه "كارل ماركس" بعيداً عن الأفكار الليبرالية والبنائية الوظيفية التي ركزت على الطابع المحافظ التقليدي، ولكن بالطبع، جاءت آراء "ماركس" لتعكس وجهة نظر اجتماعية وسوسيولوجية واقتصادية، مغايرة تماماً عن التيار الأوروبي الغربي، الذي عكس طبيعة النظام الرأسمالي، الذي اعتبره "ماركس" مرحلة إقطاعية أساسية في تحولاته وتصوره عامة لطبيعة المجتمع الاشتراكي والشيوعي، الذي يعتبر النقيض الأول للنظام الغربي للرأسمالي عامة.



## مناقشة وتعقيب:

يعتبر "ماركس" من أهم المفكرين الاقتصاديين، والسياسيين، والاجتماعيين، الذين ظهوروا خلال القرنين الماضيين، لما خلفه من تراث هائل، ظل موضع اهتمام كبير من جانب العلماء والباحثين حتى بعد إنهيار تطبيق أفكاره ونظرياته في الاتحاد السوفيتي والكتلة الشيوعية الغربية في السنوات الأخيرة. والمتبع لتطور الفكر الاقتصادي الاجتماعي خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر، يجد أن طبيعة المناخ الفكري والأيدولوجي الموجود في المجتمع الأوروبي آنذاك قد مهد لظهور فكر "ماركس" وزميله "انجلز"، وتمثل هذا المناخ في آراء أصحاب المدرسة الاشتراكية سواء في إنجلترا أو فرنسا أو غيرها من الدول الأوروبية الأخرى.

كما يعكس طابع الحياة السياسية والاجتماعية لأوروبا أبان منتصف القرن التاسع عشر، عن اهتزاز قوى دعائم النظام الكلاسيكي القديم حيث انهيار حكم الملك "لويس فيليب" في فرنسا ونشطت الحركات العمالية في باريس، وفي بلجيكا تصدع الحكم الملكي بقوة وقويت موجة الاحتجاجات في ألمانيا وإيطاليا وفيينا وبراغ. وعموماً ازدهرت الحركات الراديكالية ضد الطبقات الحاكمة نتيجة لتهديدها من أخطار الشيوعية، التي تزعمها "كارل ماركس" وأنصاره، وتركت أثراً متعددًا بالرغم من حركات القمع المستمر لها، وأنشئت دولة قوية عظمى في العقد الثالث من القرن الحالي استمرت تقريباً ثلاثة أرباع قرن من الزمان، وأمتدت خارج حدودها تاركة وراءها العديد من نظم الحكم الشيوعية أو الاشتراكية، وتبناها الكثير من القادة السياسيين والاقتصاديين، والمفكرين الاجتماعيين. ثم ما لبث أن تداعت وتركت للبشرية أفكاراً ونظريات تعد ميراثاً هائلاً للأجيال القادمة ليساعد في فهم طبيعة الانسانية وقوانين التطور الاجتماعي، بالإضافة إلى الطبيعة السياسية والاجتماعية أو المناخ العام في أوروبا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، والتي أثرت على نوعية الفكر الماركسي وآرائه الأساسية، إلا أننا نجد أيضاً أن الحياة الاجتماعية والعائلة والمهنية لماركس، تعد من أهم العوامل التي جعلت منه ناقداً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وناقماً على طبيعة



الظروف والحياة الاجتماعية العامة، التى رأى من الضرورة تغييرها بكافة الوسائل الإصلاحية والثورية الدموية.

كما تتبلور نظرية "ماركس" السوسيولوجية فى تفسيره عموماً لتطور التاريخ البشرى ونظريته حول الطبقات وتحليله للعلاقة الانتاجية فى المجتمع، موضحاً أن سبب تلك العلاقة يكمن فى العلاقة الاجتماعية ذاتها التى يقيمها الأفراد بينهم والتى تشكل الصرح الاقتصادى ومن فوقه كل الأوضاع السياسية والقانونية والأفكار والأساليب التى تعكس فى النهاية طبيعة الصراع أو النظام الاقتصادى القائم. وحسب تصورات "ماركس" فإن العلاقة الانتاجية فى المجتمع تتركز فى توزيع أعضاء المجتمع من حيث العلاقة بملكية وسائل الانتاج المادية. فعلى ضوء الملكية الخاصة ينقسم المجتمع إلى طبقات مالكة وأخرى عاملة وذلك حسب الأدوار والمراكز الاجتماعية التى يحصلون عليها بالفعل. ومن ثم يمكن القول، أن "ماركس" نظر إلى الرأسمالية على انها نظام اجتماعى يودى إلى تغيير فى البنية الاجتماعية والاقتصادية، فى نفس الوقت تشمل على علاقات متعددة متناقضة، يتحتم على ضوئها تغييرها واستبدالها بنظام اجتماعى آخر يتمثل فى الاشتراكية ثم الشيوعية العالمية.

واتخذ "ماركس" نفس الأسلوب أو المدخل السوسيولوجى عند معالجته كتاب "رأس المال" حيث ركز أولاً على تحليل العناصر الأربعة الأساسية التى يحللها علماء الاقتصاد لطبيعة النشاط الاقتصادى وهى الانتاج، والاستهلاك والتوزيع والتبادل. وسلم عموماً بوجود علاقة قوية ومتبادلة بين تلك العناصر التى من شأنها أن تركز عملية الانتاج على ضرورة إشباع الحاجات وتقسيمها وتوزيعها طبقاً للقوانين الاجتماعية، كما يظهر ذلك بوضوح فى عملية التبادل التى تتم فى توفير الحاجات الفردية وعملية الاستهلاك، التى تؤثر بدورها فى إشباع الحاجات الأساسية واستمرارية الانتاج والنشاط الاقتصادى عموماً.

وفى الواقع، أن آراء، "ماركس" ونظريته السوسيولوجية والاقتصادية والسياسية، قد تعرضت أيضاً لموجه من الانتقادات، شأنه شأن النظريات السوسيولوجية التقليدية، التى تركت أثراً بالغاً فى إثراء النظريات السوسيولوجية المعاصرة. وبالطبع، أننى لاسطيع حالياً أن أحصر جملة هذه

الانتقادات، بقدر ما أشير إلى أهمها بصورة موجزة، نظراً لاعتبارات مكانية وزمانية ترتبط أساساً بتحليلنا لمجمل النظريات التقليدية ومن أهم هذه الانتقادات كما يلي:

١- جاءت آراء "ماركس" حول المادية التاريخية والمادية الجدلية، يكتنفها الكثير من الغموض والصعوبات، ولا سيما عند تفسيرها للواقع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للمجتمعات الحديثة، والعلاقة المتبادلة بين الوجود والوعى الاجتماعى وتفسيرها على الأساس المادى والاقتصادى.

٢- تمثلت النظرية المادية التاريخية التى طرحها "ماركس" بأنها نظرية كلاسيكية، لم يكن "ماركس" أول من ابتدعها، كما تعتبر المادية الجدلية التى أسند إليها "ماركس"، مدعى أنها أفضل المناهج والمداخل لدراسة الواقع، ولكنها تعتبر نظرية طبيعية من الدرجة الأولى تستخدمها كافة العلوم الطبيعية، كما أن بها العديد من الأخطاء. ولا سيما عند الاعتماد عليها فى دراسة وتفسير عملية تحول التغيير الكمي والتغيير الكيفى.

٣- لم يستطع "ماركس" أن يفصل بين ما أسماه بالبناء التحتى (الاقتصادى) والبناء الفوقى (الفكرى والأيدىولوجى) من التداخل فى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وأولويات كل منهما لدى البشر والمجتمعات الإنسانية.

٤- جاءت تصورات "ماركس" حول الصراع الطبقي ملينة بالمبالغة أحياناً، والمثالية أحياناً أخرى، فكيف يمكن إلغاء الملكية، وهى شئ سماوى شرعته جميع الأديان؟ وكيف يمكن إلغاء الطبقات وظهور المجتمع اللاطبقي؟ وهناك تناقض واختلاف بين الأفراد والطبقات نتيجة لأختلافهم فى مستويات الذكاء والطموح والقدرات العقلية والجسمانية والفردية الذى تؤكد علوم النفس والاجتماع والاقتصاد أيضاً.

٥- أعطى "ماركس" للطبقات العاملة نصيباً كبيراً فى تصوراتهِ وتحليلاته ومحاولاتها، امتلاك السلطة والسيطرة، وجاء هذا التمييز العاطفى، بعيداً عن الواقع الفعلى ولدور هذه الطبقات فى تحريك مسيرة التاريخ وأحداثه والتغييرات الاجتماعية ككل. كما كانت أمثلة "ماركس" التاريخية على ذلك،

مجرد أمثلة تاريخية فردية يصعب إطلاق العموميات حولها.

٦- يصعب قبول آراء "ماركس" وتفسير أرائه المادية للتاريخ، وتأكيد على أن مجمل التغير السياسى والاجتماعى فى تاريخ الإنسانية يرجع إلى الصراع الطبقي وظهور الحروب الحديثة بين الطبقات بصورة مستمرة، ولكن قد يحدث الصراع نتيجة لأسباب أخرى متعددة، لا يمكن أن تكون العوامل الاقتصادية المادية هى السبب الأوحى، فهناك صراع القيم والادبى والحضارات والسلالات والعرقية وغير ذلك من أنماط متعددة.

٧- حرص "ماركس" بصورة شديدة على تحليل عملية إنبهار الرأسمالية لأنها تحمّل الكثير من التناقضات بداخلها، ولكن ثبت تاريخياً بعد وفاه "ماركس" أن لعكس هو الذى حدث بالفعل وإنهارت الشيوعية، ولم يشاهد "ماركس" طبيعة التناقضات التى احتوتها الشيوعية المحدثة فى الاتحاد السوفيتى (سابقاً) والتى أدت إلى إنبهارها مع نهاية القرن العشرين.

٨- تضمنت آراء "ماركس" حول الدولة والبيروقراطية والاعتراب الكثير من جوانب الغموض والمثالية، فلقد تصور مثلاً إمكانية إلغاء الدولة فى مرحلة ظهور البيروقراطية، أو بالتحديد مرحلة ديكتاتورية البروليتاريا، ولكن صعب على "لينين" منفذ أو مؤسس الاتحاد السوفيتى، أن بلغى الدولة كتنظيم سياسى واقتصادى وإدارى، يصعب فى الواقع التغاؤه فى التنظيمات الاجتماعية والقومية الحديثة، وهذا ما يفسر تقارب آراء "ماركس" مع مثالية "هيجل" وفلسفة التاريخ.

على أية حال، أن تلك الانتقادات لا تنقذ آراء "ماركس" أهميتها من الناحية السوسيولوجية، لأن أفكاره التصورية النظرية جاءت بمثابة الزعم الأساسى لظهور وتطور النظرية البنائية الوظيفية فى الدول الغربية. وهذا ما جعل كتابات العديد من روادها من أمثال "كونت"، و"فيبر"، و"سبنسر"، و"دوركهايم". وغيرهم كانت موجهة إلى شبح "ماركس" والماركسية. وهذا ما امتد أيضاً إلى الجيل الثانى من رواد هذه المدرسة البنائية الوظيفية، من أمثال "تالكوت بارسونز" و"ميرتون"، و"جولندر" وغيرهم آخرون كما سنرى ذلك فى

الجزء الثاني من مؤلفنا حول النظرية السوسيولوجية المعاصرة. كما هناك من يرى أيضاً من المهتمين بالنظرية السوسيولوجية وتطورها، أن أفكار "ماركس" وجدت الكثير من عناصر التشابه والمماثلة مع أفكار البنائية الوظيفية الكلاسيكية، وخاصة حول نوعية اعتماد رواد هذه النظرية من أمثال "فيبر" و"كونت" و"سبنسر" على المدخل أو المنظور الشمولي عند دراستهم للمجتمع، وهذا ما تبناه "ماركس" أيضاً في تحليلاته، وتصور كل منهما إلى عملية التغير الاجتماعي. كما جاءت أفكار "ماركس" حول تقسيم العمل لتتناظر أيضاً اهتمامات "نور كايم" حول ذات الموضوع، حدوث نفس المعادلة بين مضمون النزعة الحتمية المادية، وبين تصورات "ماركس" وآراء "سبنسر" أيضاً. بإيجاز، لقد وضع "ماركس" أول أسس نظرية الصراع والتي أحدثت تطورات جوهرية في النظرية السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة.

## أهم المراجع المستخدمة:

### أولاً: المراجع العربية والترجمة:

١. جرهام كينلوش، النظرية السوسيولوجية، ترجمة: سعيد فرح، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩.
٢. خضر زكريا، نظريات سوسيولوجية، دمشق: الاهالى للطباعة، ١٩٩٨.
٣. هيلبرونر، قادة الفكر الاقتصادى، ترجمة: راشد البراوى، القاهرة: دار النهضة، ١٩٧٩.
٤. سمير نعيم، النظرية فى علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة سعيد رافت، ١٩٧٧.
٥. شومبيتر، عشرة اقتصاديين عظماء، ترجمة: راشد البراوى، القاهرة: دار النهضة، ١٩٦٨.
٦. عبدالله محمد عبدالرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.
٧. عبدالله محمد عبدالرحمن، علم الاجتماع الاقتصادى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥.
٨. محمد على محمد، تاريخ الفكر الاجتماعى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥.

### ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Agger, Ben (ed) Western Materilism, San Monig Calif., 1978.
2. Aron,R, Main Currents in Sociological Thought vol : (1) N.Y,1976.
3. Avineri, s, The Social and Political Thought of K.Marx,

- London: Combrige Univ. Press, 1968.
4. Barbalet, J, Marx,s Construction of Social Theory, London: Routledge and Kagan Paul 1983.
  5. Cohen, G, K.Marx ,Theory of History, N.J: Princeton Univ., 1978.
  6. Cohen, P, Modern Social Theory, W.G: Basic Books, 1968.
  7. Collins, R, (ed) Sociological Theory: San Francisco, Jossey Bass 1984.
  8. Coser,L, Masters of Sociological Thought, N.Y: Harcout,1977.
  9. Gould, C, Marx,s Social Ontology, Combridge Mass: MII Press 1978.
  - 10.Marx & Engels, Basic Writing (N.Y: Fontana Collins Comp. 1981).
  - 11.Marx, K & Engles Selecred Works Moscow,: (Lawremce) 1957.
  - 12.Marx, K F., Engles, The Communist Manifesto, (Lask - iedition) N.Y:1967.
  - 13.Marx,K, Capital.3 vols. Mosco: Foreign Longuge Publih. House, 1961.
  - 14.Marx. K., Selected Writing in Sociology and Social Philosophy (ed) Bottomore & Rubel, London: Peuguin Book. 1976.
  - 15.Ritzer, G, Sociological Theory, N.Y: MC Grow. Hill Publish. Comp. 1988.
  - 16.Semelser, N, The Sociology of Economic Life, N.Y: Englewood Cliffs Prentic Hall Inc, 1976.
  - 17.Spiegel, H.W (ed) The Development of Economic Thought N.Y : 1952.
  - 18.Sweezy, The Theory of Capitalist Development, N.Y: 1968.

19. Tucker, R.C (ed) The Marx - Engels Reader N.Y: 1972.

20. Zeitlin, I, Ideology and The Development of Sociological Theory N.J: Englewood cliffs, 1968.





## الفصل الحادى عشر

مدرسة فرانكفورت ونشأة النظرية النقدية التقليدية.

تمهيد:

(١) الجذور الفكرية والأيدولوجية.

(٢) المراحل التطورية لنشأة النظرية النقدية.

(٣) النظرية النقدية وعلم الاجتماع.

(٤) القضايا الأساسية للنظرية النقدية:

١- "هوركهايمر" والنظرية النقدية.

٢- "أدورنو" والبحوث السوسيولوجية الامبريقية.

٣- "ماركيوز" والسياسة العقلانية.

٤- "قروم" والدراسات السيكو - سوسيولوجية.

(٥) هابرماس وتحديث مدرسة فرانكفورت.

مناقشة وتعقيب.



## تمهيد:

ارتبطت النشأة التطورية للنظرية السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة، بنوعية تطور الفكر الانساني، والقضايا الأساسية التي تشغل إهتمام المفكرين، والفلاسفة، والعلماء وغيرهم من الصفوة الثقافية والاجتماعية، التي تعطي اهتماماً ملحوظاً لعملية التطور الفكري والعقلي للجنس البشري خلال العصور التاريخية، ولاسيما خلال العصر الحديث. وهذا بالفعل ما يمكن ملاحظته عن طريق دراسة تطور العقل البشري عبر المجتمعات الانسانية، وكيف أهتم بهذا التطور معظم علماء الاجتماع منذ أن ظهر هذا العلم خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر حتى نهاية القرن العشرين. وبالطبع، إن تطور النظرية السوسيولوجية لا يمكن أن يفهم بعيداً عن تحليلات المنظرين من علماء الاجتماع، والذين أنشغلوا بقضية تحديث نظريات علمهم أو تطويرها. ولاسيما، أن النظرية السوسيولوجية تعتبر الموجه الأساسي الذي يوجه حركة العلم السوسيولوجي على المستويين النظري والامبيريقى (الميداني) في نفس الوقت، ويهدف إلى جعل (العلم السوسيولوجي) من أهم العلوم الاجتماعية أو الانسانية التي تسعى لدراسة الحياة الاجتماعية التي تزدد تعقيداً بصورة مستمرة.

وكما لاحظنا من خلال تحليلنا الموجز لتطور النظرية السوسيولوجية، كيفية نشأة هذه النظرية بصورة تدريجية، إذ لا يمكن دراستها أو فهمها، دون معرفة الأصول التاريخية، والاتجاهات العامة التي ركزت عليها هذه النظرية اهتماماتها، وأفكار وتصورات علماء علم الاجتماع وخاصة، الذين اعملوا اهتماماً ملحوظاً لدراسة مجال النظرية السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة في نفس الوقت. كما لاحظنا أيضاً، صعوبة فصل الدراسات السوسيولوجية النظرية عن نوعية القضايا والمشكلات والظواهر الاجتماعية المدروسة. هذا بالرغم من اعتماد بعض النظريات على التحليلات السوسيولوجية والتصورية المجردة، ولكنها سعت إلى استخدام التجربة، بالإضافة إلى دراسة الحقائق الواقعية من أجل فهم الواقع المتغير الذي يهتم بدراسة وتحليله علماء

الاجتماع. بغض النظر عن اختلاف إتجاهاتهم الفكرية والأيدولوجية، أو سواء كانت نظرياتهم تتبنى الإتجاهات البنائية الوظيفية أم المداخل التى تعتمد على الصراع والثورة والتغير الجذرى الشامل. أو ذلك النوع من النظريات التى اتخذت لنفسها مَدْخَلاً نقدياً راديكالياً، يركز على اعادة تقييم هذه النظريات السوسيولوجية التقليدية التى عرفناها خلال القرن التاسع عشر وحتى البدايات الأولى من القرن الماضى (العشرين). وهذا مانسعى اليه حالياً، عندما نركز على دراسة النظرية النقدية الاجتماعية والتى تمثلت فى مدرسة فرانكفورت، ومُبدعة اسهاماتها فى تطوير النظرية السوسيولوجية خاصة ودراسة المجتمع الحديث بصورة عامة.

### (١) الإجابة الفكرى والأيدولوجى:

طرحنا عند بداية تحليلنا لكل من النظريات السوسيولوجية التقليدية، كيف جاءت هذه للنظريات لتعبر عن الواقع الفكرى والأيدولوجى أو ظروف العصر التى ظهرت فيه بالفعل. فلم نطرح تصورات أى عالم من علماء الاجتماع، وفكره من فراغ، بقدر ما كانت تحليلاته وأفكاره وليدة لظروف العصر، والحياة الاجتماعية والمهنية والفكرية التى عاشها بالفعل. وجاءت رؤية هؤلاء العلماء والمنظرين للنظرية السوسيولوجية لتعبر بوضوح عن مجموعة العوامل الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية عامة، والتى تلعب دوراً أساسياً فى وضع الخطوط والموجهات العامة للنظرية السوسيولوجية والأفكار والقضايا التى تم تناولها وعالجتها بصورة عامة. وهذا بالفعل مايمكن تطبيقه عندما نعالج تصورات مدرسة فرانكفورت Frankfurt School، كإحدى النظريات النقدية السوسيولوجية الكلاسيكية التى ظهرت مع البدايات الأولى من القرن الماضى (العشرين)، ولاتزال تغذى أفكارها كل النظريات السوسيولوجية المعاصرة سواء كانت محافظة أو تنبئى منخل الصراع والمداخل المعروفة بالمداخل النقدية الراديكالية، والتى تنظر الى التغير من وجهة نظر متباينة عن الإتجاهات النظرية الكلاسيكية، والتى عرضنا لها خلال الفصول الأولى من هذا الكتاب.

من ناحية أخرى، أننا نسعى لاعطاء خلفية موجزة عن الاتجاهات والظروف الفكرية والأيدولوجية للنظريات السوسيولوجية الكلاسيكية المتنوعة، حتى نعطي للقارئ المهتم بدراسة هذه النظريات خلفية علمية وتاريخية عن مجمل الظروف التي شكلت بالفعل مضمون وجوهر هذه النظريات وبلورت جملة أفكارها وتصوراتها بصورة عامة. هذا بالإضافة إلى، أن هذه الخلفية تساعد أيضاً الباحثين المتخصصين في دراسة النظرية السوسيولوجية، ولاسيما عند محاولتهم تقييم هذه النظريات على أسس علمية ومنهجية محددة، ومعرفة الإطار الأيدولوجي والفكري لهذه النظريات يخدم أيضاً الجهود التقييمية التي يقوم بها المتخصصين في مجال النظريات السوسيولوجية، وجعل تحليلاتهم تعتمد على الموضوعية والحياد والبعد عن الذاتية، وتقييم هذه النظريات برؤى واقعية، ومعرفة الإطار العام الذي تبنته عند دراستها للقضايا والمشكلات والظواهر والحياة الاجتماعية.

وفي الواقع، إن مدرسة فرانكفورت، أو ما تعرف بمسميات أخرى مثل النظرية النقدية، أو النظرية النقدية للمجتمع، أو نظرية المجتمع النقدية\* أو غير ذلك من مسميات أخرى، لم تأت من فراغ بقدر ماشكلتها مجموعة من الظروف الفكرية والأيدولوجية والتي نستطيع أن نوجزها في عدد من الجذور الأساسية، التي انطلقت منها هذه النظرية أو مدرسة فرانكفورت وهي باختصار:

#### ١- النظرية النقدية والعودة إلى الفكر المثالي.

جاءت أفكار رواد مدرسة فرانكفورت لتعيد دراسة النظرية الماركسية، وماتبنته من أفكار وتصورات تبنتها بالفعل وخاصة تصورات "هيجل" Hegel المثالية، والنظرية التشاؤمية عند "شوبنهاور". وهذا ماظهر خلال رد الكثير من التناقض في التحليل المثالي لقضايا الماركسية العامة مثل البروليتاريا كطبقة وقوة ثورية، يعتمد عليها في عمليات التغيير الجذري في المجتمع،

---

\* نوضح أن استخدامنا لمفهوم مدرسة فرانكفورت يرادف استخدام النظرية النقدية أو النظرية النقدية للمجتمع أيضاً

وأيضاً القضايا الأخرى التى طرحتها للماركسية بصورة مثالية مثل الإغتراب أو التنبؤ بانتهاء النظام الرأسمالى، أو فكرة اختفاء الدولة الحديثة. وغير ذلك من أفكار اعتمدت عليها المادية التاريخية (الماركسية)، فى نظرتها الى المجتمع الحديث، واستخدامها أيضاً المنهج الجدلى فى دراستها وتحليلها، ربما شمل هذا المنهج من تناقضات كثيرة لا يمكن فهمها، إلا عن طريق الاستنباط للأفكار دون تحليلها بصورة واقعية.

فلقد أثرت هذه التصورات على أصحاب تصورات مدرسة فرانكفورت، الذين روا ضرورة إعادة النظر فيما توصلت إليه الماركسية من قضايا ومقولات ومفاهيم لتطور الحياة الاجتماعية، والتى تأثرت كثيراً بالجدل الهييجلى الذى رفضه كل من "أورنو" و"هوكهايمر" وغيرهم من رواد النظرية النقدية للمجتمع (مدرسة فرانكفورت). من ناحية أخرى، انتقد رواد هذه النظرية تصورات "شوبنهاور"، وفلسفته ودفاعه عن المجتمع الرأسمالى وتناقضاته. لاسيما، عندما حل كل الجوانب السلبية لهذا المجتمع وأثر ذلك أيضاً على أفكار عدد من رواد النظرية النقدية وطرحوا عدد من الأفكار ذات الطابع التناقضى، مثل أفكار "هوكهايمر" عن العدالة الاجتماعية، والمستقبل، وقيام المجتمعات الحديثة وطبيعة الحزن والبؤس وغير ذلك من تصورات جعلت من أفكار الماركسية أو تحليلات العلماء للمجتمع الرأسمالى موضع دراسة وتحليل ونقد شامل.

## ٢- النظرية النقدية والماركسية من الإتصال الى الانفصال.

ثم تحاول النظرية النقدية أن توطد علاقاتها بالفكر الماركسى وإنما سعت لتحليل الأسس والقواعد العامة التى انطلق منها هذا الفكر، الذى تبنى المدخل النقدى معتمداً على الفكرة المثالية والتصورات المجردة النظرية، دون استخدام النقد لدراسة الواقع الفعلى وبعيداً عن الاسترشاد بأمثلة ونماذج قريبة من التاريخ البشرى. وهذا ما جعل بعض رواد مدرسة فرانكفورت، تنظر الى الماركسية على أنها امتداد عصر التنوير، ذلك الفكر العقلانى الذى نظر الى المجتمع، على أنه جزء من العالم الطبيعى. ومن ثم يجب علينا، أن نتوصل

الى مجموعة من القوانين التى تساعدنا على فهم هذا المجتمع والتحكم والسيطرة عليه بأى شكل من الأشكال. فلقد حدد "ماركس"، بأن طبيعة التحول من الرأسمالية الى الإشتراكية، سوف يخضع لقوانين حتمية، وما صراع البروليتاريا والبرجوازية، ماهو إلا نوع من أنواع الملاكمة والافتتال الوهمى. وعلى أية حال، لقد انتقدت النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت) للماركسية فى عدد من القضايا، التى يمكن إيجازها كما يلى:

(١) تنتقد النظرية النقدية الماركسية أو الرأسمالية أيضا، فى تصوراتهما المادية للمعرفة، حيث تركز كل منها على خبرة الحواس واعتبارها نقطة بداية التفكير. ومن ثم، تعارض النظرية النقدية إرجاع المعرفة الى الحواس.

(٢) ترفض النظرية النقدية الماركسية وتؤكد على الأولوية الأنطولوجية للوعى، وترى النظرية (النقدية) إمكانية ادراك الذات وتفسيرها من خلال نوع من التفاعل الجدلى معه، باعتبار أن كلا من الذات والموضوع نتاجاً لسياق تاريخى اجتماعى واحد.

(٣) ترى الماركسية إمكانية ادراك الحقيقة من خلال الممارسة أو الجهد البشرى المادى، ولكن تؤكد النظرية النقدية على وجود موقف تأملى خالص فى مواجهة الحقيقة، وهو أعلى ما يطمح فيه الانسان.

(٤) تؤكد الماركسية أن الشخصية ماهى إلا نتاج لظروف اجتماعية واقتصادية نفعية، وترى النظرية النقدية، أن المعتقدات السياسية والاجتماعية للفرد، ماهى إلا تعبيراً عن الميول الكامنة فى عمق الشخصية الفردية.

(٥) تؤكد الماركسية على أن التحول من الرأسمالية الى الإشتراكية لايمكن أن يتم إلا عن طريق وجود طبقة البروليتاريا الثورية، التى تستعيج أن تغير النظام السياسى والمادى للرأسمالية، مع ضرورة المحافظة على وسائل الإنتاج باعتباره عنصر التطور والتغير، لكن ترى النظرية النقدية أن الشر الحقيقى يكمن فى التنظيم أو الجهاز التكنولوجى باعتباره أحد وسائل القهر الذى يستخدم سلبياً لتدمير الحضارة والعلم.

(٦) حرصت الماركسية على تبني الثورة أو الفعل الثوري كوسيلة لتحرير الإنسان من الاستغلال أو السيطرة، ولكن تؤكد النظرية النقدية على أن العقل هو الوسيلة الأساسية للتحرير، ولا سيما أن الإنسان يستطيع أن يستخدم هذه الوسيلة، ويصبح أميناً مع ذاته ومعرفة الشرور التي يقدمها الإنسان وعقله للبشرية عامة.

(٧) تنتقد النظرية النقدية الماركسية في تأكيدها على الحتمية الاقتصادية الخالصة، وعلاقة النظام الاقتصادي بالبناء الفوقي، وترى أن الثقافة والأيدولوجية تلعبان دوراً مستقلاً في المجتمع. كما أن الطبقة العمالية (البروليتاريا) لم تعد صالحة للثورة أو اعتبارها نقطة التحول الاجتماعي الأساسي. وهذا ما يجعل الماركسية تغفل ذلك تماماً، والاستناد إلى أمثلة تاريخية فردية، دون فهم تفاعل العلاقات الاجتماعية مع الأحداث التاريخية بصورة عامة.

### ٣- النظرية النقدية وتفسيرها للبنائية الوظيفية والنظام الرأسمالي.

تعكس المرحلة الثانية من تطور النظرية النقدية آراء مدرسة فرانكفورت كما سنعالج ذلك لاحقاً، أنها اهتمت ليس فقط بنقد آراء الماركسية، ولكن أيضاً بمحاولتها المستمرة بنقد النظريات الوضعية أو البنائية الوظيفية الكلاسيكية التي ظهرت قبل نشأتها أو التي عاصرتها بالفعل. وعموماً، يمكن أن نلقى الضوء على عدد من الانتقادات التي وجهت إلى النظرية الوضعية أو البنائية الوظيفية، كما تصورها رواد النظرية النقدية للمجتمع، ولا سيما رؤية النظريات الغربية الرأسمالية لعلم الاجتماع الوضعي، وأهم هذه الانتقادات بإيجاز شديد كما يلي:

(١) جاءت رؤية النظريات البنائية الوظيفية الكلاسيكية لتحديد علم الاجتماع، وجعله علماً منفصلاً عن النظرية والمنهج الذي يتبناها وبين المجالات والمشكلات الواقعية التي يقوم بدراستها وتحليلها.

(٢) تبلورت أفكار وتصورات علماء النظرية البنائية الوظيفية الوضعية، على



أساس اهتماماتها لدراسة المجتمع من منظور بسيط وجزئى، ودون ادراك  
الرؤى والتصورات الشمولية، لطبيعة المجتمع وإحداثه وهذا ما تبنته بالفعل  
النظرية النقدية.

(٣) حرصت البنائية الوظيفية فى دراستها للنظام الرأسمالى، على ضرورة  
تبنى الدقة العلمية واستخدام المناهج الكمية فى دراستها للظواهر والحقائق  
الاجتماعية، مما أفقدها معرفة المضمون والجوهر الذى تتشكل منه هذه  
الظواهر ذاتها. وهذا ما جعلها تتبنى النموذج الطبيعى، فى علم الاجتماع،  
والذى أدى بدوره الى فصل المعرفة عن أبعادها الأخلاقية، والى احاطة  
الشكوك بموضوعية علم الاجتماع وجعله متحرراً من القيمة، واعتباره وسيلة  
أدائية للقوى للرأسمالية.

(٤) أكدت النظرية النقدية على أهمية، عدم الفصل بين العلم والفن ودراسة  
المجتمع، الذى يقوم على التأمل للحقائق الواقعية، وهذا ما أغفلته النظريات  
الوضعية أو الوظيفية فى فصلها بين العلم والفن، مما جعل نظرتها  
السوسيولوجية للمجتمع نظرة سطحية، وغير واقعية.

(٥) تجنبت النظريات الوظيفية علم النفس، وهمشت دوره فى دراسة الظواهر  
الاجتماعية، على نحو ما فعل "كونت" و"دور كايم"، مما أفقد هذه النظريات  
أهميتها الموضوعية والعلمية. ولكن اعطت النظرية النقدية مزيداً من الاهتمام  
الى علم النفس، والمتغيرات السيكولوجية، ولاسيما عند فهم التغيرات  
لاجتماعية، والثقافية، والمعرفية.

(٦) ركزت النظريات الوظيفية الوضعية على العقل الأدائى، Instrumental  
Reason الذى يركز على الوسائل وتظهر قيمته فى زيادة فاعلية سيطرة  
الانسان على الطبيعة. أما النظرية النقدية، ركزت على العقل الموضوعى  
Objective Reason الذى يؤكد على الغايات وأهمية وجود التجانس كمبدأ  
أساسى للبحث عن الحقيقة الكاملة. وبإيجاز، فإن العقل الأدائى للنظرية  
الوضعية الوظيفية، ركز على عالم المظهر، أما العقل الموضوعى للنظرية

النقدية ركز على عالم الجواهر.

(٧) أكدت النظريات الوظيفية الوضعية، أن البشر مجرد أشياء As Things لا حول لهم ولا قوة في مواجهة المجتمع. وهذا ماظهر في تحليلات "دور كايم" على سبيل المثال، عندما جعل المجتمع آله فوق الفرد، أو رؤية "قيبر" للفرد على أنه ترس في آلات الإنتاج الرأسمالي. بينما تنظر النظرية النقدية الى الفرد أو الانسان، على أنه مصدر المجتمع، وأن الأخير (المجتمع) مجرد نتاج من السق الداخلي (الذاتي). ومن هذا المنطلق، تؤكد النظرية النقدية على العلاقة بين الفرد والمجتمع، واعتبار كل منهما ذات طبيعة مستقلة وغير خاضعة للآخرى. وهذا مايعكس جوهر الحقيقة الكاملة الذي تسعى لدراسته وتحليله أفكار رواد للنظرية النقدية عند دراستها للمجتمع ككل.

#### ٤- خبرات الواقع المؤلمة.

تعكس طبيعة الخبرة الواقعية والظروف العصرية والاجتماعية والسياسية لمعظم رواد النظرية النقدية، جزء كبيراً من مكونات هذه النظرية وتوجهاتها السياسية والفكرية والأيدولوجية. وهذا ما جعل هذه النظرية تتبنى الاتجاه التنازلي أو الحزين في رؤيتها أو تصورهما للحقائق أو المشكلات الواقعية، التي عاصروها بالفعل في العقود الأولى من القرن الماضي (العشرين). فخلد عاصر معظم رواد النظرية النقدية عمليات الاعتقال الجماعي لليهود من قبل النازية الألمانية والإبادة لهم، و تعرضهم للهجرة الجبرية، و النفي السياسي، بالإضافة إلى المشكلات التي تعرضوا لها في بلاد المهجر سواء في العديد من الدول الأوروبية أو الولايات المتحدة بعد ذلك.

كما إهتمت كتابات رواد النظرية النقدية بدراسة طبيعة التحول الذي حدث في ألمانيا خلال حكم النازية، وتغير الرأسمالية الألمانية من الرأسمالية الليبرالية إلى الرأسمالية الاحتكارية، حيث تم استبدال التخطيط المركزي بدلاً عن اقتصاديات السوق، وقامت الدولة وأجهزتها المختلفة باحتكار وسائل الإنتاج. وهذا ما أثر بصورة سلبية على جماعات اليهود الألمان، وتحول

النظرة المجتمعية اليهم باعتبارهم أدوات لجمع رؤس الأموال واحتكارها واتسامهم بالسيطرة والجشع. الأمر الذى أدى بالدولة الى السيطرة على رأس المال الذى يملكونه، وأصبحت توجه اليهم نظرات الشك فى تجارتهم ومعاملاتهم، وأدى ذلك كله الى ماجرى لليهود فى ألمانيا فى معسكرات الاعتقال والإبادة.

على أية حال، يمكن القول، بأن تجربة الواقع والظروف السياسية الألمانية قد أثرت على اليهود وخاصة المتقنين منهم، ولأسيما، أن معظم رواد هذه المدرسة التقليدية (مدرسة فرانكفورت) كانوا من اليهود الذين حاولوا تحويل هذه الوقائع والأحداث الأليمة، الى وقائع تاريخية وفلسفية وإنسانية عامة، ويجسدون اليهود على أنهم الشهداء الحقيقيين للبشرية فى العصر الحديث. فى نفس الوقت، سعت النظرية النقدية للاستفادة من الخبرة المؤلمة لأحداث اليهود، خلال فترة النازية لتتطوّر الى المستقبل برؤية أكثر واقعية، والسعى لعدم تكرار التجربة المؤلمة مرة أخرى. وجاء ذلك فى محاولاتهم أيضاً لدراسة الشخصية الفاشية والنظام النازى لعدم ظهور هذه الشخصية وهذا النظام مرة أخرى. وهذا ما جسده رواد النظرية النقدية فى تحليلاتهم الموسيولوجية والسياسية، والعلمية والفنية والأدبية سواء خلال وجودهم فى ألمانيا أو البلاد الأوروبية والولايات المتحدة، خلال فترة المنفى، وهذا ما ظهر فى تصوراتهم للحقيقة المؤلمة للمهاجرين خارج بلادهم الأصلية.

## (٢) المراحل التطورية لنشأة النظرية النقدية.

قبل الإشارة الى الأفكار العامة للنظرية النقدية أو (مدرسة فرانكفورت)، نود أن نعطي للقارئ فكرة موجزة عن طبيعة النشأة التطورية التى مرت بها هذه المدرسة أو النظرية (النقدية) منذ بداية تأسيسها حتى نهاية القرن الكلاسيكية التى مرت بها (عقد الستينات تقريباً) خلال القرن العشرين. فلقد تأسس معهد البحث الاجتماعى فى فبراير عام ١٩٢٣ التابع لجامعة فرانكفورت، ليقوم بإجراء البحوث ذات الطبيعة النقدية التى تبناها خلال العشرينات "فيلكس فيل" F. Weil، بالإشتراك مع عدد من رواد هذا المعهد من

أمثال "جورج لوكاش" G. Luckacs و"فريدريك بولوك" F. Pollock (١٨٩٤-١٩٧٠)، و"فيتفوجل" Wittfogel وأيضاً "كارل جرونبرج" K Grunberg (١٨٩٥-١٩٧٣). ولقد تأسس هذا المعهد للبحث في ظل مجموعة من الظروف السياسية التي نتجت عنها قيام الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧، وظهور الثورات في وسط أوروبا ولاسيما ألمانيا. ومن ثم جاءت عملية تأسيس هذا المعهد كاستجابة لمجموعة من المتقنين الألمان لإعادة تقييم النظريات التقليدية التي سيطرت على الفكر الاجتماعي والموسميولوجي الأوروبي خلال القرن التاسع عشر ولوائل القرن العشرين، ولاسيما الماركسية، والنظريات البنائية الوظيفية التقليدية.

وبالإضافة إلى المجموعة السابقة من مؤسسي معهد أو مدرسة فرانكفورت انضم إليها، "ماكس هوركهايمر" (١٨٩٥ - ١٩٧٣) Horkheimer، و"تيودور أدورنو" T.Adorno (١٩٠٣ - ١٩٧٠) و"هيربرت ماركيز" H.Marcuse (١٨٩٨ - ١٩٧٩)، و"إريك فروم" E.Fromm (١٩٠٠ - ١٩٨٠). وإنضم إليهم بعد الحرب العالمية "هابرماس" Habermas (١٩٢٩ - حتى الآن) ويمكن طرح عدد من الملاحظات على أعضاء المؤسسين للنظرية النقدية كما يلي:

١- ينتمي معظم أفراد هذه المدرسة النقدية إلى الشريحة العليا من المتقنين الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى، البرجوازية المترفة نسبياً.

٢- اتسمت معظم الكتابات الأولى لرواد النظرية النقدية بالطابع اليساري والماركسي في نفس الوقت، وينتمي الكثير منهم إلى الأحزاب السياسية الشيوعية، ولكنهم ما لبثوا أن تخلوا عن هذا الانتماء السياسي واتشق معظمهم على الفكر الماركسي، وإن ظل البعض منهم محتفظاً بالتحليل النقدي، ويمكن أن نطلق عليهم الفئة العلمية التي أسهمت في تأسيس الماركسية الغربية أو الماركسية البرجوازية.

٣- تنوعت الانتماءات المهنية والعلمية لرواد النظرية النقدية، فجاءت

تخصصاتهم تشمل الفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم النفس، والأدب، والسياسة، والفن. ولذا، عكست تصورات هذه النظرية التصورات والرؤى الشاملة والواقعية للحياة التي عاشوا فيها وعاصروها بالفعل.

٤- جاءت الديانة اليهودية لتمثل الدين الرسمي لمعظم رواد النظرية النقدية، وأثر ذلك عموماً بآثار سلبية على معظمهم نتيجة المتاعب التي تعرضوا لها مثل حدوث الإبادة الجماعية لليهود في ألمانيا. وبايجاز، جاءت النظرية النقدية لتعكس الشرور الاجتماعية للبشرية خلال الفترة النازية، وضرورة التخلص من هذه الشرور في كافة النظم الاجتماعية سواء كانت ماركسية، أم فاشية، أم رأسمالية أيضاً.

٥- اتسمت آراء النظرية النقدية ووجهات نظر روادها بضرورة تبني الموقف النقدي لدراسة الواقع الفعلي للمجتمعات الرأسمالية، وخاصة تأثير التكنولوجيا المتقدمة وخطرها على البشرية، ورؤيتهم نحو الماركسية واعتبارها الإطار المرجعي لأفكارهم. إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم حول كيفية معالجة الحقائق الواقعية سواء عن طريق العنف الماركسي، أو التأمل السلبي الذي يقوم على التحليل العلمي فقط.

وفي الواقع، لقد تطورت عملية ظهور النظرية النقدية بدءاً من مرحلة التأسيس، وتبني القضايا في مرحلة التطور والنضج العلمي والمعرفي، ويمكن تمييز أربع مراحل للتطور التاريخي لها كما يلي:

#### ١- المرحلة الأولى (١٩٢١-١٩٢٨).

ترأس مدرسة فرانكفورت خلال هذه الفترة "كارل جورنبرج" K. Grunberg، الذي اشترك في تأسيسها وكان مقتنعاً بوجود تحولات حتمية للنظام الرأسمالي إلى الاشتراكي. وهذا ماظهر خلال تحليلاته التي أكد فيها على التفسير المادي للتاريخ وتبلور في منهجه العلمي، واتسمت طبيعة إدارة المعهد البحثي بطابع ديكتاتوري، ورفض (جورنبرج) أيضاً قبول التفسيرات السيكلوجية في دراسة الواقع الاجتماعي، خلال هذه المرحلة اهتمت مدرسة

فرانكفورت بالدراسات البحثية الميدانية، وركزت على مناقشة قضايا المادية التاريخية للماركسية، والاقتصاد السياسي، ومشكلات الاقتصاد المخطط، والأحزاب السياسية، وتطور علم الاجتماع منهجاً وموضوعاً. وعموماً، يمكن وصف الخط الأكاديمي للنظرية النقدية، بالتزامها بموضوعين أو بعدين هما: أولاً، الإلتزام بالخط الماركسي؛ وثانياً، محاولة إثراء الكتابات الماركسية، عن طريق الاستفادة من إجراء البحث الميداني (الأمبيريقى) لدعم عمليات تحول المجتمعات الأوروبية إلى النظام الإشتراكي.

## ٢- المرحلة الثانية (١٩٢٩ - ١٩٣٥).

تدأس مدرسة فرانكفورت خلال هذه المرحلة "ماكس هوركهايمر" M Horkheimer، الذى سعى لتغيير منهجية المدرسة وفلسفة تحليلها للواقع، والبعد عن مثالية "هيجل"، والنظر الماركسي، التى أكدت على أن كل من النفس الاجتماعية والقانون والفن ماهى إلا انعكاس للواقع المادى الاقتصادى. ومن ثم، أكدت النظرية النقدية على ضرورة الاعتراف بالدور المستقبلى للثقافة فى صياغة التفاعل الاجتماعى. ويمكن القول، خلال هذه الفترة تم بلورة مجالات هذه المدرسة، فى ثلاث مجالات رئيسية وهى: ١- دراسة البناء الاقتصادى للمجتمع، ٢- تحليل النمو أو التطور النفسى للفرد، ٣- دراسة الظواهر الثقافية. علاوة على ذلك، لقد تبنت دراسات رواد هذه النظرية (النقدية) لوسائل البحث الاجتماعى الأمبيريقى، والتى كانت قد انتشرت خاصة فى الولايات المتحدة.

## ٣- المرحلة الثالثة (١٩٣٥ - ١٩٤٩).

تعكس هذه المرحلة نشاط رواد مدرسة فرانكفورت فى الولايات المتحدة خلال هذه الفترة، أفكارها لتعكس بعدين أساسيين: الأول: وتحليل الظروف الداخلية فى ألمانيا خلال فترة النازية، وذلك عن طريق تبني منظور علم الاجتماع، وتصور أوضاع هذه المدرسة بأن هذا العلم لديه القدرة على اكتشاف الخرافات الاجتماعية. وتم إلغاء البحث

الاجتماعى خلال هذه الفترة لأن علم الاجتماع، كان قادراً على كشف القوى الحقيقية فى المجتمع الألمانى. الثانى: طبيعة تباين المصالح وعلاقات جماعة المصلحة والضغط ودورها فى صنع القرارات الداخلية والخارجية. وبالفعل، لقد تعرض كثير من رواد علم الاجتماع الألمان خلال هذه الفترة، سواء للنفى أو الإبادة، وهذا ما جعل غالبيتهم يهاجروا إلى الولايات المتحدة، أو بقية الدول الأوروبية.

ولن كان خلال هذه المرحلة، ظل فريق آخر من رواد علم الاجتماع الألمانى يوجهون أفكارهم حسب الفكر الأيديولوجى النازى، من أمثال "هاينز فيفر" H. Pfeiffer، و"والتر" Walter، و"إيسن" Ipsen، كما تحول البعض من علماء الاجتماع بعيداً عن هذا العلم ليركز على دراسة الفلكلور، باعتباره أحد الموضوعات البحثية الآمنة من الناحية السياسية والاجتماعية. ويمكن القول أن العلماء الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة اهتموا بالفعل بتطور النظرية النقدية والذين يمثلون الجيل الثانى من أمثال "أدومو" Adorno، و"ماركوز" Marcuse، و"هوركايمر" Horkheimer، ولقد اهتموا بدراسة الواقع الرأسمالى عن قرب مستخدمين فى ذلك الشواهد الواقعية، والملاحظة، والملاحظة بالمشاركة وتناول قضايا ومشكلات المجتمع الأمريكى بصورة نقدية وتحليلية، يتعدى كتابتها وتحليلها ودراستها بنفس الطريقة التى تناولها عموماً رواد النظرية النقدية خلال فترة المنفى فى الولايات المتحدة. ومع نهاية هذه المرحلة، تغيرت اتجاهات معظم رواد المدرسة النقدية فى الولايات المتحدة. فعمل "ماركوز" بالمخابرات الأمريكية ثم أستاذاً بجامعة هارفارد، وجامعة برانديس اليهودية. وتحول فروم إلى دراسة التحليل النفسى فى نيويورك، ولكن عاد "فروم" مرة ثانية إلى ألمانيا عام ١٩٤٩ ليواصل مساهمات مدرسة فرانكفورت وإثرها لعملية التحليل الواقعى لمشكلات المجتمع الحديث.

#### ٤- المرحلة للربعة (١٩٥٠-١٩٧٠).

تشكل هذه المرحلة عودة عدد كبير من رواد النظرية النقدية إلى ألمانيا، بعد انتهاء فترة المنفى سواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة وخاصة كل من



"أدورنو" و"هوركايمر". وجاءت معظم تحليلات هذه النظرية لتركز على بعدين أساسيين وهما أولاً: مناقشة مجموعة التفاعلات والأحداث الواقعية وخاصة ظهور مجتمع الوفرة وحياة الرفاهية التي عاشتها المجتمعات الرأسمالية، وظهور النزعة التسلطية والبيروقراطية في المجتمع السوفييتي خلال فترة ستالين، وكانت موضع دراسة ونقد شديد من جانب أنصار مدرسة فرانكفورت. وثانياً: الاهتمام بعلم الاجتماع ذاته سواء في ألمانيا أو الدول الأوروبية والولايات المتحدة ومحاولة إعادة صياغته وتأسيسه على أسس علمية وموضوعية جديدة. هذا بالرغم من مواجهة علماء ورواد النظرية النقدية العديد من الصعوبات، نحو دراستهم لعلم الاجتماع وخاصة في ألمانيا. ومن أهم هذه الصعوبات التركيز على الدراسات الميدانية، وعدم الاهتمام كثيراً بالدراسات النظرية، وتناول قضايا هامة نتجت لتأثير حكم وفرة النازية، واستمرار كراهية السلطة لعلم الاجتماع. وإن كانت قد ركزت معظم جهود العلماء على الدراسات الميدانية التي أثرت في تطوير المنهج السوسيولوجي، بالرغم من افتقاره لأبعاد النظرية العلمية، وهذا ما منعنا في موضوع اهتمامنا لدراسة إسهامات النظرية النقدية في تطور علم الاجتماع ونظرياته السوسيولوجية.

### (٣) النظرية النقدية وعلم الاجتماع.

ما من شك أن التحليلات السابقة أوضحت طبيعة الجذور الفكرية والأيدولوجية وطبيعة النشأة التطورية لمدرسة فرانكفورت، والتي أسهمت بدورها في طرح عدد من القضايا الهامة التي تناولها رواد هذه المدرسة أو النظرية النقدية، وخاصة تصوراتهم لعلم الاجتماع، وطبيعة إسهامات هذه العلم ومكانته بين العلوم الإنسانية والطبيعية. ولاسيما أن معظم تحليلات رواد النظرية عالجوا الأفكار الماركسية من ناحية، والتحليلات البنائية الوظيفية الكلاسيكية من ناحية أخرى. ولقد كشفت هذه التحليلات لأصحاب النظرية النقدية عن مداخل راديكالية نقدية في كل من علم الاجتماع الماركسي، وعلم الاجتماع الغربي الرأسمالي ذات الاتجاه المحافظ. كما عكست رؤية



وتصورات مدرسة فرانكفورت مدى التباين الواضح بين كتاباتهم السوسيولوجية التاريخية والسيكولوجية والاقتصادية والسياسية والأدبية، والتي تختلف بصورة كبيرة عن تصورات النظرية السوسيولوجية التقليدية الماركسية أو الوضعية الرأسمالية. فى نفس الوقت، كشفت التحليلات السابقة أيضا عن مدى التصور الواقعى والنظرة العميقة لعلماء الاجتماع، وعلم الاجتماع ذاته فى ألمانيا خلال فترة النازية، وما حدث لتطور أفكار النظرية النقدية سواء داخل ألمانيا وأوروبا والولايات المتحدة خاصة خلال فترة المنفى لرواد المدرسة النقدية.

وفى إطار تركيزنا على اسهامات هذه المدرسة فى تطور النظرية السوسيولوجية، نسعى حاليا بشئى من التركيز، لمعرفة رؤية رواد هذه المدرسة لعلم الاجتماع وتفسيرهم للمجتمع ومفاهيمه ومناهجه ونظرياته بشئى من الإيجاز. فلقد ظهرت أولى التحليلات السوسيولوجية عن علم الاجتماع، فى إحدى المؤلفات المميزة التى تم نشرها فى كتاب مجالات علم الاجتماع Aspects of Sociology وذلك عام ١٩٥٦، والذي صدر بواسطة معهد أو مدرسة فرانكفورت فى ألمانيا، وحاول فيه رواد هذه المدرسة أن يعطوا تصورا تحليليا نقديا للحياة الاجتماعية المعاصرة. فلقد تصور رواد النظرية النقدية، مفهوم علم الاجتماع بعيدا عن تصور النظرية الوضعية التى تمثلت فى آراء "أوجست كونت" وغيره من رواد البنائية الوظيفية الكلاسيكية، التى روا فيها أن كتابات "كونت" وزملائه، تتميز بالسطحية، والاهتمام بالإطار الشكلى دون المضمون. كما ظهرت تحليلات "كونت" حسب وجهة نظر النظرية النقدية ممتزجة بالفلسفة والميتافيزيقا والتاريخ، دون الاعتراض فى نفس الوقت باستقلالية العلوم الاجتماعية، وتعذر الفصل بين جراب الحياة الاجتماعية، وهذا ماينفى تماما وجود مبدأ تقسيم العمل بين العلوم الاجتماعية بعضها البعض.

ومن هذا المنطلق، تصور رواد النظرية النقدية ضرورة التعاون بين العلوم الاجتماعية فى دراسة الظواهر والحقائق الاجتماعية، ولاسيما أن هذه

العلوم تدرس الحقائق المرتبطة بالإنسان ولذا سميت بالإنسانيات. ومن ثم، يجب أن تكون هناك علاقة مترابطة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية التي تشارك علم الاجتماع في دراستها للإنسان والواقع الذي يعيش فيه. ويجب أن يكون هذا العلم مرتبطاً في نفس الوقت بالفلسفة الوضعية التي أصبحت مسيطرة على مجمل الأطر النظرية البنائية الوظيفية التقليدية. وخاصة أن علم الاجتماع لا يستطيع أن يتخلى عن العلوم الاجتماعية الأخرى، وتطوير مناهجه وأساليبه البحثية والتحليلية النقدية. ولذا، يعد التركيز على أهمية وجود علم الاجتماع قائم على الوعي النقدي، الذي يعتبر عنصراً أساسياً لا يستطيع علماء الاجتماع التخلي عن هذا العنصر، لأنه يسهم في تطوير دراستنا للواقع في إطار عدد من المفاهيم والتصورات الذاتية، التي من الممكن مناقشتها للعديد من القضايا والمشكلات، التي تواجه التراث والمجتمع والدولة والعلاقة المتبادلة بينهما، والتي تعتبر في مجملها موضع اهتمام علم الاجتماع النقدي.

من ناحية أخرى، لقد حلل رواد النظرية النقدية مفهوم المجتمع، باعتبار أنه من أهم المفاهيم التي يعطى لها علم الاجتماع اهتمامه. ولقد رأت النظرية النقدية، أن تحليل هذا المفهوم من قبل النظريات التقليدية الماركسية والوضعية الوظيفية، لا يزال يحتاج للمزيد من التوضيح والتحليل، لأنها بالرغم من تعارض وجهات نظر كل منهما حول طبيعة المجتمع، إلا أنهما أكداً على أن مفهوم المجتمع يعتبر مفهوماً وظيفياً. ولكن تصور أصحاب النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت) أن مفهوم المجتمع، يتحدد بأنه المفهوم الذي يقصد به البشرية ككل، وهي في حالة من التماسك أو التجمع الذي لا ينفصل أبداً. وكما سادت عمليات التجمع البشري، أدى ذلك إلى تأكيد النصوص الشمولية للإنسانية. وهذا ما ظهر خلال القرن التاسع عشر تحت إطار النظام الرأسمالي، أما خلال القرن العشرين فإن التجمع زاد بصورة كبيرة نتيجة للتقدم التكنولوجي، والتطور السريع في مجال الإتصال، وإن كان هذا التجمع يحمل العديد من المشكلات الخطيرة، التي تعتبر جزءاً أساسياً من مهمة علم الاجتماع لدراستها وتحليلها بصورة واقعية.

وتبرز أهمية تحليلات النظرية النقدية لعلم الاجتماع، عندما سعت معظم هذه التحليلات للكشف عن العلاقة المحورية بين الفرد والمجتمع، وهذا ماظهر في تصوراتهم حول حقيقة وجود للفرد المطلق، أو المجتمع المطلق، حيث أكدت على أهمية وجود كل منهم وتحديد العلاقة مع الآخر (الفرد والمجتمع). خاصة وأن هناك العديد من العلاقات المتبادلة بينهما، ولايستطيع الفرد مثلاً أن يكون قادراً على ادراك فرديته وتميزه إلا من خلال وجود مجتمع يتسم بالعدالة والانسانية. وهذا ما جعل أفكار هذه النظرية تسعى لتطوير النظرية النقدية للمجتمع، وفيما ينطبق على الفرد ينطبق أيضاً على الجماعة أو المجتمع، ذلك المفهوم الذي يعتبر من أهم المفاهيم التي يسعى علم الاجتماع وعلماءه لدراسته وتحليله، ويعتبر الشغل الشاغل لهذا العلم أو بعض الفروع المرتبطة مع العلوم الاجتماعية الأخرى مثل علم النفس الاجتماعي الذي يناقش أنواع الجماعات والعلاقات الاجتماعية وعملية تكوينها ونشأتها وتطورها. وعلى أية حال، إن دراسة العلاقة بين الفرد والجماعة أو المجتمع، يجب أن تدرس في إطار ثلاث مفاهيم رئيسية وهي: الثقافة، والحضارة، والتقدم التكنولوجي. وبالطبع، إن هذه المفاهيم مترابطة مع بعضها بحيث يتعذر دراسة البعض منها دون الأخرى، مثال ذلك صعوبة فهم الثقافة وعلاقتها بالحضارة، دون معرفة تأثير البعد التكنولوجي والعقلية التكنولوجية، التي تمثل للعنصر الأساسي في فهم ودراسة البناءات والنظم الاجتماعية.

من ناحية أخرى، رأى أصحاب النظرية النقدية ضرورة الربط بين اهتمام علم الاجتماع بالدراسات النظرية الخالصة، دون إهمال الإسهام الفعلي لهذا العلم في البحوث التطبيقية (الميدانية)، ولا سيما دراسة المشكلات والقضايا الاجتماعية الواقعية. ومن أهمها دراسة الأسرة، والمجتمعات المحلية، والعنصرية، والأيدولوجية، وغير ذلك من موضوعات، يجب أن يوجه إليها البحث الاجتماعي الميداني، الذي يتسم بالطابع العلمي النقدي، والبعد عن النظريات العلمية الوضعية. كما جاءت في تصورات النظريات البنائية الوظيفية، التي طورت البحث الاجتماعي الميداني للتأكيد على بقاء النسق الاجتماعي واستمراره، والمحافظة على الأوضاع القائمة التي تخدم مصالح

الطبقات الرأسمالية، التي لا تحبذ فكرة التغير والتطوير، لا من أجل مصالح الطبقات الاجتماعية والبشرية ككل. وهذا ما سنعالجه بصورة أكثر تحليلاً عند دراستنا للاتجاهات الأساسية، التي قامت عليها النظرية النقدية وتأكيدها على أهمية وجود علم الاجتماع الأمبيريقى (الميدانى). وقبل أن نتطرق الى أهم الاتجاهات الأساسية العامة للنظرية النقدية واسهاماتها فى تطوير النظرية السوسيولوجية المعاصرة، نود أن نشير الى بعض التحليلات السوسيولوجية التي ظهرت حديثاً واهتمت بدراسة النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت)، وذلك بصورة تحليلية نقدية حديثة. حيث تصور على سبيل المثال "إيان كرايب" I. Craib فى كتابه عن "النظرية السوسيولوجية الحديثة Modern Social Theory" بأن منهجية المدرسة النقدية، تمثلت فى محاولة رواد هذه المدرسة لإبراز الطريقة التي يهيمن بها النسق (النظام الاجتماعى) على بقية النظم الاجتماعية أو الأفراد أو الجماعات الاجتماعية، وذلك عن طريق استخدامهم أولاً، منهج العقل الأدائى Instrumental Reason، وثانياً، الأسلوب الذى تسمح فيه الثقافة الشعبية للناس بالنظام الاجتماعى، وثالثاً، نوعية البنية الشخصية التي لا تقبل السيطرة عليها فقط بل تسعى (الشخصية) لها بنفسها. ويمكن الإشارة الى هذه العناصر للثلاث التي تعكس منهجية مدرسة فرانكفورت بصورة موجزة كما يلى:

١- العقل الأدائى، ولقد ظهر ذلك المفهوم أو المنهج فى دراسات للكثير من رواد هذه المدرسة، ويقصد بالعقل الأدائى، منطق فى التفكير وأسلوب رؤية العالم، ومعرفة علاقة الأشياء بعضها ببعض. إذن يمكن القول بأن (الأدائية) كمنهج، تتضمن أولاً أسلوباً لرؤية العالم للواقع الخارجى، وأسلوباً لرؤية معرفته النظرية المرتبطة، بفكر العالم وطبيعة المفاهيم والتصورات الذاتية المرتبطة به والتي تهدف جميعها الى الوصول لتحقيق غاية محددة، وهى البحث عن الحقيقة الواقعية. ومن ثم يصبح للعقل الأدائى أسلوباً للتفكير والسيطرة على العالم الحديث، والذي يحكم العلوم الطبيعية والاجتماعية فى نفس الوقت.

٢- أسلوب دمج الثقافة بالنظام الاجتماعي، أكدت تحليلات مدرسة فرانكفورت، أن الإنسان أنتج كمية هائلة من الأعمال الثقافية بأشكالها المختلفة، وخاصة الشعبية. وأن هذه الثقافة تمثل فكر الإنسان، وقدراته، وإمكاناته بيد أن سلبت منه الحرية وأشياء كثيرة. والثقافة الشعبية توصل الإنسان إلى نقد المجتمع والنظام الذي يسعى بدوره لدمج هذه الثقافة حتى لا يهدد كيانه وجوده واستمراره، وهذا ماحدث خلال النظام الرأسمالي.

٣- طبيعة البنية الشخصية الفردية الحالية التي شكلت من قبل النظام، ولاسيما أن هذا النظام وقدراته وهيمنته وصل إلى أعماق النفس الإنسانية. كما أن النظام لايسعى لصناعة الثقافة فقط، بقدر ما يسعى لبناء سمات شخصية معينة، لاكتفى بالاستجابة وسيطرة النظام عليها، وبقدر ما تبحث (الشخصية). عن أعماق الهيمنة فوقها بصورة مستمرة من قبل النظام. وهذا ماظهر في أعمال بعض رواد هذه المدرسة من أمثال دراسة "أدورنو" الميدانية عن الشخصية السلطوية، والتي تؤكد على وجود ارتباط بين السمات للشخصية والاتجاهات السياسية الاجتماعية في الولايات المتحدة.

#### (٤) القضايا الأساسية للنظرية النقدية.

تمثل هذه الاتجاهات عدد من الأفكار الأساسية، التي ترتبط بتحليلات النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت)، والتي تعكس عموماً طبيعة الإسهام الفكري والنظري والميداني (الأمبريقي)، الذي يستخلص كلية من الأعمال والكتابات والدراسات والبحوث التي قام بها رواد هذه المدرسة، والتي لم يمتد بالفعل في تطوير كل من الدراسات النظرية الموسيولوجية والاجتماعية من ناحية، وتطوير البحوث الميدانية التي قام بإجرائها بالفعل سواء في ألمانيا أو أوروبا والولايات المتحدة بعض أخصار النظرية النقدية من ناحية أخرى. إذ عملت على تصوير الاتجاهات والأطر التصورية والنظرية التي فطنت منها هذه النظرية، وعززت مكنتها في تطوير علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية على المستويين النظري والمنهجي بصورة عامة. ولكن قبل الإشارة إلى أهم هذه الاتجاهات للنظرية النقدية، يجب أن نوضح حقيقتين هامتين مؤداهما:

أولاً: أن بعض هذه الاتجاهات الأساسية قد أشرنا إليها خلال عرضنا سواء للإطار الفكري والأيدولوجي أو للنشأة التطورية، أو تحليل اسهامات هذه النظرية حول علم الاجتماع ومفاهيمه ومناهجه عامة.

ثانياً: إن عملية تصنيف هذه الاتجاهات وارتباطها ببعض رواد هذه المدرسة، لاينفى وجود اسهامات أخرى مشتركة بين هؤلاء العلماء حول طبيعة هذه الاتجاهات، ولكن تعكس إشارتنا فقط هنا، لبعض اسهامات العلماء البارزين من رواد هذه المدرسة، والتي أقمست تحليلاتهم ببعض الاتجاهات العامة والأفكار الأساسية التي قامت عليها بالفعل النظرية النقدية.

#### ١ - "هوركايمر" والنظرية النقدية.

ما من شك أن آراء رواد النظرية النقدية جميعها إشتربت في طرح أسس هذه النظرية واعتمادها على البعد النقدي والتحليل الاجتماعي، باعتباره الفكرة الرئيسية التي قامت عليها تصورات وآراء مدرسة فرانكفورت. وهذا ماظهر في كتابات كل من "هوركايمر"، و"أدورنو"، و"ماركيوز" على سبيل المثال، وجعلها تتميز عن الطابع التحليلي النقدي للنظريات السوسيولوجية التقليدية مثل الماركسية على وجه الخصوص. وهذا ما تمثل في آراء "هوركايمر" خاصة عند توضيحه للفرق بين النظرية النقدية والماركسية. حيث رأت النظرية النقدية أن تصور التاريخ باعتباره نتاج ضروري لآليات اقتصادية فقط يعتبر شيئاً خاطئاً، كما أن دراسة التطور والأحداث الاجتماعية وتفسيرها كنتيجة آلية للبعد الاقتصادي المادي، يعتبر تفسيراً بعيداً عن الصواب كلية. ولأسيماً، أن التطور والتغير الاجتماعي نشأ نتيجة لقرارات اجتماعية وجمعية اتخذت بصورة حرة بعيداً عن الثورة أو للنضال الثوري الذي اعتمدت عليه الماركسية كوسيلة أو أداة للتغير والتطور.

وكما يوضح "هوركايمر"، أن "ماركس" والماركسية كانوا يعتقدون، أن الطبقة العمالية البروليتاريا سوف يعتمد عليها كأداة للتحويل والتطور الجذري في المجتمع، ولكن الشواهد التاريخية التي ظهرت في ألمانيا خلال فترة هتلر،

وظهور النقابات الأمريكية الثورية، والبيروقراطية السوفييتية، تعتبر شواهد واقعية تنفي تماما الرؤى الماركسية التقليدية. وهذا ما جعل للماركسية المحدثه تعيد تفكيرها الكلاسيكي، لأن كثيرا من نول العالم الحديث تبنت الماركسية بعيدا عن وجود الطبقة العمالية (البروليتاريا). ومن هذا المنطلق، نجد أن نظرة "هوركايمر" ممثلا عن رواد النظرية النقدية، تؤكد على أهمية وضرورة تحالف الطبقات الاجتماعية، بما فيها الرأسمالية مع طبقة العمال (البروليتاريا)، من أجل جعل هذا التحالف الاجتماعي هو المركز والواقع الحقيقي لعمليات التطور والتغير، واستحداثها قوى جديدة ديناميكية وقوية ومنظمة. وتعتمد جميعها على قوة التطور والتقدم التكنولوجي أو التقني الذي يجعل بالإمكان، وجود تنظيم اجتماعي جديد للمجتمع الحديث. ويشارك "أدورنو"، وجهة نظر "هوركايمر" السابقة حول النظرية النقدية وآرائها عن الماركسية وتفسيرها لعملية التغير الاجتماعي، حيث رفض وجهة النظر الماركسية أيضا أو بمعنى آخر، رفض النظرية الماركسية وتفسيرها للاقتصاد والمادة. حيث يصور "أدورنو" أفكاره في إطار فكرته عن التشيؤ، والتي تعتبر العملية المسؤولة عن تحول القدرة الانسانية (قدرات الذات) الى شئ وتتجسد فيه والتي عن طريقها يصبح الشئ شيئا اجتماعيا أو (شيئا انسانيا). ومن ثم، فإن النظرية العامة التي يمكن استخدامها في تفسير المجتمع، تعتبر شيئا كليا لا يتحلل الى معلومات مستقلة عن العلوم الفرعية. ويجب فهم هذا الشئ الكلي من خلال فهم تشيؤه الفردي. ومن ثم، تظهر طبيعة العملية الجدلية التي تعتمد عليها النظرية النقدية في التفسير، وهي دراسة هذا التناقض بين الكل والجزء (الفردي). كما أن الجدلية لا تعتبر منهجا ولاوصفا لفهم العالم الخارجي، ولكنها تعتبر نوع من الاحتجاج الدائم، على جميع حالات الوصف وكل المناهج، التي تدعى قدرتها المستمرة على احتكار عملية الوصول الى الحقيقة أو اثباتها.

كما يتبلور الهدف الأساسي للنظرية النقدية في اسهامها لاعادة بناء المجتمع الحديث، حتى تحقق أهدافها وغاياتها، التي تتركز في أشباع حاجات أفراد وجماعاته، وأن يكون هذا المجتمع خاليا من جميع ألوان ومظاهر الاستغلال في نوعية العلاقات بين الأفراد. وخاصة أن هذا المجتمع هو بمثابة



الكائن الواعي الحى القادر على إدارة أموره بذاته. ويتضح من هذا التحديد لمفهوم المجتمع حسب تصورات النظرية النقدية، أن مصطلح أو مفهوم النظرية، يتحدد فى إطار نوع من التحليلات الفلسفية، التى تركز على أهمية الاعتراف (بعالم الإدراك) الذى يعتبر نوع من النشاط الإنسانى. وأن قضية المعرفة تتبلور فى دراسة الطبيعة أو العالم الخارجى الذى يفهم ويدرك عن طريق الذات الإنسانية. ومن ثم، فإن إدراك هذا العالم يعتبر نوع من التفكير الجدلى الذى يجب أن يستخدمه جميع أفراد المجتمع العقلانى الرشيد.

وبالإضافة الى اتخاذ النظرية النقدية موقفا نقديا من النظرية الماركسية وتحليلها للواقع الخارجى، قد بُنيت نفس الموقف على النظريات الوضعية الوظيفية، والاتجاهات البرجماتية التى بدأت فى الظهور مع أوائل القرن الماضى (العشرين) على أيدى مجموعة من أنصار العالم البرجمائى "جون ديوى" J.Dewey، تلك الاتجاهات التى سعت الى تبني أفكار تقوم على أساس الربط بين القيمة (العملية) والحقيقة. ولاسيما، أن البرجماتية سعت لتجنب كل ما هو غير عملى من الفكر، وهذا ما يجعلها تبعد تماما عن التفكير فى طبيعة حدوث النتائج العملية، ومن ثم، فإنها لا يمكن أن ترقى الى مستوى النظرية النقدية. فهى (الاتجاهات البرجماتية) مثل الوضعية الوظيفية، تركز على تحليل المجتمع بصورة سطحية مثلها مثل الميتافيزيقا، التى لا تنتج أى شئ فى فهم حركة التحولات التى تحدث فى الواقع الاجتماعى، وإن كانت تستطيع فقط كشف التناقض بين ماهو ظاهر أو عرضى وبين ماهو غير ظاهر أو جوهري. وبإيجاز، لقد نظرت النظرية النقدية الى الوظيفة الاجتماعية Social Function للفلسفة، والتى تتمثل فى الكشف عن التناقضات التى تشمل البناء الاجتماعى الحديث، الذى يتميز بالتباين والاختلاف، وهذا ما يظهر فى عدد من القضايا والمشكلات التى توجد بداخله مثل تناقض الطبقة العمالية (البروليتاريا).

وفى هذا الإطار طرح "هوركايمر" كأحد رواد النظرية النقدية تمييزا بين نموذجين أساسيين للنظرية وهى: النموذج الاول، ويتمثل فى النظرية الوضعية التقليدية التى سعت إلى تبني المناهج الموجودة فى العلوم الطبيعية،



وهي تمثل نمطا استنباطيا، نظريا، وتتكون النظرية التقليدية Traditional Theory من مجموعة من القضايا التفسيرية والمنطقية. كما تهتم هذه النظرية بطرح مجموعة من الفروض التي تخصص للبحث الأمبيرى، واستخدام مختلف الأساليب وطرق الدراسة التي توجد فى العلوم الطبيعية. كما أنها تنظر الى كافة الأسباب الاجتماعية على أنها ظروف خارجة تماما عن نطاق العلم والمعرفة. أما النموذج الثانى (النظرية النقدية) Critical Theory، فهي على النقيض من النموذج السابق، إذ تركز على دراسة الانسان باعتباره وحده للتحليل والدراسة، وصائعا لظروفه التاريخية واسلوب معيشته الحياتية. كما أن المواقف الواقعية، لايمكن النظر اليها بصورة سطحية، أو اعتبارها مادة علمية يمكن التحقق من صحتها والتنبؤ بها فى ضوء قوانين الاحتمال. وبإيجاز، فإن هذه المواقف تعتبر القوة التي يمارس بها الانسان على الطبيعة أو العالم الخارجى، وليست مجرد معطيات فقط. فجميع مدركات الانسان، والموضوعات التي يطرحها للدراسة والتحليل ونسألاته حولها تعكس قوة العقل البشرى.

ومن هذا المنطلق، تتبلور أهمية النظرية النقدية فى وظيفتها البحثية لطبيعة المجتمع الحديث، والى إعادة طرح أفكار وطرق ومناهج جديدة لبحث القضايا الواقعية، وذلك عن طريق تطوير علم الاجتماع والموضوعات التي يطرحها علماءه للدراسة والتحليل. ولاسيما، أن النظريات الوظيفية التي ظهرت فى المجتمعات الرأسمالية والبرجوازية قد سعت للفصل بين الباحث وبين موضوع بحثه، فى ضوء طرح مقولات عقيمة مثل الموضوعية Objectivity والبعد عن الذاتية. ولكن النظرية النقدية، ترى عكس ذلك تماما، حيث تؤكد على ضرورة، أن يندمج الباحث مع موضوع بحثه، حتى يستطيع أن يتوصل الى جوهر الموضوع أو الظاهرة التي يقوم بدراستها، حتى تكشف عملية دراسة الظاهرة جانبا نقديا وانسانيا فى نفس الوقت. علاوة على ذلك، ترى النظرية النقدية، أن الأبحاث النقدية، التي يأخذ فيها الباحث الاجتماعى أدوارا إيجابية، هي ذلك النوع من الأبحاث، التي تسعى الى تغيير الواقع الاجتماعى، وتخصص مزيدا من الحرية الفردية، وتجعل من الانسان قوة

ثورية تتمثل في وعيه وإدراكه لأحداث التغير والتطور ذاته، وليس الحيداد والموضوعية التي تزعم بها النظريات الوضعية و التي تجعل من الباحث معزولا عن بحوثه ونتائجها وقيمتها الفعلية في أحداث التطور والتغير، وإن كانت تركز للنظرية النقدية على أهمية ارتباط النظرية بالواقع السياسى والتاريخى، باعتبارهما من الأبعاد الأساسية التي يجب الاهتمام بها لدراسة المجتمع ككل.

## ٢- "أدورنو" والبحوث السوسيولوجية الأمبيريقية.

جاءت اسهامات النظرية النقدية في مجال تطوير البحوث الاجتماعية الميدانية، ولاسيما بعد أن طرحت مجموعة من التطورات النظرية والفكرية، التي تميزها عن غيرها من النظريات التقليدية وخاصة النظريات الماركسية، أو الوظيفية والوضعية وأيضا النظريات البرجماتية الأمريكية، التي كشفت تحليلات رواد هذه المدرسة النقدية، عن كثيرا من جوانب الضعف والتناقض بها، ولاسيما بعد أن عاشت فترة طويلة من أصحابها خلال مرحلة المنفى بالولايات المتحدة، وجاءت باسهامات إيجابية أخرى، بعد أن قام بعض رواد النظرية النقدية بإجراء العديد من البحوث الميدانية داخل الولايات المتحدة، وحاولوا التعرف عن قرب، لطبيعة المشكلات والتناقضات التي توجد في المجتمع الرأسمالى. ولعل من أهم الايجابيات التي اكتسبتها تحليلات النظرية النقدية وروادها، الاستفادة من تطور البحوث والدراسات الميدانية التي كانت تجرى في الجامعات والمعاهد البحثية وأقسام الاجتماع بالولايات المتحدة. وخاصة بعد عمليات تطبيق الاستبيان، والمقابلة، واستخدام طريقة تحليل المضمون، والإحصاء وغير ذلك من أساليب بحثية ومنهجية عززت عموما تطور البحوث الميدانية (الأمبيريقية).

كما حرص بعض رواد النظرية النقدية على تطوير بحوث علم الاجتماع الميدانية، ولاسيما بعد عودة عدد منهم الى ألمانيا مرة أخرى. ففي سنة ١٩٥١ عقدت جماعة فرانكفورت مؤتمرا علميا حول دور البحث الاجتماعى التجريبي، برئاسة كل من "يوبوند فيز"، وأدورنو، وحرص

الأخير على انتقاد الأساليب البحثية التقليدية التي كان يقوم بها علماء الاجتماع الكلاسيكيين، وذلك بالرغم من مكانتهم العلمية والإنسانية في عملية تطوير البحث الاجتماعي التي تعزز هذه الأساليب البحثية بصورة عامة. ولهذا السبب حاول "أدورنو" أن يقدم العديد من البراهين والشواهد على أهمية الأبحاث الميدانية التجريبية، والتي سوف تعزز عموماً من نتائج بحوث علم الاجتماع وتطور الأساليب من ناحية، والإطار التصوري والفكري الذي يوجه هذه البحوث ويجعلها مرتبطة بالواقع، من ناحية أخرى. كما جاء حرص "أدورنو" على التأكيد المستمر على أهمية البحوث الميدانية، ولا سيما أنه كان يوجد اعتقاد خاطئ في ألمانيا حول طبيعة البحوث الاجتماعية الميدانية التي تعتمد على الإحصاءات الكمية، وإهمالها عمليات التغيير الديناميكية والكيفية التي ترتبط بطبيعة الظواهر المدروسة.

ولقد استمرت محاولات "أدورنو" بعد عودته من الولايات المتحدة في نشر مجموعة من المقالات التي ترتبط بأهمية البحوث الموسيولوجية الميدانية، وتوضح العلاقة بين النظرية والأسس المنهجية، وحذر من طبيعة إجراء البحوث الاجتماعية الفردية، والتي تجرى بعيداً عن الاستفادة من النتائج العامة التي تحصل عليها أو تتوصل لها العديد من الدراسات الميدانية. وخاصة، أن ذلك النوع من الدراسات الخاصة أو الفردية لا يمكن أن تثرى للنظرية السوسيولوجية، بأي حال من الأحوال، ولا تسهم في فهم ودراسة الواقع الاجتماعي ككلية. وعلى أية حال، لقد اكتسبت آراء "أدورنو" تأييد مع البدليات الأولى من عقد الستينات من القرن الماضي (العشرين)، وراث الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع ضرورة عقد مؤتمر علمي لمناقشة أهمية البحوث السوسيولوجية الميدانية التجريبية. وهذا ما تبلور في أول مؤتمر عقد بعد ذلك بعنوان (منطق العلوم الاجتماعية)، والذي ترأسه الفيلسوف النمساوي البريطاني "كارل بوبر" K. Popper مع "أدورنو" للذان أكدا على أهمية وجود نوع من التوافق بين كل من مفاهيم علم الاجتماع والنظرية النقدية، وطبيعة الموجهات التصورية التي توجه البحوث السوسيولوجية لدراسة الواقع الميداني، والتوصل إلى مجموعة من القوانين والنتائج العامة التي تساعد في

فهم المجتمع وصقل كل من للنظرية السوسيولوجية ومناهج البحث التجريبي والميداني في نفس الوقت.

بالإضافة الى ذلك، تظهر اسهامات "أورنو" في تطوير البحوث السوسيولوجية الأمبيريقية، عن طريق محاولته للتمييز بين دراسة كل من الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية ونوعية المناهج، التي يجب أن تستخدم في دراسة كل منها. فالعلوم الطبيعية علوما دقيقة، نظرا لأن الطبيعة تقوم على درجة كبيرة من الإتساق والدقة، أما المجتمع فليس بهذا الإتساق ولكنه يقوم على مجموعة كبيرة من التناقضات والظواهر العقلانية واللاعقلانية في نفس الوقت. ومن ثم، رأى "أورنو" ضرورة أن تأخذ مناهج البحث الاجتماعي في علم الاجتماع طبيعة هذه الاختلافات التي توجد في المجتمع، وعدم الادعاء بأن المناهج الطبيعية لايمكن أن ترقى فوق مستوى هذه التناقضات. وبإيجاز، أكد "أورنو" على ضرورة التمييز بين مناهج العلوم الطبيعية والاجتماعية، نظرا لتباين نوعية الموضوع أو الظاهرة المدروسة التي يقوم بدراستها وتحليلها كل منها. وبصورة عامة، سوف تعجز المناهج الطبيعية في فهم المجتمع الذي يحتوى على كثير من التناقض والتعقيد، وتعدد العوامل المسببة للمشكلة أساسا للظواهر الاجتماعية بصورة عامة.

### ٣- "ماركيوز" والسياسة العقلانية.

تعددت كتابات "هربرت ماركيوز" وشملت أهم مؤلفات مدرسة فرانكفورت مثل العقل والقدرة، والحب والحضارة، وفلسفة النفس، والانسان ذو البعد الواحد، وغيرها من المؤلفات، التي لا تزال تجدد أهمية النظرية النقدية وآرائها في النظرية السوسيولوجية والتحليلات السياسية والأيدولوجية والفكرية والفلسفية. ولاسيما أن تحليلات "ماركيوز" حاولت اختبار مجموعة النظريات الفكرية السابقة التي عاصرها في دراسة الواقع العام للمجتمع الصناعي. كما جاءت معظم كتابات وآراء "ماركيوز" خلال مايقرب من ربع قرن من الزمان، ووضعها في مؤلفات مميزة له خلال عمله مديرا للمركز الاجتماعي بمدينة نيويورك، أثناء مرحلة المنفى لمدرسة فرانكفورت. كما جاءت معظم

أفكار "ماركيوز" ممترجة بأراء العديد من رواد هذه المدرسة ولاسيما "هوركهايمر"، ومحاولتهم لاعادة هذه القضايا الرئيسية للنظرية النقدية، وتأكيدها على الدور الحاسم الذى يقوم به العقل البشرى فى تغير المجتمع الواقعى.

كما تكمن أهمية كتابات "ماركيوز" التى تتميز بالتحليلات السياسية والسوسيولوجية بأنها جاءت فى مرحلة تاريخية مميزة، ولاسيما بمد أن انصرف عدد من رواد مدرسة فرانكفورت الى الدراسات الأخرى السيكولوجية والميتافيزيقية، ولكن حاول "ماركيوز" أن يناقش القضايا التى طرحها فى ضوء الرؤى الجديدة للنظرية النقدية وفلسفتها، وفى فهم واقع الحياة العصرية مع النزعة أو الاتجاه البرجمائى العملى الذى عاصره خلال وجوده فى الولايات المتحدة. وحاول "ماركيوز" أن يخرج بمقولة هامة، ألا وهى: أن العقل الانسانى له دور ثورى فى حياة الانسان كما يعكس ذلك تاريخ البشرية، إلا أن طبيعة الحياة الرأسمالية المحافظة أو الماركسية، وضعت قيوداً عديدة على العقل الانسانى، وجعلته أسيراً لأيديولوجياتها الفكرية التى حددت من مبررات وامكانات هذا العقل ورغبته فى الاصلاح والتغيير. ومن هذا المنطلق، حرص "ماركيوز" فى ضوء توجهاته الفكرية للنظرية النقدية التى تعتمد على النقد الواقعى، أن يركز على أهمية دور العقل فى تطور المجتمعات البشرية الحديثة، واكتشاف البذائل الفعلية للمجتمعات الغربية ذات القوى المحافظة التى قيدت الحرية وكرست العديد من المظاهر لإفساد قدرات وامكانات العقل الانسانى. ومن ثم، تركز النظرية النقدية على نقد النظام الاجتماعى والسياسى القائم واستيعاب طبيعة هذا الواقع ومتطلباته، وذلك عن طريق الاعتماد على العقل والحرية كوسيلة لتحرير البشرية.

كما حرص "ماركيوز" على تحليل النظام الرأسمالى ونقد الجمع الصناعى الغربى عامة، لأنه يتنازع بين أنماط متعددة من التناقضات وخاصة التناقض الداخلى بين التقدم التكنولوجى وبين الواقع الاجتماعى. فالمجتمع الرأسمالى الغربى، بالرغم من تقدمه الفنى والتكنولوجى، إلا أنه لم يستطع أن

يوظف هذا النظام فى ضمان حرية الانسان بل سلبه حريته. والسبب يرجع الى أن النظام الرأسمالى ذاته يحرص على ذلك خلال ما أسماه "ماركيوز" بالبعد الواحد فى التفكير والسلوك، ويغرس فيه الكثير من السمات الشخصية، التى تروم الانسان وسلوكه وتجعله فى طاعة مستمرة، عن طريق عمليات التنشئة الاجتماعية والإعلامية التى تقوم بها مؤسسات التربية والتعليم ووسائل الإتصال والإعلام، تلك المؤسسات الرأسمالية سواء أكانت تربية أو إعلامية أو اقتصادية أو أدبية لم تترك للانسان أدنى أنواع من حرية التفكير، وتبنى وجهات نظر معارضة للنظام الرأسمالى.

وإن كان "ماركيوز" يطرح البديل لمقاومة هذا النظام حسب ما أسماه بالرفض أو السلب، أى إتخاذ الموقف السلبي من هذا النظام وذلك من أجل تغييره. وفى الواقع، حرص "ماركيوز" على عملية الرفض من قبل الانسان الغربى، هل يكون هذا الرفض رفضاً فكرياً لم رفضاً ثورياً؟. فلقد أكد على رفض النظام عن طريق مستويين أولاً: المستوى الفكرى الذى يتمثل فى رفض أساليب التفكير القائمة ونقد الواقع بصورة مستمرة، عن طريق استخدام الأساليب الفكرية لدى الانسان. وعموماً يرى الكثير من المحللين لأراء "ماركيوز" فى هذا الصدد، أنه أكد على أهمية العنف الثورى، وهذا ماظهر فى كتابه، "الانسان ذو البعد الواحد"، وضرورة تبنى أساليب الاحتجاج الثورى، وتجميع كافة الطبقات المقهورة والفئات والأقليات المستغلة والمضطهدة فى المجتمع لتبنى هذه الأساليب، واتخاذ موقفاً مغايراً لتحسين أحوالهم وغاياتهم نحو الأفضل، وهذا ما عززه "ماركيوز" فى عدد من المقالات السياسية، التى صدرت فى النصف الثانى من الستينات بعنوان "نقد التسامح التام"، ورأى أن التسامح الذى تدعيه النظم الديمقراطية مجرد نوع من الخداع. فالسماح للأقليات والتعبير عن رأبها مجرد خدعة، لأن الوظيفة الكافية للخداع هو السيطرة على هذه الأقليات واحكام السيطرة عليها. ومن ثم، رأى "ماركيوز" أن مبدأ التسامح، يركز أساساً على السيطرة على كافة وجميع الفئات والطبقات الاجتماعية.

فى نفس الوقت، حرص "ماركيوز" ليحدد معالم الاستراتيجية المقترحة لتحرير الانسان فى المجتمع الحديث، ولاسيما بعد أن تبنى "ماركيوز" طريقة العنف الثورى، ضد المجتمعات الغربية الرأسمالية والإستراكية المتقدمة (الإتحاد السوفييتى سابقا). وخاصة أن هذه المجتمعات قد نجحت بالفعل فى جعل الغالبية العظمى من أفراد شعوبها ومجتمعاتها تتدرج تحت هذا النظام لتتكيف مع أساليبه وأهدافه، كما أصبحت طبيعة الحاجات الأساسية للشعوب متماثلة ومتشابهة دون جماعات الأقلية الصغيرة. ولكن حسب رأى "ماركيوز" أن هذه الأقلية هى الوحيدة القادرة على ادراك حاجاتها الحقيقية ويكشف وعيها عن تناقض النظام القائم بالفعل. ومن ثم، فإن الأغلبية من السكان غير قادرة على الإعلان عن مطالبها وحاجاتها الحقيقية. ولذا، يجب أن تتولى الأقلية مسئولية تجاه الأكثرية المغلوبة على أمرها. وبالطبع فإن هذه الأغلبية لاتمثل الطبقة العاملة التى أصبحت غير قادرة على تحطيم نظم الإنتاج وعلاقاته وإعادة تشكيله من جديد. وهكذا لقد عزل "ماركيوز" الدور التاريخى للطبقة العاملة لفشلها فى تحقيق العنف الثورى، وأكد أن الفئات الاجتماعية الأخرى مثل الأقليات، والطلبة، والزنوج، وجبهات التحرير ضد السلم والاستعمار والاستغلال بأنواعه وغيرها من الطبقات الأخرى، يمكن أن تتحد ضد عدوها الأوحده المتمثل فى المجتمعات المتقدمة وأنظمتها بالرغم من أن هذه الفئات تختلف جذورها وانتماءاتها الطبقيّة والعرقية.

وعموما، تكشف آراء "ماركيوز" السابقة عن وجود ثلاث عناصر أساسية تعكس آراؤه السياسية والأيدولوجية ورويته للنظام الاجتماعى والسياسى الغربى وهى:

أولا: تخليه عن الدور الاجتماعى والتاريخى للطبقة العاملة بالمفهوم الماركسى، بسبب وضع هذه الطبقة الجديدة فى المجتمعات الغربية، حيث استطاعت هذه المجتمعات على احتواء هذه الطبقة الجديدة وجعلها تتخلى عن دورها التاريخى. ولذا أكد "ماركيوز" على أهمية الفئات الاجتماعية الجديدة طبقا للقيام بالثورة الشاملة.



ثانيا: ركز "ماركيوز" في تحليلاته أن التحرير لا يشمل تحرير المجتمعات الغربية الصناعية الحديثة فقط، بقدر ما يجب أن يشمل جميع أنحاء العالم بما فيها مجتمعات العالم الثالث، وضرورة حث القوة الثورية بها لاتخاذ دور إيجابي في الثورة.

ثالثا: حرص "ماركيوز" للتأكيد على العلاقة القوية بين الصراع البنائي والصراع الفكري، لأن كل منهما يثرى الآخر ويشير مجالات جديدة، فالفكر النقدي يطرح أمام الحركات الاجتماعية تفسيرات حقيقية لواقع البناء الاجتماعي الفعلي. والحركة الاجتماعية تستطيع أن تقدم للفكر النقدي، أنماط متعددة من الصراع والممارسة السياسية، التي تجعله يتقدم بفهم أعمق للبناء الاجتماعي. وبالتالي إن الجدل المستمر بينهما يجعل الصراع بينهما وبين النظم والبناءات والفكر القديم أمرا محتوما ويؤدي إلى التغيير الشامل.

#### ٤- "قروم" والدراسات السوسيو-سيكولوجية.

تشكل اهتمامات رولد مدرسة فرانكفورت بين علم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والفلسفة والأدب والفن وعلم النفس، وغير ذلك من اهتمامات متعددة ركز عليها هؤلاء الرولد، في بلورة آرائهم والتي جاءت ممثلة في النظرية النقدية للمجتمع، والتي تعتبر من أحد الدعائم الأساسية للفكر النقدي الحديث، وأسهمت كثيرا في تطور النظرية السوسولوجية المعاصرة، بالإضافة إلى تصنيفها كأحد النظريات السوسولوجية التقليدية ولاسيما تأسيسها للحركة النقدية الواقعية. كما تكشف عملية التطور التاريخي لنشأة هذه المدرسة، من خلال تتبع جذورها الأولى لدى مجموعة من الشبان الهيجليين، الذين ظهرت قبل منتصف القرن التاسع عشر، حينما كان "ماركس" أحد هؤلاء الشبان ثم انشق عنهم بعد ذلك. إلا أننا نلاحظ ظهور عدد من العلماء البارزين من أمثال "هوركهاهمر"، و"ماركيوز"، و"أدورنو"، و"قروم"، يركزون على أهمية العنصر الذاتي (الفردى) في النشاط الواقعي، ويعطون أهمية لدراسة البناء الثقافي والفوقي وأهمية استقلاله، وذلك عن طريق تبني أساليب نقد النقد من أجل إبراز الدور المستقل الذي يلعبه الوعي الانساني.



والواقع، إن خلال تطور النظرية النقدية في مرحلتها الثانية شكلت مجموعة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت خاصة خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، تلك الظروف التي اختلفت عما كانت عليه في منتصف القرن التاسع عشر، وارتبطت بالأفكار الهيجلية وأيضاً الماركسية في النصف الأخير من القرن ذاته. ومن أهمها قيام الثورة الروسية وظهور كل من الفاشية والنازية مما جعل الكثير من رواد مدرسة فرانكفورت يستجيبون لهذه التغيرات، ويهتمون بدراسة الظروف الاجتماعية والطبقات العمالية، التي فقدت مكانتها الثورية بسبب مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية سواء في روسيا أو في ألمانيا أو غيرها من الدول الأخرى. وهذا ما جعل رواد النظرية النقدية يسعون لبناء أفكارهم في إطار موقف نقدهم للنزعة الماركسية والوضعية في نفس الوقت. وهذا ما تمثل من خلال عرضنا لهجوم "ماركيوز" و"هوركايمر" و"أورنو" على هذه النزعات بهدف طرح أفكار جديدة جمعت بين علم الاجتماع والتحليل السوسيولوجي والفلسفي والتاريخي وأيضاً تبنى المدخل أو الاتجاهات السوسيوسيكولوجية التي جاءت في علم النفس وخاصة علم النفس الاجتماعي، وهذا ما تمثل في تحليلات "إريك فروم" E. Fromm.

وفي الواقع لقد جاءت تحليلات "فروم" السوسيوسيكولوجية لتحلل الآثار الناجمة عن نظام الفاشية، وطرح ذلك في مقال مميز له عام ١٩٣٢ (منهج ومهمة علم النفس التحليلي)، أوضح فيه كيفية استخدام هذه المنهج في إثراء الدراسات النقدية، وفهم النزعات المتطرفة مثل الماركسية والوضعية والرأسمالية، من وجهة نظر النظرية النقدية وخاصة التحليل السيكولوجي لهذه النزعات أو النظريات وفهمها الخاطئ للطبيعة الإنسانية والرعى البشري. وأيضاً توضيح العلاقة المتبادلة بين الأساس الاقتصادي والاجتماعي وبنائه الفوقي الأيديولوجي. كما تتلعب إسهامات "فروم"، واهتمامه بمدخل علم النفس الاجتماعي، وطرح أفكاره في مجموعة من المقالات، التي ركز فيها على تطور الشخصية في المجتمعات الحديثة، وكيفية تأثير هذه الشخصية بالنزعات السياسية والأيديولوجية المتسلطة، كما ظهر ذلك في النظام السياسي وتأثيره

السلبى على الانسان الحديث. ولقد استخدم "فروم" مفاهيم متعددة مثل الطابع الاجتماعى، الذى احتل مكانة كبيرة بين العلماء والمفكرين، الذين تبناوا المداخل السوسولوجية والسيكولوجية فى دراسة للشخصية الفردية والقومية من منظور نقدى متطور.

كما جاءت اسهامات "فروم" فى هذا المجال فى إحدى مؤلفاته المميزة وهو (الخوف من الحرية) The Fear of Freedom، الذى نشر مع بداية الأربعينات من القرن الماضى (العشرين)، ليوضح فيه كيفية الاستفادة من الاتجاه الاجتماعى النقدى The Critical Social Approach. حيث حدد فيه "فروم"، صعوبة التركيز على العوامل الاجتماعية ودورها فى المجتمع الحديث، واعتبارها عوامل سيكولوجية بقدر ما هى ظروف موضوعية. كما أن القوى السيكولوجية لها دور كبير فى تشكيل المجتمع الحديث ولكن لابد من تفسيرها فى ضوء الواقع التاريخى. كما يجب الاهتمام بدراسة النسق الفكرى الذى له دور وتلغى وفعال، ولكن لابد أن يفهم فى إطار البناء العلم للجماعة الإنسانية. وبإيجاز، فإن الظروف الاجتماعية تستطيع أن تؤثر وتشكل البناء الأيديولوجى، ولكن يتطلب ذلك مجموعة من الخصائص البيولوجية والسيكولوجية والثقافية للشخصية الفردية أو الطبيعية الإنسانية، التى تلعب جميعها دورا أساسيا فى التطور الاجتماعى والتاريخى. وعموما حرص "فروم" على إبراز الدور الأساسى للعوامل أو الظروف الاقتصادية، والسيكولوجية والأيديولوجية فى عمليات التطور والتغير، ولكن لابد أن نفهم هذه العوامل فى إطار من الاستقلالية برغم التداخل فى العلاقات فيما بينها. وهذا ما حدده "فروم" عندما تناول قضية التنمية الاقتصادية واحتياجها لمجموعة من العوامل الموضوعية والمتمثلة فى قوى الإنتاج والتكنولوجيا والعوامل الجغرافية، كما أن التنمية - بصورة عامة - تخضع لمجموعة من القوانين التى تهدف الى حدوثها وتحقيقها بصورة واقعية.

## (٥) "هابرماس" وتحديث مدرسة فرانكفورت.

يعتبر "بورجان هابرماس" آخر رواد مدرسة فرانكفورت الذى ولد عام ١٩٢٩، وانضم بأفكاره الى هذه المدرسة ليعكس لنا آخر التطورات التى تنتمى الى فكر النظرية النقدية للمجتمع، ولا يزال يثرى بالعديد من المؤلفات والتحليلات التى شغلت المهتمين عموما بقضايا الثقافة والمعرفة عامة، وعلماء الاجتماع ولاسيما المنشغلين بالقضايا النظرية للسوسيولوجية ومشكلات المجتمع الصناعى وما بعد الصناعى خاصة. وفى الواقع، لقد تنوعت مؤلفات "هابرماس" ولاسيما خلال الربع الأخير من القرن العشرين، وأثرت اسهامات النظرية النقدية، خاصة أنها حاولت أن تعيد صياغة أفكارها وبلورتها مرة أخرى تجاه المجتمع الحديث ومشكلاته والتى تغيرت بالطبع خلال السنوات الأخيرة عن العقود الأولى من القرن الحالى (العشرين). وعموما، منطرح حاليا أفكار "هابرماس" واسهاماته وذلك بصورة موجزة كما يلي:

### أولا: "هابرماس" والنظرية النقدية.

بعد أن درس "هابرماس" سنوات عديدة على أيدي "أدورنو"، تعرف بوضوح على كتابات رواد النظرية النقدية التى جمعت بين النظرية التشاركية وبكائها على الماضى الحزين، والتحليلات المتفائلة التى حاولت أن تعيد صياغة للماركسية وتركز على طرح بدائل عن الطبقات العمالية البروليتاريا فى تركيزها على جماعة الأقليات والمستغلين فى المجتمع الحديث لاستخدام العنف الثورى للإصلاح والتطور. نجد، "هابرماس" وكتاباته تتأرجح بين التقلول والتشؤم، محاولا أن يعيد صياغة النظرية النقدية فى إطار دراسته لأشكال المعرفة والثقافة واعتبارها العامل الرئيسى للتطور الاجتماعى وبدلا عن العنف، أو العنف الثورى بصورة عامة. وحلول "هابرماس"، أن يوجه فى أعماله المبكرة لعملية تطور النظرية النقدية، والتى تصور أنها ضرورية للتطور البشرى، كما أنها تفسر من خلال مفهوم (المصالح المعرفية) لأنها دائما تطور المعرفة بغرض تحقيق هدف محدد، ويعتبر هذا الهدف بمثابة الأساس لفعلى لمصلحتنا فى المعرفة ذاتها.

ويؤكد "هابرماس" أن المصالح جميعها مشتركة بين البشر، لأنها توجد لدى جميع أفراد المجتمع الانساني، وأن العمل ليس وحده الذى يميز البشر عن الحيوان، ولكننا قادرين على استخدام اللغة كوسيلة للتواصل بيننا. فكل من العمل والتواصل اللذان ينتجان شكلين مختلفين من أشكال المعرفة. حيث يؤدي أولا العمل الى ظهور المصلحة التقنية، والتي تتمثل فى السيطرة على العالم الخارجى الطبيعى واستغلالنا لمصلحتنا مثل استغلال الكهرباء، واعتبارها مصلحة مشتركة نهم الجميع، كما تؤدي هذه المصلحة (التقنية) أو التكنولوجية الى تطوير العلوم التحليلية والتجريبية، التى اهتم بها علماء العلوم الوضعية. ولكنها (المصلحة) تظهر من خلال رغبة الانسان وقدراته فيها وليس كسيطرة عليه، كما جاء فى فكر رواد العلوم الوضعية. وبإيجاز، فإن المصلحة التقنية متأصلة فى العمل وتتطور من خلاله، وإن الفعل البشرى هو القادر على اكتساب مدى أولوية المعارف الأخرى، وتهيمن على الطبيعة والعالم الخارجى. من ناحية أخرى، تعتبر اللغة هى الوسيلة التى عن طريقها يغير البشر بيئتهم ومجتمعاتهم، والتي تؤدي بدورها الى ظهور مايسمى (بالمصلحة العملية)، والتي تقوم بدورها بظهور العلوم التأويلية (التفسيرية)، وتظهر هذه المصلحة من خلال عمليات التفاعل البشرى وتأويل أفعالنا، التى تتم داخل التنظيمات الاجتماعية.

وفى نفس الوقت، نظر "هابرماس" الى هذه المصلحة الوسيطة التى تقوم بها التنظيمات والمؤسسات الاجتماعية، لأنها تقوم بخداع وتضليل البشر بصورة منظمة ويظهر مالمعاه بالتشويه الأيديولوجى. ومن ثم يسعى بعد ذلك "هابرماس" الى التوصل الى نتيجة مؤداها: بأن المصلحة العملية هى التى تؤدي الى ظهور النوع الثالث من المصالح، وهى مصلحة (التحرر) المرتبطة أيضا باللغة، وتسعى لتخليص التفاعل والتواصل من العناصر التى تشوهها. وعموما تؤدي مصلحة التحرر أو العنق الى ظهور العلوم النقدية التى تعتمد أيضا على التحليل السيكولوجى، وتساعد على استخدام التفكير والوعى الذاتى فى تعقل الأدوار والأشياء وتجعل التفاعل الاجتماعى تفاعلا مقبولا اجتماعيا. وبإيجاز، تهدف العلوم النقدية الى تحقيق مصلحة التحرر والكشف عن التشويه

الذى يرتبط بالتفاعل والتواصل ومحاولة اصلاحه وتطويره.

كما سعى "هابرماس" ولاسيما فى مؤلفاته الأخيرة عن "نظرية الفعل الاتصالي" The Theory of Communcative Action الذى نشر عام ١٩٨٧، الى طرح مأسماه بفلسفة اللغة من أجل التوصل الى تطوير الأساس النظرى، الذى تقوم عليه النظرية النقدية، عن طريق ثلاث مراحل مميزة وهى:

أولاً: الدعوة الى التحرر عن طريق وجود فلسفة الوعى.

ثانياً: لابد أن يقوم التواصل والتفاعل بين البشر على أساس عقلانى.

ثالثاً: تتجسد العقلانية فى الدقة، وتستلزم وجود نظام اجتماعى وديموقراطى، ويشمل الجميع ولايهدف الى الهيمنة بقدر مايقوم على أسس من التواصل والتفاهم.

وعموماً، يمكن القول بأن النظرية النقدية عند "هابرماس"، ماهى إلا نتاج للفعل الانسانى وتهدف الى تحقيق غايات هذا الفعل بصورة مسؤرة، وهى أيضاً أداة لتحقيق مزيداً من الحرية، والتحرر لدى البشر، وبالطبع تتطور بصورة مرحلية وعلى مستويات متباينة. وبهذا نلاحظ أن "هابرماس" سعى لجعل المعرفة شيئاً مرتبطاً بالتحرر والحرية والبعد عن الهيمنة والاستعباد، والذى ظهر فى أفكار "هوركهايمر" و"أدورنو" وأنصار الاتجاهات التى تعرف مابعد البنيوية، كما جاءت أفكار "هابرماس" لتطور أعمال "ماركس" الأولى وخاصة التى ترتبط بالعمل وتركز على اللغة والتواصل كأساس لتطور البشرية.

ثانياً: "هابرماس" والتطور البشرى.

لاحظنا أن "هابرماس" سعى لنقد الماركسية، ولاسيما تركيزها على العمل لفهم التفاعل الانسانى وتطور المجتمع، بالرغم من اعتراف "هابرماس"

بالعمل وقيمته، إلا أنه لا يعتبر كافياً لتحديد وضع البشر حتى ولو كان هذا العمل عملاً اجتماعياً منظماً، كما حدده "ماركس" في نظريته المعروفة عن قيمة العمل والمنفعة. ولكن أضاف "هابرماس" اللغة والتواصل، باعتبارهما عاملان أساسيان لتفسير الواقع الاجتماعي ودراسة المجتمعات البشرية ومعرفة كيفية تطورها. حيث حلل بالفعل طبيعة واقع المجتمعات الرأسمالية، وتوصل إلى أن النظام الاقتصادي لم يسيطر على هذه المجتمعات إلا في مرحلة الرأسمالية المبكرة، ومن ثم، يجب أن نتوصل إلى وجود عامل آخر أو مستوى مختلف من مستويات النظام الاجتماعي، التي تؤدي إلى تطور هذا النظام وفهمه بصورة واقعية، حيث تصور "هابرماس"، إلى أن كل نمط من أنماط المجتمع يرتبط بنوع معين من النظم والمؤسسات. فالمؤسسات الاقتصادية، كانت المؤسسات المسيطرة على مراحل الرأسمالية الأولى، ومؤسسات الدولة في مرحلتها المتأخرة، والقرابة كما هو في المجتمعات القبلية. وعموماً، يجب أن ننظر إلى المؤسسات، باعتبارها المكان الوحيد الذي تتجسد فيه القيم والمعايير الثقافية والتي تتطور بصورة تدريجية.

وعندما يخلص "هابرماس" إلى أن عملية التطور البشري ترتبط بالنظام الأيديولوجي وليس بالنظام الاقتصادي، كما تأثر "هابرماس" بأفكار كل من "ماكس فيبر" عن العقلانية وتطورها التاريخي وتأثيرها على تطور المجتمعات البشرية، ونوعية المؤسسات والتنظيمات التي ترتبط بها، كما أنه تأثر بتحليلات "بارسونز" أيضاً في تصوراتته حول النسق أو للنظام الاجتماعي، ونوعية المؤسسات التي تظهر خلال مراحل التطور التدريجي. كما يستخدم العديد من التحليلات السيكولوجية (الفردية) حول دور المؤسسات الاجتماعية، وجودها ليس فقط من أجل النشاط الاقتصادي وتسهيله، بقدر ما تلعب دوراً أساسياً في كبت الشهوات التي تجعل الحياة الاجتماعية ذاتها أمراً مستحيلاً. في نفس الوقت حرص "هابرماس" لتأكيد آراء "ماركيوز"، بأن البحث بحثاً ضرورياً لمعرفة مدى التباين بين المجتمعات والطبقات. رتب ميرسر إلى سحابة والبقاء وأيضا لتشويه عمليات التواصل والتفاعل. وعموماً تبلغ المجتمعات أعلى مراحل تطورها، عندما تصل إلى

وجود نظام اجتماعى يكون أقل كبتاً وتشويهاً لعمليات التفاعل والتواصل بين أفراد وطبقاته.

وعلى أية حال، إن "هابرماس" سعى لتفسير ودراسة عملية التطور البشرى من خلال ثلاث مجالات أساسية هي: أولاً، مجال زيادة استقلالية الشخصية الحديثة، وثانياً، الاهتمام بالأحكام الأخلاقية وقدراتها على تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع وثالثاً، تطور الإطار العام للنظم الأخلاقية والقانونية. ومن ثم، فإن "هابرماس"، قد نظر الى تطور المجتمعات الإنسانية من عدة زوايا متباينة، ومحاولاً أن يطور النظرية النقدية، ورؤيتها العامة فى دراسة هذا التطور وكيفية حدوثه بصورة مرحلية و أن يتبنى نظريات الفعل الاجتماعى التى ترجع الى بعض رواد النظرية النقدية الكلاسيكية. وبالطبع الى عالم الاجتماع الألماني "ماكس فيبر" وهذا ما جعله أيضاً يركز على المعايير والقيم الثقافية والأحكام الأخلاقية التى يجب فهمها ودراستها جيداً، ولا سيما عند فهمنا لعملية التغير الاجتماعى الشامل. وبإيجاز، لقد حرص "هابرماس" على أن يطور النظرية النقدية، واعتبار أن عملية التغير الاجتماعى وأساسه يكمن فى الهدف الأساسى الذى يجب أن يطور عملية التطور الاجتماعى ذاتها، وذلك فى إطار وجود مجتمع عقلانى يقوم على المساواة ويعتمد على اللغة والتفاعل والتفاهم والتراكم بصورة عامة. وبالطبع، إن تحليلات "هابرماس" تتماثل نسبياً مع كل من "ماكس فيبر" و"تالكوت بارمسونز" فى تركيزها على أهمية إضفاء المستوى الثقافى على غيره من المستويات الأخرى من أجل تطوير المجتمع الحديث بصورة عامة.

#### ثالثاً: "هابرماس" والنظام الرأسمالى الحديث.

سعى "هابرماس" لتحديث النظرية النقدية وتطويرها من أجل، ومن أجل الواقع الاجتماعى، الذى تغير بصورة ملحوظة فى النصف الأخير من القرن الماضى (العشرين) بالمقارنة عما كان عليه هذا الواقع والحياة الاجتماعية الحديثة خلال النصف الأول من ذات القرن. علاوة على ذلك، تعكس طبيعة الحياة الاجتماعية وعمليات التطور الاجتماعى والاقتصادى الذى ظهر فى



أوروبا الغربية والولايات المتحدة وغيرها من المجتمعات الرأسمالية الحديثة مظاهر مختلفة ومتباينة، عن مجموع النسق الفكري الذي سعت إليه النظرية النقدية، خلال وصفها لواقع هذه المجتمعات خلال فترة النفي لرواد مدرسة فرانكفورت في الولايات المتحدة أو الدول الأوروبية الأخرى. فلقد ازدهرت النظرية النقدية رغم الضرر بالرغم من مجموعة التناقضات التي توجد فيها وطوعت العديد من الطبقات، وخاصة الطبقات العمالية التي إندمجت بالفعل داخل نظم ومؤسسات الرأسمالية المتعددة، وأصبحت جزء من كيانه واختلف دورها عن النظرة الماركسية التقليدية التي تبنتها الكتابات الأولى لمدرسة فرانكفورت، وإن كانت اختلفت تلك النظرة، عند الرعي الثاني لرواد نفس المدرسة، التي رأت أن الطبقة العاملة أصبحت لا قيمة لها في اجراء للعنف الثوري ومحاولتها لتغيير النظام الاجتماعي القائم.

وهذا بالفعل ما انعكس على كتابات "هابرماس" خلال عقد الستينات والسبعينات من القرن الماضي، سواء عند اهتمامه بدراسة الدور الوظيفي للطبقات الاجتماعية، أو تقييم النظام الرأسمالي الحديث ككل. حيث أكد أن الرأسمالية كنظام اجتماعي تمثل مرحلة من مراحل التطور الذي لا بد منه، وهي بمثابة نسق اجتماعي وليس شراً أبدياً، ولكن إذا انحرف هذا النظام عن أهدافه فسيؤدي إلى حدوث كارثة بشرية. وحاول "هابرماس"، أن يناقش المراحل التطورية للنظام الرأسمالي وعلاقتها بخلق نوع من الحرية والوعي الجماهيري والرأي العام والديموقراطية، إلا أنها في نفس الوقت أعطت امتيازات طبقية للأقلية الرأسمالية، وهذا ما حدث خلال المراحل الأولى والمبكرة للنظام الرأسمالي. أما للرأسمالية الحديثة، فهي تمثل مرحلة رأسمالية الدولة، التي تهيمن على الاقتصاد والمجالات الأخرى للحياة الاجتماعية والشئون العامة، وأصبحت مناقشة طبيعة الحرية والديموقراطية مجال اختصاص للمختصين والخبراء، والذين يستخدمون في أعمالهم العقلانية والمنهجية. اعتبرت الحرية والديموقراطية مرتبطة بالمشكلات التقنية في المجتمع الرأسمالي.



فى نفس الوقت، حرص "هابرماس" على توضيح مرحلة الرأسمالية الحديثة (رأسمالية الدولة)، التى تعتمد على العقلانية، حتى ظهر نوع من (اليوتوبيا السلبية)، أى النظام الرأسمالى المهيمن عليه بواسطة الدولة بحيث جعل من الانسان غير قادراً على التفكير فى وجود نظم آخر بديل، يحقق له سعادته أكثر من النظام الذى يعيش فيه. ولقد وصلت مظاهر العقلانية فى مجالات متعددة من مجالات صنع القرارات وتفويض التكنولوجيا والتقنية الحديثة مثل الكمبيوتر، باداء هذا الدور بدلاً من المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية. ومن ثم، أصبحت مناقشة القرارات الحاسمة للقضايا العامة والحياة اليومية للبشر، بعيدة تماماً عن مشاركة الأفراد والجماعات ذاتها. وبالطبع، إن هذا التفسير يرادف به تماماً نفس التفسير الذى توصل إليه "تالكوت بارسونز" T.Parsons، فى نظريته عن النسق الاجتماعى Social System، ورؤيته المرتبطة بالمؤسسات والتنظيمات الاجتماعية وهذا بالطبع ما أكدته عليه "ماكس فيبر" كثيراً.

من ناحية أخرى، سعى "هابرماس" ليطور نظريته عن الأزمات The Crisis، وحاول عن طريقها تتبع عمليات التطور التى حدثت فى المجتمعات الرأسمالية، وإن كان قد استخدم أيضاً العديد من المفاهيم السيكلوجية، مثل مفهوم (الكبت الضرورى) وعلاقته بدراسة عمليات تطور الرأسمالية، والتى حدد من خلالها أن المجتمعات الرأسمالية المتطورة هى التى لا يوجد بها كبت بشرى، إلا بمعدلات قليلة جداً. كما استعار فى نفس الوقت، بعض المفاهيم البنائية المحافظة المرتبطة بدراسة الانساق والتكامل والتجانس. وغير ذلك من الميكانيزمات التى تستخدم فى نظرية "بارسونز" عن الانساق الاجتماعية. وإن كان "هابرماس" حاول أن يمزج بين نظريته عن الأزمات وتفسيره لمرحلة التطور فى النظام الرأسمالى الحديث، وكيفية ارتباط أزمات معينة من الأنظمة لكل مرحلة تطورية لهذا النظام. وظهور الإدارة الاقتصادية هى التى أدت إلى حدوث الصراع بين أصحاب رأس المال والعمال، وهى أزمة جوهرية. وهذا جاءت عملية تدخل الدولة كنوع من الاستجابة لحل هذه الإدارة. ولكن مع زيادة تدخل الدولة، ظهرت أزمة أخرى، تسمى "أزمة العقلانية"، وهى أزمة

ترتبط بجوهر النظام الرأسمالي ذاته، حيث تدخل الدولة في عمليات إقتراض مبالغ مالية لتؤدي دورها، فظهرت "الأزمة المالية". ويخلص "هابرماس" في النهاية إلى أن مشكلة النظام الرأسمالي ترجع إلى ضعفه في إدارة إزمات العقلانية، وخاصة على المستوى السياسى أو النسق السياسى، ثم تنتقل الأزمة إلى النسق الاجتماعى، الثقافى، إذ تظهر أزمة من نوع جديد تسمى "بأزمة الدافعية"، فهى أزمة واقعية تسمى بأزمة التكامل الاجتماعى فى المجتمع الرأسمالى الحديث.

### مناقشة وتعقيب:

كشفت التحليلات السابقة لمدرسة "فرانكفورت" أو التى سميت بمسميات عدة مثل النظرية النقدية أو النظرية النقدية للمجتمع، عن طبيعة النظريات السوسيولوجية وكيفية تطورها، منذ أن ظهرت تحليلات "أوجست كونت" وما يعرف بالنظرية الوضعية التى تطورت بعد ذلك لتأخذ ملامح جديدة شكلت على أثرها نوعية الأفكار والقضايا التى تمثلت بعد ذلك فى النظريات السوسيولوجية البنائية الوظيفية الكلاسيكية. ولقد تطورت أيضاً النظرية السوسيولوجية، خاصة بعد أن ظهرت أفكار "كارل ماركس"، ليضع نظريته المعروفة عن المادية التاريخية أو نظرية الصراع، ولتأخذ أبعاداً جديدة فى دراستها للمجتمع وتفسيرها للحياة الاجتماعية من منظور مختلف تماماً عن النظريات البنائية الوظيفية التقليدية. وجاء هذا الاختلاف نتيجة لتباين نوعية الإطار والاتجاه الفكرى والأيدىولوجى الذى انطلقت منه كل نظرية على حده، وحددت بالفعل مجموعة القضايا والنصيرات والآراء التى عبرت عنها كتابات أصحاب هذه النظريات فى تفسيرها لواقع المجتمعات البشرية وكيفية تطورها ونوعية المجتمعات الحديثة والمعاصرة.

وهذا بالفعل، ما ينطبق تماماً على مدرسة فرانكفورت أو النظرية النقدية، كما شاع استخدامها بين المهتمين بدراسة النظرية السوسيولوجية، فلم تأت هذه النظرية من فراغ، بقدر ما عكست مرحلة تاريخية معينة واستمدت جذورها الفكرية والأيدىولوجية من نوعية الإرهاصات الفكرية والنظرية التى

طرحت بالفعل قبل ظهور أفكار المدرسة الألمانية الشهيرة مدرسة فرانكفورت. فلقد جاءت أفكار روادها لتعبر صراحة عن تبني أنماط تحليلية نقدية جديدة، يجب استخدامها عند دراسة وتحليل واقع الحياة الاجتماعية الحديثة. ولأسميها، بعد أن صارت الأفكار والنظريات السوسيولوجية والاجتماعية التقليدية، غير مناسبة لطبيعة الواقع الاجتماعي المتغير والمضطرب خلال البدايات الأولى من القرن الماضي (العشرين). وهذا ما جعل رواد النظرية النقدية يحللون مجموعة النظريات والنزعات والاتجاهات السوسيولوجية والفلسفية والسياسية والأدبية والثقافية والاقتصادية، التي كانت موجودة بالفعل خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وحتى بداية العشرينات من القرن العشرين.

ولقد اتخذت النظرية النقدية موقفاً نقدياً من مجمل النظريات البنائية الوظيفية والتي تمثلت أولاً في النظرية الوضعية الغربية، وأيضاً نقد النظرية الماركسية، لعدم صلاحيتها لدراسة واقع المجتمعات الحديثة خلال النصف الأول من القرن الماضي. وهذا ما جعل رواد النظرية النقدية من الجيل الأول من أمثال "هوركهايمر"، و"ماركيوز"، و"أدورنو" وحتى الجيل الأخير من أمثال "هابرماس"، يعيدوا تحليل ودراسة التراث الفكري والسوسيولوجي والثقافي من أجل بلورة نظرية جديدة (النظرية النقدية) يمكن الاستعانة بها في دراسة تطور المجتمع البشري، وفهم الواقع الاجتماعي المعاصر بصورة أكثر فهماً وتحليلاً من أجل تطوير هذا الواقع، وجعله أكثر ملاءمة لحياة الأفراد والمجتمعات، ويقوم على أسس من المساواة والحرية واشباع الذات الفردية والجمعية، والتطلع بصورة عامة لحياة أكثر سعادة ورفاهية في المراحل المستقبلية.

في نفس الوقت، لقد مرت النشأة التطورية للنظرية النقدية بعدة مراحل سواء خلال وجودها في ألمانيا، أو مرحلة للتأسيس، حتى مرحلة الهجرة إلى الدول الأوروبية والولايات المتحدة، أو مرحلة للنفي، ثم مرحلة العودة إلى ألمانيا مرة أخرى لتطور من أفكارها وتصوراتها العامة وطرحها العديد من الأطر النظرية والفكرية من ناحية، واستخدامها الأساليب المنهجية والبحثية

الأمبيريقية (الميدانية) من ناحية أخرى. ولتطرح قواعد جديدة للنظرية النقدية بصورة عامة، وإلى قيام علم اجتماع بصورة خاصة يقوم بالدور الرئيسى فى دراسة الواقع الاجتماعى المتغير، وليسهم فى دراسة وتحليل هذا الواقع على أسس علمية، تجعل منه علماً متميزاً عن بقية العلوم الاجتماعية الأخرى. وإن كانت آراء هذه المدرسة اهتمت أيضاً، بما يعرف بالمدخل المتعدد بين العلوم Inter Disciplinary Approach، لدراسة وفهم الواقع الاجتماعى والمجتمعات الحديثة. حيث ركزت أفكارها بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى وإيضاً مجموعة العلوم الثقافية مثل الأدب والفن والموسيقى، باعتبارها نوع من النشاط البشرى، الذى يعكس واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مع ضرورة الاستعانة بمنهجية العلوم الطبيعية لتطوير مناهج البحث العلمى وخاصة فى علم الاجتماع.

وهذا ماظهر بالفعل فى اسهامات رواد النظرية النقدية واهتمامهم بمناهج العلوم الاجتماعية، وتوجيه البحث الاجتماعى السوسيولوجى نحو الدراسات الأمبيريقية التجريبية، بصورة عامة، حتى يستطيع علماء هذه العلوم أن يبنوا أفكارهم على دراسة الواقع الفعلى، بهدف اصلاحه وتطويره بصورة كلية. وهذا ماحدث بالفعل ولاسيما بعد عودة "أدورنو" وزملائه من الولايات المتحدة الى ألمانيا. هذا بالإضافة الى أن نتائج مدرسة فرانكفورت جاءت أيضاً انعكاساً لتجربة روادها العلمية والمهنية الأكاديمية والدينية، حيث جاء معظم روادها من العلماء والمفكرين والفلاسفة اليهود، الذين عانوا خلال حكم الفاشية وخلال فترة الهجرة والنفى للكثير من الصعوبات المتعددة، التى ظهرت فى تحليلاتهم بصورة عامة محاولين تجسيد مشكلاتهم الشخصية والقومية، وبلورتها من أجل اصلاح النظم الاجتماعية السياسية المتطرفة، وعدم عودتها مرة أخرى، وهذا ماجاء فى دراساتهم حول الشخصية المتسلطة، والنظام الفاشى على سبيل المثال.

حقيقة، لقد أثرت هذه النظرية النقدية فى تطوير علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية والانسانية والثقافية، سواء على المستوى النظرى أو

المنهجى بصورة عامة. ولكن من الناحية الموضوعية لقد تعرضت هذه النظرية كغيرها من النظريات السوسيولوجية أو العلمية للعديد من الانتقادات التى وجهت إليها، ويمكن إيجازها كما يلى:

١- جاءت عملية انتقاد النظرية النقدية الى كل من النظريات السوسيولوجية البنائية الوظيفية (النظرية الوضعية) والنظرية الماركسية، كما لو كان هاتين النظريتين متحدتان أيديولوجياً وفكرياً ومجتمعياً، ونظرت الى كل منهما من الناحية النقدية وبعيداً عن معرفة الأساس الفكرى والأيدىولوجى الذى انطلقت منه كل نظرية على حده.

٢- عبرت آراء مدرسة فرانكفورت عن وجهات نظر روادها بصورة مجردة وسطحية فى كثير من الأحيان، وهذا ماظهر من خلال دراستها لواقع المجتمعات الغربية فقط، دون الأخذ فى الاعتبار طبيعة اختلاف البناءات والنظم الاجتماعية بمرور الوقت أو من الناحية التاريخية. وهذا ماجعل تصوراتهم لتطور المجتمعات البشرية مجالاً للشك والبعد عن الواقعية والصدق التاريخى.

٣- عكست تصورات النظرية النقدية النزعة الأمانية المثالية، التى وضعها مجموعة من العلماء الشبان (الهيكليين) خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وبالرغم من تحديد هذه النظرية إطارها التحليلى النقدى، إلا أن كثيراً من تصورات علمائها لم تتخل عن النظرية أو النزعة المثالية الخيالية، شأنها شأن أفكار "ماركس" السوسيولوجية فى الكثير من القضايا التى تناولها كل منهما. ولذا، جاءت أفكار المدرسة النقدية ذات طابع تأملى وفلسفى، كما ينطبق ذلك على أفكار الماركسية التى قامت بنقدها وتحليلها بصورة عامة.

٤- اتسمت أفكار النظرية النقدية باعتناقها النزعة أو الإطار النفاولى ثارة والتشاؤمى ثارة أخرى، وهذا ماجعلها تفقد مصداقيتها عند دراسة الواقع الاجتماعى وبنائه ونظمه، وجعل من الصعوبة الوصول الى القوانين العامة التى يمكن أن توصف بالتعميمات حول المشكلات أو القضايا التى قاموا

بدراستها وتحليلها فى المجتمع الحديث.

٥- لم تُطرح النظرية النقدية بديلاً واقعياً للنظام السياسى فى المجتمعات الرأسمالية خاصة، أو الشرقية الماركسية أيضاً، وهذا ما جعلها تتأرجح بين تبني الطبقات العاملة، أو العقل أو الثورة، والفئات المستغلة والمحرومة أو الأقليات ودورها القيادى، واعتبارها الأداة الفعلية التى يمكن عن طريقها اصلاح وتغيير النظام الاجتماعى القائم.

٦- لم تُوظف النظرية النقدية-أسلوب النقد- كطريقة للتفكير والتحديث والتطور بصورة عملية، أو جعلها تمارس النقد العملى، الذى يؤدى الى التغيير الاجتماعى وفهم الواقع فهماً كاملاً.

٧- جاءت تصورات النظرية النقدية حول إمكانية أو ضرورة عدم الفصل بين علم الاجتماع والفن، على سبيل المثال، شيئاً مبالغاً فيه وغير واقعى، وهذا ما يفتقر رؤية هذه النظرية لطابع الموضوعية، والأسس العلمية والمنهجية التى يجب أخذها فى الاعتبار، عند التمييز بين طبيعة علم الاجتماع كعلم وبين الفن كنتاج انسانى فقط.

٨- طرحت النظرية النقدية كثيراً من تصوراتها بصورة فلسفية مجردة، والإزدواجية بين المواقف التى قامت بمناقشتها وتحليلها مثل قضايا الحرية، والديموقراطية والسيطرة والعقلانية. وكانت تأمل هذه النظرية الى خلق مجتمع انسانى يقوم على الوفاق والتكامل بين كل من الانسانية والمجتمع ولكن هذه الوفاق يعتبر مستحيلاً.

بايجاز، إن تلك الانتقادات التى عرضنا لها بصورة مختصرة جداً، إنما تعكس مدى عمق التراث العلمى والفكرى، الذى تركته فى مجال تطوير النظريات السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة فى نفس الوقت. كما شكلت آراء مدرسة فرانكفورت جانباً وراثاً علمياً هائلاً جاء فى فترة ندرت فيها الحركة النقدية الواقعية للمجتمعات الانسانية، والنظريات السوسيولوجية الأيديولوجية التى كانت مسيطرة على الواقع الاجتماعى خلال القرن التاسع عشر والقرن

العشرين. وحاولت بقدر الامكان أن تبني نظرية بديلة، تهدف بصورة أساسية لمحاولة فهم هذا الواقع الاجتماعي المتغير خلال النصف الأخير من القرن العشرين، ولاسيما بعد أن اختلفت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأيدولوجية بصورة ملحوظة، وذلك عن طريق تطور مستوى النظرية والمنهج في علم الاجتماع خاصة والعلوم الاجتماعية والفن والثقافة والأدب ككل.





## أهم المراجع المستخدمة:

### أولاً: المراجع العربية والمترجمة:

١. أكريب، للنظرية السوسيولوجية، ترجمة: محمد غلوم، عالم المعرفة، إبريل، ١٩٩٩.
٢. أحمد زايد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤.
٣. خضر زكريا، نظريات سوسيولوجية، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر، ١٩٩٨.
٤. زولتان تاد، النظرية النقدية ونقد المجتمع، ترجمة: على لبله، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥.
٥. السيد الحسيني، نحو نظرية إجتماعية نقدية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٥.
٦. عبدالله الرحمن، علم اجتماع التربية الحديث، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨.
٧. كراتسون، اليسار الجديد، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٣.
٨. محمد على محمد، تاريخ الفكر الاجتماعي، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤.
٩. ماركيز، العقل والثورة، ترجمة: فؤاد زكريا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٠.



### المراجع الأجنبية:

1. Fromm, E, The Crisis of Psychoanalysis, N.Y Holt & Winston, 1970.
2. Fromm, E, The Fear of Freedom, London: Routledge, 1942.
3. Jay m ,The Dialectical Imagination, Boston, Little Brown, 1973.
4. Slater,p, Origin and Significance of The Frankfurt School: A Marxist Pers Pective, London: Routledge, 1977.
5. Marcuse, H, "Philosophy and Critical Theory" Essay in Critical Theory ( Trans. by j.Shairo) London: Penguin, 1972.
6. Rex, J (ed) Approaches To Sociology, London: Routledge, 1974.
7. Habermas,J, Knowledge and Human Interest, London: Heine meam. 1972.
8. Habermas,J, Theory and Practice, London: Heinemann, 1974.
9. Horkheimer, M, Critical Theory (Trans. by Mathew) (et) N.Y, 1972.
- 10.Adorno, T, Contemporary German Sociology in Transactions of The Thivd World, German Sociology, vol. Washington 1956.
- 11.Adorno, T, (etal), The Authoritarin personality, N.Y: Norton, 1969.
- 12.Adorno, T. (etal) The Positive Dispute in German Sociology, Heinmann 1969.
- 13.Connerton,p. (ed) Critical Sociology, London: Pengain, 1976.
- 14.Agger, B, Western Marxism, Sant Monica, 1979.
- 15.Brumer, s & D.Kellner, Critical Theory and Society, London: Routledge, 1989.

16. Ray, L. (ed) Critical Sociology, Aldorst, 1990.
17. Wellmer, A, Critical Theory of Society, N.Y: Seabury press, 1974.
18. Held, D, Introduction To Critical Theory : Horkheimer To Hobermas, London,: Hutehison, 1980.



# فهرس

الصفحة

٥

مقدمة

## الفصل الأول

### العوامل الممهدة لظهور النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية

|    |                                                    |
|----|----------------------------------------------------|
| ١٦ | تمهيد                                              |
| ١٨ | (١) العوامل الاجتماعية وتطور النظرية السوسيولوجية: |
| ١٩ | ١- الثورات السياسية.                               |
| ٢١ | ٢- الثورة للصناعية (الرأسمالية).                   |
| ٢٣ | ٣- الثورة العلمية.                                 |
| ٢٤ | ٤- للتغير الاجتماعي والثقافي.                      |
| ٢٨ | (٢) العوامل الفكرية وتطور النظرية السوسيولوجية:    |
| ٣٠ | ١- حركة الاصلاح وظهور علم الاجتماع الفرنسي.        |
| ٣٧ | ٢- المثالية ونشأة علم الاجتماع الألماني.           |
| ٤٢ | ٣- النزعة التطورية وقيام علم الاجتماع البريطاني.   |
| ٤٥ | ٤- الإتجاه العلمي وتأسيس علم الاجتماع الإيطالي.    |
| ٤٨ | مناقشة وتعقيب.                                     |

## الفصل الثاني

### طبيعة النظرية السوسيولوجية وحدودها

|    |                                          |
|----|------------------------------------------|
| ٥٥ | تمهيد                                    |
| ٥٧ | (١) تعريف النظرية السوسيولوجية وخصائصها: |

- ٥٩ ١- تعريف النظرية.
- ٦١ ٢- خصائص النظرية.
- ٦٢ (٢) طبيعة النظرية السوسيولوجية وحدودها:
- ٦٤ ١- النظرية العلمية والنظرية السوسيولوجية.
- ٧٣ ٢- النظرية السوسيولوجية وتطور علم الاجتماع.
- ٧٦ ٣- حدود النظرية السوسيولوجية.
- ٨٢ مناقشة وتعقيب.

### الفصل الثالث

#### تقييم النظرية السوسيولوجية وتصنيفاتها

- ٨٩ تمهيد
- ٩٠ (١) تقييم النظرية السوسيولوجية.
- ٩٢ ١- المحاولات المبكرة لتقييم النظرية السوسيولوجية.
- ٩٩ ٢- المحاولات المعاصرة لتقييم النظرية السوسيولوجية.
- ١٠٣ (٢) تصنيف النظرية السوسيولوجية وأبعادها:
- ١٠٣ ١- التصنيف على أساس البعد التاريخي.
- ١٠٥ ٢- التصنيف على أساس البعد الجغرافي.
- ١٠٥ ٣- التصنيف على أساس المنهج.
- ١٠٦ ٤- التصنيف على أساس النماذج المستعارة.
- ١٠٧ ٥- التصنيف على أساس البعد الأصول الفلسفية.
- ١١٠ ٦- التصنيف على أساس البعد السوسيولوجي.
- ١١١ ٧- التصنيف على أساس البعد الأيديولوجي.
- ١١٢ مناقشة وتعقيب.

### الفصل الرابع

#### 'أوجست كونت' والنظرية الوضعية

|     |                                     |
|-----|-------------------------------------|
| ١١٩ | تمهيد                               |
| ١٢١ | (١) الاتجاه الأيديولوجي والفكري.    |
| ١٢٥ | (٢) المنهج العلمي والفلسفة الوضعية. |
| ١٢٩ | (٣) الأهداف العامة لعلم الاجتماع.   |
| ١٣٣ | (٤) التطور والتقدم الاجتماعي.       |
| ١٣٩ | (٥) تقسيم العمل والمجتمع الصناعي.   |
| ١٤٨ | (٦) النظم الاجتماعية والسياسية.     |
| ١٥٧ | مناقشة وتعليق.                      |

#### الفصل الخامس

##### "هربرت سبنسر" والنظرية العضوية

|     |                                         |
|-----|-----------------------------------------|
| ١٦٧ | تمهيد                                   |
| ١٦٩ | (١) الاتجاه الأيديولوجي والفكري.        |
| ١٧٣ | (٢) المنهج العلمي ودراسة التطور العضوي. |
| ١٨٠ | (٣) المجتمع الصناعي الحديث.             |
| ١٨٦ | (٤) السياسة الاجتماعية والحريات العامة. |
| ١٩٥ | مناقشة وتعليق.                          |

#### الفصل السادس

##### "إميل دوركايم" ونظرية التضامن الاجتماعي

|     |                                             |
|-----|---------------------------------------------|
| ٢٠٥ | تمهيد -                                     |
| ٢٠٧ | (١) الاتجاه الأيديولوجي والفكري.            |
| ٢١٢ | (٢) القضايا الأساسية لعلم الاجتماع.         |
| ٢١٧ | (٣) قواعد المنهج ودراسة الظواهر الاجتماعية. |
| ٢٢٠ | (٤) المجتمع وأنماط التضامن الاجتماعي.       |
| ٢٣٠ | (٥) النظم الاجتماعية والسياسية.             |



### الفصل السابع

#### "ماكس فيبر" ونظرية الفعل الاجتماعى

(١) الاتجاه الأيديولوجى والفكرى.

(٢) مقولة الفهم والمنهج العلمى.

(٣) علم الاجتماع ودراسة الفعل الاجتماعى.

(٤) الليبروقراطية والعقلانية.

(٥) الأخلاق البروتستانتية ونشأة الرأسمالية.

(٦) قضية التغير والتنظيم الاجتماعى.

### الفصل الثامن

#### "جورج سيمل" ونظرية التفاعل الاجتماعى

(١) الاتجاه الأيديولوجى والفكرى.

(٢) قضايا علم الاجتماع والمدرسة الشكلية.

(٣) المنهج العلمى والنماذج المثالية.

(٤) التفاعل الاجتماعى والثقافى.

(٥) فلسفة النفود.

### الفصل التاسع

#### "فنزريد باريتو" ونظرية التوازن الاجتماعى

(١) الاتجاه الفكرى والأيديولوجى.

|     |                                              |
|-----|----------------------------------------------|
| ٣٣٩ | (٢) علم الاجتماع ودراسة النسق الاجتماعى.     |
| ٣٤٣ | (٣) المنهج العلمى ودراسة الظواهر الاجتماعية. |
| ٣٥٣ | (٤) اللاتجانس والتمايز الاجتماعى.            |
| ٣٥٦ | (٥) مشكلة القيمة والمنفعة الاقتصادية.        |
| ٣٦٥ | (٦) الصفوة والتغير الاجتماعى.                |
| ٣٦٨ | مناقشة وتعقيب.                               |

### الفصل العاشر

#### كارل ماركس: نظرية الصراع

|     |                                                |
|-----|------------------------------------------------|
| ٣٧٩ | تمهيد                                          |
| ٣٨٠ | (١) الاتجاه الفكرى والأيدىولوجى.               |
| ٣٨٥ | (٢) علم الاجتماع ودراسة للمادية التاريخية.     |
| ٣٩٢ | (٣) المنهج التاريخى ودراسة الظواهر الاجتماعية. |
| ٣٩٨ | (٤) نظرية الصراع الطبقي.                       |
| ٤٠٣ | (٥) الدولة والبيروقراطية والأيدىولوجية.        |
| ٤٠٦ | (٦) نظرية القيمة والتطور الاقتصادى.            |
| ٤٠٨ | (٧) الرأسمالية وتطور الانتاج البشرى.           |
| ٤١٢ | مناقشة وتعقيب.                                 |

### الفصل الحادى عشر

#### مدرسة فرانكفورت ونشأة النظرية النقدية التقليدية

|     |                                             |
|-----|---------------------------------------------|
| ٤٢٣ | تمهيد                                       |
| ٤٢٤ | (١) الاتجاه الفكرى والأيدىولوجى.            |
| ٤٣١ | (٢) المراحل التطورية لنشأة النظرية النقدية. |
| ٤٣٦ | (٣) النظرية النقدية وعلم الاجتماع.          |
| ٤٤١ | (٤) القضايا الأساسية للنظرية النقدية:       |

|     |                                                |
|-----|------------------------------------------------|
| ٤٤٢ | ١- "هوكهايمر" والنظرية النقدية.                |
| ٤٤٦ | ٢- "الدورنو" والبحوث السوسيولوجية الأمبيريقية. |
| ٤٤٨ | ٣- "ماركيوز" والسياسة العقلانية.               |
| ٤٥٢ | ٤- "قروم" والدراسات السيكو - سوسيولوجية.       |
| ٤٥٥ | (٥) "هابرماس" وتحديث مدرسة فرانكفورت.          |
| ٤٦٢ | مناقشة وتعقيب.                                 |

